نفحات الولاية

شرح نهج البلاغة

شرح عصري جامع

لسماحة آية الله العظمى

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء السابع

من خطبة ١٨١ إلى ٢٠٠

دار جواد الأئمة

طبعة منقحة ومزيدة

www.haydarya.com

بسم الله الرحمن الرحیم

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي دام ظله

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

من خطبة ١٧١ الى ٢٠٠

الجزء السابع

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم/ ١١٥٤٠٩
التاريخ/ ٢٩/٦/٢٠١٢

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

دار جواد الأئمة (ع)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى

1432هـ - 2011 م

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

ت: 73 73 13 / 03 - 12 29 69 70 00961

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

١٨١

ومن كلام له عليه السلام

وقَدْ أَرْسَلَ رَجُلاً مِنْ أَصْحابِهِ، يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ، قَد هَمُّوا بِاللَّحاقِ بِالْخَوارِجِ، وكانُوا عَلى خَوْف مِنْهُ عليه السلام، فَلَمّا عادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قالَ لَهُ: «أأَمِنُوا فَقَطَنُوا[1]، أم جبنوا فَظَعَنُوا[2]؟» فَقالَ الرَّجُلُ: بَلْ ظَعَنُوا ياأَميرَالْمُؤمنينَ. فَقالَ عليه السلام:[3]

نظرة إلىٰ الخطبة

لابدّ من التعرف على سبب ذكر هذا الكلام الذي ورد في الخطبة بغية الوقوف على معناها.

إنّ رجلاً يُدعىٰ الخريت بن راشد أحد بني ناجيّة قد شهد مع علي عليه السلام صفين

---

١. «قطنوا» من مادة «قطون» على وزن «فنون» بمعنى الإقامة الإستوطان.

٢. «ظعنوا» من مادة «ظعن» على وزن «رهن» في مقابل قطون وبمعنى الرحيل والانتقال.

٣. سند الخطبة:

مع الإلتفات إلى اتصال هذه الخطبة بالخطبة ٤٤، فأورد صاحب المصادر أسنادها في ذيل الخطبة ٤٤ ويقول: «تضمّنت كتب السير قصّة بني ناجية هذه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا قبل أن تلد الرضى أمّه، منهم أبوجعفر الطبري في تاريخه المعروف في حوادث سنة ٣٨ هجري، وإبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب «الغارات»، والبلاذري في «أنساب الاشراف»، وكما رواه آخرون مثل ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وأبوالفرج الاصفهاني في «الأغاني» في شرح حال مثقلة بن هبيرة». (مصادر نهج البلاغة، ج١، ص٤٥١ و٤٥٢؛ ج٢، ص٤٤١).

فجاء بعد تحكيم الحكمين في ثلاثين من صحبه (وفي رواية الطبري ثلاثمائة) فقال: «وَاللهِ ياعَليُّ لا أُطيعُ أَمْرَكَ ولا أُصلّي خَلْفَكَ وإِنّي غداً مُفارِقُكَ».

فقال الإمامعليه السلام : «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ إذاً تَعْصِي رَبَّكَ وتَنْكِثُ عَهْدَكَ وَلا تَضُرُّ إلّا نَفْسَكَ»، «أَخبِرني لِمَ تَفْعَلْ ذلِكَ؟» قال: «لأَنَّكَ حَكَمْتَ فِي الكِتابِ وَضَعُفْتَ عَنِ الحَقِّ إذا جَدّ الجَدُّ فَأنا عَلَيكَ رادٌّ وَلَكُم جَميعاً مُباينٌ».

فقالعليه السلام : «وَيحَكَ هَلُمَّ إليّ أُدارِسُكَ وَأُناظِرُكَ فِي السُّنَنِ وأُفَاتِحُكَ أُموراً مِنَ الحَقِّ أنَا أعلَمُ بِها مِنْكَ فَلَعَلَّكَ تَعرِفُ ما أنْتَ الآنَ لَهُ مُنكِرٌ».

فقال الخريت: «فإنّي غادٍ عَلَيكَ غَداً».

فقالعليه السلام : «أُغدو وَلا يَستَهوِيَنَّكَ الشَّيطَانُ وَلا يَتَقَحَمَنَّ بِكَ رَأي السُّوء وَلا يَستَخِفَنَّكَ الجُهلاءُ الّذينِ لا يَعلَمُونَ، فَواللهِ إنِ استَنْصَحْتَنِي وَاستَرشَدتَنِي وَقَبِلْتَ مِنّي لأَهدِيَنَّكَ سَبِيلَ الرَّشادِ»[1].

فقرر هذا الرجل الجاهل الإلتحاق بقومه من الخوارج ليبتلي بذلك المصير الأسود، وإثر ذلك بعث الإمامعليه السلام أحد أصحابه خلف هذا الرجل علّه يتراجع عن موقفه، ولكن سرعان ما عاد مبعوث الإمامعليه السلام ليخبره بإلتحاقه وصحبه بالخوارج ومغادرته الكوفة.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٧٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٢٨ وقد ذكرنا شرحاً مسهباً بهذا الشأن في الخطبة ٤٤.

بُعْداً لَهُمْ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَقَلَّهُمْ، وهُوَ غداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ، ومُتَخَلٍّ عَنْهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ.

الشرح والتفسير

مصير المشككين الجهّال

كما مضى سابقاً كان الكلام من قبل فئة قليلة جاهلة ومتعصبة أشكلت على الإمام عليه السلام بسبب استجابته لتحكيم القرآن، والحال هذا وأمثاله ممّا كانوا قد مارسوا ضغوطهم على الإمام عليه السلام لقبول التحكيم، والأسوأ من ذلك وإثر اعتراضهم على الإمام عليه السلام الذي يمثل محور الهدى انشقّوا عنه وإلتحقوا بالخوارج محور الجهل والتعصب والضلال، ويشرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عوامل تعاسة هذه الفئة الضالّة بغية تجنّب الآخرين السقوط في هذا المستنقع فقال عليه السلام: «**بُعْداً**[1] **لَهُمْ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾!**».

كان هذا التعبير إشارة لما ورد في القرآن الكريم بشأن قوم ثمود إذ قال تعالى: ﴿أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[2] والذي كان لعنة لقوم شعيب الوثنيين، كما كان إشارة إلى الجهات المشتركة بين هؤلاء القوم الضالّين وقوم شعيب وقوم صالح،

---

١. «بُعداً» مفعول مطلق لفعل محذوف جاء للتوكيد وتقديره «أبعَدَهُم الله بُعداً».

٢. سورة هود، الآية ٩٥.

حيث كان هؤلاء أُناساً متكبرين ومغرورين وردت قصّتهم في عدّة سور من القرآن الكريم، ثم قال عليه السلام: «أَمَا لَو أُشْرِعَتِ[١] الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ[٢]، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفَلَّهُمْ[٣]، وهُو غَداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ، ومُتَخَلٍّ عَنْهُمْ».

يشير هذا الكلام في الواقع إلىٰ ما ورد مراراً في القرآن الكريم بخصوص الطغاة الغافلين الذين ما أن يركبوا السفينة وتغشاهم أمواج البحار الهادرة ويستشعروا بالخطر حتى تطرح عنهم حجب الغفلة ويتوجّهون إلىٰ الله، ولكن سرعان ما يعودون لتلك الغفلة إذا ما بلغوا ساحل النجاة[٤].

كما يشير أيضاً إلىٰ ما ورد كراراً في القرآن الكريم أنّ الشيطان[٥] وأئمّة الضلال[٦] يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم.

ثم قال عليه السلام: «فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ[٧] فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وجِمَاحِهِمْ[٨] فِي التِّيهِ».

إشارة إلىٰ أنّه نتيجة تلك اللجاجة التيه في الضلال والحيرة والإبتعاد عن الهدى وهذا المصير الأسود الذي يصنعه كلّ إنسان لجوج وجاهل، جدير بالذكر أنّه يستفاد من هذا الكلام وتلك المقدّمة التاريخية الواردة في سبب ذكره:

إنّ الإمام عليه السلام كان رحيماً حتى بالأفراد من أهل اللجاجة والجهل والتعصب، وكان

١. «أشرعت» من مادة «شرع» تعني في الأصل الذهاب إلى بركة الماء، أو شق الطريق إلى الماء، ومتى ما استعملت هذه المفردة في «الرماح» تأتي بمعنى سُدّدت وصُوّبت نحوهم.

٢. «هامات» جمع «هام» بمعنى الرأس.

٣. «استقل» من مادة «قلّ» على وزن «شل» بمعنى التفرقة والتشتت.

٤. انظر: سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

٥. انظر: سورة الحشر، الآية ١٦.

٦. انظر: سورة البقرة، الآيتان ١٦٦ و ١٦٧.

٧. «ارتكاس» من مادة «ركس» على وزن «مكث» بمعنى الانقلاب وعودة الشيء.

٨. «جماح» و«جموح» بمعنى الطغيان.

يسعى قدر المستطاع لإصلاحهم، وإن لم تؤثر مواعظه البليغة كان يقرعهم بكلمات عنيفة ويريهم عاقبة أعمالهم في الدنيا والآخرة لعلّهم يفيئون إلىٰ الحقّ.

෴

١٨٢

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

رُوِيَ عَنْ نَوْفٍ الْبَكّالي قالَ: خَطَبَنا بِهذِهِ الْخُطْبَةِ أميرُالمؤمنينَ عَليٌّ عليه السلام بِالْكُوفَة وهُوقائِمٌ عَلى حِجارَة، نَصَبَها لَهُ جُعْدَةُ بنُ هُبَيْرَةَ[١] الْمَخْزُومي، وعَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ[٢] مِنْ صُوف وحَمائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ، وفى رِجْلَيْهِ نَعْلانِ مِنْ لِيف، وكأنّ جَبينه ثَفِنَةُ[٣] بَعير[٤]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من أواخر هذه الخطبة أنّ الإمام عليه السلام خطبها قبل شهادته بأسبوع، وهدفه

١. جعدة بن هبيرة المخزومي: ابن أخت أمير المؤمنين عليه السلام وأمّه أم هاني بن أبي طالب، كان رجلاً شجاعاً وعالماً أدرك عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وولاه الإمام علي عليه السلام على خراسان (أسد الغابة، ج ١، ص ٢٨٥).

٢. «مدرعة» «جُبّه» من مادة «درع»، ثوب يعرف عند بعض العامّة بالدراعية، قميص ضيق الأكمام.

٣. «ثفنة» تعني في الأصل ما يمسّ الأرض من رُكبتي البعير بعد البروك ويكون فيه غلظة من ملاطمة الأرض.

٤. **سند الخطبة:**

هذه آخر خطبة خطبها أمير المؤمنين عليه السلام (وقتل بعدها بأسبوع). ذكرها الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار، كما روى بعضها أبو شاكر الليثي في عيون الحكم والمواعظ، وفسّر ابن الأثير بعض كلماتها وبالنظر لاختلاف كلماتهم مع ما ورد في نهج البلاغة يبدو أنّها ذكرت من مصدر آخر غير نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥١).

منها إعداد الناس لجهاد معاوية ولصوص الشام، واستجابوا لدعوته فتقاطروا عليه أُلوفاً مؤلفة، ولكن للأسف....

خاض الإمام عليه السلام في استعراض عدّة أمور من هذه الخطبة بغية إثارة أرواحهم وعواطفهم لمواجهة الأعداء الظلمة، فاستهلّ حديثه في القسم الأوّل والثاني والثالث من الخطبة بحمد الله والثناء عليه إلىٰ جانب بيان صفاته الجماليّة والجلاليّة ومن ثم وحدانيته وعلمه المطلق بذرات الوجود كافّة ، وأنّ ذاته وصفاته أسمى من أن يستوعبها الفكر، كما لا يقوى على ذلك الأمر حتى الملائكة المقرّبون.

ثم تطرق الإمام عليه السلام في القسم الرابع إلىٰ الورع والتقوى والزهد في الدنيا، وبين جوانب من سيرة سالف الأنبياء مثل نبي الله سليمان عليه السلام الذي عاش الزهد في الدنيا مع ما كان لديه من الملك.

وبين في القسم الخامس من الخطبة المصير الأسود الذي طال طغاة العالم كالفراعنة والعمالقة وأصحاب الرسّ الذين قتلوا أنبياء الله وسعوا لإطفاء نور الله، ولكن سرعان ما صرعوا وغادروا الدنيا.

وأشار في الفصل السادس إلىٰ ظهور المهدي عليه السلام وتشكيل حكومة العدل العالميّة وتطرق إلىٰ جانب من فضائله ومناقبه.

وخاض في القسم السابع ثانية في الوعظ والإرشاد، وتحدّث عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وتفاهتها، وذكر شهداء صفين الذين عانقوا الشهادة وبكى عدداً من أصحابه مثل عمار بن ياسر وابن التيهان وخزيمة ذي‌الشهادتين، ثم مدحهم على طاعتهم لأوامر الله وإحيائهم لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وإماتتهم البدع واستعدادهم الدائم للجهاد.

وأصدر في القسم الثامن من خطبته أمره بالجهاد ودعى الجميع للإلتحاق بسوح الوغى.

القسم الأول

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وعَوَاقِبُ الأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، ونَيِّرِ بُرْهَانِهِ، ونَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، ولِشُكْرِهِ أَدَاءً، وإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. ونَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. ونُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، ولاَذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً.

الشرح والتفسير

هو من يستحق الشكر

ينبغي قبل الشروع في شرح هذه الخطبة الإشارة إلىٰ شخصية (نوف البكالي) راوي هذه الخطبة، لا شك ولا ريب في أنّه من أصحاب الإمام علي عليه السلام وقيل حاجبه، ويعتقد البعض أنّه من قبيلة حمير التي سكنت اليمن، بينما يراه البعض الآخر من قبيلة همدان، وهنالك كلام في لقبه، قيل بَكّال (على وزن فَعّال) وقيل بِكال (على وزن كِتاب) وقيل بَكال (على وزن طَواف)، على كلّ حال فقد كان رجلاً عفيفاً ومؤمناً ووفياً.

۞۞

استهل الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبة بحمد الله والثناء عليه بهدف إعداد قلوب المخاطبين وإزالة صدأ الغفلة عنها، ثم استعان بذاته المقدّسة وأبرز إيمانه المطلق بها

فقال في الحمد والثناء: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ**[١] **الْخَلْقِ، وعَوَاقِبُ الأَمْرِ**».

نعم فمنه تعالىٰ بداية الخلق وإليه المصير، فموجودات هذا العالم كافّة من فيض وجوده وستؤول عاقبة أمرها إليه، وهذه إشارة إلىٰ قضية المعاد ويوم القيامة فالحديث في هذه العبارة عن مبدىءٍ نحمده ونثني عليه.

ولكن لم هذا الحمد والثناء ؟ قال عليه السلام: «**نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، ونَيِّرِ بُرْهَانِهِ، ونَوَامِي**[٢] **فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ**».

العبارة: «عَظِيمِ إِحْسَانِهِ» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ نعمة الإيمان والاعتقاد الخالص بالله تعالى بقرينة «نَيِّرِ بُرْهَانِهِ» التي تشير إلىٰ الأدلّة الواضحة، وكما يمكن أن تكون إشارة إلىٰ نعمة الحياة والخلق التي تعدّ من أعظم نعم الله، إلّا أنّ التفسير الأوّل أنسب، والعبارة: «ونَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ» إشارة إلىٰ تكامل الإنسان في المجالات الماديّة والمعنويّة والتي تعدّ من النعم الإلهيّة الكبرى.

ثم خاض عليه السلام في بيان كيفية هذا الحمد فقال: «**حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، ولِشُكْرِهِ أَدَاءً، وإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً**».

من البديهي أن لا يسع أحد أداء حقّ الشكر والحمد لله تبارك وتعالى، ويعجز عن ذلك حتى جميع الأنبياء والأولياء والملائكة المقرّبين، وعليه فالمراد من الأداء ما كان في وسع الإنسان والذي يوجب ثواب الله ونيل المزيد من نعمه.

وعلى هذا الأساس تطرق في هذه الجملات الحكيمة، تارة الصفات الإلهيّة وإحسانه ونعمه، وتارة أخرى إلى أساس النعم المتنوعة الإلهيّة وأصولها، وفي الثالثة إلى كيفية الحمد والشكر، وبذلك تطرق إلى مجموعة كاملة من الصفات الإلهيّة ونعمه.

ثم تطرق بعد الحمد ـ كما ورد شبيه ذلك في سورة الفاتحة ـ إلىٰ الاستعانة بالله

---

١. «مصائر» جمع «مصير» بمعنى موضع الرجوع.

٢. «نوامي» جمع «نامية» من مادة «نمو» بمعنى الشيء الزائد.

تبارك وتعالى فقال: «وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ[1]، مُذْعِنٍ[2] لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ».

تشير هذه العبارات الخمس إلىٰ مواضيع متنوعة؛ الأوّل: الحديث عن الأمل بفضل الله في الأمور المعنويّة، والثاني: الأمل والرجاء في المنافع والمصالح الماديّة، والثالث: الثقة بدفع الآفات والمضرّات عن العباد، والرابع: مقام الاعتراف بالنعم، وأخيراً أداء حقّ الشكر بالقول والعمل.

فقد اتّجه الإمام عليه السلام بعد بيانه لما يستحق الله تعالىٰ من حمد واستعانة تامة بذاته المقدّسة الإفصاح عن إيمانه بالذات المقدّسة، وهو الإيمان الذي انطوى على جميع المزايا فقال عليه السلام: «ونُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وخَنَعَ[3] لَهُ مُذْعِناً، وأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، ولاَذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً».

حقّاً إنّ الإيمان الذي ينطوي على كلّ هذه الصفات ويختزن كلّ هذه الآثار لهو أرفع إيماناً وأرسخ عقيدة، ولا يتأتّى مثل هذا الإيمان إلّا من خلال تطهير القلب من دنس المعصية والإبتعاد عن الأهواء والسعي إلىٰ تهذيب النفس والتوجه إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ولعلّ هنالك من يتساءل: لماذا استهل الإمام عليه السلام كلامه بحمد الله والثناء عليه ثم استعان بذاته المقدّسة ليتجه أخيراً إلىٰ الإيمان، والحال أنّ الإيمان هو دافع الحمد والاستعانة؟

والجواب عن ذلك، إنّ الإيمان الذي تطرق إليه الإمام عليه السلام هنا هو الإيمان الجامع للكمال، والذي لا يحصل إلّا بعد حمد الله والإستعانة بذاته المقدّسة وما وجب سابقاً قبل الحمد والإستعانة إنّما يمثل المراحل الابتدائية للإيمان.

***

١. «الطول» بمعنى الفضل والنعمة، وأصلها من طول على وزن «نور» بمعنى ما يحفظ للإنسان قوّته وبقاءه وإمكان استمراره في الوجود، مادة «طَوْل» على وزن «قَوْل» وعليها أطلقت هنا.

٢. «مذعن» من مادة «إذعان» بمعنى التصديق والطاعة.

٣. «خنع» من مادة «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع.

القسم الثاني

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، ولَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً. ولَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ ولاَ زَمَانٌ، ولَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ ولاَ نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلاَ سَنَدٍ. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ ولاَ مُبْطِئَاتٍ؛ ولَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، ولاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ، ولاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح والتفسير

دلالة السماء على الله

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة ـ في مواصلة شرح صفات الله التي تصدرت بها الخطبة: «لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، ولَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً، ولَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ ولاَ زَمَانٌ، ولَمْ يَتَعَاوَرْهُ[1] زِيَادَةٌ ولاَ نُقْصَانٌ».

إنّ من بين القوانين التي تحكم عالم المادة والممكنات أنّ كلّ جماعة ترد الحياة تفارقها بعد مدّة لتحل محلها طائفة أخرىٰ، فالأبناء يرثون صفات الآباء، كما ينقل هؤلاء صفاتهم إلىٰ الأبناء، وبما أنّ الذات الإلهيّة أزليّة وأبديّة فهي لم تولد من أحد ليكون لها مثيل ولم يولد منها أحد ليرثها.

---

١. «يتعاور» من مادة «تعاور» بمعنى تبادل الشيء والقيام بعمل بصورة متناوبة، والمراد منها في العبارة عدم طرو الزيادة والنقصان على الذات القدسيّة، وأنّ هذه الذات منزّهة عن الحوادث.

والعبارة: «وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ...» إشارة إلىٰ أنّه يفوق الزمان؛ لأنّ الزمان نتيجة لحركة الموجودات من النقص إلىٰ الكمال وبالعكس، وبما أنّ وجوده المقدّس عين كماله المطلق وليس للزيادة والنقصان من سبيل إلىٰ ذاته فلا معنى لطرو الوقت والزمان عليه[١].

وحيث إنّ نفي الشبيه والنظير والزمان والزيادة والنقصان عن ذاته القدسيّة ربّما يخلق وهماً يتمثل في تعطيل معرفة الله، وبعبارة أخرىٰ إنعدام السبيل إلىٰ معرفته؛ فقد قال: «بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ».

إشارة إلىٰ أنّ الذات القدسيّة وإن كانت خارجة عن متناول العقول البشريّة إلّا أنّ إثبات أصل وجودها ممكن من خلال تأمّل نظام الخليقة والتدبير الحكيم الذي يحكمه، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الإسلاميّة التي حثت على عدم الاستغراق في الذات المقدّسة، بل التفكير في آثار قدرته وعظمته وعلمه في عالم الوجود، الأمر الذي جعله القرآن الكريم محوراً في معرفة الله ودعى أصحاب الفكر وأولوا الألباب إلىٰ التفكير على الدوام فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهُ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢].

ثم ركز الإمام عليه السلام على مصاديق هذا البيان الكلّي والعام فقال: «فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَات[٣] بِلاَ عَمَد[٤]، قَائِمَات بِلاَ سَنَد[٥]».

---

١. اعتبر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الوقت يرادف الزمان، بينما عدّه البعض الآخر بالزمن المعين وأنّ للزمان مفهوماً عاماً، والتفسير الثاني يبدو أصح. كما ورد في القرآن الكريم في الآية ١٠٣ من سورة النساء بشأن الصلاة. ﴿إِنّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤمِنِينَ كِتَابا مَوْقُوتاً﴾.

٢. سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠ و ١٩١.

٣. «موطدات» من مادة «وطد» على وزن «وقت» بمعنى التثبيت والإحكام.

٤. «عمد» جمع «عماد» بمعنى العمود.

٥. «سند» بمعنى ما يستند عليه.

ثم أشار إلىٰ هذه الحقيقة: «دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَات مُذْعِنَات، غَيْرَ مُتَلَكِّئَات[١] ولَا مُبْطِئَات».

يبدو هنالك رأيان بشأن المراد من طاعة السماوات لأوامر الله وإقرارها بربوبيّته تعالى؛ قال البعض: إنّ المراد الإقرار والطاعة بلسان الحال، أي أنّ الله سبحانه وتعالى خلقها بهذه الصيغة بحيث تعيش حالة التسليم له من حيث نظام العلّة والمعلول وقوانين الخلق دون أن يكون لها أيّة إرادة أو علم، لأنّها موجودات جامدة ولا روح لها.

وقال البعض: إنّ العبارات أعلاه تدلّ على أنّ جميع عالم الوجود ـ من الإنسان والحيوان والجماد وجميع الكواكب السماويّة ـ له عقل وشعور، وقد أقرّوا بإرادتهم على ربوبيّته تعالى وأذعنوا له بالطاعة.

طبعاً هذان التفسيران صحيحان ولا يختلفان عمّا أراد الإمام عليه السلام بيانه، لأنّ الهدف بيان عظمة الخلق وتسليم عالم الوجود لأمر الله تبارك وتعالى.

ثم قال عليه السلام: «وَلَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ[٢]، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، ولَا مَسْكَناً لِمَلائِكَتِهِ، ولَا مَصْعَداً[٣] لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلىٰ أنّ طاعة السماوات لأوامر الله منحها ثلاثة امتيازات: الأوّل: أنّها موضع عرش الله، والثاني: مسكن لملائكته، والثالث: موضع لصعود الأعمال والأقوال الصالحة للعباد؛ بمعنى أنّ حفظة الأعمال وكتبة الأفعال تكتبها في سجل الأعمال ويرفع إلىٰ السماء ما يستحق منها القرب الإلهي.

ومن الطبيعي أن يختار الله تعالى موضعاً لهذه الأمور خاضعاً لسيطرته وهيمنته،

---

١. «متلكّئات» من مادة «تلكّؤ» على وزن «تكلّم» بمعنى التباطؤ.

٢. «طواعية» بمعنى الطاعة والانقياد.

٣. «مصعد» موضع الصعود.

وبعبارة أخرىٰ بما أنّ جميع السماوات في قبضته فقد أسبغ عليها تلك الأمور، والتعبير بالملائكة في العبارة المذكورة إشارة إلى الملائكة المقربين، وإلّا فللملائكة حضور في العالم برمته من أرض وسماء.

وأمّا حقيقة العرش فهذا ما سيأتي شرحه في هذه الخطبة إن شاء الله.

القسم الثالث

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الأَقْطَارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلاَ اسْتَطَاعَتْ جَلاَبِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ. فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلاَ لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ، وَلاَ فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الأُنْثَى فِي بَطْنِهَا.

الشرح والتفسير

احاطته العلميّة بكلّ شيء

تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لبيان آثار عظمة الله في عجائب السماوات في العالم العلوي عن القمر والنجوم حيث قال ابن أبي الحديد: إنّ هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام بيان لتوحيد الله وتمجيده بأحسن وجه وبأفصح الكلام وأجمل العبارات حيث قال عليه السلام: «جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ[1] الأَقْطَارِ[2]».

---

١. «فجاج» جمع «فج» على وزن «حج» بمعنى الفاصلة بين جبلين.

٢. «أقطار» جمع «قطر» على وزن «قفل» بمعنى الناحية.

هذه العبارة إشارة إلىٰ ما ورد كراراً في القرآن الكريم بشأن النجوم: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٢].

نعلم أنّ النجوم الثابتة التي تشكل تقريباً أغلب كواكب السماء إنّما تطلع من نقاط معينة وتغيب في أخرىٰ معينة كذلك وأنّ مواضعها في السماء من شأنها تعيين الجهات الأربع الشمال والجنوب والشرق والغرب وتعدّ أفضل وسائل للإهتداء في الأسفار الطويلة خلال الليالي المظلمة في الصحارىٰ والبحار.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ نقطة بديعة أخرىٰ فقال: «لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ[٣] سُجُفِ[٤] اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، ولاَ اسْتَطَاعَتْ جَلاَبِيبُ[٥] سَوَادِ الْحَنَادِسِ[٦] أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلأْلُوِ نُورِ الْقَمَرِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلىٰ نكتة ظريفة إلىٰ أنّ الله سبحانه وتعالى خلق ظلمة الليل كنعمة كبيرة لهدوء المخلوقات وراحتها من جانب، ومن جانب آخر جعل النجوم ليهتدى بها في الصحارىٰ والبحار وخلق القمر منيراً، إلّا أنّ هذين المصدرين المضيئين خُلقا بحيث لا يقضيان على عتمة الليل، والجمع بين هذا النور والظلمة بهدفين مختلفين نموذج لقدرته المطلقة سبحانه.

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار عظمة الله وقدرته في عالم الخلق حتى تطرق لسعة علمه وإحاطته بجميع الموجودات في الأرض والسماء؛ حتىٰ أشار بشرح

---

١. سورة النحل، الآية ١٦.
٢. سورة الأنعام، الآية ٩٧.
٣. «ادلهمام» بمعنى شدّة الظلمة.
٤. «سجف» جمع «سجاف» حسب أرباب اللغة بمعنى الستر.
٥. «جلابيب» جمع «جلباب» بمعنى ثوب واسع تلبسه المرأة فوق ثيابها وتغطي به رأسها وهو أقصر من العباءة.
٦. «حنادس» جمع «حندس» على وزن «قبرص» بمعنى الليل المظلم.

رائع إلىٰ عشرة موارد منها تجسد سعة علمه سبحانه فقال: «فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَق[١] دَاج[٢]، وَلَا لَيْل سَاج[٣]، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ[٤]، وَلَا فِي يَفَاعِ[٥] السُّفْعِ[٦] الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلْجَلُ[٧] بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَاشَتْ[٨] عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَة تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ[٩] الأَنْوَاءِ[١٠] وانْهِطَالُ[١١] السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ[١٢] الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا[١٣]، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الأُنْثَى فِي بَطْنِهَا».

حقاً إنّ تأمّل عبارة الإمام عليه السلام بشأن علم الله تبارك وتعالى بجميع الكائنات في السماوات والأرض التي تجعل أعظم الأشياء وأصغر الموجودات وأخفى المخلوقات يغوص في بحرٍ من التفكير هل بالإمكان خفاء أعمالنا وأقوالنا، بل نيّاتنا وأفكارنا على الله تبارك وتعالى المحيط بكلّ شيء؟ وهذه أحد أهم الآثار التربويّة للإيمان بسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء.

والطريف أنّ الإمام عليه السلام حين يتحدّث عن ظلمة الليل أو سكونه يشير إلىٰ آثاره المختلفة في مختلف بقاع الأرض من قمم الجبال إلىٰ سفوحها، وحين يتحدّث عن

---

١. «غسق» الظلمة التي تقع عادة منتصف الليل.

٢. «داج» من مادة «دجو» على وزن «غلو» بمعنى الشديد الظلام.

٣. «ساج» من مادة «سجو» على وزن «غلو» السكون والهدوء.

٤. «متطأطئات» جمع «متطأطئ» المنخفضات.

٥. «يفاع» التل وكل شيء مرتفع.

٦. «سفع» جمع «سفعة» على وزن «سفرة» الحمرة المائلة للسواد.

٧. «يتجلجل» من «جلجلة» صوت الرعد ثم أطلقت على كلّ صوت شديد.

٨. «تلاشت» من «تلاشي» بمعنى الاضمحلال. ويرى البعض أنّ مادتها لا شيء.

٩. «عواصف» جمع «عاصف» و«عاصفة» الرياح الشديدة.

١٠. «أنواء» جمع «نوء» على وزن «نوع» غروب النجم في جهة المغرب، وللعرب عقيدة في الأنواء سنعرض لها في مبحث التأملات بمعنى الطوفان.

١١. «انهطال» نزول المطر كما تطلق على إنهمار الدموع.

١٢. «مسحب» اسم مكان من مادة «سَحْب» على وزن «سهو» الجذب نحو الشيء.

١٣. «مجرّ» اسم مكان من مادة «جرّ» السحب والجر.

تساقط الأوراق يخوض في جملة الأسباب التي تؤدّي إلى هذا التساقط، وبالتالي حين يتطرق إلىٰ هطول قطرات المطر لا ينسى الحديث عن مواضع استقراره في جوف الأرض الذي يعدّ خزاناً مباركاً لتلك المياه، وحين يتحدّث عن طعام ذبابة يشير إليه بمقدار، وهذا بدوره ما يجعل هذه الخطبة في مصاف أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغة، وهي الفصاحة والبلاغة التي بلغت حدّ الإعجاز.

جدير بالذكر أنّ لأغلب هذه التعبيرات جذوراً في الآيات القرآنيّة، فالله تبارك وتعالى حين يشير إلىٰ علمه بجميع الموجودات يقول: ﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[1] ويقول تعالىٰ في موضع آخر: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ**﴾[2].

تأمّل

ما الأنواء؟

تضمنت الخطبة إشارة إلىٰ عواصف الأنواء التي تستحق المزيد من الشرح، فأنواء جمع نوء على وزن نوع تعني لغوياً طلوع النجوم أو غروبها، إلّا أنّهم اقتصروا على معنى الطلوع، وإن أضاف البعض إليها الغروب واعتبرها من مفردات الأضداد، ومن العقائد السائدة لدى العرب أنّ القمر يطوي ٢٨ منزلاً خلال دورته حول نفسه ويستغرق كلّ منزل ١٣ يوماً، وتقترن بداية كلّ منزل بطلوع نجم في المشرق وغروب آخر في المغرب، كما يعتقدون بحصول تغيير في الجو وسقوط مطر أو هبوب رياح يتزامن مع بداية كلّ منزل، ومن هنا كانوا يقولون: (مُطِرنا بنوء فلان)، وقد اتخذ هذا الاعتقاد صيغة خرافية بالتدريج ليعتقدوا بأنّ هذا النجم هو العنصر المسبب لنزول الأمطار ولابدّ من التضرع إليه بغية نزول المطر.

---

١. سورة الرعد، الآية ٨.

٢. سورة لقمان، الآية ٣٤.

ذكر العلّامة المجلسي﵀ في الجزء ٥٥ من بحار الأنوار باباً مفصلاً حمل عنوان: «في النهي عن الاستمطار بالأنواء والطيرة والعدوى» ونقل فيه عدّة روايات بهذا الشأن منها ما روي عن الإمام الباقر﵇: «ثَلاثَةٌ مِنْ عَمَلِ الْجاهِلِيَّةِ، الْفَخْرُ بِالأَنْسابِ والطَّعْنُ فِي الأَحْسابِ والاسْتِسْقاءُ بِالأَنْواءِ»[1].

والذي تجدر الإشارة إليه هنا أنّ أحداً لوطرح الموضوع بصيغة بحث فلكي وقال باقتران هبوب رياح شديدة أو سقوط مطر في كلّ منزل من المنازل الثمانية والعشرين بأمر الله فإنّه لم يجانب الحقيقة، وليس هناك من نهي عن هذا الكلام، غير أنّ عرب الجاهلية نسبوا هبوب الرياح وهطول الأمطار إلىٰ تلك الأنواء وهذا نوع من الشرك، لأنّهم قالوا باستقلالية تلك الأنواء بعيداً عن إرادة الله، من هنا يتّضح عدم وجود أي إشكال في عبارة الإمام: «تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ» لأنّ مراد الإمام﵇ أنّ كل ما اقترن بطلوع وغروب هذه الأنواء تابع لإذن الله وأوامره.

———

١. بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٣١٥.

القسم الرابع

وَالْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوعَرْشٌ، أَوسَمَاءٌ أَوأَرْضٌ، أَوجَانٌّ أَوإِنْسٌ. لَا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، ولَا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، ولَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، ولَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، ولَا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، ولاَ يُحَدُّ بِأَيْنٍ، ولاَ يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، ولاَ يُخْلَقُ بِعَلاَجٍ، ولاَ يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً؛ بِلاَ جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَاتٍ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ. بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ وجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالْأَدَوَاتِ، ومَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الشرح والتفسير

عجزنا عن إدراك صفاته

تابع الإمام عليه السلام بيان صفات الله تعالى بعد أن أشار إلىٰ عظمة الخالق وقدرته وذكر آياته في عالم الوجود، فشرح في هذا القسم جانباً مهمّاً من الصفات الثبوتيّة والسلبيّة والصفات الفعلية بصورة رائعة فأتمّ درسه لمخاطبيه في سبيل معرفة الله، فقد تحدّث في بادئ الأمر عن أزليّة الله تبارك وتعالى المقرونة بالأبديّة فقال عليه السلام: «وَالْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوعَرْشٌ، أَوسَمَاءٌ أَوأَرْضٌ، أَوجَانٌّ أَوإِنْسٌ».

فالأمور الستة هذه إشارة إلىٰ تكوين العالم، ذلك لأنّها الأصل والأساس وما سواها تابع لها، على كلّ حال فإنّ هذه العبارة إشارة إلىٰ أهم صفاته الجماليّة سبحانه والتي تعود إليها سائر الصفات وهي عدم تناهي ذاته القدسيّة من جميع الجهات، فلكل المخلوقات زمان وتاريخ لحدوثها سوى الذات القدسيّة التي كانت منذ الأزل وستبقى إلىٰ الأبد، ومن هنا أشار إثر ذلك إلىٰ إحدىٰ عشرة صفة من صفاته السلبيّة والتي تنبع جميعها من ذاته القدسيّة اللامتناهيّة.

فقال في العبارة الأولى والثانية: «لَا يُدْرَكُ بِوَهْم، وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْم».

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ الفارق بين هاتين العبارتين هو أنّ الوهم هنا إشارة إلىٰ القوّة التي تدرك الجزئيات، والفهم إشارة إلىٰ إدراك الكليات، وهنالك احتمال آخر هو أنّ الوهم إشارة إلىٰ قوّة الحدس والفرض، والفهم إشارة إلىٰ الإدراك واليقين، أي لا يمكن الوصول إليه تعالىٰ عن طريق العلم ولا الحدس ولا الظن، أضف إلىٰ ذلك أنّ العبارة الأُولىٰ إشارة إلىٰ إدراك أصل وجوده، والعبارة الثانية إشارة إلىٰ قياس ذاته القدسيّة وبما أنّها لامتناهيّة فهي لا تدرك بوهم ولا تقاس بعقل.

ثم قال في الصفتين السلبيتين الثالثة والرابعة: «وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ[1]».

إنّ الانسان مهما كان ذكياً وفطناً إن تحدّث إليه شخص أو عدّة أشخاص بشأن موضوع مهم لا يسعه إدراك مطلب الآخرين، أو تعامله مع شخص يحول دونه والآخرين، ذلك لأنّه وجود محدود ومتناهٍ، أمّا الذات الإلهيّة القدسيّة فلا يضيق بها التعامل مع جميع المخلوقات وفي آن واحد فهي تسمع أصواتهم وتقضي حاجاتهم وتعلم بنيّاتهم ولا يشغلها سائل عن آخر، وكذلك لو طرق جميع العباد باب الله وسألوه ما سألوا وضمن لهم الإجابة لما نقص شيء من ملكه وخزائنه، بل لما شكل

١. «نائل» له معنى اسم الفاعل والمصدر بمعنى العطاء أو البذل أو طالب البذل أو المعنيان هنا مناسبان.

ذلك قطرة من بحر جوده، كيف لا وهو الخلّاق لما يشاء وفيضه غني عن الحدود[1].

ثم قال عليه السلام: في الصفتين الخامسة والسادسة: «وَلَا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ[2]».

أجل! إنّه يرى كلّ شيء وكل مكان والعالم برمّته حاضر عنده، مع ذلك ليس له عين ولا مكان، لإنّه أسمى من الزمان والمكان والعوارض الجسميّة.

ثم قال عليه السلام في الصفتين السابعة والثامنة: «وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ[3]، وَلَا يُخْلَقُ بِعَلَاجٍ».

ذكروا عدّة معانٍ لأزواج منها: جمع زوج مثل النظير والقرين والزوج والشبيه والمثيل والضد والتركيب، ولا مانع من جمع كلّ هذه المفاهيم في العبارة السابقة، أي أنّ الله منزّه عن كلّ هذه الأمور، والعبارة «لَا يُخْلَقُ بِعَلَاجٍ» إشارة إلىٰ الناس وأشباههم إن أرادوا خلق شيء ـ أو بتعبير أدق ـ إن أرادوا تركيب هيئة من أشياء إنّما يستعينون ببعض الوسائل التي قد تكون بسيطة وأخرىٰ صعبة، والخالق الوحيد الذي لا يحتاج إلىٰ أيّة وسائل وأدوات هو الحقّ سبحانه وتعالى[4]، بل أبعد من ذلك كما قال القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[5].

ثم قال في الصفتين التاسعة والعاشرة من صفاته السلبيّة سبحانه: «وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ».

إننا نعلم بأنّ دائرة حواس الإنسان هي الأجسام الماديّة، وعليه فالذات القدسيّة

---

١. جاء في الحديث القدسي: «يا عِبادي لَو أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَألُونِي فَأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ ما نَقَصَ ذلِكَ مِمّا عِنْدِي شَيْئاً إلّا كَما يَنْقُصُ المَخِيطُ إذا دَخَلَ البَحْرَ» (صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٧؛ كنز العمال، ج ١٥، ص ٩٢٤).

٢. «أين» بمعنى المكان.

٣. «أزواج» جمع «زوج» لها معنى واسع يشمل كلّ قرين ومثيل.

٤. لابدّ من الإلتفات إلىٰ أنّ كلمة «يخلق» وردت بصيغة المجهول في متن نهج البلاغة لصبحي الصالح ولا يبدو لها أي مفهوم صحيح، بينما ذكرها أغلبية الشرّاح مثل المرحوم ابن ميثم ومغنية وعبده والتستري والخوئي والجعفري بصيغة المعلوم والحقّ ما ذكروه، أمّا العبارة «وَلَا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ» وإن كانت ذات معنى بصيغة المعلوم إلّا أنّها أنسب مع العبارة اللاحقة بصيغة المجهول.

٥. سورة يس، الآية ٨٢.

التي تفوق عالم المادة لا تدرك إلّا بالعقل والفكر، ويخطئ أولئك الذين يعتقدون بإمكانيّة رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة بهذه العين.

العبارة: «لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ» تشير إلىٰ أصل كلّي بشأن صفات الله تعالى في عدم إمكانيّة مقارنة هذه الصفات بصفات المخلوق فإنّ ذلك ينتهي إلىٰ الضلالة، وهذا المعنى ورد في الخطبة الأُولىٰ من نهج البلاغة: «وكَمالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ».

وقال أخيراً في بيان آخر الصفات: «الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً؛ بِلاَ جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَات، وَلَا نُطْق وَلَا لَهَوَات[1]».

بما أنّه نقل في السابق مختلف الصفات وأثبتها لله تعالى بأكمل وجه، فقد خاض هنا في مسألة تكلّم الله سبحانه وتعالى وأوضح أنّ الله كلّم موسى عليه السلام ولكن ليس على غرار الناس الذين يتكلّمون بواسطة اللسان والفم والأمواج الصوتية وأداء الحروف، بل يخلق الأمواج الصوتية ليتحدّث بواسطتها مع موسى عليه السلام، فكان موسى يسمع الكلام من ست جهات وهذا من عظمة آيات الله دون الحاجة إلىٰ الجوارح والأعضاء الصوتية، وظاهر كلام الإمام عليه السلام أنّ عظمة آيات الله هو سماع كلامه سبحانه من الجهات الست، والشاهد على ذلك قوله عليه السلام: «بِلاَ جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَات، وَلَا نُطْق وَلَا لَهَوَات».

الاحتمال الآخر الذي ذكره شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن أنّ المراد من عظيم آياته المعجزات التسع التي حبىٰ بها موسى بن عمران[2]، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً ولا ينسجم مع سياق كلام الإمام عليه السلام فهو لا يخلو من تكلّف ومخالفة الظاهر،

---

١. «لهوات» جمع «لهاة» بمعنى اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم، ويقال لها اللسان الصغير، ولكن يبدو معناها في الخطبة الحنجرة بقرينة المجاورة.

٢. المراد من الآيات التسع ما وردت الإشارة إليها في آيات مختلفة من القرآن الكريم، وهي عبارة عن الجراد والقمّل والضفادع والدم والرياح العاصفة والعصا واليد البيضاء، والقحط الشديد الذي أصاب الفراعنة وآفات الفاكهة.

ويحتمل أن يكون المراد معجزتي العصا واليد البيضاء التي اقترنت بتكليم موسى عليه السلام.

على كلّ حال فلا يصح إطلاق صفة الناطق أو اللافظ على الله تبارك وتعالى، هذين اللفظين يشيران إلىٰ حركة اللسان ومخارج الحروف والأمواج الصوتية التي يتنزّه عنها الله تبارك وتعالى، بينما يصح إطلاق لفظ المتكلّم على الله لأنّه يوجد الكلام ويخلق الأمواج الصوتية في ست جهات كي لا يتصور موسى والآخرون أنّ الله يحويه مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام في مطلبين آخرين بهدف إكمال هذه الصفات وإثبات عجز الفكر البشري عن تبيانه لحقيقة الله تبارك وتعالى فقال في الأُولىٰ: «بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ[1] لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ[2]، مُتَوَلِّهَةً[3] عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

إشارة إلىٰ أنّ الإنسان الذي يعجز عن بيان صفات ملائكة الله المقرّبين ولا يسعه إدراك حقيقة وجودها وحقيقة صفاتها، فكيف يتوقع إدراك صفات الخالق ويستوعب في حيزه الفكري صفاته الجماليّة والجلاليّة، مع العلم أنّ الملائكة الذين نعجز عن بيان صفاتهم يعيشون حالة الحيرة ضمن دائرتهم.

ثم خاض عليه السلام في النقطة الثانية التي تعدّ دليلاً عقلياً واضحاً فقال: «فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالأَدَوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ».

ثم اختتم هذا القسم باستنتاج واضح فقال عليه السلام: «فَلاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلاَمٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ».

---

١. «متكلّف» تطلق على الشخص الشديد التعرض لما لا يعنيه.

٢. «مرجحنين» من الفعل الرباعي «رجحن» على وزن «دحرج» بمعنى المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالاً ووردت في الخطبة بمعنى الخضوع والتواضع.

٣. «متولّهة» من مادة «وله» بمعنى الحائرة أو متخوفة من شدّة الحب.

وقد ركز شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة على معنى مطابق؛ فقالوا: المراد القضاء على ظلمة الليل بضياء النهار وجمع ضياء النهار بظلمة الليل وجعل الظلمة المقرونة بالسكون والهدوء تعمّ كلّ مكان، بينما أخذ البعض الآخر المعنى الكنائي، فقال: إنّ المراد من الظلمات الأخلاق القبيحة التي تزول من روح الإنسان بنور معرفة الله، وبالمقابل فإنّ الأفراد الذين يعيشون ظلمة الجهل وعدم معرفة الله إنّما تزول عن وجودهم أنوار الفضيلة والأخلاق الإنسانيّة.

نعم، ليست هنالك من حاجة للتفسير الكنائي استناداً إلىٰ إمكانيّة التفسير على ضوء المعنى المقارن وعدم وجود القرينة على المعنىٰ الكنائي وإن أمكن الجمع بين المعنيين.

تأمّلان

١. سرّ صعوبة معرفة صفات الله

ذكرنا كراراً أنّ طريق معرفة الله صعب بنفس الدرجة التي يتّضح فيها السلوك إليه والتعرف عليه، وبعبارة أخرىٰ فإنّ العلم بوجود الله عن طريق تدبر أسرار الخلق في الأرض والسماء والوقوف على عجائب الخلقة أمر في غاية الصعوبة، فكلّ إنسان مهما كان لديه من علم وشعور يرى آثار علمه وقدرته وعظمته تعالىٰ في كلّ مكان وفي كلّ شيء، ولكن يستحيل عليه فهم كنه ذاته وصفاته، ذلك لأنّه كما ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أننا نعاني من القياس المضل بهذا الشأن، فليس لنا حظ سوى معرفة الصفات بواسطة الوسائل والأدوات والمقرونة بالزمان والمكان، فكان من الطبيعي أن يتعذر علينا إدراك ما يفوق الزمان والمكان والأدوات واللامتناهي من حيث الوجود والصفات، أو بتعبير: «ما لِتُراب وربِّ الأَرْبابِ».

إننا لنعجز عن إدراك صفات بعض المخلوقات الأسمىٰ كالملائكة المقرّبين ـ كما أشار إلىٰ ذلك الإمام عليه السلام في الخطبة ـ فضلاً عن إدراك صفات خالقها، وعلى هذا

الأساس أُمرنا بالإكتفاء بالعلم الإجمالي في مرحلة إدراك كنه الذات والصفات، وأن لا نسعى للوصول للعلم التفصيلي فهو خارج عن طاقتنا. على سبيل المثال إننا نعلم أنّ الله عالم بكلّ شيء وقادر على كلّ شيء، ولكن هل علمه عن طريق الصور الذهنية كالذي عليه الأمر بالنسبة للإنسان؟ طبعاً لا ! ولكن كيف ذلك. حقّاً إننا لا نعلم وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها الإمام عليه السلام كراراً في خطب نهج البلاغة ولا سيما في الخطبة ٩١ المعروفة بخطبة الأشباح، كما حذرنا سائر أئمّة الهدى عليهم السلام من سلوك هذا الوادي وقد نقل المرحوم الكليني في الكافي والصدوق في كتاب التوحيد بعض نماذج ذلك.

يذكر أنّ عبد الملك بن أعين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام كتب له رسالة أنّ طائفة في العراق يصفون الله بالأوصاف الجسميّة فطلب منه بيان المذهب الحقّ في التوحيد فكتب الإمام عليه السلام : «سَألتَ عَنِ التَّوحِيدِ رَحِمَكَ اللهُ، فاعلِم أنّ اللهَ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، وأنّهُ أَسمَىٰ مَنَ الصِّفاتِ الّتي يَشبه بِها مَخلُوقَاتِهِ، وَاعلَم أنّ المَذهبَ الصَّحيح ما جَاءَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ فَنَزِّهْهُ عَنِ الشَّبِيهِ»[1] (إشارة إلىٰ أنّه في باب صفات الله أن لا نشبّهه بالمخلوقات وأن لا نعتقد بالعدم بصورة كليّة بالاكتفاء بالمعرفة الإجماليّة).

٢. العرش والكرسي

قيل الكثير في العرش والكرسي، وقد أسهبنا في شرح العرش وحملته في الخطبة الأُولىٰ من نهج البلاغة[2].

تكررت مفردة العرش في القرآن الكريم ٢٠ مرّة، وإن لم تكن جميعها متعلقة بالعرش الإلهي، كما ذكرت مفردة الكرسي مرتان تتعلق إحداهما فقط بكرسي الله

١. كتاب الوافي، ج ١، ص ٤٠٥، الباب ٤٠.

٢. نفحات الولاية، ج ١، ص ١٠٥.

كما وردت عبارة «العرش» في نهج البلاغة سبع مرّات والكرسي مرّة واحدة في هذه الخطبة، ورغم أنّ العرش يعني المسند المعهود والأريكة التي ينصبها السلاطين ويجلسون عليها في الأعياد والمناسبات الرسمية، ويعني الكرسي الأريكة القصيرة الدعامة والتي يجلسون عليها في الأيّام الاعتيادية، ولكن قطعاً ما ورد في القرآن ونهج البلاغة والروايات بشأن العرش والكرسي ليس المراد منه هذا المعنى وإنّما هي كناية عن أمور أخرى.

فقد اعتبر البعض العرش إشارة إلىٰ مجموع عالم الوجود، بينما عدّه البعض الآخر علم الله تعالى، وذهبت طائفة ثالثة إلىٰ أنّ المراد به صفات الجمال والجلال، كما فسّروا الكرسي بهذا المعنى أيضاً. وهناك من اعتبر الكرسي إشارة إلىٰ تدبير الأمور الجزئيّة للعالم والعرش بمعنى التدبير الكلّي والأحدي والذي يفرز جميع التدبيرات الجزئيّة، ولكن كما أشرنا سابقاً فإنّ ما يفهم من القرآن الكريم أنّ أحد معاني الكرسي على الأقل مجموعة السماوات والأرض وعالم المادة أو الحاكميّة عليه، والعرش إشارة إلىٰ عالم الأرواح والملائكة وعالم ما وراء المادة أو الحاكميّة عليها، ذلك أنّ القرآن الكريم قال في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموات وَالأَرْضَ﴾[1] ومن الطبيعي أنّ العرش أسمى وأرفع من الكرسي، طبعاً ما ذكرناه هو أحد التفاسير الواضحة للعرش والكرسي، وهناك بعض التفاسير الأخرىٰ كما صرحت بها الروايات[2].

۞

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

٢. روى المرحوم العلّامة المجلسي في ج ٥٥ من بحار الأنوار عدّة أقوال وروايات بشأن العرش والكرسي.

القسم الخامس

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ؛ فَلَوأَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أولِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً، لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُود عَلَيْهِ السَّلامُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ والإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وعَظِيمِ الزُّلْفَةِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، واسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، والْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، ووَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ. وإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وهَزَمُوا بِالأُلُوفِ، وعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، ومَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!

الشرح والتفسير

أين الفراعنة والعمالقة؟

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة بعد الأبحاث المرتبطة بصفات الجمال والجلال وعظمة عالم الوجود بالأبعاد العمليّة. ذلك لأنّ الأعمال الصالحة إنّما تفرزها العقيدة الصالحة، فقد دعى الإمام عليه السلام الجميع للتقوى إزاء تلك النعم التي أفاضها تعالىٰ على عباده فقال عليه السلام: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاش[1]، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ».

---

١. «رياش» جمع «ريش» تعني في الأصل ريش الطائر ثم اطلقت على كلّ نوع من الثياب، ولما كان ريش الطيور بألوان مختلفة وجميلة فهذه المفردة تختزن مفهوم الجمال والزينة، ويطلق الرياش على الثياب الفاخرة.

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلىٰ نعمتين عظيمتين تعدان مصدراً لنعم جمّة أخرىٰ؛ النعمة الأُولىٰ أنواع الثياب التي تحفظ البدن من الحرارة والبرودة ومختلف المخاطر، وتضفي على الإنسان الوقار والهيبة والاحترام وتميّزه عن الحيوانات.

والنعمة الأخرىٰ المعاش، أي أنواع الرزق التي يحتاجها الإنسان في حياته، وللمعاش من مادة معيشة مفهوم واسع يشمل الطعام والماء والهواء والدواء والسكن، وجميع مواهب الحياة ولا يبدو صحيحاً ما تصوره البعض من أنّه يقتصر على الماء والغذاء، ورغم أنّ هذا المفهوم عام إلّا أنّه يشمل أنواع الألبسة الفاخرة، ولكن ممكن ذكر ذلك بالخصوص بسبب أهميّته الفائقة في حياة الإنسان.

وبما أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة فقد خاض الإمام عليه السلام في تقلب أحوال الدنيا وزوالها ثم ركز على مصداق واضح فقال عليه السلام: «فَلَو أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَو لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلا، لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ والإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وعَظِيمِ الزُّلْفَةِ[1]».

نعم فسليمان عليه السلام مع ما كان له من جلال وجبروت وقدرة وعزّة وكر وفر لم يستطع الحيلولة دون الموت ليغادر الدنيا في الأجل المعين دون أدنى تأخير أو تريث، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، واسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ[2] الْفَنَاءِ بِنِبَالِ[3] الْمَوْتِ، وأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، والْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، ووَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ».

يا له من تشبيه رائع! فقد شبّه الإمام عليه السلام قانون الفناء بالنبال التي تحمل الموت! وقد صوبت هذه النبال نحو الجميع لتنتظر آخر لقمة طعام يتناولونها وآخر دقيقة عمر يقضونها لتصوب نحوهم سهام الموت فتصيب أهدافها، سواء كان هذا الهدف

---

١. «زلفة» و«زلفى» بمعنى القرب والمنزلة.

٢. «قسي» جمع (قوس).

٣. «نبال» جمع «نبل» بمعنى السهم.

نملة ضعيفة أو سليمان الذي سخرت له جنود الإنس والجن والوحش والطير، والعجيب أنّ قانون الموت والفناء من القوانين التي لا تعرف من معنى للاستثناء، فهو يَطال الصالحين والسيئين والأتقياء والأشقياء والأقوياء والضعفاء دون أن يرحم أحداً أو يمهله مدّة: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] وسنورد بحثاً مهمّاً في التأملات بشأن كيفية موت سليمان عليه السلام.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلىٰ هذه النتيجة: «**وإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وهَزَمُوا[2] بِالأُلُوفِ، وعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، ومَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!**».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارات العميقة المعنى وعقب إشارته للاعتبار بموت سليمان عليه السلام يسلط الضوء على تاريخ البشريّة السالفة فيتطرق إلىٰ ذوي النفوذ والقدرة الذين حكموا البلاد بقبضتهم الفولاذية آنذاك ولم يبق منهم اليوم سوى حفنة من التراب مركزاً على طائفة معينة منهم فقد أشار بادئ الأمر إلىٰ العمالقة الذين ينحدرون من العملاق أحد أحفاد نبي الله نوح عليه السلام ممن كانت لهم أجساد قويّة وضخمة وقد حكموا البلاد لسنين متمادية.

ثم أشار إلىٰ الفراعنة أي ملوك مصر الذين كانوا من أقوى ملوك التاريخ، بينما تطرق في المرحلة الثالثة إلىٰ أصحاب الرس (نهر الرس أو الأبار المليئة بالماء التي كانت في بعض مناطق ايران)، وهم أولئك الذين وقفوا بوجه الأنبياء وقتلوهم وأطفأوا سنن الله وأحيوا سنن الظلمة.

وأشار في المرحلة الأخيرة بصورة كلية إلىٰ الملوك المتجبرين السابقين كافّة

---

١. سورة الأعراف، الآية ٣٤.

٢. «هزموا» من مادة «هزيمة» بمعنى الغلبة.

الذين كانوا يمتلكون العدّة والعدد وشيّدوا المدن الجميلة والرائعة، ولكن لم تكن عاقبتهم سوى الركوع للموت ومغادرة العروش المذهبة والاكتفاء بحفرة صغيرة في باطن الأرض.

تأمّلات

١. شوكة سليمان عليه السلام وموته

خلافاً للتوراة المعاصرة التي تصور سليمان عليه السلام كملك جبار وصانع للمعابد الوثنية[1] يعتبره القرآن الكريم من الأنبياء العظام ونموذجاً للقدرة والحاكمية الاستثنائية، وقد اختزنت سيرته العديد من الدروس والعبر للجميع فالقرآن الكريم يصرح بأنّ الله سبحانه وتعالى أفاض عليه العديد من النعم فسخر له الريح التي تنقله من مكان إلىٰ آخر وسخر له الإنس والجن وأفاض عليه العلم الجم حتى علّمه منطق الطير وزوده بالعديد من الجنود والعمال، مع ذلك كان موته عبرة ودرساً، جاء في بعض الروايات: أنّ سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه: «**إنّ اللهَ قد وَهبَ لِي مُلكاً عَظِيماً وَمَعَ جَميعِ ما أُوتيتُ مِنَ المِلكِ ما تمّ لِي سُرورَ يَومٍ إلىٰ اللّيلِ، وَقد أحببتُ أن أدخلَ قَصري فِي غَدٍ فأصعدِ أعلاهُ وَانظرُ إلىٰ مَمالِكي فَلا تَأذَنُوا لأحدٍ بِالدُّخولِ عَليَّ**» فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلىٰ أعلى موضع من قصره ووقف متكئاً على العصا ينظر إلىٰ ممالكه مسروراً بما أوتي فرحاً بما أُعطي، إذ نظر إلىٰ شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فقال له سليمان: «**مَنْ أَدخلكَ إلىٰ هذا القَصر وَقَد أردتُ أن أخلُو فيهِ اليومَ فَبِإذن مَنْ دَخلتَ**». فقال الشاب: «**أدخَلَني هذا القَصر رَبّهُ وَبِإذنِه دَخلتُ**». فقال: «**رَبُّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنّي فَمَنْ أنتَ؟**» قال: «**أنا مَلَكُ المَوت**». قال: «**وَفِيما جِئتَ**». قال: «**لأَقبضَ رُوحكَ**». قال سليمان: «**إمضِ لِما أُمرتَ بِهِ فَهذا يَومُ سُروري وأبىٰ اللهُ عَزّ وَجلّ أنْ يَكونَ لِي**

---

[1] ١. التوراة: الكتاب الأول للملوك والسلاطين.

سُرور دُونَ لِقائِهِ»، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئاً على عصاه (ولم يمنحه إذن الجلوس) وهو ميت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدرون أنّه حي فافتتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال إنّ سليمان عليه السلام قد بقي متكئاً على عصاه هذه الأيّام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب، إنّه لربّنا الذي يجب علينا أن نعبده، وقال قوم إنّ سليمان عليه السلام لساحر وأنّه يرينا أنّه واقف متكيء على عصاه يسحر أعيننا وليس كذلك، فقال المؤمنون: إنّ سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبر الله أمره بما شاء، فلما اختلفوا بعث الله الأُرضة فدبّت في عصاه فلمّا أكلت جوفها انكسرت العصا وخرّ سليمان عليه السلام على وجهه فعلموا جميعاً بموته[1].

وكما أشار الإمام عليه السلام في الخطبة لما تمّ عمر سليمان صوبت إليه أقواس المنيّة وأصابه سهم الموت.

٢. من هم العمالقة؟

«عمالقة»: جمع «عملاق» اسم شخص من أحفاد نوح وإليه تنسب قبيلة العمالقة وكان هؤلاء الأفراد أقوياء وأشداء ومقاتلين عاشوا في شمال الحجاز لألفي سنة قبل الميلاد حسب بعض المؤرخين، هجموا على مصر فاحتلوها وحكموها مدّة، ولكن حمل عليهم المصريون لسبعة عشر قرن قبل الميلاد فعادوا إلىٰ جزيرة العرب وأقاموا في اليمن والحجاز وسائر المناطق وشكلوا هناك بعض الدويلات ويرى بعض المفسرين أنّ الجبابرة الذين تحدّث عنهم القرآن في قصّة دخول موسى وبني اسرائيل إلى بيت المقدس هم طائفة من أولئك العمالقة.

وأخيراً قضى عليهم يوشع حيث أمر بني اسرائيل بأمر من موسى عليه السلام، وقد تساءل أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة قائلاً: «أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ» الذين

---

١. بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٣٦و١٣٧ (بتلخيص كما ورد هذا المطلب مختصراً في القرآن الكريم في الآية ١٣ و١٤ من سورة سبأ).

كانوا يتمتعون بقدرات هائلة وشكلوا الحكومات المقتدرة ليحكموها لعقود من الزمان، ثم زالوا من صفحة الوجود ولم يبق سوى اسمهم[1].

٣. فراعنة مصر

كان ملك مصر يسمىٰ (فرعون) وسلطان الروم (القيصر) وسلطان ايران (كسرىٰ)، ويُدعى فرعون مصر الذي عاصر نبي الله موسىعليه السلام رمسيس الثاني والذي عاصر نبي الله يوسفعليه السلام كان الريان بن الوليد، وقيل إنّ الفراعنة الذين حكموا مصر قبل الميلاد بلغوا ٣٢ فرعوناً، كان بعضهم من مصر والبعض الآخر من العمالقة والروم واليونانيين وبعض الايرانيين الذين أوفدوا من قبل بعض السلاطين لفتح مصر فحكموا البلاد ولم يبق لهم من اليوم أثر.

٤. أصحاب الرسّ

تعني مفردة الرس في الأصل (الأثر المختصر)، ويرى البعض أنّ الرس مختصر الأرس (نهر معروف في شمال ايران) بينما يرىٰ الأعم الأغلب أنّها بئر ويعتقدون أنّ القوم الذين لم يبق منهم الآن إلّا القليل كانوا مزارعين ولديهم عدّة آبار مليئة بالمياه فكانت أوضاعهم المعاشية جيدة، وهنالك خلاف بين المفسرين بشأن المكان الذي عاشوا فيه والنّبي الذي أرسل إليهم، فالبعض يعتقد أنّهم بقايا عاد وثمود، بينما يرى البعض الآخر أنّهم عاشوا في اليمامة وكان نبيّهم يدعى حنظلة، ويرى آخرون أنّ نبيّهم كان شعيب.

جاء في كتاب عيون أخبار الرضا أنّ أميرالمؤمنين عليعليه السلام قال: «**إِنّهُم كَانُوا قَوماً يَعبُدونَ شَجرَةً صُنوبر يُقالُ لَها شاه دَرخت وَكَانتْ لَهُم إثنَتا عَشَرَ قَريةً عَلىٰ**

---

١. راجع دائرة المعارف لفريد وجدي، قاموس دهخدا والتفاسير ذيل الآية «**قَالُوا يَا مُوسىٰ إِنَّ فِيها قَوماً جَبّارِينَ**» سورة المائدة، الآية ٢٢.

شاطئ نَهرٍ يِقالُ لَهُ أرسُ يُسمى إحداهُنَّ آبان والثّانية آذَر وَالثّالثة دي وَالرّابِعة بَهمن وَالخامِسة اسفندار وَالسّادسَة فَروردين وَالسّابعة أُرديبهشت وَالثّامنة خرداد وَالتّاسعة تِير وَالعاشِرة مُرداد وَالحادية عَشرة شهريور وَالثّانية عشرة مِهر، وَكَانُوا يَأْتُون بِشِياهٍ وَبقَر فَيذبَحُونَها لِلشجرةِ وَيَشعِلُونَ النِّيرانَ بِالحَطبِ فَإذا إرتَفَع دُخان تِلكَ الذَّبائِح خَرّوا لَلشجرةِ سُجّداً يَبكُونَ وَيَتضرعُونَ إليها، ثُمَّ بَعثَ اللهُ عَزّ وَجلّ إليهِم نَبيّاً مِنْ بَني اسرائيلَ فَلَم يَتّبِعُوهُ فَدعا اللهَ قَائلاً: أَيبِس شَجَرَهُم أَجْمَع، أرِهم قُدرَتَكَ وَسُلطانَكَ، فَأَصبَحَ القَومُ وَقَد يَبِس شَجَرُهُم كُلّه فَهالَهُم ذَلِكَ وَاجتَمعَ رَأيُهم وَاتّخذُوا أَنابِيبَ طُوال مِنْ رِصاص وَاسعةِ الأفواهِ ثُمَّ أَرسلُوها فِي قَرارِ العِينِ وَأَرسلُوا فِيها نَبِيّهُم حَيّاً حَتّىٰ مَاتَ، فَأَرسلَ اللهُ عَلَيهِم رِيحاً عَاصِفاً، شديدة الحُمرة؛ فَأَماتَهُم جَميعاً»[١].

نعم، لقد رأت الدنيا الكثير من السلاطين والأقوام المنحرفة والجبابرة الظالمة، وقد طفح غبار النسيان لا على قبورهم فحسب بل على تاريخهم، وهذا أفضل سند ودليل على عدم وفاء الدنيا لأحد.

৯০৫

---

١. راجع بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٤٨ فما فوق، وتفسير الميزان، ج ١٥؛ التفسير الأمثل، ج١٥ ذيل الآية ٣٨ من سورة الفرقان، والآية ١٢ من سورة ق.

القسم السادس

ومنها: قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدبِهَا، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا؛ فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُو مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ، وضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ.

الشرح والتفسير

خصائص ذلك الولي

ما ورد في هذا القسم يبدو ظاهراً عديم الإرتباط بالأقسام السابقة من الخطبة وسبب ذلك أنّ السيد الرضي لا ينقل جميع الخطبة في أغلب الأحيان، بل يختار قطوفاً منها، ويدلّ على ذلك ما صدر به هذه الخطبة بقوله «مِنْها»، وهذا ما أدى إلىٰ نوع من الإبهام والغموض في هذا القسم وعودة الضمائر فيه ليقدم كلّ شارح ما يراه من احتمال بشأنها، لكننا نعتقد بوجود بعض القرائن لها هنا.

فقال عليه السلام: «قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا[1]، وأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا».

هنالك عدّة احتمالات بشأن هذا الشخص الذي تدرع بالحكمة وأخذ بجميع آدابها ومنها أربعة احتمالات هي:

---

١. «جنّة» من مادة «جن» على وزن «فن» بمعنى تغطية الشي وتطلق على المجنون وكأنّ ستراً غطى عقله. والجن كائن لا يرى والجنين أيضاً مستور في الرحم كما تطلق الجنّة على البستان كونه مغطى بالأشجار وجنان على وزن «زمان» تطلق على القلب المستور في الصدر ووردت الجنّة في الخطبة بمعنى الدرع الذي يلبسه الإنسان في الدفاع عن نفسه.

١. قال البعض: المراد به الإمام المهدي عليه السلام وغيبته ونهضته، وقد نسب ابن أبي الحديد هذا الراي إلىٰ الإماميّة ولم يقرّ به بادئ الأمر، بينما أذعن أخيراً بأنّه الشخص الذي سيولد في آخر الزمان واسمه المهدي عليه السلام.

٢. قال الفلاسفة: هم نخبة من العرفاء يتواجدون بين الناس في كلّ زمان.

٣. جاء عن بعض المتصوفه أنّ المراد أولياء الله وسالكي طريق الحقّ الذين يتواجدون على الأرض على الدوام.

٤. وترى المعتزلة أنّ المراد به العالم العدل والموحّد من المؤمنين من الأفراد الذين يعيشون بين الناس، ولكن حين نسلط الضوء على هذه العبارات إلىٰ آخر القسم سيتّضح لدينا بما لا يقبل الشك أنّ المراد هو الإمام المهدي عليه السلام.

على كلّ حال فالعبارة: «**قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا**» تشير إلىٰ أنّه حكيم وقد لبس جلباباً لحفض هذه الحكمة والمراد من ذلك طبعاً جلباب الورع والتقوى، كما ورد في هذا الحديث الشريف: «**ما أَخْلَصَ عَبْدٌ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعينَ صَباحاً إِلَّا جَرَتْ يَنابيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلى لِسانِهِ**»[1].

والعبارات اللاحقة: «**وأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا...**» كلّها تشير إلىٰ أنّه حكيم، قد عمّت الحكمة والعلم كلّ كيانه وبها يدير شؤون من حوله.

ثم قال عليه السلام: «**فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا**».

وهذا الكلام تأكيد آخر على أنّ ذلك الولي ينطلق في مشروعه من الحكمة والعلم ليمارس قبل كلّ شيء خلق الثورة العلميّة والثقافيّة، وينسجم هذا الكلام تماماً وما ورد في الروايات بشأن المهدي عليه السلام.

ومن ذلك ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إذا قامَ قائِمُنا وَضَعَ يَدَهُ عَلى رُؤُوسِ الْعِبادِ فَجَمَعَ بِها عُقُولَهُمْ وكَمُلَتْ بِها أَحْلامُهُم**»[2].

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٦٩، ح ٣٢١.

٢. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٢٨، ح ٤٧.

وواصل كلامه عليه السلام في بيان ميزة أخرىٰ لذلك الولي فقال: «فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ[١] الْإِسْلَامُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ[٢] ذَنَبِهِ[٣]، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ[٤]».

حين تتخلف الناقة عن المشي فإنّها تفترش الأرض بحيث يلتصق ذنبها بالأرض حتى تضع عليه أسفل عنقها وهذه دلالة على شدّة التعب ويستفيد العرب من هذا الأمر بصفته كناية عن الضعف والعجز، وهذا الكلام إشارة واضحة أخرىٰ إلىٰ أحد صفات ذلك الولي الربّاني في أنّ الإسلام والمسلمين يعيشون أقصى درجات الضعف في غيبته وتتكالب عليهم الأعداء من كلّ حدب وصوب بغية القضاء على الإسلام وكسر شوكة المسلمين.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً فَجَمِيعُ ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَرْفانِ فَلَمْ يَعْرِفِ النّاسُ حَتّى الْيَوْمِ غَيْرَ الْحَرْفَيْنِ فَإذا قامَ قائِمُنا أَخْرَجَ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ حَرْفاً فَبَثَّها في النّاسِ وَضَمَّ إِلَيْها الْحَرْفَيْنِ حَتّى يَبُثَّها سَبْعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفاً»[٥].

(إشارة إلىٰ أنّ الإمام المهدي عليه السلام يمارس ثورة ثقافية هائلة وسريعة بحيث يرقى بسطح العلم والمعرفة عشرة أضعاف ما كانت عليه).

ويختتم الإمام عليه السلام هذا القسم بمسألة واضحة بهذا الخصوص فيقول: «بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ».

وكما يفهم من بيان هذه الصفات فإنّ مرجع الضمير في العبارات السابقة لا يعود

---

١. «اغترب» من مادة «اغتراب» بمعنى الهجرة.

٢. «عسيب» يقال للعظم في مؤخرة ذيل الدابة أو الفرس.

٣. «الذنب» من مادة «ذنب» على وزن «ضرب» بمعنى متابعة الشيء، وبما أنّ للذنب آثار وتبعات لا تفارق الإنسان لذلك قيل له ذنب على وزن «ضرب» وذنب على وزن «هدف» الذي ورد في هذه الخطبة بمعنى ذيل الحيوان وذيل كلّ شيء.

٤. «جران» يقال لمقدّم عنق البعير والعبارة (ضرب بجرانه) كناية عن الإطراق في مكان.

٥. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٣٦.

إلّا إلىٰ الإمام المهدي عليه السلام سيما من خلال هذه المفردات «بقية»، «بقيّة الله»، «الحجّة»، «الخليفة» الواضحة في نصوصنا الدينيّة.

تأمّل

إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام

يستفاد من الإشارات الواضحة التي تضمنتها هذه الخطبة بشأن نهضة الإمام المهدي عليه السلام وخلافاً لما يتصوره الجهّال فإنّ القاعدة الأصلية التي ينطلق منها الإمام عليه السلام إنّما تستند إلىٰ الثورة الثقافية والعلميّة والفكريّة، لا النهضة العسكريّة التي تختزن إراقة الدماء، حيث يرتقي بالمستوى العلمي لدى الناس بحيث يمارس حكومته القائمة على أساس العدل والقسط، طبعاً سيواجه الإمام عليه السلام في بداية مشروعه تلك الأقليّة المتغطرسة والمنحرفة التي تحاول إعاقة مشروعه ممّا يضطره لمعالجتها عسكرياً، ولكن يبقى همه محصوراً في طلب العلم والارتفاع بالمستوى العلمي لدى الأمّة ولسان حاله وقاله على غرار سيرة جدّه النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[١].

٨٠٣

---

١. سورة طه، الآية ١١٤.

القسم السابع

ثُمَّ قالَ عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، للهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، ويُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟

أَلاَ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الأَخْيَارُ، وبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لَا يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وهُمْ بِصِفِّينَ أَلاَّ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ ويَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ واللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

الشرح والتفسير

التذكير بما يلزم!

خاض الإمام عليه السلام في الوعظ والإرشاد والنصح المشوب بالتحذير فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ[1] لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وحَدَوْتُكُمْ[2] بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا[3]».

---

١. «بثثت» من مادة «بثّ» على وزن «نص» بمعنى النشر.

٢. «حدوتكم» من مادة «حَذو» على وزن «محو» و«حُدى» على وزن «دعا» تعني في الأصل سير الدابة بصوت مخصوص من قبل الجمال ثم اطلقت على كلّ سوق وسير.

٣. «تستوسقوا» من «وسوق» بمعنى الاجتماع والانضمام إلى بعض.

تشير هذه العبارات إلىٰ أنّ الإمام عليه السلام كان يستغل كلّ فرصة بغية هداية أهل الكوفة الذين عرفوا بالضعف والتشتت وقد مارس شتّى الأعمال الثقافية بهذا الشأن حتى أفاض عليهم مختلف مواعظ الأنبياء وإرشادات الأوصياء إلّا أنّ المطر الرحمة الإلهيّة لم يجد له من سبيل في أرض قلوبهم السبخة، ثم تخلى عن الرفق والمرونة ليجابههم بشدة علهم يعودون إلىٰ أنفسهم ويعيشون الوحدة؛ ومرّة أخرىٰ لم تجد هذه المسامير من سبيل في تلك الأحجار الصلدة، ليتّضح بجلاء أن لا نقص ولا عيب في الزعامة والقيادة، بل العيب كلّه في تلك الفئة الجاهلة الفاقدة للحميّة.

كما تفيد هذه العبارات أنّ مساعي جميع الأنبياء والأوصياء لا تبدو مجدية مع هؤلاء القوم. «**للهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، ويُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟**».

أي حين لا يتمكن زعيم مثلي من إعادتكم إلىٰ جادة الصواب فسوف لن يكون هنالك قط من يسعه القيام بذلك.

والغريب أنّه رغم حالة اليأس والقنوط التي تفرزها طبيعة تلك الفئة إلّا أنّ الإمام عليه السلام لا يكفّ عن النصح والإرشاد، فيستعرض لهم طبيعة ما حولهم وما تحكمه من ظروف ويكشف لهم عن منزلة الشهادة في سبيل الله فيقول: «**أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً**».

إشارة إلىٰ اقبال جميع الفضائل على المجتمع الإنساني إبان بزوغ فجر الإسلام وشروق شمس النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ هذه القيم والسنن الإلهيّة قد ولّت ظهرها لهذا المجتمع وحلّت محلّها قبائح عصر الجاهلية التي طويت صفحتها عن المجتمع الإسلامي بفعل ظهور بني أميّة وسليلي عصر الجاهلية.

ثم ذكر عليه السلام مقدمة بهدف الاشادة بمقام الشهداء في سبيل الله وترسيخ ثقافة الجهاد والشهادة إزاء الطواغيت والظلمة فقال: «**وأَزْمَعَ[1] التَّرْحَالَ[2] عِبَادُ اللهِ الأَخْيَارُ،**

---

١. «أزمع» من مادة «زمع» على وزن «شمع» في الأصل بمعنى التصميم على الشيء.

٢. «ترحال» من مادة «رحلة» بمعنى السفر والحركة.

وبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لَا يَفْنَى».

تشير هذه العبارة اللطيفة إلىٰ أنّ أولئك الأخيار الذين فازوا بالشهادة وتـقلّدوا وسام الشرف بالجهاد في سبيل الله لم يجانبوا الضرر فحسب، بل مارسوا تـجارة مربحة حيث باعوا القليل من متاع الدنيا الفاني بالكثير من متاع الآخرة الباقي، كما أنّ أولئك الذين وفقوا لجهاد أنفسهم ولم ينالوا الشهادة وولّوا ظهورهم لزخرف الدنيا وزبرجها وأقبلوا على الآخرة ونعيمها هم أيضاً في مصاف عباد الله الأخيار.

ثم أكّد الإمام عليه السلام ذلك بقوله: «مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وهُمْ بِصِفِّينَ أَلاَّ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ[1] الْغُصَصَ ويَشْرَبُونَ الرَّنْقَ![2]».

إشارة إلىٰ أنّهم ذهبوا واستراحوا لنبقى اليوم ونشهد هذه الأوضاع المزرية التي يصول ويجول فيها العدو بينما يكتفي الأصحاب الضعاف في الحقّ والفاقدو الإرادة بالتفرج على هذا المشهد الذي يهز من الأعـماق كـلّ مـؤمن غـيور، والواقـع أنّ الإمام عليه السلام يشير بهذه العبارات إلىٰ جنايات معاوية وجند الشام وسكوت وضـعف أهل الكوفة والعراق.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته فقال: «قَدْ واللهِ لَقُوا اللهُ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ».

أجل، فالأمر كما قال القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِهِم يُرزَقُونَ﴾، بل الموتى أولئك الذين استسلموا للـذل وواصـلوا حياتهم الماديّة التافهة في ظلّ راية الطواغيت والظلمة، والحقّ أنّ الشهادة مـدعاة للفخر، ويتضاعف هذا الفخر حين يكون في وسط اجواء فاسدة وقذرة وتنتهي إلىٰ الخلاص من الطغمة المفسدة والمتجبرة.

ولعل الرسالة التي اطلقها الإمام علي عليه السلام من محراب عبادته حين شهادته بقوله:

---

١. «يسيغون» من مادة «سوغ» على وزن «فوق» وسيغ، على وزن «سيل» بمعنى الهنيء.

٢. «رنق» بمعنى الكدر.

«فُزْتُ ورَبِّ الْكَعْبَةِ» لتختزن العديد من الدروس والعبر التي ينبغي أن يحتذي بها المؤمنون.

ﮂﮃ

القسم الثامن

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وأَيْنَ ذُوالشَّهَادَتَيْنِ؟ وأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ!

قال: ثمّ ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: (أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، ووَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ).

ثم نادى بأعلى صوته: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ! أَلَا وإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ!

الشرح والتفسير

النفير العام للجهاد

تغيّر خطاب الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة ليواصل خطبته بعبارات مليئة بالحزن ويذكر تلك الثلّة من الشهداء في صفين التي خلا مكانها الآن بين الأصحاب فقال: «أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟».

ثم ركز عليه السلام على الطليعة منهم في الاثرة والشهادة والعلم والمعرفة فقال: «أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟» ثم ذكرهم بصورة كلية وعامة فقال: «وأَيْنَ ذُوالشَّهَادَتَيْنِ؟ وأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ[1]

١. «أبرد» من مادة «برود» و«برودة» بمعنى البرودة وتستعمل هذه المفردة بشأن يرد مكاناً آخر النهار وكذلك

بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ!».

إشارة إلىٰ عشرات الأفراد من أصحاب النّبي الأكرمﷺ الذين لزموا علياًعليه السلام ونالوا الشهادة في صفين وقام جناة جيش معاوية بحز رؤوسهم وارسالها إلىٰ طاغيتهم معاوية[1].

«قالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطالَ الْبُكاءَ»، ثُمَّ قالَعليه السلام: «أَوِّهِ[2] عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، ووَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ».

فهذه الصفات الست تفيد عظمة مقامهم في العمل والعلم في حفظ الدين والجهاد وطاعة الإمام والزعيم الربّاني، فقد كانوا على بصيرة بالقرآن فيطبقونه على تفاصيل حياتهم كما كانوا على علم بالواجبات فيعملون بها ويميتون البدعة ويحيون السنّة كما كانوا من أهل الإيثار والتضحية حين الجهاد.

في الواقع أنّ الإمامعليه السلام أراد أن يقدم لأصحابه أُسوة حسنة ويقول إنّ المؤمن الواقعي والمسلم الحقيقي وصاحب النّبي الأكرمﷺ من يتصف بهذه الخصائص، أملاً في أن تفعل هذه الكلمات الحماسية فعلها في تلك القلوب الباهتة فيهب أصحابها لجهاد الظلمة والطواغيت. «ثُمَّ نادى بِأَعْلى صَوْتِهِ: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ! أَلَا وإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ!». وهكذا دعا الإمامعليه السلام القوم للجهاد بعد تلك المواعظ البالغة، فأقبل العديد منهم وشعر بخطورة المسؤوليّة فتأهب للجهاد.

«قال نَوْفٌ: وعَقَدَ لِلْحُسَيْنِعليه السلام في عَشَرَةِ آلاف، ولِقيسِ بن سعد في عَشَرَةِ

☜ بشأن الرسالة التي تنقل من مكان إلى آخر وتطلق اليوم على دائرة البريد والمراد هنا ارسلت مع البريد بعد قتلهم إلىٰ معاوية.

١. روى ابن عبد البر عن عبد الرحمن بن أبزي أنّ ثلاثمائة ممن بايع رسول اللهﷺ في بيعة الرضوان شهدوا صفين مع عليعليه السلام فقتل منهم ثلاثة وستون، ومنهم عمار بن ياسر (الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٠ عمار بن ياسر).

٢. «اوِّه» بفتح الهمزة وكسر الواو وتشديدها وكسر الهاء كلمة توجع.

آلاف، ولِابي أيُّوبِ الأنْصاري في عَشَرَةِ آلاف، ولِغَيْرِهِمْ عَلى أَعْداد أُخَـر، وهُـو يُريدُ الرَّجْعَةَ إلى صِفينَ، فَما دارَتِ الْجُمْعَةُ حَتّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابنُ مُلْجَم لَعَنَهُ اللهُ، فَتَراجَعَتِ الْعَساكِرُ، فَكُنّا كَأَغْنام فَقَدتْ راعيها، تَخْتَطُفها الذِئابُ مِن كُلِّ مَكان!».

وعلى هذا الأساس فرح ذئاب الشام ولصوص جيش معاوية بتخلصهم من ذلك الخطر العظيم، بينما عاش المؤمنون حالة من الأسى والهم، جاء في الرواية أنّ الشام لما بلغها خبر قتل أمير المؤمنين عليه السلام علم بذلك عمرو بن العاص فبشر معاوية قائلاً: «إنَّ الأَسَد المُفرِشِ ذِراعَيْهِ بِالْعَراقِ لاقىٰ شُعُوبَه»[1].

تأمّل

صحب الإمام عليه السلام الميامين

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعض الأصحاب الأوفياء الذين كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الأشداء، ثم وفوا بما عاهدوا عليه الإمام عليه السلام حتى نالوا الشهادة في صفين، وكما ذكر سابقاً وجاء في الرواية أنّ ٣٠٠ من صحابة النّبي صلى الله عليه وآله الذين بايعوه في بيعة الرضوان وكان منهم ممن شهد بدر قد وقفوا إلىٰ جانب علي في صفين فقتل منهم ٦٣ وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة منهم، ونذكر هنا نبذة عن كلّ واحد منهم ثم نخوض في سيرة قيس بن سعد وابي أيوب الأنصاري الذين ورد إسماهما في آخر الخطبة بصفتهما من أُمراء جيش الإمام عليه السلام.

١. عمّار بن ياسر

كنيته أبواليقظان، أسلم في مكة وتحمل أشدّ العذاب، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّ ياسر حين قدم إلىٰ مكة تزوج من جارية هي سمية التي ولدت له عماراً الذي عذب على يد المشركين وأجبر على الطعن بالإسلام، فأتى النّبي صلى الله عليه وآله

١. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٦٩.

باكياً فنزلت الآية الشريفة: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ﴾[1] التي تدلّ على التقية في هذه الموارد، وأجمع المفسرون على أنّ الآية نزلت في عمّار، وكان ممن هاجرالحبشة وصلى إلىٰ القبلتين ومن أوائل المهاجرين الذين شهدوا بدراً وجميع الغزوات الإسلاميّة.

قال فيه النّبي الأكرمﷺ: «اِنَّهُ مَليئٌ إيماناً إلىٰ أَخْمُصِ قَدَمَيْهِ»؛ وقال أيضاً: «مَنْ أَبْغَضَ عَمّاراً أَبْغَضَهُ اللهُ»؛ وقالﷺ: «تَشتاقُ الجَنَّةُ إلىٰ أربعة: عَليٍّ وَعمّار وَسَلمان وأبي ذر».

وأضاف ابن عبد البر تواتر عن النّبيﷺ أنّه قال: «تَقْتُلُ عَمّاراً الْفِئَةُ الْباغِيَةُ».

وعدّه ابن عبد البر من أصح الأخبار، وقد قتل يوم صفين وهذا أعظم دليل على بطلان معاوية، وروى ابن عبد البر عن أبي عبد الرحمن السلميانة قال: شهدنا صفين فرأيت عمار بن ياسر ومعه أصحاب محمّد وكأنّه رأيتهم وسمعت عمار يقول لهاشم ابن عقبة (عتبة) احمل يا هاشم فالجنّة في ظلال السيوف، اليوم نلقى محمّداً وأصحابه فإنّما نحن على الحقّ وهم على الباطل. يقول عبد الله ابن سلمة: نظرت عمّار في صفين وقد أصابه العطش فالتمس ماء، فأتوه بظرف من اللبن فقال اليوم التقي أصحابي فقد قال لي رسول اللهﷺ: «إنّ آخِرَ شَرابِكَ مِنَ الدُّنيا ضَباحاً مِنْ لَبن»[2].

جدير ذكره أنّه لما بلغ معاوية خبر قتل مالك الأشتر ـ بعد صفين ـ خطب الناس فقال: «أما بعد فإنّه كانت لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين ـ يعني عمّار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم ـ يعني الأشتر ـ »[3].

٢. ابن التيّهان

هو أبوالهيثم بن التيهان واسمه مالك من قبيلة الأنصار، وهو أحد النقباء ليلة

---

١. سورة النحل، الآية ١٠٦.

٢. الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٨ (سيرة عمار).

٣. كامل ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٥٣، في حوادث سنة ٣٨ هجري.

العقبة وممن شهد بدراً، وقيل إنّه أدرك صفين وقتل فيها، ويؤيد ذلك هذه الخطبة، وذكر ابن أبي‌الحديد أسماء طائفة من علماء أهل السنّة الذين قالوا بقتله في صفين[١].

٣. ذو الشهادتين

هو خزيمة بن ثابت الأنصاري وكنيته أبو عمّار وممن التحق بالنّبي ﷺ في المدينة وقد وروى ابن الأثير في أُسد الغابة سبب لقبه ذوالشهادتين فقال: إنّ النّبي ﷺ اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي، فجحد سواء، فشهد خزيمة بن ثابت للنبي فقال له رسول الله ﷺ: «**مٰا حَمَلَكَ عَلىٰ الشّهادةِ وَلَم تَكُن مَعنا حاضِراً**»، فقال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنّك لا تقول إلّا حقّاً، فقال: رسول الله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيمِةُ أو عَلَيهِ فَحَسبُهُ**»[٢]، فجعل رسول الله شهادة خزيمة بشهادتين (طبعاً هذا استثناء وذلك بسبب إيمان خزيمة ولعل ذلك كون شهادته تدعو إلى علم القاضي). كان ممن شهد الغزوات الإسلاميّة، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّه شهد صفين فقاتل فيها حتى قتل[٣].

٤. قيس بن سعد بن عبادة

كنيته أبوالفضل. كان رجلاً شجاعاً وجواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وكان قيس من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وهو معروف بمحبّته وولائه للإمام وشهد معه حروبه كلّها وروى انس بن مالك أنّ قيس بن سعد كان رئيس حاجبي النّبي ﷺ (وكان ثقة في كلّ الأمور) وذكر ابن شهاب: أنّ قيس بن سعد كان أحد الساسة العرب الخمسة الذين يحلّون المشاكل والفتن[٤].

---

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٠، ص ١٠٧ و ١٠٨.
٢. أسد الغابة، ج ٢، ص ١١٤ (سيرة خزيمة).
٣. الاستيعاب، ج ١، ص ٢٦٨ (سيرة خزيمة بن ثابت).
٤. أسد الغابة، ج ٤، ص ٢١٥؛ الاستيعاب، ج ٢، ص ١٥٩ (سيرة قيس بن سعد).

٥. أبو أيوب الأنصاري

هو خالد بن زيد ويعرف عادة بالكنية، كان ممن صحب رسول الله ﷺ وشهد العقبة وشهد بدراً، وعليه نزل النّبي الأكرم ﷺ حين قدم المدينة ولم يزل عنده حتى بنى مسجده ومساكنه، شهد مع علي عليه السلام الجمل وصفين وكان في المقدمة يوم النهروان، عاش عشر سنوات بعد علي عليه السلام وتوفي سنة ٥٠ للهجرة[١].

ويتّضح ممّا مرّ معنا سابقاً هذه النقطة التاريخيّة من هم الأفراد الذي قاتلوا مع علي عليه السلام قاسطي الشام وسائر البغاة ؟ ومن هم أولئك الأفراد الذين نالوا الشهادة مع علي عليه السلام ومن هم قادة جيشه ؟ ولو لم يكن هناك من دليل على أحقيّته عليه السلام وبطلان خصمه سوى هذا لكفى.

---

١. الاستيعاب، ج ١، ص ٢٥٣؛ ج ٢، ص ٣٦٨.

١٨٣

ومن خطبة له عليه السلام

فِي قُدْرَةِ اللهِ وفِي فَضْلِ الْقُرْآنِ وفِي الْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوى[١]

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من الخطب الغاية في الفصاحة والبلاغة والتي تتضمن عدّة مباحث تبدو غير متصلة الأقسام، وذلك بسبب أسلوب السيد الرضي‎ المعهود في الاختيار. على كل حال تتعرض الخطبة لخمسة مواضيع مهمّة هي:

١. جانب من صفات الله الجلاليّة والجماليّة بعبارات عميقة المعنى.

٢. التعريف بالقرآن الكريم وبيان بعض خصائصه المهمّة.

٣. الوصيّة بالورع والتقوى وشرح آثارها وبركاتها.

٤. ذكر للقيامة ونار جهنم الأليمة وعجز الإنسان عن تحملها.

---

١. سند الخطبة:

روى هذه الخطبة بعض الأفراد بعد السيد الرضي وإن لم نعثر عليها في كتب الحديث قبله، فذكروها بما يفيد أنّهم عثروا عليها في مصدر آخر غير نهج البلاغة، وممن روى هذه الخطبة الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار فذكر بعض هذه الخطبة الذي يرتبط بأنواع نار جهنم، كما فسّر ابن الأثير كلماتها في كتابه النهاية، وكما ذكر السيد هاشم البحراني في كتابه البرهان جانباً منها مع اختلاف وما ورد في نهج البلاغة، وهذا يدلّ على أنّه استقاها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥٩).

٥. بيان سبل النجاة من نار جهنم والاستفادة من إمكانات الدنيا في هذا السبيل وأهمها إغاثة المحرومين والمساكين.

ﮮﮭ

القسم الأوّل

الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَـةٍ، والْـخَالِقِ مِـنْ غَـيْرِ مَـنْصَبَةٍ. خَـلَقَ الْـخَلاَئِقَ بِـقُدْرَتِهِ، وَاسْـتَعْبَدَ الأَرْبَـابَ بِـعِزَّتِهِ، وسَـادَ الْـعُظَمَاءَ بِـجُودِهِ؛ وهُوالَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ والإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَـنْ غِـطَائِهَا، ولِـيُحَذِّرُوهُمْ مِـنْ ضَـرَّائِـهَا، ولِـيَضْرِبُوا لَـهُمْ أَمْـثَالَهَا، ولِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا، ولِيَهْجُمُوا عَـلَيْهِمْ بِـمُعْتَبَرٍ مِـنْ تَـصَرُّفِ مَـصَاحِّهَا وأَسْقَامِهَا، وحَلاَلِهَا وحَرَامِهَا، ومَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ ونَارٍ، وكَرَامَةٍ وهَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وجَعَلَ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً، ولِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

الشرح والتفسير

دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم

جدير ذكره أنّ «ابن أبي الحديد المعتزلي» لما بلغ هذه الخطبة تأثر جدّاً بفصاحتها وبلاغتها. ثم خاض في مقارنتها مع أحد أبرز وأفضل الخطب التي خطبها الكاتب العربي المعروف (ابن أبي الشحماء العسقلاني) فأشار إلىٰ ضعف تلك الخطبة إزاء خطبة أميرالمؤمنين عليه السلام، واستنتج أنّ مثل هذه العبارات لا تصدر إلّا من علي عليه السلام وعرض بالذم لأولئك المتعصبين الذي يحاولون عبثاً نسب خطب نهج البلاغة لغير الإمام عليه السلام ويراهم لا يتبعون إلّا أهواءهم ورغباتهم[1].

على كلّ حال استهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ،

---

1. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٢٦.

والْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَة[١]. خَلَقَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ».

لا شك في أنّ الرؤية والمشاهدة تختص بالأجسام، والله أسمىٰ من الجسميّة، والتعب والإرهاق أثر القيام بالأعمال من شؤون الأفراد ذوي القدرة المحدودة، وليس لها من سبيل إلىٰ من كانت جميع صفاته لامتناهيّة في خلقه لما يشاء، فخلق هذا العالم أهون عليه من رؤيتنا لبعضنا خلال لحظة، كما ليس لمقتدر من قدرة أمام الله، فهو القادر على فناء كلّ شيء بعاصفة أو صاعقة أو زلزلة أو سيل جارف.

العبارة: «وسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ» إشارة لطيفة إلىٰ هذه الحقيقة أنّ عظمة الإنسان في جوده وكرمه فكلما كانت كرمه أكبر كان عظمته كذلك، ولكن بما أنّ جميع نعم الأرض والسماء من الله الذي بسط مائدته لتشمل الجميع فهو أعظم من كلّ عظيم.

ثم أشار إلىٰ جانب من صفاته سبحانه في خلق الإنسان والهدف من هذه الخلقة وطُرق الأنبياء عليهم السلام في التربية والتعليم فقال: «وهُوالَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ والإِنْسِ رُسُلَهُ».

ثم تطرق إلىٰ الهدف من بعثة الأنبياء ليوجزها في عدّة أمور فقال: «لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، ولِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، ولِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، ولِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا».

أجل، فزخارف الدنيا ومتاعها غفلة وعيشها نكد ومالها ومقامها ضلالة، ومن هنا كان أحد المبادىء الأساسيّة للأنبياء تحذيراتهم المتكررة للإنسان بغية عدم الغفلة عن الهدف الأساسي للخلقة وعدم الاستغراق في هذه الدنيا واتخاذها قنطرة إلىٰ الآخرة وعدم الركون إلىٰ الإقامة فيها فهي ليست إلّا منزل يتوقف فيه الإنسان لليلة.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشارة إلىٰ سائر أهداف الأنبياء فقال: «ولِيَهْجُمُوا[٢] عَلَيْهِمْ

---

١. «منصبة» مصدر ميمي من مادة «نصب» على وزن «غضب» بمعنى التعب، وللمصدر هنا معنى اسم المصدر.

٢. «يهجموا» من مادة «هجوم» بمعنى الدخول أو الحملة غفلة ويراد بها في بعض الموارد القوّة.

بِمُعْتَبَرٍ[١] مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا[٢] وَأَسْقَامِهَا، وَحَلاَلِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ».

إشارة إلىٰ أنّ الأنبياء عليهم السلام وإضافة لما سبق ينشدون ثلاثة أهداف مهمّة أخرىٰ لهداية الناس؛ فذكر في البداية الدروس والعبر التي تختزنها هذه الحياة العابرة، ومن ذلك أننا نرى بعض الأفراد الأصحاء والأقوياء الذين سرعان ما يهجم عليهم المرض فيسلبهم قدرة الحركة ويسير بهم إلىٰ حافة الموت، وإذا بهم ينهضون فجأة ليستأنفوا نشاطهم من جديد، والآخر بيان الحلال والحرام الذي يشكل جانباً مهماً من دعوة الأنبياء ويمثل الحد الفاصل بين المنطقة الآمنة والمحظورة.

والثالث بيان الثواب والعقاب المادي والمعنوي ـ المادي مثل الجنّة والنار والمعنوي مثل الاحترام والتحقير ـ فكلّ هذه الأمور من شأنها أن تكون دافعاً لطاعة الله[٣].

العبارة: «لِيَهْجُمُوا» إشارة إلىٰ أنّ أنبياء الله يخوضون في أهداف الدعوة من خلال بياناتهم البلاغية وتعبيراتهم المؤكدة والتي تفعل فعلها في نفس المخاطب.

ثم عاد الإمام عليه السلام في ختام هذا القسم إلىٰ حمد الله والثناء عليه فقال: «**أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ**».

وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة في مفهوم هذه العبارة، ولكن بالنظر إلىٰ العبارة «اسْتَحْمَدَ إِلَى فلان» التي تعني أنّه عامله بإحسان ليحمده[٤] يصبح معنى العبارة (أحمده على إفاضة النعم) كما طلب من عباده.

---

١. «معتبر» اسم مفعول من مادة «عبرة» تعني في الأصل العبور من شيء، ويقال العبرة للحوادث التي يعتبر بها الإنسان كونها تعبر الإنسان من شيء إلىٰ آخر، وعليه فالمعتبر يطلق على كلّ أساس لعبرة واتعاظ.

٢. «مصاح» جمع «مصحّة» بمعنى اسم المصدر من مادة «صحة» تعني الصحة والعافية.

٣. كثرت أقوال شرّاح نهج البلاغة التي لا تخلو من تكلّف في تفسيرهم لهذه العبارات والمعطوف عليه في العبارة (حلالها وحرامها...) والأنسب أن تكون العبارة (حلالها... وما أعد الله...) عطف على (بمعتبر) ليكون المعنى أنّ للأنبياء ثلاثة وظائف أخرىٰ والتي شرحناها آنفاً.

٤. المعجم الوسيط، مفردة «حمد».

وعادعليه السلام في الختام إلىٰ ما استهل به الخطبة فتطرق إلىٰ محدودية الحياة الدنيا والحساب الدقيق الذي يسود العالم فقال: «**وجَعَلَ لِكُلِّ شَيء قَدْراً، ولِكُلِّ قَدْر أَجَلا، ولِكُلِّ أَجَل كِتَاباً**».

نعم ! فكلّ ذرات هذا العالم تسير وفق حساب وكل شيء في لوح محفوظ، كما أنّ لجميع موجودات هذا العالم نهاية ستبلغها في وقت معين ينتهي فيه عمرهم وهذه عبرة لجميع الناس ليعلموا من جانب أنّ الدنيا ليست باقية ومن جانب آخر أنّ هنالك حساباً دقيقاً ينتظر جميع الأعمال.

ﮮﮯ

القسم الثاني

منها: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، ولَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أوكَرِهَهُ إِلَّا وجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أوتَدْعُوإِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ولَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ.

الشرح والتفسير

الهدى في ظلّ القرآن

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبة عن المبدأ والمعاد وصفات الجلال والجمال والثواب والعقاب يوم القيامة إلىٰ جانب بعثة الأنبياء والرسل وبيانهم للحلال والحرام.

وتطرق هنا إلىٰ القرآن الكريم لكونه معجزة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأعظم مشروع عمل يوم القيامة وذكر له عدّة أوصاف تشير جميعاً إلىٰ جامعية القرآن وشموليته فقال: «فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ،

وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ».

فقد ذكرعليه السلام سبع صفات مهمّة للقرآن كافية شافية لبيان أهميّة القرآن ومنزلته الرفيعة. العبارة «آمِرٌ زَاجِرٌ، وصَامِتٌ نَاطِقٌ» في الواقع كلّ منهما صفتان للقرآن وقد حذفت واو العطف بينهما، أي للقرآن أوامر ونواهٍ سكت في بعض الأمور التي تقتضي المصلحة فيها السكوت وانطلق بيانه في الأمور التي يتوجب على الجميع الإلمام بها أو أنّ القرآن ساكت في الظاهر ذلك أنّه ليس أكثر من حروف وكلمات، إلّا أنّ حقيقة الأمر أنّه تحدّث بمئة لسان وإماط اللثام عن الحقائق، العبارة «أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ» إشارة إلى العهد الذي أخذه الله وأنبياؤه من المؤمنين حين الإيمان بالتوحيد والنبوّة، لأنّ من يبدي إيمانه بهذين المبدأين فمعنى ذلك تسليمه لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وآله، أو أنّ الله بافاضته للعقل من جانب وفطرة التوحيد من جانب آخر أخذ هذا العهد من جميع الناس من خلال التكوين ليسلموا لأمره ويعملوا بكتابه.

العبارة: «وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ» إشارة إلىٰ الحقيقة التي صرّح بها القرآن الكريم ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1] فكما لا تطلق العين المرهونة دون تسديد الديون فإنّ الإنسان لا يبلغ حريته الحقيقية ما لم يمارس وظائفه الدينيّة.

ثم واصل الإمامعليه السلام كلامه ليكشف عن عمق أهميّة كتاب الله بذكره لصفتين أخريين فقال: «أَتَمَّ نُورَهُ، وأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ».

والمراد من النور هنا الفيض الإلهي الذي يشمل العباد عن طريق القرآن، والعبارة «أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ» إشارة إلىٰ الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] التي كمل بموجبها الدين بنزول القرآن ومشروع الولاية.

وتطرق الإمامعليه السلام إلىٰ شمولية أحكام الإسلام والقرآن فقال: «وقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى

---

١. سورة المدثر، الآية ٣٨.

٢. سورة المائدة، الآية ٣.

اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ».

ثم استنتج من ذلك «فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ».

إشارة إلى عدم ارتجال الصفات لله وعدم الابتداع في العبادة والدعاء وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كلّ شيء بل لابدّ من اتباع هديه وإرشاده الذي ورد في القرآن في كل هذه الأمور (يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلىٰ توقيفيّة صفات الله والتعبديّة في الطاعة).

ثم خاض عليه السلام في بيان علّة هذا الموضوع فقال: «فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، ولَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوكَرِهَهُ إِلَّا وجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً[1]، وآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَو تَدْعُو إِلَيْهِ».

بعبارة أخرىٰ، أنّ الله سبحانه وتعالى أتمّ الحجّة في جميع أوامره ونواهيه وجهد رسول الله في ابلاغ الرسالة؛ فأوضح المعالم من الدين وبين الأصول والفروع، وعليه فلم يدع من مجال للبدع في الدين.

ثم قال عليه السلام: «فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ».

وعليه فقد سلب هذه الذريعة في أنّ أحكام عصر النبي صلى الله عليه وآله إنّما تختص بعهده وعلينا الاجتهاد على ضوء تغير الزمان وتبدل الوسط. والواقع أنّ هذه العبارة إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «حَلالُ مُحَمَّد حَلالٌ أَبَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وحَرامُهُ حَرامٌ أَبَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»[2].

وقال في تأكيده على وحدة الرسالة بشأن جميع الناس بما فيهم الماضون والحاضرون والقادمون: «واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْء سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ولَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْء رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَر بَيِّن، وتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْل قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ».

---

١. «بادياً» من مادة «بدو» على وزن «جبر» بمعنى الايضاح ولها حيثية وصفية.

٢. الكافي، ج ١، باب البدع والرأي والمقاييس، ح ١٩.

وتشير كلّ هذه العبارات إلىٰ وحدة تعاليم الأنبياء وسفراء الله وطُرق السعادة والتكامل التي ابلغت من جانب الله بواسطة أنبيائه، رغم رقي التكامل البشري بفعل تقادم الزمان وهذا في الواقع أحد فروع التوحيد، وهو ما أكّده القرآن الكريم.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ﴾[1].

واختتم الإمامعليه‌السلام كلامه هنا بالإشارة لبعض الأمور المهمّة فقال: «قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ».

إشارة من جانب إلىٰ أنّه شملكم بأنواع النعم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمواتِ ومَا فِي الأَرْضِ﴾[2] و﴿هُوالَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾[3] ومن جانب آخر أمركم بالشكر الذي يوجب زيادة النعمة واستمرار العناية الإلهيّة، ومن جانب آخر دعاكم لذكره والذي يعود على قلوبكم بالطمأنينة والنجاة من مخالب الشيطان: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[4] ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ﴾[5].

وما يلاحظ من أنّ الإمامعليه‌السلام اكد على ذكر اللسان من بين جميع الأعمال الواجبة والمستحبة كونه مدعاة ليقظة القلب وهذه اليقظة هي المصدر الرئيسي للحركة نحوالخير والسعادة، أضف إلىٰ ذلك فإنّ اللسان إن لم يلهج بالذكر سينطلق لخدمة الشيطان وأننا لنعلم أنّ العديد من الكبائر إنّما تصدرمن اللسان، جدير بالذكر أنّ التوجه إلىٰ النعم وشكر المنعم على فضله ونعمه هو المحور الأصلي لمعرفة الله كما ورد في علم العقائد.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

٢. سورة الجاثية، الآية ١٣.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٩.

٤. سورة الرعد، الآية ٢٨.

٥. سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

تأمّلان

١. وحدة حكم الله في الأولين والآخرين

إنّ وحدة الأحكام الشرعيّة وسريانها على الأولين والآخرين بما فيها الأقوام والأمم كافّة لمن الأمور المهمّة التي أكّد عليها الإمامعليه السلام في هذا الجانب من الخطبة، وتوضيح ذلك أنّ تاريخ البشريّة في الماضي والحاضر شهد أنواع التمييز بين الأقوام والشعوب في وضع القوانين والتشريعات، فكانت هنالك الأحكام المختلفة التي تتأثر عادة بلون البشرة والأخرى بالمنزلة الاجتماعيّة وكان دم ذوي البشرة البيضاء أثمن من نظيره لدى العبيد فكانت هنالك الامتيازات الخاصّة لدى طبقة الأشراف في سن القوانين.

فانبثق الإسلام ليلغي تلك الامتيازات كافّة إثر تبنيه لرسالة المساواة وعدم التمايز الطبقي وتكافو جميع الأفراد مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم في الحقوق والواجبات وجاء في الخبر أنّ النبي الأكرمصلى الله عليه وآله بينما كان في منى أيّام الحج راكباً دابته إذ التفت إلىٰ الناس فقال: «يا أَيُّها النّاسُ ألا إِنَّ رَبَّكُمْ واحِدٌ وإِنَّ أَباكُمْ واحِدٌ ألا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلى عَجَمي، ولا لِعَجَمِي عَلى عَرَبي، ولا لأَسْوَدَ عَلى أَحْمَرَ[1]، ولا لأَحْمَرَ عَلى اَسْوَدَ إلاّ بِالتَّقْوى. أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قالُوا نَعَم! قالَ لِيَبْلُغَ الشّاهِدُ الْغائِبَ»[2].

ولم يقتصر النّبيصلى الله عليه وآله على هذا الكلام في ذلك التجمع العظيم بمنى، بل أشار إليه في موارد كثيرة بصفته أحد المبادئ الإسلاميّة المسلمة، ففي الخبر أنّ سلمان الفارسي دخل مجلس النبيصلى الله عليه وآله فأكرمه النّبي لفضله وسنه وأجلسه في صدر المجلس فلما رآه عمر أنكر ذلك وقال: «مَنْ هذَا الْعَجَمِيُّ الْمُتَصَدِّرُ فيما بَيْنَ الْعَرَبِ» فصعد النبي الأكرمصلى الله عليه وآله المنبر (الأمر الذي كان يقوم به لبيان حكم عام وأساسي) فخطب الناس وقال:

---

١. «أحمر»، إشارة إلى حمرة الوجه، أو كونه حنطاوياً، لأنّ بيض الوجوه كانت في ذلك المحيط ألوانهم بلون الحنطاوي.

٢. تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١ و٦٢.

«إِنَّ النّاسَ مِنْ آدَمَ إلى يَوْمِنا هذا مِثْلُ أَسْنانِ الْمِشْطِ؛ لا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الأَعْجَمِيِّ ولا لِلأَحْمَرِ عَلَى الأَسْوَدِ إلاّ بِالتَّقْوى، سَلْمانُ بَحْرٌ لا يُنْزَفُ وكَنْزٌ لا يَنْفَد، سَلْمانُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ»[1].

يشير هذا الحديث صراحة إلىٰ عدم مساواة الناس الذين يعيشون في عصر معين إزاء القوانين الشرعيّة فحسب، بل شموليته لجميع الأفراد الذين سكنوا الأرض طيلة تاريخ البشريّة في ظلّ نفس الظروف ويبدو لهذا المبدأ والحكم الإسلامي جدواه الفعليه آنذاك حين كانت الامتيازات القبلية بين العرب والامتيازات العرقيّة والتمايز الطبقي هو الحاكم في العالم انذاك.

وكلام أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة إنّما هو تأكيد لهذا الموضوع حين قال إنّ الله لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان من قبلكم وما زال هذا القانون هو الحاكم، كما يبدو لهذا الكلام الذي يمثل امتداداً لكلمات النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله قيمته القصوى على أساس إعادة تلك الامتيازات الجاهلية بما فيها امتياز العرب على العجم إبان خلافة عمر كما تفيد تواريخ الفريقين.

ونختتم الحديث هنا بعبارة من خطبته صلى الله عليه وآله في حجة الوداع حين بين للجميع أسس وقوانين الشريعة الإسلاميّة للجميع: «أَيُّهَا النّاسُ إنّ رَبَّكُمْ واحِدٌ وإِنَّ أباكُمْ واحِدٌ كُلُّكُمْ لِآدَمَ وآدَمُ مِنْ تُراب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقاكُمْ﴾ ولَيْسَ لِعَربيّ عَلى عَجَمِيّ فَضْل إِلَّا بِالتَّقوى؛ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قالُوا: نَعَمْ. قالَ: فَلْيُبْلِغِ الشّاهِدُ الْغائِبَ»[2].

٢. القرآن ناطق أم صامت؟

صدرّ الإمام عليه السلام كلامه في هذه الخطبة بأنّ القرآن صامت وناطق، بينما وصفه في

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٨.

٢. المصدر السابق، ص ٣٥٠.

الخطبة ١٢٥ في قصة التحكيم قائلاً: «هذَا الْقُرْآنُ إِنَّما هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لا يَنْطِقُ بِلِسان ولابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمان. وإِنَّما يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ» كما ورد شبيه ذلك في الخطبة ١٥٨.

فهل هنالك من تناقض بين هذه التعابير؟ الجواب هو أنّ المراد من ناطقية القرآن أنّه بين أحكام الله فيه بلسان عربي مبين، فكلّ من كان لديه استعداد دعاه لنفسه وهداه للخير والسعادة وعليه فهو ناطق بالنسبة لدعاة الحقّ؛ أمّا بالنسبة إلىٰ أولئك الأفراد المتعصبين والذين انبروا للنزاع فهم لا يسمعون رسالة القرآن وإن سمعوها تظاهروا بعدم السماع، ولا مناص لهؤلاء الأفراد من قاضٍ وحكم عادل يبلغهم رسالة القرآن ويتم عليهم الحجّة، على سبيل المثال للقرآن رسالة واضحة في قصة صفين حيث يقول: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾[1]. فمن الواضح للجميع أنّ عليّاً عليه السلام وإضافة إلىٰ نصبه لخلافة النّبي صلى الله عليه وآله من جانب الله تعالى إنّما بويع من قبل قاطبة المؤمنين وأغلبية المهاجرين والأنصار، ولم يكن معاوية وجيشه سوى حفنة من الطغاة الجفاة الذين أرادوا فرض أنفسهم على الأمة، ولكن حيث انبروا لمواجهة حكم الله لزم أن يكون هناك حكم يأخذ بأيديهم إلىٰ الحقّ رغم أنّ مسألة التحكيم وللأسف لم تسر بالاتجاه الصحيح ولم تتوصل إلىٰ النتيجة المتوخاة.

٨٠٣

١. سورة الحجرات، الآية ٩.

القسم الثالث

وأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، ونَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذلِكَ حَفَظَةً كِراماً، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ (مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) مِنَ الْفِتَنِ، ونُوراً مِنَ الظُّلَمِ، ويُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، ويُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، ونُورُهَا بَهْجَتُهُ، وزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، ورُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وسَابِقُوا الآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، ويَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ، ويُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالاِرْتِحَالِ، وأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح والتفسير

منزلة التقوى

أكّد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة على الدعوة إلىٰ التقوى إلىٰ جانب ذكره لسبب ذلك مع الإشارة إلىٰ آثار التقوى، كما قدم شرحاً عميقاً لتقلب الدنيا ورحلة الآخرة وما يلزمها من زاد ومتاع يكمن في الورع والتقوى.

فقال بادئ الأمر: «وأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وتشير هذه العبارة إلىٰ أنّ التقوى أفضل شيء سأله الله عباده وأعظم فخر يتقلّده

الجميع والذي ينسجم مع الآيات القرآنيّة القائلة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٢]، ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[٣] وجعل للتقوى قيمتها العميقة.

والحقيقة هي أنّ التقوى شعور باطني بالمسؤوليّة فهي وليدة الإيمان القوي من جانب وأساس الطاعة واجتناب المعصية من جانب آخر، والتعبير بالحاجة بشأن الله تعالى لا يعني أنّ الله محتاج إلىٰ العباد فالحاجة لغوياً لا تقتصر على الفقر، بل ترد أحياناً بمعنى الطلب والسؤال.

ثم خاض الإمام عليه السلام في الإشارة إلىٰ الداعي لرعاية تقوى الله فقال: «فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ[٤] بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ[٥] فِي قَبْضَتِهِ».

نعم فالعالم حاضر عند الله وزمام الجميع بيده سبحانه، ورغم أنّ العباد أحرار في ما يمارسون من أعمال، إلّا أنّ هذه الحرية لا تعني سلب الذات القدسيّة قدرتها.

ثم قال عليه السلام لمزيد من التأكيد: «إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً».

وجاء في القرآن أيضاً: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٦].

وكذلك: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٧].

فمن البديهي أنّ كتابة الأعمال من قبل الملائكة الحفظة إنّما هو للتأكيد، وإلّا فقد اتضح من العبارات السابقة أنّ السر والعلانيّة سواء عند الله وعلمه محيط بكلّ ما في السماوات والأرض، استناداً للعبارة «قَدْ وَكَّلَ بِذلِكَ» وحصر هذه الكتابة بأعمال

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٣. سورة مريم، الآية ٦٣.

٤. «نواصي» جمع «ناصية» بمعنى شعر مقدمة الرأس وهي إشارة لقدرة الله وكناية عن هيمنته على كلّ شيء.

٥. «تقلب» هنا بمعنى التصرف وكل تغيير إشارة إلّا أنّ بيده كلّ حركاتكم.

٦. سورة الملك، الآية ١٣.

٧. سورة الانفطار، الآيات ١٠ ـ ١٢.

معينة «وإنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ» فالذي يستفاد أنّ الملائكة ليست مأمورة بكتابة كلّ الأعمال الخفية وأنّ الله الستار للعيوب قد أخرج جانباً من هذه الأعمال عن دائرة علمهم واختص بها نفسه وهذا يشير إلىٰ منتهى لطفه.

جاء في دعاء كميل: «وَكُلُّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإِثْباتِهَا الْكِرامَ الْكاتِبينَ الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يَكُونُ مِنّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرآئِهِمْ وَالشّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ».

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان آثار وبركات التقوى فذكر بعبارة قصيرة عميقة المعنى أربع نتائج تفرزها التقوى. فقال في الأُولى والثانية: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ ﴿مَنْ يَتَّقِ اللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ مِنَ الْفِتَنِ، ونُوراً مِنَ الظُّلَمِ».

فالشق الأوّل من الكلام اقتباس من الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[1].

روى أبوذر الغفّاري عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّي لأَعْلَمُ آيةً لَوأَخَذَ بِهَا النّاسُ لَكَفَتْهُمْ: ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ فما زالَ يَقُولُها ويُعيدُها»[2].

والشق الثاني من سائر الآيات مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[3] (ورؤية خاصة تتعرفون من خلالها على الحقّ والباطل).

وقال في الثمرة الثالثة والرابعة للتقوى: «وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَار اصْطَنَعَهَا[4] لِنَفْسِهِ».

فنتيجة التقوى في هذه العبارة الخروج من الفتنة وزوال الظلمات من حياة المتّقين في هذا العالم والخلود في النعم الماديّة والمعنويّة في العالم الآخر، فالواقع أنّ الله سبحانه وتعالى جمع للمتّقين النعم الماديّة والمعنويّة لهذا العالم والعالم الآخر

---

١. سورة الطلاق، الآية ٢.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠٦.

٣. سورة الانفال، الآية ٢٩.

٤. «اصطنع» من مادة «صنع».

والعبارات تشير كلّ منها إلىٰ إحدى هذه النعم.

وتشير العبارة «اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ» أنّ الله خلق منازل الآخرة الخاصّة لخواصه أو أنّها من قبيل بعض العبارات مثل «بيت الله» و«شهرالله» التي تشير إلىٰ عظمة تلك الدار وأهميّتها.

ثم خاض الإمامعليه السلام في شرح صفات ذلك المنزل الخاص فقال: «ظِلُّهَا عَرْشُهُ، ونُورُهَا بَهْجَتُهُ، وزُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ، ورُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ».

يا له من منزل رفيع ذلك الذي يفوق السماء والأرض وفي ظلّ عرش الله، أضاءته أشعة نور الله وتقاطرت فيه ملائكته على زيارة ذلك الإنسان وجالس فيها رسل‌الله وأنبياءه، وهي الصفات التي تسحر الإنسان عند سماعها، فما ظنك برؤيتها؟

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلئِكَ رَفِيقاً﴾[1].

وخلص الإمامعليه السلام في مواصلة كلامه بالدعوة إلىٰ التقوى وبيانه لبركاتها بالقول: «فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وسَابِقُوا الآجَالَ».

كما قال القرآن: ﴿سَابِقُوا إِلى مَغْفِرَة مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّة عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2].

وقال في موضع آخر: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّنْ كُلِّ بَاب * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[3].

ثم خاضعليه السلام في بيان العلّة فقال: «فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، ويَرْهَقَهُمُ[4] الأَجَلُ، ويُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ

١. سورة النساء، الآية ٦٩.

٢. سورة الحديد، الآية ٢١.

٣. سورة الرعد، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

٤. «يرهق» من مادة «رهق» على وزن «شفق» في الأصل من تغطية شيء بالقهر والغلبة وتعني هنا الغلبة وتسلط الموت على الإنسان.

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

والكلام إشارة لما ورد في القرآن: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾[١].

ومراد الإمام عليه السلام بادروا اليوم إلىٰ العمل الصالح والتوبة من الذنب قبل أن تعيشوا مثل هذا المصير وتطلبوا ما لا يلّبىٰ لكم.

وحث إثر ذلك على التأهب لسفر الآخرة والاستعداد والتزود لذلك السفر الطويل والمليئ بالمخاطر فقال: «وأَنْتُمْ بَنُو سَبِيل، عَلَى سَفَر مِنْ دَار لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ».

واختتمها بالعبارة: «وقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالاْرْتِحَالِ، وأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ».

وعادة ما يلاحظ مثل هذا التشبيه الرائع للدار الآخرة والدنيا وسكنة هذا العالم في بعض الآيات القرآنيّة والعديد من الروايات الإسلاميّة التي شبهت الإنسان بالمسافر الذي ينطلق نحو الهدف المطلوب وعليه أن يطرق بعض الأيّام أثناء الطريق فيتوقف في بعض الأماكن فيهيء الزاد والمتاع وينطلق من هناك وليس المراد من الزاد والمتاع سوى التقوى كما ليس المراد من المركب سوى الإيمان، فأولئك الذين يقصرون في الإعداد إنّما يتخلّفون في الطريق ويهلكون ولا يبلغون المقصد قط فقافلة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام مازالت تنادي بالرحيل والتزود لذلك السفر الطويل، وإن غط البعض في نوم عميق وفقد الآذان الصاغية فصم عن سماع ذلك النداء.

قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَإِنَّ الأَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[٢]. وقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٣].

❀❀

١. سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

٢. سورة غافر، الآية ٣٩.

٣. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

القسم الرابع

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، والرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَار، ضَجِيعَ حَجَر، وقَرِينَ شَيْطَان! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ!

الشرح والتفسير

العذاب الشديد يوم القيامة

إثر تأكيدات الإمام عليه السلام على الورع والتقوى في القسم السابق من الخطبة أشار هنا بعبارات رائعة إلى شدة العذاب يوم القيامة فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ».

ثم جسد بمقارنة بسيطة وواضحة شدّة إحراق نار جهنم فقال: «فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ[1] تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ[2]، والرَّمْضَاءِ[3] تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ[4] مِنْ نَار، ضَجِيعَ حَجَر،

---

١. «شوكة» تطلق على حراب الجنود والأسلحة كافة، لأنّ السلاح علامة القدرة والشدّة وتطلق الشوكة على كلّ قدرة، وتطلق على النتوء المدبب كالإبرة في النبات الشائك.

٢. «تدميه» من مادة «إدماء» بمعنى إخراج الدم من البدن.

٣. «رمضاء» بمعنى شدّة الحرارة وكذلك الأرض والحجر المحرقة بفعل أشعة الشمس.

٤. «طابقين» تثنية «طابق» بكسر وفتح الباء بمعنى طبقة البناء ويطلق على ما يخبز عليه.

وقَرِينَ شَيْطَان!».

وقال في مواصلته لهذا الكلام: «أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ[١] بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ[٢] بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ!».

وللمرحوم «مغنية» حين بلغ هذا القسم من الخطبة كلام رائع حيث يقول: «إنّ جميع خطب نهج البلاغة تبحث أصلين أو ثلاثة أصول مع بعضها، فمن جانب الثناء على صفات الله الجماليّة والجلاليّة وأسمائه الحسنىٰ ومن جانب آخر مدح النّبي الأكرمﷺ وما أتى به من هدى للناس وأخيراً الكلام عن خداع الدنيا وسكرات الموت ووحشة القبر وأليم العذاب في القيامة، والعجيب أنّ هذه الخطب لا تتضمن التكرار رغم تكرر هذه المواضيع، حيث يوردها بأسلوب بديع وشكل جديد، الأمر الذي أذهل شرّاح نهج البلاغة»[٣].

على كلّ حال فإنّ الإمامعليه‌السلام شرح في هذا الكلام عجز الإنسان وانزعاجه الشديد من مصائب الدنيا الهينة وقارنها مع أليم العذاب وشدّة المصاب في الآخرة ليحذر الجميع من ذلك.

وقد ورد شبيه ذلك في دعاء كميل حيث يقول: «يا رَبِّ وَاَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفى عَنْ قَليل مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها وَما يَجْرى فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى اَهْلِها عَلى اَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ يَسيرٌ بَقاؤُهُ قَصيرٌ مُدَّتُهُ فَكَيْفَ احْتِمالى لِبَلاءِ الأخِرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها وَهُوَبَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ اَهْلِهِ».

والذي يستفاد ضمنياً من العبارات المذكورة أنّ نار جهنم مخلوق فطن، يشعر بالرعب من غضب مالك خازن النار فيتأرجح هنا وهناك، كما يفهم من تلك

١. «حطم» من مادة «حطم» على وزن «حتم» بمعنى هدم وكسر الشيء ويطلق على الأشياء التي تتهشم بقوّة ومن هنا كان أحد أسماء جهنم الحطمة.

٢. «توثبت» من مادة «وثوب» بمعنى القفز.

٣. في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٦ (باقتباس).

التعبيرات أنّ لعذاب جهنم بعد جسمي هو حرقة النار وآخر معنوي يتمثل في مجاورة الشيطان.

ﮰﮱ

القسم الخامس

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ، ونَشِبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا. أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا. فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، ولَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ ﴿ولَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وَاسْتَقْرَضَكُمْ ﴿ولَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وهُوالْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. وإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

الشرح والتفسير

الامتحان الإلهي

تغيرت نبرة الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ليخاطب الكهول ويستعرض لهم جانباً من أشد عذاب وأهوال يوم القيامة، ثم يدعو عباد الله كافّة اغتنام الفرصة بغية الخلاص من عذاب الله ونقمته ليقدم تعاليم دقيقة بهذا الشأن يتمثل أحدها في الانفاق فقال عليه السلام: «أَيُّهَا الْيَفَنُ[1] الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ

1. «يفن» بمعنى الشيخ المسن.

لَهَزَهُ[١] الْقَتِيرُ[٢]، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ[٣] أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ، ونَشِبَتِ[٤] الْجَوَامِعُ[٥] حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ[٦]».

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا خاطب الإمام عليه السلام الشيخ المسن؟ لعل ذلك يعود إلىٰ أنّ شمس عمره توشك على المغيب ـ وإن كان الموت يأتي كلّ أحد بغتة ـ وعليه أن يركز في الانتباه لنفسه، أو لأنّ للكهول تأثيراً على أُسرهم وأبنائهم وباستطاعتهم نصحهم ووعظهم.

العبارة: «قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ» استناداً إلىٰ أنّ «لهز» يعني في الأصل نفوذ الشيء واتساعه في شيء آخر و«قتير» من مادة قتر بمعنى التضييق والتصعب فالعبارة تفيد أنّ الشيخوخة قد نفذت في كلّ كيانهم فقد ضعفت العظام وبهت الدماغ والأعصاب وعجزت أعضاء البدن كافّة.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ نوعين من العذاب الأليم الذي يحيق بأهل جهنم، أحدهما أطواق النار التي تطوق أعناق المجرمين وتتغلغل في لحومهم حتى تبلغ عظامهم والآخر غل الجامعة التي تربط أيديهم إلىٰ أعناقهم بحيث تجرح سواعد أيديهم، طبعاً هذا العذاب وإن كان شديد الألم إلّا أنّه يعتبر رحمة بفعل دوره في حجزهم عن الذنب والمعصية.

ثم واصل كلامه عليه السلام موجهاً الخطاب لجميع العباد فقال: **«فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ**

---

١. «لهز» من مادة «لهز» على وزن «محض» المخالطة والنفوذ في شيء.

٢. «قتير» تعني في الأصل رؤوس المسامير في حلقات الدرع ثم اطلق على كلّ أمر صعب ومرهق وبما أنّ فترة الكهولة تعدّ إحدى المشاكل الشديدة فقد اطلق القتير على الكهل وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.

٣. «التحمت» من مادة «لحم» على وزن «فهم» بمعنى اندكت واستحكمت وتعني في العبارة المذكورة أنّ أطواق النار تلتصق بعظام الرقبة.

٤. «نشبت» من مادة «نشب» على وزن «رجب» التعلق.

٥. «جوامع» جمع «جامعة» الغل لأنّها تجمع اليدين إلىٰ العنق.

٦. «سواعد» جمع «ساعد».

رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا[1]».

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلىٰ نعمتين كبيرتين؛ إحداهما السلامة والعافية والأخرى إعداد الإمكانات التي تمكن الإنسان من الإقدام على أي عمل. نعم فهو يحذر الجميع من استغلال هذه الفرص والخلاص من تبعات المسؤوليّة.

وتشير العبارة «فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ» إلىٰ سلسلة من التكاليف التي لا مناص للإنسان من القيام بها، فقد كان السائد لدى الأقوام السابقة أنّ الدائن يستعبد المدين مالم يتمكن من أداء دينه، ولا يعتق مالم يسدد ذلك الدين. فالعبارة المذكورة يمكن أن تكون كناية عن هذا المطلب.

والعبارة: «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا» إشارة إلىٰ أنّ الشخص المدين إن تخلف عن أداء الدين خرج عن ملكيته ما كان مرتهناً لدى المدين (طبعاً بمقدار الطلب) فقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ ضرورة أداء الديون الإلهيّة والمراد بها الواجبات بغية تحرير رهائنهم لديه والمراد به أنفسهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام بالخوض في تفاسير العبارات التي ذكرها سابقاً بصورة كلية فركز على خمسة مواضيع وقال: «أَسْهِرُوا[2] عُيُونَكُمْ، وأَضْمِرُوا[3] بُطُونَكُمْ، واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا».

والمراد من «أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ» أسهروا عيونكم المناجاة في الليل سيما صلاة التهجد. «وأَضْمِرُوا بُطُونَكُم» إشارة إلىٰ الصيام. «واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ» إشارة إلىٰ قيام الليل أو السعي في قضاء حوائج الناس واغاثة الملهوفين. «وأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ» إشارة إلىٰ الخمس والزكاة الواجبة والصدقات المستحبة «وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» إشارة إلىٰ العبادة وتهذيب النفس والجهاد في سبيل الله.

---

١. «رهائن» جمع رهينة.

٢. «اسهروا» من مادة «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظة في الليل.

٣. «اضمروا» من مادة «ضمور» على وزن «عبور» بمعنى الضعف وتتعدى في باب الأفعال.

ثم استدل الإمام عليه السلام على كلامه بالاستشهاد بآيتين من القرآن فقال: «فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١]».

وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٢].

وقال عليه السلام في شرحه لهذه الآيات: «فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، ولَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ ﴿ولَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَاسْتَقْرَضَكُمْ ﴿ولَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وهُو الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾».

إشارة إلىٰ أنّ الله اعتمد غاية اللطف في الكلام ليتعظ من كان له أدنى استعداد لطاعته بتلك التعبيرات المفعمة باللطف والمحبّة فيحث الخطى على التسليم لله.

والحقيقة أنّ كلام الإمام عليه السلام جواب لسؤال هو هل يمكن لله تعالى الذي له جند السماوات والأرض أن يستعين بعبده الضعيف العاجز الذي لا يملك لنفسه سوى ما أفاض الله عليه ؟ أم يستقرض عبده الضعيف الذي يرتع في نعمه وهو الذي بيده خزائن السماوات والأرض ؟ فلو أراد الله اعانة ضعيف لما لا يعينه، ولو أراد اثراء فقير لما لا يقوم هو بهذا العمل ؟ أشار الإمام عليه السلام إلىٰ أنّ الهدف من كلّ هذه الأمور هو الامتحان والاختبار.

جدير بالذكر أنّ جميع ما ذكر اقتباس من القرآن الكريم، إذ قال تعالى في موضع ﴿وَلَو يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنهُمْ وَلكِنْ لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[٣].

وفي موضع آخر: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٤] وآيات أخرى.

---

١. سورة محمد، الآية ٧.

٢. سورة الحديد، الآية ١١.

٣. سورة محمد، الآية ٤.

٤. سورة الملك، الآية ٢.

القسم السادس

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ. رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وأَزَارَهُمْ مَلاَئِكَتَهُ، وأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً ونَصَباً: (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ). أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وأَنْفُسِكُمْ، وهُوحَسْبُنَا ونِعْمَ الْوَكِيلُ!

الشرح والتفسير

الانتقال إلى جيران الله

خلص الإمامعليه السلام في ختام الخطبة إلى نتيجة واضحة وهي أنّ كان الأمر كذلك «فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ».

ثم خاضعليه السلام في خصائص هؤلاء الجيران فقال: «رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وأَزَارَهُمْ مَلاَئِكَتَهُ، وأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ[1] نَارٍ أَبَداً، وصَانَ[2] أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً[3] ونَصَباً[4]: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[5]».

فقد بيّن الإمامعليه السلام بهذه العبارات الرائعة أربع خصائص لجيران الله اثنان منها لهما

---

١. «حسيس» من مادة «حس» تعني الصوت الخفيف أو الضعيف.

٢. «صان» من «صيانة» بمعنى المحافظة.

٣. «لغوب» مصدر بمعنى شدة العياء.

٤. «نصب» بمعنى التعب. وذهب البعض إلى أنّ لغوب بمعنى التعب الروحي والنصب التعب البدني. وعلى هذا الأساس فليس في الجنّة ومجاورة الله من تعب روحي ولا بدني.

٥. سورة الحديد، الآية ٢١.

بعد معنوي والاثنان الآخران لهما بعد مادي؛ فمرافقة الأنبياء وزيارة الملائكة كرامتان معنويتان وكرامتان روحيتان لا مثيل لهما كما أنّ عدم سماع أدنى صوت لنار جهنم وصون الاجساد من أي تعب ونصب كرامتان ماديتان لا نظير لهما كذلك.

وليت شعري أي كرامة أسمى من أن يرافق الإنسان هؤلاء المقرّبين في غرف الجنّة ويشمل بهذه النعم المعنويّة والماديّة.

ويؤكد الإمامعليه السلام ضمنياً بالاستفادة من الآية الشريفة على أهميّة هذه النعم الأخروية ويعدها من فضائل الله العظمى.

والعبارة: «وأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ...» اقتباس من الآية: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾[1].

والعبارة: «وصَانَ أَجْسَادَهُمْ...» إشارة إلىٰ الآية الشريفة: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2].

وهنا يرد هذا السؤال: تُرىٰ من هم جيران الله الذين لهم هذه الكرامات؟

فالتعبير بجيران الله يشير إلىٰ أنّهم من خواص الله ومقرّبيه بحيث استحقوا اسم جيران الله ويتّضح من زيارة الملائكة والأنبياء لهم أنّهم ليسوا أنبياء ولا ملائكة، وعليه فلابدّ أن يكونوا من الصديقين والشهداء والحواريين الذين تمحوروا حول الأنبياء والأولياء وأصبحوا على ما هم عليه في ظلّ الورع والتقوى وتهذيب النفس ليشملوا بكل هذه العناية الإلهيّة، على غرار ما قال القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[3].

والشاهد على هذا الموضوع ما ذكره الإمامعليه السلام في الرسالة ٢٧ بشأن تلك الثلّة

---

١. سورة الأنبياء، الآية ١٠٢.

٢. سورة فاطر، الآية ٣٥.

٣. سورة النساء، الآية ٦٩.

من المتّقين الذي بلغوا درجة من الورع والتقوى ومنزلة رفيعة من الزهد وعدم الاعتناء بزخارف الدنيا واكتسبوا بحقّ اسم جيران الله.

ثم اختتم خطبته لإتمام الحجّة فقال: «**أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وأَنْفُسِكُمْ، وهُوحَسْبُنَا ونِعْمَ الْوَكِيلُ!**».

وعليه فقد أتمّ الحجّة عليهم من جانب ودعا لهم بالموفقية من جانب آخر وأفصح بالتالي عن توكله على الله في جميع الأحوال.

تأمّل

طريق السير والسلوك إلىٰ الله

لقد كشف الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن أروع الدروس التي يمكن أن ينطوي عليها من سلك سبيل الحقّ بغية التربية والتهذيب كما تطرق بعبارات قصيرة وعميقة المعنى إلىٰ منهج السير والسلوك إلىٰ الله تعالى.

فقد أثار لديهم الشعور بخشية الله من خلال ذكره لجانب من العذاب الأليم لنار جهنم، ثم حذرهم من أنّ أعمارهم وعافيتهم إنّما هي أمانة مستودعة وستعاد يوماً ما إلىٰ صاحبها.

وعليه فلابدّ من اغتنام الفرصة والمبادرة إلىٰ العمل كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «**إغْتنم خَمساً قَبْلَ خَمْس: حَياتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ وصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وشَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**»[1].

ثم أشار إلىٰ العبادة وتهذيب النفس فأوصىٰ بإحياء الليل وقلّة الطعام وتوظيف الجوارح في خدمة الخلق والسعي إلىٰ الجهاد ومن ثم انفاق الأموال. وبالتالي الحد من الجسم لصالح الروح ليبث الأمل في قلوب السالكين بوعد الله من خلال استشهاده ببعض الآيات القرآنيّة.

١. كنز العمال، الحديث رقم ٤٣٤٩٠؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٥ مع اختلاف طفيف.

وأخيراً رسخ الدوافع المعنويّة عن طريق ذكر الثواب العظيم الذي ينتظرهم جوار قرب الله. نعم فقد أدى معلم الإنسانيّة العظيم وقائد الغرّ المحجلين حـقّ المـطلب بعبارات قصيرة واضحة في اطار تعاليم متكاملة.

١٨٤

ومن كلام له عليه السلام

قالَهُ لِلبُرجِ بْنِ مُسْهِر الطّائى، وقَدْ قالَ لَهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ: «لا حُكْمَ إلاّ للهِ»، وكانَ مِنَ الْخَوارِجِ[1]

نظرة إلى الخطبة

نعلم أنّ الخوارج ـ تلك الفئة الجاهلة والمتعصبة التي ثارت على الإمام عليه السلام بعد التحكيم في صفين ـ وكان شعارهم «لا حُكْمَ إلّا للهِ» ومرادهم عدم ضرورة تعيين حَكم يوم صفين، فلا حَكم إلّا الله؛ وقد استعمل هذا الشعار بصيغة منحرفة وخاطئة من قبل الخوارج، وحين رفع بُرج بن مُسهر الطائي هذا الشعار عند الإمام عليه السلام، عنفه عليه السلام بكلمات لاذعة وعنيفة، حتى لا يجر واحداً غيره على رفع هذا الشعار المضل (قدمنا شرحاً وافياً بشأن هذا الشعار الذي رفعته هذه الفئة الضالة في الخطبة ٤٠ من هذا الشرح)

---

١. سند الخطبة:
ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أنّ أبا هلال العسكري ذكر هذا الكلام في كتابه الصناعتين قبل أن يجمع المرحوم السيد الرضي نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦١).

اسْكُتْ قَبَّحَكَ اللهُ يا أَثْرَمُ، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

الشرح والتفسير

صه يا أحمق

في بداية الكلام أجبر الإمامعليه السلام هذا الخارجي على السكوت. ثمّ ليعرفه جيداً الناس ذكر صفاته السيئة وسابقته البشعة، فقال: «اسْكُتْ قَبَّحَكَ اللهُ يا أَثْرَمُ».

كلمة «أثرم» التي تعني الشخص الذي ضرب على فمه وكسرت أسنانه الإماميّة إشارة إلىٰ أنّ فمك واسنانك تشير إلىٰ أنّ مخالفيك ضربوك لأنّك بذيء اللسان، إضافة إلىٰ ذلك فإنّ من كسرت أسنانه الأماميّة لا يستطيع أن يتكلّم بطلاقة والأفضل له أن يسكت.

ثم واصل ذكر ماضيه السيء فقال: «فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً[1] شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ[2] نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ[3]».

إشارة إلىٰ أنّك لم تحضر ولم تدافع عن الحقّ عند ظهور الإسلام حين بعثة النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله أو ظهور ولاية الحقّ لأميرالمؤمنين عليعليه السلام بل كنت شخصاً ضعيفاً لا يكترث لكلامك، أمّا الآن وقد صدع صوت الباطل فقد انضممت إليه لتطلق ذلك الشعار عن حماقة وجهل، ويتّضح من خلال تأمّل سوابق هذا الرجل ومن شاكله

---

١. «ضئيل» من مادة «ضئولة» على وزن «كهولة» تعني النحيف المهزول.

٢. «نجمت» من مادة «نجم» بمعنى الظهور والبروز ويقال للكواكب نجوم كونها تظهر في السماء.

٣. «ماعز» الشاة.

العقيدة والظروف التي كانت سائدة آنذاك أنّ هذه المواجهة العنيفة من قبل الإمامعليه السلام والعبارات المحقرة له كانت غاية في الحكمة، ولولا ذاك لكان يخشى انخداع الأفراد السطحيين بزيف ذلك الشعار.

والخوارج فئة سطحية متعصبة جاهلة خلقت العديد من الإرباكات للمجتمع الإسلامي. كما أنّ قسوتهم وغلظتهم فاقت الوصف في تاريخ الإسلام، ولحسن الحظ فقد تعرفت عليهم المجتمعات الإسلاميّة طيلة التاريخ فاقصتهم عن الساحة ولعل هنالك القليل من سليليهم والذين لا يتظاهرون وبتلك العقيدة الباطلة.

تأمّل

من هو بُرج بن مُسهِر؟

اعتبر ابن أبي الحديد برج بن مسهر أحد شعراء الخوارج الذي ينتمي إلىٰ يعرب بن قحطان؛ إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ برج بن مسهر الشاعر هو شخص آخر، عاش في العهد الجاهلي (ويحتمل أنّه أدرك ظهور الإسلام) وقد روى أبو تمام أبياتاً من شعره في الحماسة[1].

وبرج بن مسهر الطائي الخارجي الذي حقره الإمامعليه السلام شخص مجهول لم يرد اسمه في كتب الرجال المعروفة، ويؤيد ذلك عبارة أمير المؤمنينعليه السلام حين خاطبه بأنّك شخص ضئيل ومجهول ولا قدرة لك على الكلام.

ﮋﮊ

١. أعلام الزركلي، ج ٢، ص ٤٧.

١٨٥

ومن خطبة له عليه السلام

يَحْمَدُ اللّهَ فِيْها وَيُثْنِي علىٰ رَسُولِهِ وَيَصِفُ خَلْقاً مِنَ الْحَيَوانِ[١]

نظرة إلىٰ الخطبة

تعدّ هذه الخطبة من الخطب الجامعة في نهج البلاغة والتي تسهب في المعارف الدينيّة وتتكون في الواقع من ستة أقسام، ففي القسم الأوّل ـ وعلى غرار أغلب خطب نهج البلاغة ـ جرى الكلام في حمد الله والثناء عليه وذكر أسمائه وصفاته بعبارات غاية في الدقة والروعة.

وتطرق القسم الثاني إلىٰ رسالة الرسول ﷺ ومشاريعه العمليّة.

وركز في القسم الثالث على خلق بعض الأحياء كنموذج حي لآيات علم الله وقدرته سيما بشأن النمل وخلق السماوات والأرض والشمس والقمر.

وخاض ـ في القسم الرابع ـ في نتائج ما قيل ليكشف عن عظمة الخالق التي تقف وراء هذه المشاهد العجيبة وحذر أولئك الذين يرون هذه الآيات وينكرونها عملياً.

---

١. سند الخطبة:

ذكر هذه الخطبة جمع من الأعلام ممن عاش بعد السيد الرضي كالمرحوم الطبرسي في الاحتجاج والزمخشري في ربيع الأبرار بالإضافة إلىٰ آخرين ويتّضح من الاختلاف بين ما ذكروه وما ذكره السيد الرضي أنّهم رووها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦٧).

وتطرق في القسم الخامس ثانية إلىٰ خلقة كائن عجيب آخر هو الجرادة وخاض في جزئيات خلقه.

واختتم الخطبة في القسم الأخير ليخلص في نتيجة جامعة لينهي خطبته ببحث كلّي بشأن نظام الخلق وعظمة الخالق وخضوع جميع المخلوقات لذاته القدسيّة.

جدير ذكره أنّ تنظيم الخطب هنا يختل في أغلب شروح نهج البلاغة؛ فقد ذكر البعض هذه الخطبة بالرقم ٢٣١ (مثل ابن أبي الحديد وفيض الإسلام) بينما ذكروا بدلاً من هذه الخطبة التي وردت بالرقم ١٨٥ في نسخة صبحي الصالح خطبة همام؛ والبعض بالرقم ٢٢٧ (مثل نسخة بنياد نهج البلاغة وشرح ابن ميثم).

وذكرها المرحوم الشارح الخوئي بالرقم ١٨٤؛ ولكننا ـ كما يعلم الإخوة القراء ـ نتبع نسخة صبحي الصالح.

☙❧

القسم الاول

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ. الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لَا بِعَدَد، ودَائِمٌ لَا بِأَمَد، وقَائِمٌ لَا بِعَمَد. تَتَلَقَّاهُ الأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَة، وتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَة. لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِي كِبَر امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَم تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وعَظُمَ سُلْطَاناً.

الشرح والتفسير

معرفة الله الحقيقية

ما أن استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه حتى خاض في صفاته التي تنفي عنه الجسمية والحدوث والشبيه والمثيل فقال عليه السلام: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ».

فما جاء في هذه الصفات الأربع أمور تنفي أي شائبة جسميّة عن الله تعالى، فلا عين تراه ولا حواس تدركه ولا مكان يحويه ولا شيء يخفيه.

«شَواهِد» جمع «شاهِدَة» بمعنى الحس و«مَشاهِد» جمع «مَشْهد» بمعنى

مكان الحضور والظهور. «نَواظِر» جمع «ناظِرَة» قوّة الباصرة و«سَواتِر» جمع «ساتِرَة» بمعنى الستر وكل ما يستر الأشياء.

فالصفات المذكورة والمقتبسة في الواقع من القرآن الكريم في عدد من الآيات تبطل عقيدة المجسمة (الفرقة التي تقول بجسميّة الله) وتكشف مدى بعد أصحابها عن التعاليم الإسلاميّة.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ صفات أخرىٰ ومنها صفة الأزلية وتنزيهه عن كلّ شبيه ومثيل فقال عليه السلام: «**الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ**».

تستند هذه الأدلة الثلاثة إلىٰ هذه النقطة وهي استحالة مضي سلسلة العلل ومعاليل العالم إلىٰ مالا نهاية، لأنّ التسلسل باطل، وعليه فحدوث الموجودات دليل على وجود العلّة الأزليّة والأبديّة التي ينبع وجودها من ذاتها؛ فالكلّ حادث وهو القديم، والكلّ مخلوق وهو الخالق، لأنّ ذاته الطاهرة لا متناهية من جميع الجهات فليس له شبيه ولا مثيل، لاستحالة وجود وجودين لا متناهيين من جميع الجهات ذلك أنّ كلّاً منها يحد الآخر أمّا المخلوقات المحدودة من جميع الجهات بما فيها الزمان والمكان إنّما تعددت أشباهها وأمثالها.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ صفتين من صفات الذات وهما تعدان من صفات الفعل فقال: «**الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ**».

نعم، فليس في وعوده غير الصدق، ذلك لأنّ التخلف في الوعد إمّا يعزى إلى العجز أو إلىٰ الجهل أو الحاجة (مثلاً يعدّ الإنسان ثم يعجز ويتخلف عمّا وعد بعد القيام به، أو يعد ثم يفهم لاحقاً ما كان ينبغي عليه أن يعد مثل ذلك أو يعد ويرى أن خلف الوعد لصالحه) ومن الطبيعي أنّ أيّاً من الصفات الثلاث؛ العجز والجهل والحاجة ليست لها من سبيل إلىٰ الذات القدسيّة ومنها يستحيل عليه خلف الوعد.

وأشار في بيانه للصفة الثانية إلىٰ سمو مقام الله عن الظلم، وهو ذات الأمر الذي يفرزه العجز والجهل أو الحاجة.

ثم ركزعليه السلام على جانبين من جوانب عدله أحدهما في عدم التمييز والآخر العدل في القضاء والعقاب والثواب، وعليه فالعبارات الثلاث «وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ» «وقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، «وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ» تشير جميعها إلىٰ عدالة الله ونفي الظلم عنه في مختلف الجوانب.

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ صفات أخرىٰ من صفات الجمال والجلال فقال: «مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ».

فقد قال الإمامعليه السلام في العبارة الأولى: إنّ الله قد جعل حدوث الأشياء دليل على أزليته، ذلك لأننا نرى في هذا العالم مجموعة من الموجودات تنتهي إلىٰ علل سابقة بصيغة سلسلة من العلل والمعاليل، فهل يمكن أن تستمر سلسلة العلل والمعاليل إلىٰ مالانهاية ؟ وكل علّة معلولة لآخر وبعبارة أخرىٰ هل نقبل تسلسل العلّة والمعلول إلىٰ مالا نهاية؟

الجواب عن هذا السؤال بالسلب قطعاً، لأنّ مفهوم ذلك أنّ المالانهاية تتطلب التبدل إلىٰ موجود غني، أو بتعبير آخر تتبدل مالانهاية الصفر إلىٰ عدد، وعليه فإننا ندرك من حدوث الأشياء وجوداً أزلياً ووجوده من ذاته وهو واجب الوجود.

وأشار في العبارة الثانية إلىٰ حقيقة هي أنّ في جبين كلّ موجود علامة على العجز، فالأعمار والقدرات والاستعدادات كلّها محدودة، وهذا العجز يكشف أنّ وراءها يد القدرة المطلقة التي أفاضت القدرة على كلّ شيء بالمقدار الذي تطلبته حكمته.

وجرى الحديث في العبارة الثالثة عن فناء الكائنات، وهو الفناء الذي يسير طواعية وقد كمن لها الموت بالمرصاد شائت أم أبت، ومن الواضح أنّ هذه الكائنات الفانيّة ليست خالقة لنفسها كما أنّ وجودها لا ينبع من ذاتها وإلّا لما آلت إلىٰ الفناء،

وعليه فهنالك قدرة تفوقها أزليّة وأبديّة والكلّ مستند في وجوده إلىٰ الذات المقدّسة، والذي نود بيانه هنا أنّه ما الفارق بين العبارة «مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ» والعبارة السابقة «الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ؟» فهل العبارتان تفيدان اثبات أزلية الله عن طريق حدوث الموجودات؛ أي أنّها صفة وضحت بعبارتين أم أنّ لكلّ منهما مفهوماً مستقلاً؟ طبعاً فصاحة وبلاغة الإمام عليه السلام تستلزم أن تختزن كلّ عبارة مفهوماً جديداً.

فلا يستبعد أن تكون العبارة السابقة إشارة إلىٰ الدلالة التكوينيّة والعبارة الأخيرة إشارة إلىٰ الدلالة التشريعيّة، أي كما يدل حدوث الموجودات على أزليّة الله بلسان التكوين ففي الآيات القرآنيّة وروايات المعصومين وردت مثل هذه الاستدلالات بعبارات مختلفة.

قال القرآن الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾[1].

وقال في موضع آخر: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[2].

فالآية في الواقع إشارة لبرهان العلية الذي جاء في الفلسفة لاثبات وجود الله وهو أنّ العالم الذي نعيش فيه حادث لا شك، فهل وجد هذا الحادث بدون علّة أم أنّه علّة لنفسه أم أنّه معلول لعلة أخرىٰ معلولة لعلة أخرىٰ أو مخلوق لله تعالى واجب الوجود ؟ الذي وجوده في ذراته ولا يبقى سوى الاحتمال الرابع بعد الإلتفات إلىٰ بطلان الاحتمالات الثلاثة الأولى.

ثم ذكر الإمام عليه السلام ثلاث صفات أخرىٰ من صفات الله تعالى فقال: «وَاحِدٌ لَا بِعَدَد، ودَائِمٌ لَا بِأَمَد، وقَائِمٌ لَا بِعَمَد».

والمراد من الواحد العددي الأشياء التي لها شبيه ومثيل وثاني وثالث ولكن لم يوجد إلّا فرد منها؛ كالشمس في المنظومة الشمسيّة فهي واحدة فقط لا غير ولكن لها ثان.

---

١. سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

٢. سورة طور، الآية ٣٥.

فهذا المعنى لا يصح بالنسبة لله تعالى؛ لأنّ وجوده لا متناهٍ من جميع الجهات ويستحيل عليه التعدد، ولذلك فوحدة الذات القدسيّة ليست وحدة عددية، بل بمعنى انعدام الشبيه والنظير والمثيل لها، وهوذات المعنى الوارد في سورة التوحيد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[1].

وبعبارة أخرىٰ يمكن التعدد في الواحد العددي؛ لكنه يستحيل في الواحد الذاتي.

وأشار في العبارة الثانية «دَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ» إلىٰ أنّ دوام وجوده سبحانه ليس بدوام زماني لأنّ ذاته القدسيّة تفوق الزمان والمكان بل المراد منه الدوام الذاتي.

ومفهوم العبارة «قَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ» أنّ قيامه بذاته؛ لا بمساعدة الآخر وبعبارة أخرىٰ فإنّ القيام ذو مفهوم مادي وهو وقوف الشيء على قدميه أو بالاستعانة بعمود، كما له مفهوم يفوق المادة وهو أنّه وجود مدير ومدبر لعالم الوجود ودون الاستناد إلىٰ شيء آخر وهذا هو معنى قائمية الله تعالى.

بعبارة أخرىٰ فإنّ جميع الموجودات تعتمد على ذاته القدسيّة وهو قائم بهذه الذات.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته ليخوض في تلك الذات المطلقة إلىٰ الحد الذي يسعه الفكر البشري فشرح الذات المقدّسة بأسلوب رائع ضمن عبارة قصيرة وعميقة المعنى بما يبعدها عن التشبيه ولا ينتهي إلىٰ تعطيل المعرفة فقال: «تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ[2]، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي[3] لَا بِمُحَاضَرَةٍ[4]».

---

١. أشرنا في شرحنا للخطبة ٦٥ في الجزء الثالث من هذا الشرح إلىٰ حديث عميق المعنى والذي بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام في رده على السائل الذي سأله عن وحدانيّة الله تعالى، فذكر عليه السلام للواحد أربعة معانٍ يستحيل اثنان منهما على الله بينما يصح الآخران (راجع نفحات الولاية، ج ٣، ص ٤١).

٢. «مشاعرة» تعني الإدراك بواسطة الحواس ومادته شعور بمعنى الاحساس.

٣. «مرائي» جمع مرءاة تطلق أحياناً على العين حيث تنعكس فيها صور الموجودات.

٤. «محاضرة» بمعنى الحضور والمجالسة.

دليل واضح إشارة إلىٰ أنّ آثار عظمته وقدرته وعلمه وحكمته التي ملأت العالم على وجوده؛ الوجود الكائن خلف حجب الغيب وما وراء الطبيعة وجعل كلّ شيء تجلياً لعلمه وقدرته.

وقال في مواصلته لكلامهعليه السلام: «**لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ[1]، بَلْ تَجَلَّى لَهَا[2] بِهَا، وبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وإِلَيْهَا حَاكَمَهَا**».

فالإمامعليه السلام طبق ما ورد أبطل مذهب التعطيل إلىٰ جانب نفي التشبيه؛ أي أنّه حذر من مغبة خطأ أولئك الذين يزعمون أنّهم لا يفهمون من صفات الله تعالى سوى صفاته السلبيّة، إلىٰ جانب أولئك الذين هبطوا بالله تعالى إلىٰ درجة الممكنات فقالوا: له صفات محدودة وممكنة، فقد تحدّث من جانب عن تلقي الأذهان وتجلي الصفات ومن جانب آخر عن عدم احاطة الأفكار بالذات القدسيّة وصفاتها وينتج من ذلك أنّ لدينا علماً إجمالياً بالنسبة لذاته وصفاته سبحانه رغم عجزنا عن الاستغراق في تفاصيلها وجزئياتها.

ثم قالعليه السلام : «**لَيسَ بِذِي كِبَر امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَم تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وعَظُمَ سُلْطَاناً**».

إشارة إلىٰ أننا حين نقول: «الله أكبر» إنّما يقتدح أحياناً إلىٰ ذهن الأفراد غير المطلعين إلىٰ أنّ أبعاده الوجودية ملأت شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، وحين نقول: «الله عظيم» يتصورون أنّه كذلك بالنسبة لسائر الموجودات كالجبال والبحار والسماوات، والحال ليس لكبره وعظمته من بعد جسمي، بل كبره وعظمته معنوي،

---

١. «أوهام» جمع «وهم» على وزن «فهم» تعني لغوياً ما يخطر على القلب ولكن تشير القرائن إلّا أنّها وردت في هذه الخطبة وسائر الخطب بمعنى الأفكار الخيالية.

٢. «تجلى لها» تعود الضمائر الست في هذه العبارة والعبارتين التاليتين إلىٰ الأوهام ومفهومها في العبارة الأولى أنّ الله تعالى تجلى للعقول عن طريق الإدراكات العقلية وللأنظمة التي يراها العقل في عالم الخلقة وسلم عن طريق الإدراك العقلي باستحالة إدراك ذاته على العقول. وحوكم العقل بادعائه درك كنه ذاته من قبل العقل نفسه (عليك بالدقة). أمّا ما ذكره البعض من احتمالات أخرىٰ لعودة الضمائر فلا يبدو صحيحاً.

لأنّه إن كان الله جسماً كبيراً لاشتمل حتماً على أجزاء ونهاية وزمان ومكان بينما هو أسمى وأرفع من كلّ ذلك ويالها من كلمات رائعة تلك التي ساقها الإمام الصادق عليه السلام لذلك الشخص الذي قال عنده: اللهُ أكبر، فسأله عليه السلام: «أَكْبَرُ مِنْ أيِّ شَيءٍ؟»، قال: «مِنْ كُلِّ شَيء».

فأشار عليه الإمام عليه السلام: «بِأنَّكَ جَعلتَ لَهُ حُدوداً فِي الزّمانِ وَالمَكانِ». فقال الشخص فماذا أقول: قال عليه السلام: قل: «اللهُ أَكْبَر مِنْ أنْ يُوصَفَ»[1].

إشارة إلىٰ أننا لا نعدو صفات مخلوقاته في كلّ صفة نطبقها عليه ذلك لأنّ فكرنا محدود في الاستيعاب، وعليه فهواسمى من كلّ الصفات وهذا ما أكّده القرآن الكريم بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]. (الذين يصفونه بما يليق به).

٭٭٭

١. الكافي، ج ١، ص ١١٧، ح ٨.

٢. سورة الصافات، الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.

القسم الثاني

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِأَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وظُهُورِ الْفَلَجِ، وإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دالاً عَلَيْهَا، وأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ ومَنَارَ الضِّيَاءِ، وجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً.

الشرح والتفسير

الأبعاد الوجوديّة للنّبي الأكرمصلى الله عليه وآله

بعد أن فرغ الإمامعليه السلام من بيان صفات الجمال والجلال خاض في الأصل الثاني للدين أي الشهادة بنبوة النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله فوصفه بتلك الصفات التي تكشف عن أبعاده الوجوديّة كافّة فقال: «**وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ ـ**».

حقاً إنّ الله تعالى إن اصطفى شخصاً واعتبره أميناً وارتضاه من خلقه فذلك لكمال إخلاصه وطهارته على جميع المستويات، فهذه العبارات إشارة إلىٰ عصمة النّبيصلى الله عليه وآله من الذنب والخطأ.

ثم خاضعليه السلام في الأهداف المتوخاة من بعثتهصلى الله عليه وآله وتعاليمه فقال: «**أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وظُهُورِ الْفَلَجِ**[1]**، وإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ**».

وهكذا بيّن الإمامعليه السلام من خلال هذه العبارات الثلاث أهداف البعثة التي تتمثل في إتمام الحجّة وانتصار الحقّ على الباطل وايضاح سبيل السعادة. آنذاك تناول

---

١. «فلج» بمعنى الظفر سواء في الاستدلال أو العمل.

المهام العمليّة للنبيﷺ فقال: «فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً[1] بِهَا، وحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دالاً عَلَيْهَا، وأَقَامَ أَعْلاَمَ الاهْتِدَاءِ ومَنَارَ الضِّيَاءِ، وجَعَلَ أَمْرَاسَ[2] الإِسْلاَمِ مَتِينَةً، وعُرَى[3] الأيمَانِ وَثِيقَةً».

فقد ورد الحديث بادئ الأمر عن الخوض في إبلاغ الرسالة بصورة كلية على غرار ما ورد في القرآن الكريم: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

ثم خاض في الجزئيات في أنّ النّبي الأكرمﷺ دعا الناس إلىٰ جادة الصواب وعرض لهم علامات لسير على هذا النهج ونصب لهم مصابيح الهدى حتى لا يضلوا الطريق في ظلمة الليل ولا يتخلفوا عن مواصلة السير، وبالتالي رسخ أسس الإسلام وشدّ عرى الإيمان بشرح وافٍ وتدبير محكم.

وقلّما نجد كلاماً يستعرض هذا المطلب بشأن أهداف النّبيﷺ وخططه في الدعوة بهذه العبارة القصيرة والعميقة.

العبارة: «جَعَلَ أَمْرَاسَ الإِسْلاَمِ مَتِينَةً» كأنّه شبّه الإسلام بالخيمة التي شدّت بحبال متينة من كلّ جانب إلىٰ الأرض لتحول دون إقتلاعها من قبل العواصف وليست هذه الحبال سوى بعض الأمور من قبيل الجمعة والجماعة والحج والزكاة والأمر وبالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد التي حفظت على الدوام بيضة الإسلام وذادت عن كيانه، فالإسلام بخير ما طبقت هذه التعليمات الإسلاميّة فإنّ ضعفت هيمن الأعداء على المسلمين.

والعبارة: «وعُرَى الأيمَانِ وَثِيقَةً» شبهت الإيمان بحبل له عدّة عقد لابدّ من التمسك بها للنجاة من قعر البئر أو الخلاص من المطبات، ومن الطبيعي أنّ هذه العقد

١. «صادع» من مادة «صدع» على وزن «صبر» تعني في الأصل الشق ولما كان شق الأرض يدعو إلىٰ ظهور النباتات فإنّ الصدع يستبطن معنى الظهور والجهر.

٢. «أمراس» جمع «مرس» على وزن «مرض» يعني الحبل.

٣. «عرى» جمع «عروة» بمعنى العقدة.

٤. سورة الحجر، الآية ٩٤.

إن كانت ضعيفة وخاوية فلا يتعذر على الإنسان النجاة فحسب بل يشرف على سقوط خطير فهذه العقد هي فروع الإسلام وتعليماته في مختلف مشاريعه العباديّة والاجتماعيّة التي صرّحت بها الأخبار والروايات، ومن ذلك ما ورد في الحديث النبوي الشريف أنّه ﷺ سأل أصحابه يوماً: «أيّ عُرَى الإيمانِ أَوْثَق؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم؟» وذكر البعض الصلاة أو الزكاة و... فقال ﷺ: «بَلىٰ فِي ذَلِكَ فَضلٌ، ولكِنْ أوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ فِي اللهِ وتَولّي أَوْلِياءَ اللهِ وَالتّبري مِنْ أَعْداءِ اللهِ»[1].

طبعاً يمكن أن تكون المفاهيم الأخلاقيّة التي أشارت إليها الروايات من قبيل التوكل والتفويض والتسليم والرضا والصبر واليقين وما شابه ذلك من عرى الإيمان وليست هنالك أي منافاة مع بعضها البعض الآخر.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٢٦، ح ٦.

القسم الثالث

ولَوفكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، ولكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ! أَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ! انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، ولَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وفِي وِرْدِهَا لِصَدْرِهَا؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لاَ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، ولَوفِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! ولَوفَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وسُفْلِهَا، ومَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، ومَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، ولَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، ولَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. ولَوضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوفَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيءٍ، وغَامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ. ومَا الْجَلِيلُ واللَّطِيفُ، والثَّقِيلُ والْخَفِيفُ، والْقَوِيُّ والضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ.

الشرح والتفسير

قدرته المطلقة في خلق الكائنات

عاد الإمام عليه السلام ثانية إلى موضوع معرفة الله الذي استهل به خطبته وعرج فيها

على معرفة النّبيﷺ ليخوض هنا في أدلة اثبات وجود الله وعلمه وقدرته المطلقة، فحذر أولئك الذين ضلّوا الطريق فقال: «**وَلَوفَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**».

إشارة إلىٰ أمرين: أنّه لو استعمل الفكر لاتّضحت آثاره عاجلاً على أعمال الإنسان؛ الأوّل التفكير في عظمة قدرة الله الذي خلق النجوم السماويّة العظيمة ومليارات الكواكب في المجرة ومئات الملايين من المجرات بحيث لم يتّضح لأحد سعة ملكه وعظمته، وكل ما نورده بشأن عظمة العالم إنّما يقتصر على الأشياء التي لا تتجاوز دائرة علمنا القاصر، ولعل كلّ ذلك لا يعدو ورقة شجرة بلغت عنان السماء في وسط غابة كثيفة. فالتفكير بهذا الشأن يجعل الإنسان خاضعاً لهذه القدرة فيقبل على الله ويتعلق به قلبه فينير باسمه وذكره حياته.

والآخر التفكير في النعم كونها ملأت وجودنا وهي متصلة منذ لحظة انعقاد النطفة حتى ختام العمر؛ فقد سخر لنا لشمس والقمر والسماوات والأرض ومنحنا التصرف في السحب والرياح والأمطار، فقد بسط نعمته في كلّ مكان وجعل الجميع يتغذى على رزقه، والحقّ أنّ شكر النعمة المودع في فطرة كلّ إنسان يسوقه إلىٰ معرفة المنعم.

ثم تساءلعليه السلام ترى ما العامل الذي يصد الإنسان عن السبيل ويسوقه إلىٰ العذاب الأليم مع وجود كلّ هذه الدوافع القوية ؟ فقال: «**ولكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ!**[1]».

فقد أشار الإمامعليه السلام هنا إلىٰ سببين رئيسيين، لأنّ المراد من القلوب العقول التي تتعطل عن المعرفة أثر الهوى والهوس وسائر الآفات، والمراد من البصائر عيون البصيرة التي تطرح عليها حجب المعصية والتعصب وحبّ الذات.

وبالطبع فإنّ هذه الأمور طارئة على أصل الخلقة بل الغفلة والهوى والهوس

١. «مدخولة» من مادة «دخل» على وزن «دغل» بمعنى الفساد.

والشهوة هي التي قادت إلىٰ ذلك، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيرة إلىٰ موانع المعرفة والتي أفصح عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[2].

كما تضمنت العديد من الآيات القرآنيّة دعوة الجميع إلىٰ تأمّل أسرار الخلق والتفكر في قدرة الله ونعمه علهم يعودون عن هذا الطريق إلىٰ جادة الصواب.

ثم ركز الإمام عليه السلام على بعض الكائنات العجيبة في هذا العالم بعد فراغه من بيان أسرار الخليقة بصورة كلّية فقال: «أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وسَوَّى[3] لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ![4]».

حيث أشار الإمام عليه السلام إلىٰ ستة أمور بشأن الحيوانات والحشرات الغاية في الصغر؛ الخلق المحكم، التركيب الصحيح، الإشتمال على الأذن والعين، والنظام الخاص في العظام والجلد، نعم فهذه الحشرات تتمتع بالأعضاء والوسائل كافّة التي تحتاجها رغم صغرها فقد أفاض الله عليها بقدر جسمها وحاجتها ما أفاضه على بعض الحيوانات العظيمة كالفيل والجمل وبالطبع يبدو خلق هذه الكائنات الصغيرة أعظم من تلك الكبيرة لما فيها من دقة وظرافة عجيبة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في مرحلة أدق في تفاصيل مخلوقين صغيرين غالباً ما لا يكترث الإنسان لخلقتهما بعبارات رائعة، فقال باديءَ الأمر بشأن النملة: «انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، ولَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، ولَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ».

---

١. سورة المطففين، الآية ١٤.
٢. سورة الجاثية، الآية ٢٣.
٣. «سوى» من مادة «تسوية» بمعنى التنظيم والترتيب.
٤. «بشر» جمع «بشرة» بمعنى ظاهر جلد البدن وتأتي بمعنى الإنسان.

ثم قال عليه السلام: «**كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وفِي وِرْدِهَا[1] لِصَدْرِهَا[2]**».

نعم، فهذا المخلوق الضعيف على درجة من الفطنة بحيث يعرف كيف يمارس حياته، فهو يتجول بهذه اليد والرجل الصغيرة في الجبل والصحراء ويتسلق الأشجار ويختار ذلك النوع من الطعام من بين مختلف الأطعمة والذي ينسجم مع طبيعته ومزاجه ويجلب إلى عشه الحبوب من الطرق القريبة والبعيدة فهو يختار حتى هذه الحبوب ويسلك بعض الطرق المتشعبة في عشّه كي لا يخلق بعض المتاعب لسائر جنسه في الحركة والعبور ثم يضع هذه الحبوب في مكان معين بغية الحيلولة دون فسادها، ويعمد في فصل الصيف بإلهام ذاتي ودون أن يرى فصل الشتاء ـ أي ولد في تلك السنة ـ لادّخار بعض الحبوب والمواد الغذائيّة التي يحتاجها في المستقبل خشية هطول الأمطار وتعذر الحركة في فصل الشتاء فيلتقط ما يعينه على قضاء تلك المدّة.

ثم قال عليه السلام: «**مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ[3]، ولَوفِي الصَّفَا[4] الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ![5]**».

أشار إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قد عمّ لطفه هذه الموجودات الصغيرة التي تعيش في الجبال والصحارى والسهول فزودها بالطعام الذي يلائم طبعها وقد وفر لها ما تحتاجه من غذاء ورطوبة لازمة عن طريق الهواء حتى وإن كانت تعيش في جوف صخرة صماء، والهمها قدرة التزود بالطعام لتلك التي تفتقد فيها هذه القدرة وهذا حقاً ما يذهل العقول.

---

١. «الورد» بمعنى العطش وهنا كناية عن القدرة.

٢. «صدر» الرجوع بعد الورود وهي هنا كناية عن العجز والفقدان.

٣. «ديان» بمعنى المفيد والحاكم والمدبر.

٤. «صفا» بمعنى الحجر الأملس لا شقوق فيه.

٥. «جامس» جامد.

هل تدري هذه الحشرة أنّه يتعذر عليها الخروج من عشها في بعض أيّام الشتاء ؟ وهل تفهم المقدار الذي تحتاجه من المواد الغذائيّة في تلك المدّة ؟ وهل تعي طبيعة المواد التي يمكن أن تبقىٰ سالمة أو فاسدة خلال هذه المدّة ؟ وهل تعلم أين هذه المواد وكيف يجب عليها الحصول عليها؟

نعم، إنّها تعرف كلّ ذلك بعد أن علّمها خلقها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ البنية العجيبة لهذا المخلوق الحي الصغير فقال: «ولَوفَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وسُفْلِهَا، ومَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ[1] بَطْنِهَا، ومَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، ولَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً!».

إشارة إلىٰ أنّ الإنسان لو تأمّل خلق هذا الموجود الصغير الذي لا يرى بسهولة لرآىٰ عالَماً عجيباً حقّاً فذلك الرأس الغاية في الصغر يضم العين والأذن والفم وقرنان كأنّهما هوائيان تستفيد منهما في الإرتباط بالعالم الخارجي وتحوي بطنها شيء أشبه بالمعدة والأمعاء واحاطت به أضلاع غاية في الصغر والدقة كما لها أعصاب وعضلات ظريفة تتناسب مع حاجتها ويتولى دماغها الصغير إدامة حياتها المعقدة، ولأرجلها مفاصل مختلفة ولكلّ مفصل وظيفة معينة على غرار مفاصل الحيوانات الكبرى.

ثم خلص الإمام عليه السلام ممّا سبق إلىٰ هذه النتيجة فقال: «فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يُشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، ولَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ».

فقد لفت الإمام عليه السلام في هذه العبارة انتباه الجميع إلىٰ موضوعين:

وهوأنّ الله سبحانه وتعالى خلق هذا الجسد الظريف على يد ورجل ظريفة تستطيع حمله بل أحياناً تحمل حملاً ثقيلاً يفوق دفعة أضعاف وزنها، والغريب أنّها

١. «شراسيف» جمع «شرسوف» بمعنى الاضلاع التي تشرف على البطن.

تتسلق الحائط الأملس بهذا الحمل وتلتصق أحياناً بالسقف وتواصل طريقها وهو العمل الذي يتعذر على أي إنسان بطل القيام به، أضف إلىٰ ذلك فقد خلق لها جهازاً عظمياً يناسب طبيعتها والذي عبّر عنه الإمامعليه السلام بالدعائم، وهذا الجهاز ليس ثقيلاً بحيث يحدّ من حركتها ولا خفيفاً وظريفاً إلىٰ الدرجة التي لا تستطيع حفظ حياتها وما بجوفها.

ثم أشارعليه السلام إلىٰ نقطة مهمّة أخرىٰ فقال: «**وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ**».

أي لا تعتقدوا أنّ بنية كائن كبير كالنخلة الضخمة أعقد من بنية موجود صغير كالنملة، لأنّكم إن نظرتم بدقّة فإنّ لكليهما بنية غاية في التعقيد والدقّة وتحكم كلّ منهما قوانين معينة وتبدو عليهما الهداية الإلهيّة منذ الولادة حتى الممات بالإضافة إلىٰ أنّ لتلك الشجرة الكبيرة أعضاء مختلفة صغيرة وكبيرة وقوية وضعيفة بحيث يؤدّي كلّ منهما وظيفة معينة تتناسب معه (وعلى هذا الضوء تتضح علاقة العلّة والمعلول في العبارات المذكورة).

وزبدة الكلام إنّ الإنسان يرى أحياناً آثاراً مختلفة من حيث الصغر والكبر لصانع اساعة التي لا يعدو حجمها سانتيمتراً واحداً وأخرىٰ التي تبلغ بضعة أمتار، أو كتاب من بضع صفحات وآخر ذو عشرة أجزاء، فإنّ الإنسان حين يقارنها مع بعضها ويرى وحدة الأصول الكلية السائدة فيها ويقف على انسجام الآداب التي ضمها ذلك الكتاب الصغير وذلك الكبير يفهم أنّ هذين الأثرين يعودان إلىٰ مصدر واحد وأنّ الذي أبدعهما واحد أيضاً.

ثم أشارعليه السلام إلىٰ نقطة مهمّة أخرىٰ لمواصلة كلامه السابق فقال: «**وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ**».

إشارة إلىٰ أنّ الصغير والكبير والبسيط والمعقّد إنّما يتصور بالنسبة لموجود

محدود القدرة ويمتنع عليه ما كان خارجاً عن استعداده ويصعب عليه ما كان بمنتهى استعداده ويسهل عليه ما كان دون قدرته، أمّا الله تبارك وتعالى اللامتناهي القدرة فالجميع لديه على حد سواء، فلا فرق عنده بين تسيير المنظومة الشمسية وتسيير ذرة من الغبار، وخلق نملة غاية في الصغر مع خلق شجرة غاية في الضخامة.

وحمل حبّة قمح بالنسبة لنملة يفرق عما عليه في حمل حبتين، فلعل حملها للأولى يبدو سهلاً بينما يشقّ عليها حمل الثانية والحال لا نشعر نحن البشر بأدنى فارق بين الحالتين.

كما أننا نستطيع في تصوراتنا الذهنية أن نتصور قطرة ماء كما نستطيع بنفس البساطة تصور بحر متلاطم من المياه.

لعل هذه الأمثلة تستطع إيضاح عمق البحث الذي ذكرناه بشأن قدرته المطلقة سبحانه.

تأمّل

حياة النمل العجيبة

رغم أنّ طبيعة النمل بفعل كثرتها وتنوعها وتواجدها في الجبال والصحراء وداخل البيوت بحيث لا تحضى باهتمام عامة الناس، لكنها تبدو عجيبة للغاية بالنسبة للعلماء الذين فكروا لأكثر من عقدين بشأن حياتها فالدراسات التي أجريت بشأن أسرار خلقة هذه الكائنات فتحت الباب على مصراعيه أمام الوقوف على عظمة الخالق ونشير هنا إلىٰ جانب من تلك الدراسات:

١. إنّ الحيوانات والحشرات التي تعيش بصورة جماعية ليست بالقليلة من قبيل: الطيور والأسماك والغزلان بينما قليلة هي الحيوانات التي تستند حياتها الجماعية على أساس تقسيم الوظائف والأعمال وأبرزها النمل فلإناث النمل وظيفة جمع

الطعام وحفظ الفراخ وحتى حراسة ملكة النمل في عشّها، ووظيفة الذكور تـلقيح الملكة كما أنّ وظيفة الملكة وضع البيوض، والغريب في الأمر أنّ الذكور تموت بعد التلقيح، وهنالك طائفة منها تبدو كمجموعة مسلحة لها مجسّات قوية تنبري للدفاع بها عن نفسها وصد هجمات الأعداء على لاعشاش.

٢. تقوم العاملات بوظيفة ثقب الأرض وايجاد حفرة بـالتدريج لتـوفر لبـقيتها الحياة تحت سطح الأرض إلّا أنّ جميع النمل لا يعيش تحت الأرض فهنالك طائفة منها التي يطلق عليها «النجارة» تعمد إلىٰ ثقب الأخشاب لتصنع أعشاشها بداخلها

٣. تملك النملة ـ على الرغم من صغرها ودقّة هيكلها ـ جميع الأجـهزة التـي يملكها الحيوان الكبير بل لديها ما يفوق تلك الحيوانات من قبيل: الأرجل الإضافية والمجسّات التي تمكنها من التعرف على الوسط الذي تعيش فيه.

٤. هناك نوع من النمل يتغذىٰ على بعض الأحياء ومن ذلك النـمل المـعروف بالحنطي والذي يخدمه البرغوث النباتي، فهذه الحشرات تفرز سائلاً حلواً كالعسل يتغذى عليه النمل، كما يستفيد سائر النمل من بعض الحشرات التي تضع بـيوضها على قشور الأشجار.

٥. إذا لا يعتريكم العجب فإنّ بعض النمل يمارس الزراعة، فهناك نوع من النمل يدعى المظلي حيث يرتب مزرعة صغيرة حول أعشـاشها ويـزرعها بـالفطريات الصغيرةوتقوم العاملات بفصل قطع صغيرة من الأوراق وتضعها على رأسها فـتبدو وكأنّها مظلة وهذا سبب التسمية.

٦. هنالك نوع من النمل يدعى بالحرس الذي يتنقل كالبدو من مكان إلىٰ آخر، وهو في الواقع حشرات مفترسة تتجنبها حتى الفيلة وإلّا كبدتها خسـائر جسـيمة، وطائفة من هذه الحشرات التي تعيش في المـناطق الحـارة تأكـل اللـحوم، فـإن هاجمت حيواناً افترسته ونهشت لحمه وعضلاته ولا تبقي منه سوى العظام وخلال مدّة وجيزة.

٧. للنمل عادة رأس كبير وخصر نحيف وجثة قوية فهي قادرة على حمل الحبوب التي تعادل بضعة أضعاف وزنها وتتسلق الجدران التي لا يقوى على تسلقها الأبطال من حملة الأثقال، نعم فالنملة وخلافاً لجثتها الصغيرة تحمل مايبلغ عشرة أضعاف وزنها وتنقله من مكان لآخر.

٨. نظرة النملة للمستقبل وإدارتها رائعة جدّاً، فهي تفكر في الصيف بمؤونة الشتاء والحال ربّما لم تكن شاهدت الشتاء طيلة عمرها، فتلتقط الحبوب وتخرجها أحياناً من عشّها لكي لا تفسد، وأحياناً أخرىٰ تشطرها نصفين حتى لا تخضر وتنمو.

٩. للنمل خبرة عجيبة بالمكان فقد ذكر العلماء أنّهم جعلوا نملة وسط دائرة من النار فحاولت الخروج ولم تستطع حتى ماتت وكان ذلك في مركز الدائرة، أي أبعد نقطة عن النار.

١٠. ذكر العلماء أنّ النمل أنواع ربّما يتجاوز الأربعة آلاف وأنّ عدده على الأرض عشرة أضعاف عدد الناس، وتفيد المطالعات الحديثة أنّ النمل سبق الإنسان في التغلب على مشكلة الازدحام، فملايين النمل تتخذ أقصر الطرق لتبلغ مقصدها بأسرع وقت ودون أي تأخير.

إنّ عجائب عالم النمل ليفوق ما ذكرناه وقد سطرت العديد من المقالات والكتب بهذا الشأن، ومن هنا تتضح أهميّة المسألة التي ركز عليها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة من شرحه لخلق الله سبحانه[1].

٨٠٣

١. راجع دائرة المعارف لموريس باركر وحياة الحيوان للدميري.

القسم الرابع

وكَذلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، والرِّيَاحُ وَالْـمَاءُ. فَـانْظُرْ إلى الشَّـمْسِ وَالْـقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ والشَّجَرِ، وَالْمَاءِ والْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هذا اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وتَفَجُّرِ هذِهِ الْبِحَارِ، وكَثْرَةِ هذِهِ الْجِبَالِ، وطُولِ هذِهِ الْقِلاَلِ وتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، والأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ؛ ولَمْ يَلْجَأُوا إلَى حُجَّة فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيق لِمَا أَوْعَوْا، وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟!

الشرح والتفسير

نظرة إلىٰ كائنات السموات والأرض

تحدّث الإمامعليه‌السلام في القسم السابق من الخطبة عن عجائب خلق النمل وبغية دفع التوهم بأنّ العجائب التي تسلب العقول وتخطف الأبصار ربّما تنحصر في هذه الموارد صرح مباشرة بأن تأمّل مواضع هذا العالم الواسع في أرضه وسمائه إنّما ينطوي على مثل هذه العجائب أيضاً، فركز الإمامعليه‌السلام هنا على ست عشرة ظاهرة عجيبة في هذا العالم من السماء والأرض إلىٰ بعض الأمور المرتبطة بالإنسان فقال: «وكَذلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، والرِّيَاحُ وَالْمَاءُ».

وواصل كلامه قائلاً: «فَانْظُرْ إلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ والشَّجَرِ، وَالْمَاءِ والْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هذَا اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وتَفَجُّرِ هذِهِ الْبِحَارِ، وكَثْرَةِ هذِهِ الْجِبَالِ، وطُولِ هذِهِ الْقِلاَلِ [1] وتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، والأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ».

---

١. «القلال» جمع «قلة» بمعنى قمة الجبل.

فقد طرح الإمام عليه السلام هنا سلسلة من الموجودات المتنوعة في هذا العالم لكلّ منها مميزاتها العجيبة وخصائصها الجمّة، والمراد من السماء مجموعة العالم العلوي من الثوابت والسيارات إلىٰ المجرات وعليه فالشمس والقمر في الجملة القادمة من قبيل ذكر الخاص بعد العام وأننا لنعلم أنّ السماء بهذا المعنى تنطوي على خلقة غاية في الدهشة كما أشار إلىٰ ذلك القرآن الكريم: ﴿لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

المراد من الهواء هوذلك الهواء المحيط بالكرة الأرضيّة، الأكثر حيوية من كلّ شيء والأكثر من كلّ شيء.

والرياح (جمع ريح) والتي له عدّة وظائف في تسيير عجلة حياة الإنسان والكائنات الحية فهي تسوق السحب والغيوم إلىٰ الأراضي الجافة والقاحلة فتخرج النباتات، وتبث الأمواج في البحار وتزود الكائنات البحرية بالأوكسجين وتنقل الهواء الملوث من مكان إلىٰ آخر وتبعث إلىٰ المدن بهواء الغابات النقي.

والماء هنا بقرينة الرياح إشارة إلىٰ نزول الأمطار التي تبعث الحياة كما ذكر ذلك القرآن الكريم: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[2].

ثم أمر الإمام عليه السلام بتأمّل مختلف كائنات هذا العالم من الشمس والقمر إلىٰ النباتات والأشجار والمياه والأحجار (يبدو أنّ المراد من الماء الذي ذكر هنا إلىٰ جانب الحجر هو العيون والأنهار الجارية) واختلاف الليل والنهار إشارة إلىٰ النظام الدقيق ذو النور والظلمة حيث يعقب كلّ منهما الآخر وينبثق من بركتهما الفصول الأربعة وتلك الليالي الساكنة والهادئة والأيّام المفعمة بالحركة والتي أشارت إليها العديد من الآيات القرآنيّة.

العبارة: «وتَفَجُّرِ الْبِحار» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ ظهور البحار أو الحركة التي

---

١. سورة غافر، الآية ٥٧.

٢. سورة الحجر، الآية ٢٢.

تظهر تلك الأمواج العاتية ونعلم أنّ البحار مركز عجائب مخلوقات الله حيث ورد في دعاء الإمام السجادعليه السلام: «يا مَنْ فِي الْبِحارِ عَجائِبُهُ»[١] وأنّها مصدر مهم للمواد الغذائيّة والمعدنيّة ووسيلة مناسبة للنقل بصورة واسعة جدا ومصدر ظهور السحب وهطول الأمطار.

وكثرة الجبال إشارة إلىٰ عددها الجم والذي جعلها تبدو كدرع يحيط بالكرة الأرضيّة وتكسر الرياح العواتي وتحتفظ بالسحب لسقي الأراضي وتمنح الأرض الهدوء والاستقرار إزاء عمليّة المد والجزر الناشئة من الجاذبية الأرضيّة، كما أنّ سفوحها مرعى خصب للدواب والأنعام. كما أنّ استطالة القطعان تؤدّي إلىٰ ادّخار المياه بصورة بَرَد أو حبات ثلج على سفوحها فتنحدر تدريجيا إلىٰ الأراضي القاحلة فتسقيها بالمياه، كما تسقي الإنسان والحيوان، قال القرآن الكريم: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[٢].

وأشار الإمامعليه السلام في النهاية إلىٰ نقطة مهمّة من حياة الإنسان والتي تتمثل في اختلاف اللغات واللهجات وكثرة الألسن، فكيف تعددت هذه اللغات وكيف كان لكلّ قوم لغتهم الخاصّة مع أنّ الجميع ينحدر من ذات الأب والأم ؟ فالآن هنالك أكثر من ألف لغة في العالم بما فيها اللغات الرسمية والمحلية، وقد أفاض الله على الإنسان استعداداً لخلق اللغة بحيث تتمكن كلّ جماعة من اختراع لغة ووسيلة للتفاهم بينها ولعل ذلك لكي تنحصر أسرارهم بينهم دون أن يطلع عِليها الآخرون، قال القرآن الكريم: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[٣].

وقال أيضاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[٤].

١. دعاء أبو حمزة الثمالي.
٢. سورة النازعات، الآيات ٣٠ ـ ٣٣.
٣. سورة الرحمن، الآيات ١ ـ ٤.
٤. سورة الروم، الآية ٢٢.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من استدلالاته الرصينة والمقنعة في إثبات وجود الله اتّجه صوب من ينكر وجود الله ليفند دعواه الواهية بدليلين. (طبعاً قلّما يرى في القرآن ونهج البلاغة كلام بشأن الماديين ومنكري الذات الإلهيّة القدسيّة، ذلك لأنّهم كانوا قلّة قليلة آنذاك وكان أكثر الناس ممن يعتقدون بالأديان والمذاهب).

فقال عليه السلام: «فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ!».

إشارة إلىٰ أنّ آثار التدبير في أرجاء عالم الخلق كافّة على درجة من الوضوح بحيث لا يستحق منكر مدبر العالم سوى الويل واللعنة.

ثم قال عليه السلام: «زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لاِخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ».

طبعاً هذه العبارة بسبب النظرة الساذجة التي يبديها الإنسان عادة تجاه العلف المهمل والحال من وجهة نظر عالم النبات أنّ كلّ ورقة منها هي دفتر من معرفة الله تعالى وقد توصل العلماء المعاصرون اليوم إلىٰ أنّ آلاف الأنوع من هذا النبات يختزن العديد من الخواص الطبيّة والعلاجيّة ولكلّ منها بنية معقدة، الجذور والسيقان والأوراق والبذور كلّ منها تبدو أعجب من الاُخرىٰ، إذن يتّضح من تأمّلها أنّ لها زارعاً وخالقاً عليماً وقديراً.

ثم فند الإمام عليه السلام قولهم بدليلين: فقال أولاً: «ولَمْ يَلْجَأُوا[1] إِلَى حُجَّة فِيمَا ادَّعَوْا، ولَا تَحْقِيق لِمَا أَوْعَوْا[2]».

والدليل الثاني أنّ لكلّ بناء منظم ومبنى مرتب مهندس ومعمار فقال عليه السلام: «وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ».

وتوجد اليوم العديد من الآثار والمباني هنا وهناك في الكرة الأرضيّة وقد مرّت عليها آلاف السنين وحفظت كآثار تراثية لما فيها من دقة وفنون وليس هنالك أحد من عباد الله ولا أحد من الماديين من يدعي أنّ هذه المباني ظهرت بواسطة الأمطار

---

١. «يلجأوا» من مادة «لجوء» على وزن «غروب».

٢. «اوعوا» من مادة «وعى» على وزن «سعى» تعني في الأصل حفظ الشيء في القلب ومنه الوعاء.

والرياح والعواصف أو أنّها رتبت من قبل أفراد جهال من عديمي الخبرة عن طريق الصدفة، بل يجمع الجميع دون استثناء على وجود الباني لها صاحب العقل والشعور ويشيد بهندسته وفنه في البناء.

والعبارة: «أَوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ» إشارة إلىٰ أنّه ليس فقط البناء بحاجة إلىٰ علم وتدبير بل التخريب والجناية المتعمدة تحتاج إلىٰ تخطيط الشخص العاقل الذي يتعين عليه انتخاب الزمان والمكان والوسيلة وكيفية ممارسة العمل لتحقيق الهدف.

ويستعان اليوم بذوي الخبرة والاختصاص في هدم بعض المباني الضخمة بغية تفادي وقوع العوارض الجانبية، وعليه فالبناء والهدم المبرمج كلاهما يحتاج إلىٰ العقل والتدبير.

والدليل على هذا الكلام ما سيرد في القسم القادم من هذه الخطبة وكلام الإمام عليه السلام عن الجراد وبنيته العجيبة وعمله التخريبي المنظم ضد النباتات.

تأمّل

قبسات من برهان النظم

ما قاله الإمام عليه السلام في العبارة الأخيرة من هذه الخطبة: «وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ» إشارة لطيفة إلىٰ البرهان المعروف ببرهان النظم الذي يعدّ من أهم الاستدلالات على معرفة الله.

توضيح ذلك: أننا حين نرد مبناً ضخماً ذا عدّة طبقات يحتوي على غرف متعددة، وصالة للاستقبال، ومطبخ وحمام، ومرافق صحية، ومصاعد وحين ننظر إلىٰ الجدران والسقوف المزينة بالمرايا الجميلة والنقوش الظريفة الملونة ووسائل التكييف والتبريد ومد أنابيب المياه والغاز وخطوط الكهرباء والهاتف فنرىٰ كلّ شيء منظم ومرتب.

فهل هنالك من أحد ـ مهما كانت درجته من العقل والشعور ـ يحتمل أنّ الصدفة الناشئة من الحوادث الطبيعية المختلفة هي التي تقف وراءه ؟ أم أنّ عدّة عمال أميين

جمعوا مقداراً من مواد البناء فبنوا هذا البناء الرائع دون أن يكون لديهم أدنى فن أو خبرة؟ قطعاً أنّ كلّ من يحتمل هذا الشيء إمّا أن يمزح أو أنّه فقد عقله، فالعقلاء كافّة يحكمون بأنّ بعض الأفراد الأذكياء أعدّوا خريطة مسبقة ثم تكاتف عدد من المهندسين البنائين المهرة والمختصين وذوي المهن المنزلية ليشيّدوا معاً هذا المبنى.

ويصدق هذا الكلام على كلّ بناء وكل مصنع وكل كتاب علمي و... ويعبر عن ذلك ببرهان النظم ويقال إنّ النظم يدل دائماً على عقل وشعور من يأتي به، وكلّما كان النظم أدق وأعقد كان صاحبه أوعىٰ عقلاً وشعوراً وعلماً.

ولو تأمّلنا بنية نملة والتي يمكن أن نقضي عليها لحظة واحدة دون أن نلتفت إليها لوقفنا على أنّها أعظم وأهم من تلك المباني الشاهقة والضخمة، فبنية الأرجل، ومفاصلها والأيدي والمجسّات والعين الغاية في الصغر وجهاز الشامّة القوي الذي يمكنها من الشمّ من مسافات بعيدة والفم والأمعاء وجهاز الهضم وسلسلة الأعصاب والأهم من كلّ ذلك الدماغ الغاية في الصغر والخارق للذكاء لكشف كلّ منها بمفرده خلقه من قبل خالق عالم وقدير.

أضف إلىٰ ذلك فإنّ هذه الحشرة الصغيرة تتغذى وتنمو وتنجب بينما ذلك المبنى الضخم موجود جامد خالٍ من الروح لا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا ينجب.

والحقّ أنّ إيماننا ليتعمق بذلك الخالق القادر والعالم إن اتجهنا صوب بنية الإنسان وأجهزته الغاية في التعقيد كالقلب والدماغ والأعصاب وأُلوف الكيلومترات من الشرايين والأوعية الدمويّة التي تغذي كلّ لحظة جميع ذرات البدن.

أضف إلىٰ ذلك فإننا نعلم أنّ العالم يحتوي على مئات الأُلوف من أنواع النباتات ومئات الأُلوف من أنواع الحيوانات والطيور والحشرات و... ولكلّ منها قصته العجيبة والمذهلة.

والقرآن المجيد جعل كلّ واحدة منها آية من آياته فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1].

---

١. سورة فصلت، الآية ٥٣

القسم الخامس

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، ونَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، ولَوأَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وخَلْقُهَا كُلُّهُ لاَ يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

الشرح والتفسير

صنع الجرادة

يمكن تصنيف الحشرات إلىٰ ثلاثة أنواع؛ الصنف الذي يخدم الإنسان كالنحل الذي يزودنا بالشهد وعامّة النحل التي تنقل حبوب اللقاح وتنمي ثمار الأشجار.

والصنف الآخر الحشرات غير المؤذية (ظاهرياً) التي لا تعود على الإنسان بالنفع ولا تصيبه بضرر، والصنف الثالث الحشرات التي تعدّ من الآفات مثل الجراد.

وقد أسهب الإمام عليه السلام في الأقسام السابقة من هذه الخطبة في عجائب خلقة النمل في أنّها وجودات خالية من الأضرار غالباً ومجدّة ومثابرة يمكن أن تكون نموذجاً للإنسان؛ لكنّه تحدّث هنا عن حشرة تعدّ من وسائل العذاب الإلهي وبإمكانها أن تجهز جيشاً لتهجم به على الحقول والمزارع ولا يسع قوّة الحد من زحفها، وهكذا يفصح الله تعالى عن قدرته في جميع الجهات ويرسخ لدى الإنسان شعور الخوف والرجاء.

فقال: «وإنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ[١]، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ[٢]، وجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ[٣]».

وأضاف قائلاً: (وجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، ونَابَيْنِ[٤] بِهِمَا تَقْرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ[٥] بِهِمَا تَقْبِضُ».

صرح بعض العلماء بأنّ الجرادة حشرة عجيبة يشبه كلّ عضو منها أحد الحيوانات، وبعبارة أخرىٰ مع أنّها تبدو حشرة ضعيفة لكنها تشبه عشرة حيوانات قوية، فوجهها كوجه الفرس، وعيونها كعيون الفيل ورقبتها كرقبة البقرة، ومجسّاتها كقرني الضبي وصدرها كصدر الأسد وبطنها كبطن العقرب وأجنحتها كأجنحة العقاب وسيقانها كسيقان الجمل وأرجلها كأرجل النعامة وذيلها كذيل الحية، وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلىٰ سبع خصائص عجيبة فيها؛ كالعيون والأحداق والأذن الخفية والفم والشعور القوي والأسنان الحادة والعضوين اللذين يشبهان منجلين على جانبي الفم (وسنعرض لها في التأمّلات).

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ الأخطار العظيمة لهذه الحشرة التي تبدو ضعيفة فقال: «يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، ولَوأَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا[٦]، وتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً[٧]».

حقّاً أنّه لمن العجب أنّ كبار أبطال التاريخ كلّما جهّزوا جيشاً لمقاومة هذه الحشرة الضعيفة فشلوا في التخلص منها؛ فأسراب الجراد تظهر كقطع السحب

---

١. «الجرادة» من مادة «جرد» على وزن «فرد» بمعنى إزالة القشور ويبدو أنّ هذه المفردة اقتبست منها.

٢. «قمراوين» تثنية «قمراء» من مادة «قمر» و«القمراء» مفردة وصفية تعني المضيء.

٣. «سوى» بمعنى الكائن الكامل الذي لا عيب فيه.

٤. «نابين» تثنية «ناب» السن الأمامي.

٥. «منجلين» تثنية «منجل» كناية هنا عن أرجل الجرادة أو أيديها القوسية الشكل وتمسك بهما الأوراق والسيقان.

٦. «نزوات» جمع «نزوة» بمعنى الوثوب.

٧. «مستدقة» من مادة «دقة» بمعنى النحافة ومستدقة بمعنى نحيفة.

الكبيرة في السماء فتهجم بغتةً على البساتين والمزارع الواسعة، فتلتهم خلال مدّة قصيرة سيقان النباتات وأغصانها وأوراقها فتحيلها إلىٰ أشجار عارية جرداء من الأوراق والثمار.

ويستعان اليوم بالطائرات التي ترش المبيدات الحشرية وسائر الوسائل لمواجهة خطر هذه الآفة مع ذلك لم تحرز سوى بعض التقدم وفي بعض الأحيان، وإن كانت حملة الجراد قوية، فإنّ الوسائل المعاصرة هي الأُخرىٰ تعجز عن مواجهتها.

تأمّل

عجائب الجرادة

إنّ إحدى الحشرات العجيبة هي الجرادة، الحشرة التي تبدو بصورة عادية خالية من الضرر والأذى حيث تعيش هنا وهناك في المزارع والبساتين والوديان والجبال، ولكن ما أن تتلقى بعض الأوامر المشفرة حتى تتكاثر بسرعة وتتطاير كأسراب عظيمة بمثابة السحب في السماء لتحط على كلّ مزرعة وبستان فتحيله خراباً.

ويقول العلماء: إنّ بنية هذه الحشرة غاية في التعقيد والدهشة ومن ذلك لها عينان مركبتان وثلاثة عيون بسيطة، وتتكون عيونها المركبة من أربعة آلاف قسم ولكلّ قسم بنيته الخاصّة وتتشكل من جميع هذه العيون المركبة رؤية واحدة.

أمّا العيون الثلاثة البسيطة فتقع في أعلى الرأس، ويتألف صدرها من ثلاث حلقات وبطنها من عشر حلقات تشبه بعضها البعض الآخر.

لها زوجان من الأجنحة زوج أمامي بصيغة مقوسة لا يستعمل في الطيران ووظيفته حفظ أجنحة الطيران الظريفة التي تنطبق حين الاستراحة لتحفظ تحت الأجنحة الأماميّة القويّة.

وقد استطالت أرجلها الخلفية لتساعدها في القفز والوثوب، تضع الجرادة بيوضها في فصل الصيف أو الربيع، حيث تخرج هذه البيوض بواسطة نوع من المواد

من ذيلها فتضعها في ثقوب من الأرض تصنعها بنفسها، وتمتاز صغار الجراد التي تتفقس عن البيوض بشدّة النهم والحرص فتأكل كلّ ما يصادفها في طريقها، ومن هنا لابدّ من التعرف على موضع بيوضها من أجل مكافحتها والتصدي لصغارها قبل تفقيسها من البيوض.

والجراد أنواع وأقسام منه الجراد البحري والجراد المراكشي والجراد الإيطالي الذي يسبب خسارة للمزارع أكثر من غيره من سائر الأنواع، ومن عجائب هذه الحشرة أنّها تغير شكلها ست مرّات منذ تفقيسها من البيضة إلىٰ تكاملها كحشرة قادرة على الطيران.

وتبدو أسراب الجراد على درجة من السعة بحيث تغطي آلاف الكيلومترات المربعة من السماء[١].

٭٭٭

١. انظر: الزلجي الحديث تأليف وترجمة محمد كاظم المالكي، ج ٢، ص ٣٢٩؛ قاموس معين، كلمة الجرادة.

القسم السادس

فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً)، ويُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً ووَجْهاً، ويُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً وضَعْفاً، ويُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وخَوْفاً! فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ؛ أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا والنَّفَسَ، وأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى والْيَبَسِ؛ وقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهذَا غُرَابٌ وهذَا عُقَابٌ. وهذَا حَمَامٌ وهذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ.

وأَنْشَأَ (السَّحَابَ الثِّقَالَ) فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح والتفسير

الله العظيم

بين الإمام عليه السلام في ختام الخطبة خلاصة عامّة ليعتبر موجودات الأرض والسماء كافّة وأنواع الطيور والسحب والرياح مؤتمرة بأمره سبحانه وتعالى فقال: «فَتَبَارَكَ[1] اللهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ ﴿مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[2]، ويُعَفِّرُ[3] لَهُ خَدّاً[4]

---

١. «تبارك» من مادة «برك» في الأصل من «البرك» على وزن «الفرك» بمعنى صدر الناقة ولما كانت الجمال تلصق صدرها بالأرض حين الاستقرار فقد استعملت هذه المفردة بمعنى ثبات الشيء واستقراره ومنه البركة لبقاء الماء مدّة فيها، ويقال للشيء مبارك إن ثبت واستقر خيره، وعليه فإن استعملت هذه المفردة بشأن الله عنت كثرة بركته وخلودها.

٢. سورة الرعد، الآية ١٥.

٣. «يعفر» من مادة «عفر» و«عفر» على وزن «فقر» و«سفر» بمعنى التراب والتعفير بمعنى التمريغ بالتراب.

٤. «خد» تعني في الأصل الشق ثم اطلق على ما في الوجه ووردت هنا بمعنى جانبي الوجه.

وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وخَوْفاً!».

ربّما يكون السجود هنا إشارة إلىٰ الخضوع الإرادي للذات الإلهيّة المقدّسة فاعله أصحاب العقول والذي يفهم من كلمة «مَنْ»، كما يحتمل أن يكون المراد من السجود الإرادي التشريعي والتكويني، إستناداً إلىٰ أنّ مفردة «مَنْ» تشمل هنا ذوي العقول وغيرهم (أي لها حيثية تغليبية كما في الاصطلاح).

ويمكن أن تكون العبارة «طَوْعاً وَكَرْهاً» إشارة إلىٰ هذا المعنى، لأنّ السجود التشريعي قائم على أساس الإرادة، بينما ليست هنالك مثل هذه الإرادة في السجود التكويني، وعليه فربّما تكون إشارة إلىٰ الطائفة التي تسجد مختارة لله والأُخرىٰ التي تسجد حين البلاء والشدّة كما ورد في القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

كما أنّ العبارة «يُعَفِّرُ لَهُ...» إن فسّرت بمعناها الحقيقي فهي إشارة إلىٰ السجدة الاعتيادية التي يضع فيها الإنسان جبهته على التربة، وإن فسرت بالمعنى المجازي فهي شاملة للخضوع التشريعي والتكويني.

كما أنّ العبارة «يُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ...» واردة بهذا المعنى أيضاً في أنّ طائفة من العقلاء يخضعون لله إنطلاقاً من الرغبة والاختيار والشعور بالضعف والعجز بينما تعيش الموجودات غير العاقلة حالة التسليم لقوانين الخلق دون إرادة واختيار.

وتشير العبارة «يُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ...» إلىٰ مرحلة أبعد من مرحلة الطاعة لأنّ الإنسان يسمع أمر المولى في الطاعة فينهض ويباشر العمل، أمّا في القياد فهو يسلم نفسه لمولاه ليأخذه حيث يشاء.

ثم وذهب بعض اللغويين إلىٰ التمييز بين «الرهبة» و«الخوف» في أنّ الخوف يعني مطلقه، بينما تعني الرهبة الخوف المقرون بالاضطراب وضبط النفس.

ثم خاض الإمام عليه السلام ثانية في جانب من مخلوقات الله العجيبة هي الطيور التي

---
١. سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

تمتاز حقّاً بعالمها العجيب. فلا يقتصر الأمر على تحليقها إلىٰ السماء باتّجاه مضاد للجاذبية الأرضيّة فتنطلق هنا وهناك بسرعة فائقة، بل تمتاز بنيتها ببعض الأشياء المعقدة من جميع الجهات والتي سنعرض إلىٰ جانب منها في ختام هذا البحث فقال: ﴿فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ﴾.

والعبارة اقتباس من الآية الشريفة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ثم أسهب الإمام عليه السلام في شرح هذه الطيور فأشار إلىٰ بعض الأمور المهمّة فقال: «أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ[2] مِنْهَا وَالنَّفَسَ، وَأَرْسَى[3] قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى[4] وَالْيَبَسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهذَا غُرَابٌ وهذا عُقَابٌ. وهذَا حَمَامٌ وهذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلىٰ أمور رائعة، فعدّ ريش الطيور من أغـرب عجائبها فكلّ منها يشبه البرعم الجميل الذي غاصت جذوره بصورة سطحية فـي لحم بدنه وظهرت أغصانه وأوراقه بصورة منتظمة وتـجمعت عـلى بـعضها بـهيئة خاصّة على جوانب الرأس والعنق والجناح والصدر وما أن يسقط أحد منها حتى ينمو آخر غيره فلطافتها عجيبة وألوانها أعجب.

ثم أشار إلىٰ أقدامها فقد صممت بعضها لليابسة فهي قصيرة ومحكمة، وأخرىٰ للفائدة عند حافات البحار والأنهار فهي طويله ومرتفعة وبرقية طويلة لتمكن الطائر من تناول طعامه من داخل المياه.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ موادها الغذائيّة حيث لكلّ حصته من الحبوب وما شابه ذلك

---

١. سورة النحل، الآية ٧٩.

٢. «الريش» معروف لدى الطيور وبما أنّ الريش غالباً ما يكون للزينة فقد اطلقت هـذه المـفردة على الثياب المزينة.

٣. «أرسى» من مادة «رسو» على وزن «رسم» بمعنى الثبات وأرسى بمعنى أثبت.

٤. «الندى» و«نداوة» بمعنى الرطوبة والبلل.

والطريف في الأمر أنّ أيّاً من الطيور لا يملك أسناناً لقضم هذه الحبوب وبالمقابل زودت بمعدة (والتي يطلق عليها اسم القانصة) والتي تمتاز بحراراتها الشديدة فتفرز بعض السوائل التي تطحن الحبوب وتمتصها، وحيث لا تمتلك الوقت الكافي لالتقاط الحبوب خشية مهاجمتها من مختلف الأعداء فقد زودت بعضو آخر هو الحوصلة التي تشبه الكيس فتقوم عن طريقها بجمع سريع لتلك الحبوب ثم تهضمها وتمتصها.

ثم أشار إلىٰ أنواع مختلفة ومتفاوتة للطيور حيث لكلّ بنيّته الخاصّة وطريقته المختصة به كالغراب والعقاب إلىٰ الحمام والنعام والتي انطوت على العديد من العجائب والغرائب بما يبهت الإنسان فتعالى الله الملك الحقّ الذي أبدع كلّ هذا الخلق.

ولعل العبارة «دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ» تشير إلىٰ هذا الموضوع حيث إنّه سبحانه خلق كل طائر من هذه الطيور على ضوء ما أراده من خصائص والواقع هذه دعوة تكوينيّة مع مجموعة الخصائص التي عبّر عنها بالاسم وشبيه تلك العبارة التي وردت في القرآن الكريم بشأن خلق جميع الموجودات: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

واختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلىٰ السحب التي تعدّ المصدر الأصلي بما تفيضه من مياه ضرورية لحياة جميع الموجودات فقال: «وأَنْشَأَ ﴿السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾[2] فَأَهْطَلَ[3] دِيَمَهَا[4]، وعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا وأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا[5]».

---

١. سورة يس، الآية ٨٢.

٢. سورة الرعد، الآية ١٢.

٣. «اهطل» من مادة «هطل» على وزن «حتم» بمعنى تتابع المطر.

٤. «ديم» جمع «ديمة» مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.

٥. «جدوب» و«جدب» على وزن «جم» بمعنى اليبس الناشيء من عدم نزول المطر.

وإننا لنعلم أنّ السحب على أنواع فهنالك السحب المغطاة التي تخلو تقريباً من المياه وتلك التي تحمل قليلاً من الماء، والنوع الثالث السحب المتجمعة المَليئة بالمياه والشديدة الرطوبة وكأنّها بحار علقت في عنان السماء وتكون عادة في الطبقات السفلى من الجو والتي عبّر عنها القرآن الكريم بالسحاب الثقال فقال: ﴿وَهُوالَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَد مَيِّت فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[1].

تأمّل

دروس عظيمة بعبارات قصيرة

تعلّمنا من هذه الخطبة عدّة دروس؛ ومن ذلك أن نتأمّل أسرار عظمة الله حتى في أصغر موجودات هذا العالم، فما أكثر الموجودات الصغيرة والتي لا تبدو في ظاهرها مهمّة كالنمل والجراد بينما تختزن عجائب أسرار الخلقة، فما علينا إلّا أنّ نعيد النظر في رؤية كلّ شيء وكأننا نراه لأول مرّة لنقف على عجائبه فنستدل من خلالها على خالقها الحكيم والقادر العليم.

جدير ذكره أنّ الأسلاف ذكروا بعض الأمور عن أسرار خلق الموجودات ولا سيما الحيوانات والتي لا تخلو من الأساطير والخرافات والحال ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة عن أسرار الخليقة يخلو تماماً من أي إغراق وخرافة واسطورة.

---

١. سورة الأعراف، الآية ٥٧.

١٨٦

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فِي التَّوْحِيدِ وتَجْمَع هذِهِ الخُطْبَة مِنْ أُصولِ العِلْمِ ما لا تَجْمَعُهُ خُطْبَةٌ[١]

نظرة إلىٰ الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن صفات الله تعالى ليشير إلىٰ أكثر من سبعين صفة حيث لم يلاحظ ذكر هذا العدد من صفات الجلال والجمال في أي من سائر الخطب.

والواقع كشف الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن قدرات تفكيره الربّاني في شرح وتوضيح أعقد المسائل العقائدية، فتطرق إلىٰ تفاصيل صفاته تعالى الثبوتيّة والسلبيّة

---

١. سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة أنّ السيد المرتضى (رحمه الله) قال: «إنّ شرح أصول التوحيد والعدل اقتبست من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه وكل ما قاله المتكلمون هنا هو شرح لهذه الكلمات». وأضاف: «إنّ الطبرسي ذكر هذه الخطبة مع اختلاف يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما روى المرحوم الكليني قبل السيد الرضي بعض هذه الخطبة في الجزء الأوّل من اصول الكافي». (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٧) ومن جانب آخر فإنّ مضامين الخطبة على درجة من الرفعة والسمو بحيث يستحيل صدورها من غير الإمام المعصوم وحجّة الله وأننا لنعلم أنّ أحد أدلة صحة استناد الروايات إلى المعصومين عليهم السلام هو علو مضمونها.

والإضافيّة بنظام خاص ورائع، وما أحرانا أن نعدّ ذلك بمنزلة سورة التوحيد ـ التي اعتبرتها بعض الروايات أنّها تعدل ثلث القرآن الكريم ـ في نهج البلاغة.

والخطبة في الحقيقة قسم واحد هو شرح أسماء الله وصفاته لكننا من باب المسامحة نقسمها إلىٰ ثلاثة أقسام، قسم يتحدّث عن صفات الله الثبوتيّة والقسم الآخر في صفاته السلبيّة وقسم ثالث في قدرته تعالى في مسألة المعاد وعودة الناس إلىٰ الحياة الأُخرويّة.

وبالتالي فإنّ كلّ من يتأمّل هذه الخطبة ليقطع بأنّ أحداً من الفلاسفة الإلهيين في الماضي والحاضر لم يقدموا مثل هذه الصورة الرائعة والدقيقة والجلية بشأن الله تعالى؛ حتى أنّ من يطلع على هذه الخطبة من غير المسلمين لا يملك إلّا الإشادة بقائلها.

القسم الأوّل

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوف بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وكُلُّ قَائِم فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَة، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَة، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَة. لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالإِبْتِدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

الشرح والتفسير

أضواء مهمّة في صفات الله

تشتمل هذه الخطبة الشريفة كما ورد سالفاً على مواضيع قيمة ومباحث هامّة في علم الله والتي بيّنت بمنتهى الفصاحة والبلاغة وحسن الأسلوب وانسجام العبارات، فقد استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلىٰ جانب من صفات الله السلبيّة فقال: «مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ[1] مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وتَوَهَّمَهُ».

---

١. «صمد» من مادة «صمد» تعني أحياناً العظمة وأحياناً أخرىٰ الصلابة والاستحكام كما تعني الطهارة والتنزه وهذا هو المعنى المراد بها في هذه العبارة.

فقد أشار الإمام عليه السلام في أول صفة من صفاته السلبيّة إلىٰ مسألة نفي الكيفية عن الله تعالى، تلك الحالة التي تعرض على الجسم المادي أو الموجود الروحاني وبما أنّ طرو العوارض دليل على المخلوقيّة فإنّ الذات الإلهيّة الطاهرة لا تطرأ عليها الكيفية كونها أزليّة وأبديّة.

ثم نفى الإمام عليه السلام عن الله في الصفة الثانية أي شبيه ومثيل، ذلك إن كان له مثيل وكانت هذه المثليّة في جميع الجهات لأصبح عينه، وإن كانت في بعض الجهات لزم منها التركيب (تركيب ما به الاشتراك وما به الامتياز) والتركيب لا ينسجم مع كونه واجب الوجود، ذلك لأنّ كلّ مركب يحتاج أيّ أجزائه ولا معنى للحاجة في واجب الوجود، وبعبارة أخرىٰ تكون الأجزاء في المرتبة السابقة للكلّ، وعليه إن كان واجب الوجود لكانت تلك الأجزاء، لا (الكلّ) المولود من تلك الأجزاء، ومن جانب آخر فإنّ الذي يلزم من الأجزاء التعدد والتعدد محال في واجب الوجود، لأنّ واجب الوجود لامتناهٍ من جميع الجهات ويستحيل وجود لامتناهيين من جميع الجهات.

ونفى الشبيه في الصفة الثالثة عن الذات القدسيّة. فالذات اللامتناهية من جميع الجهات لا شبيه لها (الفارق بين المثل والشبيه أنّ المثل يلاحظ في جميع الجهات أو أكثر الصفات بينما الشبيه يمكن في بعض الجهات).

وقال في الصفة الرابعة والخامسة: من أشار إلىٰ الله أو توهمه لم يعرفه، لأنّ الإشارة الحسية دلالة على الجسميّة والاشتمال على الجهة والمكان المنزّه الله منها، وتوهمه يعني جعل حدود لذاته اللامحدودة، وعلى هذا الأساس نقول ليس لأحد درك ذاته سبحانه وعلمنا به هو علم إجمالي فنقول مثلاً: الله خالق وخالق لهذا العالم.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ صفتين أخريين فقال: «كُلُّ مَعْرُوف بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وكُلُّ قَائِم فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ».

قلنا كراراً أنّ الله وجود لا متناهٍ من جميع الجهات ولا يستوعبه فكرنا المحدود، ولهذا فهو أسمى من الخيال والقياس والظن والوهم، فإن قيل: فكيف نعرف الله؟ نقول: عن طريقين رئيسيين؛ الأوّل الإشارة إلىٰ آثاره وأفعاله التي ملأت عالم الوجود وكلّما أمعنا النظر في شيء رأيناه إجمالاً خلفه، والآخر عن طريق تحليل حقيقة الوجود التي تنتهي إجمالاً بواجب الوجود والذي يصطلح عليه (برهان الصديقين) والذي أشير إليه في الأحاديث والأدعية بعنوان «يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ» وهو أيضاً علم إجمالي؛ لا علم بكنه وحقيقة ذاته الخارجة عن متناول جميع الأفكار بما فيها أفكار الأنبياء والأولياء.

كما توضح هذه النقطة أنّ كلّ شيء قائم بآخر سواء بصورة عرض عارض على ذلك الشيء أو بصورة وجود جوهري متوقف عليه، على كلّ حال معلول آخر والله تعالى واجب الوجود ليس بمعلول؛ بل هو القيوم؛ أي القائم بذاته وقيام الآخرين به.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ أفعاله وتدبيره وغناه فقال: «فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَة، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ[1] فِكْرَة، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَة».

لأنّ الشخص إنّما يستعين في عمله بالوسائل والأدوات من حيث كانت قدرته محدودة ولابدّ له من الاستفادة والاستعانة بتلك الوسائل ومن يحتاج في تدبيره الفكر والمطالعة فإنّما يعزى ذلك لمحدودية علمه وهذا ما يدفعه لزيادة فكره ومطالعاته؛ أمّا من كان علمه وقدرته لامتناهيان فهو غني عن كلّ ذلك كما أنّ جميع الأغنياء غيره يصبحون أغنياء عن طريق كسب المال والمقام وأمثال ذلك من خارج وجودهم أمّا الله تعالى فهو الغني بالذات.

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَالْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2].

---

١. «جول» و «جولان» بمعنى الحركة في كل اتجاه وجولان الفكر بمعنى التفكير.

٢. سورة فاطر، الآية ١٥.

ثم واصل كلامه عليه السلام في بيان هذه الصفات فقال: «لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ[١] الأَدَوَاتُ؛ سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِدَاءَ أَزَلُهُ».

العبارة: «لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ...» تشير إلىٰ أنّ الزمان أمر حادث والله تعالى الأزلي والأبدي الذات لم ولن يقترن بالحوادث كما لم تكن الأدوات والآلات سنده ومعينه.

والفارق بين هذه العبارة والعبارة: «فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَة» يمكن أن تكون في أنّ الكلام في العبارة السابقة في أفعال الله التي لا تتطلب الآلات والأدوات؛ بينما تشير هذه العبارة إلىٰ عدم استعانته بهذه الأدوات في بقائه.

العبارة: «سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ...» في الواقع، شرح للعبارة «لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ» لأننا حين نقرّ بأنّ وجوده أسمى من الزمان والمكان نخلص إلىٰ نتيجة أنّ وجوده سبق الزمان وتقدم على العدم وأنّ أزليته مقدمة على كلّ بداية.

وهنا يرد هذا السؤال، وهو أنّ الإمام عليه السلام قال: وجوده سبق عدمه والحال العدم ليس بالشيء الذي يسبقه وجود الله والجواب يمكن القول إنّ المراد من العدم هنا هو انعدام المخلوقات أي أنّ الله تعالى كان موجوداً حين لم يكن أي من الموجودات.

ويقال أحياناً هذه العبارة كناية عن كون الله واجب الوجود لأنّ الذات الواجبة الوجود كائنة وستكون على الدوام وتتغلب على العدم ولا يعرض لها العدم بأي شكل من الأشكال.

وتشير العبارة: «وَالابْتِدَاءَ أَزَلُهُ» إلىٰ أنّ الذات الأزليّة والأبديّة أسمى من أن يكون لها ابتداء.

ثم خاض عليه السلام في صفات أخرىٰ كلّ واحدة منها أهم من الأخرىٰ فقال:

---

١. «ترفده» من مادة «رفد» بمعنى المعونة و المساعدة.

«بِتَشْعِيرِهِ[1] الْـمَشَاعِرَ عُـرِفَ أَنْ لَا مَشْـعَرَ لَـهُ»، لأنّ وجـود الحـواس مـن لوازم المخلوقات الممكنة الوجود ويتنزّه عن ذلك واجب الوجـود، أضـف إلىٰ ذلك أنّ الحواس من عوارض الموجودات، والعرض والمعروض شيئان مختلفان بينما نعلم أن ليس للتركيب من سبيل إلىٰ ذات الله.

بعبارة أخرىٰ لقد دلّ الله تعالى بخلقه الحواس لعباده أنّ الاحساس والحواس عارضة ومنفصلة عن ذات الأشياء، وهنا فهم العباد أن ليس له حـواس لأنّ ذاتـه ليست محلّاً للعوارض.

ثم قال عليه السلام : «وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ» وتفسير هذا الكلام أنّ وجـودين مـتضادين يكـونان قـطعاً محدودين ولهما حالتان مختلفتان، والحال الذات الإلهيّة ليست محدودة ولا شيء عارض عليها، كما أنّ الموجودين المقرونين محدودان ولهما عوارض مشابهة بينما الذات الإلهيّة لامحدودة من كلّ الجهات وعارية من كلّ العوارض.

وواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلىٰ بعض المصاديق من الأمور المتضادة فقال: «ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ[2]، والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ[3]».

طبعاً ينطوي هذا التضاد على فلسفة تتمثل في ايجاد التوازن وإزالة آثار السوء لكلّ شيء بآخر، فلو أشرقت الشمس على جانب من الكرة الأرضيّة دائماً وغط الجانب الآخر منها في ظلمة دائمة لزالت الحياة عاجلاً؛ فالجانب الذي يتعرض إلىٰ الشمس يحترق بفعل شدّة الحرارة ويهلك، كما يـنجمد ويـزول ذلك الذي يـعيش الظلمة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[4]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ

---

١. «تشعير» من «شعور» بمعنى العلم والمعرفة وتعني هنا العلم بالشي عن طريق الحواس.

٢. «بهمة» بمعنى السواد والليالي الظلماء والمعنى الأوّل هو المطلوب.

٣. «صرد» بمعنى البرد وقيل إنّها مفردة فارسية.

٤. سورة القصص، الآية ٧١.

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهُ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١]؛ **﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[٢].

قد يقال هنا إنّ الظلمة أمر عدمي وليس بالشيء الذي خلقه الله أو يكون مضاداً للنور.

وهو ذات السؤال الذي ورد في الآية الشريفة: **﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾**[٣].

ولكن بالإلتفات إلىٰ هذه النقطة وهي أنّ ظلمة الليل وأمثالها ليست ظلمة مطلقة لتكون عدميّة، بل ضعف شديد للنور ومن هنا حين تطفأ المصابيح في الليل فجأة لا نكاد نرى شيئاً مطلقاً، ولكن بالتدريج تعتاد عيوننا ذلك النور الضعيف في جوف الظلمة فنبدأ برؤية الأشياء من حولنا، وعليه فالظلمة مخلوق من مخلوقات الله مضادة للنور.

ويمكن أن تكون العبارة «والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ» إشارة إلىٰ اختلاف الألوان وفلسفة ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض الآخر، فالوضوح إشارة إلىٰ الألوان الفاتحة والبهمة إلىٰ الألوان الغامقة والقاتمة، أو إشارة إلىٰ الحالات شبه المضيئة وشبه المظلمة بين الطلوعين والغروبين.

«والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ» أشار إلىٰ اليابسة والبحار والأشياء الجامدة والمرطوبة والتي لكلّ منها فلسفته الوجودية المختصة به.

كما تشير «والْحَرُورَ بِالصَّرَدِ» إلىٰ فصول السنة أو بصورة كلية الحرارة والبرودة والتي لكلّ منهما دوره في حياة ورشد الكائنات الحية.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ أربع صفات أخرىٰ فقال: «**مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا**». حيث تطرق الإمام عليه السلام

١. سورة القصص، الآية ٧٢.

٢. سورة القصص، الآية ٧٣.

٣. سورة الأنعام، الآية ١.

إلىٰ أمور غاية في الأهميّة اعتمدها الله سبحانه وتعالى في تدبير عالم الوجود، فقد جمع في أغلب الموارد بين الضدين فربط بين الروح هذا الجوهر اللطيف الذي يفوق المادة مع هذا الجسم الترابي وجعل عدّة موجودات مختلفة إلىٰ جانب بعضها البعض الآخر الأمر الذي نلاحظه في تركيب بدن الإنسان والحيوان والنبات حيث جعل عشرات الفلزات وأشباه الفلزات إلىٰ جانب بعضها البعض الآخر ليخلق منها ذلك التركيب البديع، والعجيب أنّه جعل الجاذبية والتناقض بين الضدين كالقطب الكهربائي الموجب والقطب السالب وبين القطبين المتشابهين أوجد حالة من التنافر كما في القطبين الموجبين أو القطبين السالبين كما جعل جاذبية بين الجنس المذكر والمؤنث والتنافر بين المتجانسين.

وهكذا فقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ أربعة أقسام من موجودات العالم: قسم منها متضاد كالنور والظلمة والروح والجسم، وآخر متباين كأنواع النباتات والحيوانات المتباينة غير المتضادة وقد جعل الله بينها جميعاً نوعاً من الألفة.

والقسم الثالث تلك المتباعدة وقد قرّبها الله كالأزواج من قومين منفصلين عن بعضهما البعض الآخر ويقترنان ببعضهما إثر الحبّ والمودّة.

وأخيراً القسم الرابع الأمور القريبة من بعضها ذاتاً، وقد ابعدها الله عن بعضها بتدبيره لهذا العالم مثل كرات المنظومة الشمسية التي كانت مع بعضها البعض حسب النظرية المعروف ففصلها الله تعالى وخلق المنظومة الشمسيّة.

رغم أنّ الأجزاء المركبة للنباتات وأوراقها تنفصل عنها بعد الجفاف وتتحول إلى عناصر فعالة لتنمية سائر الأشجار والنباتات كما أنّ سحب الغيوم أحياناً تتصل مع بعضها من مختلف المناطق بواسطة الرياح فتهطل الأمطار الحيوية، كما يأمر الرياح بحملها إلى مناطق أخرىٰ.

نعم ! فربوبيّته وتدبيره تقتضي أحياناً أن يجمع بين الضدين وأحياناً أخرىٰ للتقريب بين المتباينين وثالثة تقريب المتباعد وإبعاد المتقارب.

تأمّل

كيفية الجمع بين الضدين

يعتقد البعض أنّ العالم مؤلف من جمع الأضداد والتضاد سبب التكامل وحسب بعض الحكماء «لَولا التَّضادُ ما صَحَّ الْفَيْضُ عَنِ الْمَبْدَأ الْجَوادِ». كما استدل البعض على هذا المطلب بعبارة الإمامعليه السلام الواردة في الخطبة: «مُـؤَلِّفٌ بَـيْنَ مُـتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا...».

ويرى اتباع المدرسة الماديّة الديالكتيكية أنّ أحد المبادئ الأربعة يتمثل في الجمع بين الضدين ويزعمون أنّ كلّ موجود يحمل ضده في داخله وبظهور الضد يزول الموجود السابق ويضربون على ذلك مثال البيضة والدجاجة وأمثال ذلك ليخلصوا في النتيجة إلىٰ أنّ المجتمع الرأسمالي يبلور مضطراً داخله ضده الذي يتمثل في المجتمع الاشتراكي والشيوعي وما تظهر حتى تزول الرأسمالية، وهكذا طرحوا مبادئهم الواهية الجوفاء على هذا الأساس بحيث اتضح ضعفهم وعجزهم عملياً على مستوى الظاهر، وقد لمسنا كيفية إنهيار هذه المدرسة.

ويجب الإلتفات إلىٰ أنّ الجمع بين الضدين (أو النقيضين) مصطلح فلسفي يعني الجمع في محل واحد من جميع الجهات بمعنى أن يكون الشيء الواحد أسوداً وأبيضاً في آن واحد، وهذا محال؛ أو يكون مكان معين في لحظة معينة ليلاً ونهاراً أو يكون الإنسان حيّاً وميّتاً في زمن معين ومن الطبيعي أنّ الجمع بين هذين النقيضين محال بهذا المعنى، ولكن أحياناً يكون المراد الجمع العرفي: كأن يجتمع جسمان أبيض وأسود مع بعضهما في آن واحد أو في زمنين متصلين، فأحياناً يكون الجسم أبيضاً وأخرىٰ أسوداً.

وهذا المعنى ليس ممكناً فقط فحسب بل شمل جوانب عظيمة من هذا العالم وعلى ضوء هذه النقطة نعود إلىٰ أصل الموضوع فنقول: في العالم الذي نعيش فيه فإنّ مدبّره هو الذات الإلهيّة القدسيّة التي أشاعت نظام الأضداد، وكما ورد في كلام

الإمام عليه‌السلام فقد مزج النور بالظلمة والحرارة والبرودة واليبوسة والبلل ووظف نظام الليل والنهار والفصول الأربعة والسحب والأمطار والشمس ببعض الأعمال المهمّة، وأحياناً يلاحظ بين الأمثال أنّ عضواً من أعضاء الإنسان أو النبات ليس فقط لا يتضادان بل هما منسجمان مع بعضهما.

على كلّ حال فإنّ التضاد بالصيغة المذكورة من شأنه في أغلب المواقع أن يلعب دوراً مهماً في تطوير المجتمع البشري وتكامل الكائنات؛ والتنافس البناء في كلّ مجتمع مدعاة للتطور وعادة ما يؤدّي إلىٰ القوّة والمنعة في مختلف المجالات حتى أنّ وجود الشيطان أمام المؤمنين مدعاة لتأصل ورسوخ إيمانهم.

٭٭٭

القسم الثاني

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وتُشِيرُ الآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا. مَنَعَتْهَا «مُنْذُ» الْقِدْمَةَ، وحَمَتْهَا «قَدُ» الأَزَلِيَّةَ، وجَنَّبَتْهَا «لَولَا» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ والْحَرَكَةُ، وكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوأَجْرَاهُ، ويَعُودُ فِيهِ مَا هُوأَبْدَاهُ، ويَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوأَحْدَثَهُ! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، ولَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، ولَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، ولَتَحَوَّلَ دَلِيلا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولا عَلَيْهِ، وخَرَجَ بِسُلْطَانِ الإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ. الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، ولَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلىٰ صفات أخرىٰ من صفات الله السلبيّة فقال: «لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وتُشِيرُ الآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

وتفسير العبارة الأُولى والثانية واضح لأنّ الله وجود لا متناهٍ من جميع الجهات ولو كان محدوداً لما كان واجب الوجود، بل لأصبح ممكن الوجود كذلك لو حسب بعدد لكان من الممكنات التي يمكن عدّها، وقولنا إنّ الله واحد لا بمعنى الواحد

العددي بل بمعنى عدم وجود مثيل له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾[1].

بينما اختلف شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم للعبارتين الثالثة والرابعة بسبب الإبهام الذي يسودها ولعلّ مفتاح حلّ المشكلة في تفسير هاتين العبارتين يكمن في هذا الأمر وهو أنّ القرائن تشير إلىٰ أنّ المرحوم السيد الرضي قد حذف العبارات المرتبطة بهاتين العبارتين درجاً على عادته في الاقتطاف.

ورغم حرص المرحوم الرضي على عدم بتر العبارات المرتبطة مع بعضها إلّا أنّ ذلك قد يقع سهواً ونسياناً أحياناً.

والشاهد على سقوط بعض العبارات في هذه الخطبة ما ورد في «تحف العقول» حيث قال الإمام عليه السلام: «لَا تَفَوّتُهُ «مَتىٰ» وَلَا تَدنيهِ «قَد» وَلَا تَحجُبُهُ «لَعلّ» وَلَا تُقارِنُهُ «مَع» وَلَا تَشتَمِلُهُ «هو» إنّما تَحدّ الأدواتُ أنفُسَها وَتشيرُ الآلةُ إلىٰ نَظائِرِها».

فهذه الكلمات (بعض العبارات مثل متى وقد ولعل ومع وهو) تحدد نفسها (أي تستعمل فقط حين يكون للزمان والمكان وعدم العلم إليها من سبيل) وهذه العبارات إنّما تشير إلىٰ نظائرها (النظائر الموجودة في عالم الممكنات لا الذات المقدّسة التي لا نظير لها).

ثم أكّد عليه السلام هذا الكلام بقوله: «مَنَعَتْهَا «مُنذُ» الْقِدمَةَ، وحَمَتْهَا «قَدُ» الأَزَلِيَّةَ، وجَنَّبَتْهَا «لَولَا» التَّكمِلَةَ!»[2].

توضيح ذلك: أنّ المفردة «مُنذُ» تستعمل حيث السيرة التاريخية لوجود الشيء، وعليه واستناداً إلىٰ استعمال هذه المفردة بشأن الممكنات يمكن التوصل بسهولة إلىٰ أنّها حادثة وليست قديمة، كما أنّ المفردة «قَد» حين تستعمل في الماضي تعني

---

١. سورة الشورى، الآية ١١.

٢. لابدّ من الإلتفات إلى أنّ الكلمات (منذ وقد ولولا) في العبارات الثلاث فاعل للأفعال منعت وحمد وجنبت ومفعولها قدمه وأزليّة وتكملة، وتعود الضمائر المؤنثة في منعتها وحمتها وجنبتها إلى المخلوقات.

وقوع الشيء القريب من الزمن الحاضر وهذا أيضاً لا ينسجم مع الأزلية، كما تستعمل المفردة «لَولَا» حيث المانع الذي يكمن في طريق تكامل الشيء، كالقول الذي نقله القرآن الكريم على لسان الكافرين حين مخاطبتهم للمستكبرين: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[1]. واستناداً إلى أزليّته وأبديّته سبحانه وكماله المطلق فلا تستعمل بحقّه هذه الأدوات والعبارات.

ثم قال الإمام عليه السلام في بيانه لصفات أخرىٰ من صفات الله أنّه تجلى للعقل بخلقه لمخلوقاته ومن هنا تعذرت رؤيته بهذه العيون: «بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ».

نعم، فآثاره واضحة في كلّ زاوية من زوايا عالم الوجود ومنها ندرك وجوده المقدّس؛ مع ذلك لا يمكن رؤيته بعين، لأنّ رؤية العين تختص بالأجسام ذات الزمان والمكان والأجزاء والجهة، والله منزّه عن كلّ هذه الأمور.

ثم تعرض الإمام عليه السلام لمسألة مهمّة أخرىٰ ليتحدّث بشأن نفي السكون والحركة عن الذات القدسيّة فقال عليه السلام: «وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ والْحَرَكَةُ، وكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُو أَجْرَاهُ، ويَعُودُ فِيهِ مَا هُوأَبْدَاهُ، ويَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوأَحْدَثَهُ!».

نعم، فالحركة والسكون من عوارض الممكنات، والحركة أن يكون للشيء موضعين أو حالتين في زمانين، والسكون أن يكون له في زمانين نفس المكان والحالة. وعليه فالسكون حادث والحركة كذلك؛ لأنّ كلا الصفتين بيان للحالة الثانية للشيء التي مضى عليها الزمان، بعبارة أخرىٰ في الحالة الأولى لا سكون ولا حركة بينما للسكون والحركة معنى في الحالة الثانية، فإنّ كان في المكان الأوّل سكون كان في موضع آخر حركة.

أضف إلىٰ ذلك إن كانت الحركة في المكان والزمان والكيفيّة وما شابه ذلك فهي من عوارض الجسم وكذلك إن كانت الحركة في الجوهر، وأننا لنعلم أنّ الله ليس

---

١. سورة سبأ، الآية ٣١.

بجسم ولا بجوهر.

والنتيجة هي أنّ الحركة والسكون من مخلوقات الله ومن الممكنات وليس لها من سبيل قط إلىٰ الذات القدسيّة واجبة الوجود.

ثم خاض الإمام عليه السلام ليذكر ثمانية أدلة على هذا الموضوع فقال:

الأوّل: لوجرت عليه الحركة والسكون «إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ» ونعلم أنّه وجود ذوكمال مطلق وليس لأيّ تغيير من سبيل إلىٰ ذاته الثابتة.

والثاني لزم أيضاً: «ولَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ» لأنّ ما يلزم الحركة بلوغ الموجود نقطة لم تكن عنده، وعليه فوجوده مركب ممّا ما بالفعل وما بالقوّة.

والثالث: «ولاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ»، لأنّ الحركة والسكون كما قلنا حادثان وذاته سبحانه أزليّة وقديمة ويستحيل الجمع بين الحادث والقديم.

والرابع: يلزم من الحركة «ولَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ»، لأنّ للحركة بأي اتجاه وبأي مفهوم لها جهة تعدّ أماميّة وما يعاكسها جهة خلفية.

والخامس: يلزم من الحركة البحث عن الكمال، فمن عانى النقص يبحث عن الكمال «وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ»، لأنّ الحركة إمّا إلىٰ النقص أو الكمال، ومهما كانت فهي تعني عدم مطلقية الموجود المتحرك.

السادس: لو تخللته الحركة لظهرت فيه آية الخلق «وإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ».

السابع: أنّه لو كان كذلك لكان دليلاً على وجود خالق آخر، لا أن تكون المخلوقات دليلاً عليه: «ولَتَحَوَّلَ دَلِيلا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولا عَلَيْهِ».

الثامن: فسوف لن يؤثر عليه ما يؤثر على غيره بسبب قوّته المطلقة «وخَرَجَ بِسُلْطَانِ الاْمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ». إشارة إلىٰ أنّ سلطته المقتدرة وغير القابلة للتغيير إلّا أن يكون في معرض الحوادث وما يؤثر في غيره لايؤثر عليه، لأنّ ذاته القدسيّة ليست قابلة للتغيير.

وزبدة الكلام فإنّ الحركة سواء كانت في العرض أو الجوهر، في الكمية (كنمو بدن الإنسان أو النبات) أو في الكيفية (كتغير الألوان في عالم الطبيعة وزيادة ونقصان الحرارة والبرودة في فصول السنة) وسواء كانت نحوالكمال (كنموالطفل) أو نحوالنقصان (كالضعف والعجز لدى الكهول) ليس لها من سبيل إلىٰ الذات القدسيّة، واجب الوجود وكمال مطلق وتختص الحركة بالممكنات والوجودات الناقصة.

أضف إلىٰ ذلك فإنّ الحركة عبارة عن الجزئيّة والحدوث التي ليس لها من سبيل إلىٰ الذات الأزليّة.

ثم تطرق الإمامعليه‌السلام إلىٰ بيان سبع صفات أخرىٰ ذات علاقة قوية بمسألة الحركة فقال: «الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ».

فالتغيير والزوال والأفول والغروب كلّها من عوارض الموجودات الممكنة والمحدودة والناقصة ولا تتصور هذه الصفات على الله.

ثم قالعليه‌السلام : «لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، ولَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ».

لا شك في أنّ كلّ هذه الأمور من قبيل الولادة والزواج والولد والابن من عوارض الوجودات الجسميّة، والله سبحانه ليس بجسم وليست له عوارض جسميّة، أضف إلىٰ ذلك كلّ هذه الأمور من علامات الحدوث وكذلك الحاجة، وهوليس بحادث ولا محتاج.

والعبارة: «لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً» إشارة إلىٰ الوضع المعروف لدى الكائنات الحيّة التي تولد من أحد ومن جانب آخر يولد منهم أولادهم، وعليه فلا يبدو النقض على آدمعليه‌السلام أنّه صاحب ولد لكنه لم يولد من أحد لا يبدو وارداً لأنّ آدمعليه‌السلام كان فرداً استثنائياً، إضافة إلىٰ أنّ آدم إن لم يولد من إنسان فقد ولد من التراب وهذا بحدّ ذاته نوع ولادة.

ﮋﮊ

القسم الثالث

لَا تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي والأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ. وَلَا يُوصَفُ بِشَيءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ والأَبْعَاضِ. وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوتُهْوِيَهُ، أَوأَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَويُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ ولَهَوَاتٍ، ويَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، ويَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، ويُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ. يُحِبُّ ويَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ ومَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، ولَوكَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً.

الشرح والتفسير

جانب من صفاته المطلقة

إنّ من النقاط المهمّة الواضحة والمتجلية في كلمات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة هي نفيه عليه السلام عن الله تعالى أي صفة من الصفات الماديّة والجسميّة بعبارات متنوعة؛ ذلك لأنّ أغلب الناس يعانون من التشبيه في معرفة الله ويصورون له في أذهانهم بعض صفات المخلوقات وهذا خطأ جسيم لا يغفر.

وقد ركز هذا الموحد العارف بالله كراراً على هذه المسألة لينقذ مخاطبيه من هوة التشبيه بعبارات غاية في الجمال والروعة والدقّة.

ومن هنا قال في مواصلته للأبحاث السابقة في هذا الجانب من الخطبة: «لَا تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي والأَيَّامُ، ولَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ».

«أوْهام» جمع «وَهْم» بمعنى قوّة الخيال التي تتعلق بالمادة والمحسوسات ولو أحاط الوهم بالله لكان له مكان وزمان وكيفيّة وكميّة، بينما ذاته المقدّسة منزّهة عن هذه الأمور فللجسم أجزاء والزمان والمكان والتغيير والحركة أمور ليست لها من سبيل إلىٰ ذاته اللامتناهيّة.

«فِطَن» جمع «فِطْنه» قوّة العقل ويقال «الفَطِن» وتنشط قوّة العقل أيضاً بمساعدة الواهم والتصورات الذهنية المتعلقة بالأجسام، وعليه فلو أدرك بالعقل وبمساعدة الوهم لظهرت ثانية قضية العوارض الجسميّة.

العبارة: «ولا تَلْمِسُهُ...» بالنظر إلىٰ أنّ اللمس يختلف عن المس، حيث يطلق المس على التماس بالأجسام بينما يطلق اللمس على الطلب والسعي للتماس - إشارة إلىٰ أنّه مهما يسعى الإنسان للمسه تعالى بيده لما أمكن ذلك لأنّه ليس بجسم فيلمس.

وأمّا بالإلتفات إلىٰ ثبات ذاته فإنّ تغييره بمرور الزمان والحوادث كالنور والظلمة ليس بممكن؛ لأننا قلنا كراراً أنّه وجود كامل ولا متناهٍ من جميع الجهات ويفوق المكان والزمان والحركة، ومثل هذه الذات لا تتأثر بالحوادث والتغييرات كما لا يجري عليها ليل ونهار ونور وظلمة.

ثم أردف ذلك عليه السلام بقوله: «وَلَا يُوصَفُ بِشَيءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، ولَا بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ والأَبْعَاضِ».

من الواضح أنّ جميع هذه الأمور أي الاشتمال على الأجزاء وأعضاء البدن وقبول العوارض ـ مثل الألوان والكميّة المتفاوتة والكيفيّة ـ كلّها من خواص الجسم والجسمانيات والمادة والممكنات وكذلك التفاوت مع الأشياء الأخرى، لأنّه يلزم من ذلك التركب من قدر مشترك وما به الامتياز، وكل تركب دليل على احتياج المركب إلىٰ أجزائه والموجود المحتاج لا يكون واجب الوجود.

ثم بين الإمام عليه السلام صفات أخرىٰ في مواصلته لبيان صفاته السلبيّة فقال: «وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ[١] أَو تُهْوِيَهُ[٢]، أوأَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَو يُعَدِّلَهُ».

هذه الصفات الست (الحد والنهاية والانقطاع والغاية والاحاطة والحمل) كلّها من صفات الأجسام والله منزّه عن الجسمية فليس لهذه الصفات من سبيل إلىٰ ذاته المقدّسة.

وعلى فرض أنّ بعض هذه الصفات صادقة على غير الموجودات الماديّة، فمما لا شك فيه أنّها من صفات ممكن الوجود المحدود من كلّ جهة دائماً، وقلنا كراراً أنّ ذات واجب الوجود لامتناهية من جميع الجهات وعليه فلا تجري أي من هذه الصفات على تلك الذات.

أضف إلىٰ ذلك فإنّ للصفات المذكورة لوازم هي الأخرىٰ مرتبطة بعالم الأجسام، فالاحاطة بالشيء تؤدّي إلىٰ رفعه أو خفضه، وحمل الشيء يسبب أحياناً ميله إلىٰ جانب معين أو ثباته وكل ذلك من صفات الأجسام.

بل ذهب بعض الفلاسفة إلىٰ أنّه لا يمكن وصف الله تعالى باللانهاية لأنّه قد يتداعى منه اللانهائية الجسميّة، على كلّ حال سعى الإمام عليه السلام في جوانب هذه

١. «تقل» من مادة «قل» على وزن «ذل» بمعنى الرفع ولهذا اطلقت القلة على قمة الجبل حيث تقع في ارفع نقطة منه.

٢. «تهوي» من مادة «هوى» على وزن «تهى» بمعنى السقوط من شاهق، و«هوا» على وزن «قفا» تطلق على الحب والرغبة.

الخطبة لانتشال مخاطبيه من الوقوع في فخ التشبيه فنزه الله تعالى عن كلّ صفة من صفات مخلوقاته.

ثم أردف حديثه عن الصفات بذكر صفات أخرىٰ فقال عليه السلام: «**لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ**[١]**، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ**».

قد يتصور البعض من هذه العبارات التي وردت بشأن إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء في هذه الخطبة وسائر الخطب والروايات أنّ هنالك شيئاً من التناقض فكيف يكون هنالك وجود لا داخل في الأشياء ولا خارج عنها، إلّا أنّ هذه حقيقة واقعة، ففي تشبيه ناقص يمكن القول إنّ ذاته المقدّسة هي روح عالم الوجود، وروح الإنسان في بدنه لا بمعنى أنّها جزء من البدن كما أنّها خارجة من البدن لا بصفتها غريبة عنه بل لها احاطة تدبير وتصرف في الجسم، وإن خرجت هذه الروح من الجسم قطعت علاقة تدبيرها وتصرفها؛ فيموت. فالله تعالى بمنزلة عالم الوجود.

ثم خاض عليه السلام في بيان خمس صفات أخرىٰ فقال: «**يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ**[٢]**، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ**[٣] **وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ**».

إشارة إلىٰ اطلاق بعض الصفات على الله تعالى كالسميع والحفيظ والمتكل والمريد؛ لكنه مجرّد من العوارض الجسميّة والأسباب الماديّة، لأنّه ليس بجسم ولا مادة، والسميع أو الحفظ بمعنى علمه بجميع الأقوال والكلمات وحفظه لجميع الحوادث الماضية وهي نتيجة للحفظ والسمع والإرادة، بعبارة أخرىٰ فإنّ هذه العبارات من قبيل المجازات التي تفوق الحقيقة ولا ينبغي أبداً حين نسمع هذه

---

١. «والج» من مادة «ولوج» تعني الدخول.

٢. «لهوات» جمع «لهاة» اللحمة في سقف أقصى الفم وقيل معلقة بالحلق ومن هنا فهي تطلق على الحلق وقد وردت في هذه الخطبة بهذا المعنى.

٣. «خروق» جمع «خرق» على وزن «برق» بمعنى الشق الذي يوجد في الحائط أو في غيره وتعني هنا ثقب الأذن.

الألفاظ التي ابتدعها البشر لحياته اليوميّة وتتصف عادة بالجسمية والماديّة أن نتصور أنّها تجري كذلك على الذات القدسيّة، بل لابدّ من التخلص من الأغطية الجسميّة والماديّة كافّة حين استعمال هذه الألفاظ بشأن الله تعالى، وهي بالتالي من قبيل: «خُذِ الْغاياتِ واتْرُكِ الْمَبادِىء» ليمكن استعمالها بشأن الله تعالى.

احتمل بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد في العبارة «يَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ» أنّ الله تعالى يحفظ الموجودات من الحوادث وهو لا يحتاج إلىٰ حافظ، ولكن بالإلتفات إلىٰ سائر الصفات التي وردت قبل هذه الصفة يتّضح أنّ المفهوم الصحيح لهذا الكلام ما ورد سابقاً بمعنى الإشارة إلىٰ قوّة الحافظة.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ صفتين فقال: «يُحِبُّ ويَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّة، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّة».

رغم أنّ البعض تصور معنيين مختلفين لِ «يُحِبُّ ويَرضى» وكذلك «يُبْغِضُ وَيَغْضَبُ» غير أنّ سياق كلام الإمام عليه السلام يفيد أنّهما ذات معنى واحد أو استعملتا بمعنى واحد.

على كلّ حال فهاتان الصفتان تشبهان الصفات المذكورة سابقاً، لأسبابهما بعد سماوي، لكن نتيجتهما تصدق على الله فمحبّتنا ورضانا ممزوجة برقة القلب ونوع من الرغبة الباطنيّة كما أنّ بغضنا وغضبنا لألم ومعاناة باطنيّة مقرونة بإثارة الأعصاب وارتفاع ضغط الدم، ومن البديهي أنّ هذه المعاني ليست صادقة على الله، ولذلك فسّروا هذه الأوصاف بالنتيجة، فقالوا إنّ حبّ الله لعباده ورضاه عنهم بهذه الصيغة أنّه يشملهم عملياً بنعمه وتوفيقاته وبغضه وغضبه على شخص في أن يسلبه النعمة والتوفيق والسعادة.

هذا النوع من التفسير بالنتيجة أحد المبادئ الأساسيّة الذي يستعمل بشأن العديد من صفات الله.

ثم قال عليه السلام: «يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]، لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ ومَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً، ولَوكَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً».

مراد الإمام عليه السلام من هذا الكلام أنّ العبارة «كُنْ فَيَكُونُ» وردت في الآيات القرآنيّة بمعنى الأمر اللفظي؛ ليس من قبيل أوامر الملوك والسلاطين لمن دونهم بحيث يجرون بعض الألفاظ على ألسنتهم ويسمعون مخاطبيهم، وربّما يدفعهم الحرص أحياناً للصراخ حتى ليسمع صوتهم من مكان بعيد، بل أوامر الله تعالى هي أوامر تكوينيّة وبتعبير آخر هي فعل، فإنّ أراد شيئاً (الإرادة أيضاً بمعنى العلم بالنظام الأصلح) يوجد مباشرة، فلو أراد لوجدت الكائنات في لحظة واحدة كما توجد في تلك اللحظة السماء والأرض والنجوم والمجرّات ولو أراد أيضاً لوجدت بصورة تدريجيّة خلال ألف سنة أو ملايين السنين دون زيادة أو نقيصة.

وفعل الله هوخلق الموجودات ليس على سبيل شبيه سابق؛ لأنّ الأمر لوكان كذلك للزم تعدد الوجود الأزلي وتعدد الإله والمعبود، وكما ذكرنا في أبحاث التوحيد فإنّ التعدد في هذا المورد محال لأنّ الوجود اللامتناهي واللامحدود من جميع الجهات يأبى التعدد.

---

١. سورة التوبة، الآية ١١٧.

القسم الرابع

لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، ويَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَال خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، ولَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَد مِنْ خَلْقِهِ. وأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَال، وأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَار، وأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، ورَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ وَالإِعْوِجَاجِ، ومَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالإِنْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وخَدَّ أَوْدِيَتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوالظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وعَظَمَتِهِ، وهُوالْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيء مِنْهَا بِجَلاَلِهِ وعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيٌّ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَال فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وضَرِّهِ، وَلَا كُفءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ.

الشرح والتفسير

صفات أخرىٰ في الجمال والجلال

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلىٰ صفات أخرىٰ من صفات الله ليكمل ما تطرق إليه سابقاً، فاتّجه بادئ الأمر صوب أزليّة الله تعالى فقال عليه السلام: «لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ

فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ[1]».

ثم خاض في شرح صفة أخرىٰ من صفاته البارزة تعالى أي قدرته فتعرض لمسألة الابدع والخلق دون سابقة فقال: «خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَال خَلاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَد مِنْ خَلْقِهِ». فحين نتأمّل عالم الخلقة تطالعنا أنواع لا تحصى من المخلوقات في عالم الحشرات والنباتات والجمادات التي يمتاز كلّ منها ببنيته البديعة وخلقه الرائع الخاص، وهي الموجودات التي ليس لها من سابقة وقد كساها الله سبحانه حلّة الوجود من طيات العالم وساقها لمسيرتها التكامليّة. والحال لو كان للإنسان بعض الصناعات لاكتسبها من الآخرين، فمثلاً تأمّل الإنسان أجنحة الطيور وكيفية طيرانها ففكّر في صنع طائرة غاية في البساطة، ثم جاء العلماء في زمان لاحق الواحد تلو الآخر ليستفيدوا من الاختراع السابق ويجدوا في إتمامه حتى بلغ الأمر ذروة تكامله في عصرنا الراهن.

وعلى هذا الأساس فإنّ علماءنا إمّا يستلهمون من الطبيعة في اختراعاتهم أو من الآخرين فهم لا يقومون بعمل دون سابقة ولا يقومون به دون الاستعانة بالآخرين والحال أعمالهم محدودة بينما الله تعالى وفي ايجاده لهذه المخلوقات المتنوعة كافّة والتي لا تعدّ ولا تحصى ليس بحاجة إلىٰ سابقة ولا لمعونة أحد.

ثم اتّجه عليه السلام إلىٰ جانب آخر من قدرته اللامتناهية فقال: «وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَال، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَار، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ[2] وَالاِعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ[3] وَالاِنْفِرَاجِ[4]».

---

١. من الواضح أنّ الضمائر في بينها وعليها تعود إلىٰ المحدثات، وأنّ قراءة صفات المحدثات بصيغة الإضافة وبدون الألف واللام (كما وردت في بعض النسخ) لأصبح المطلب أكثر وضوحاً، كما يصبح مفهوم العبارة أوضح إن استبدلت المبتدع بالمبدع كما في بعض النسخ لأنّ المبدع يعني الخالق والبديع في هذه الحالة يعني المخلوق والذي له معنى اسم المفعول.

٢. «أود» بمعنى الثقل الذي يوجب الاعوجاج.

٣. «التهافت» يعني التساقط.

٤. «الانفراج» يعني الانشقاق.

من المسلم به اليوم من قِبل الجميع أنّ الكرة الأرضيّة تدور منذ ملايين السنين حول نفسها والشمس في مدار معين في الحركة وهذه الحركة على درجة من السرعة المنتظمة والهادئة بحيث لايشعر بها سكان الأرض ممّا دفع العلماء السابقين لاعتبار الأرض ثابتة ومركز العالم، ترى ماهذه القدرة العظيمة التي حفظت ثبات الكرة الأرضيّة منذ ملايين السنين ورغم تعدد حركاتها دون دعائم وأعمدة، ودون أدنىٰ تشقق وتحطم أجزاء رغم مضي كلّ هذه المدّة الزمانيّة؛ وهل من قدرة غير القدرة الإلهيّة من شأنها القيام بهذا العمل؟ إننا لنعلم اليوم أنّ المسافة التي جعلت الأرض بهذا البعد عن الشمس وفي وضع طبيعي معلول للتعادل بين قوّة الجاذبة والدافعة، وعلى أساس الجاذبيّة فإنّ كلّ كتلتين تجذب إحداهما الأخرىٰ بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافة بينهما. فهذه القوّة تجعل الأرض تندفع بسرعة نحو الشمس فتنجذب إليها وتتحول إلىٰ بخار، ومن جانب آخر فإنّ الحركة الدورانيّة حول المركز تسبب فرار ذلك الجسم من المركز والتي تسمى قوّة الطرد المركزية وكلّما كانت الحركة أسرع كانت القوّة الطاردة أكبر، ولذلك حين يدور القلاب الحجري بسرعة ويترك فجأة فإنّه يقذف إلىٰ نقطة بعيدة، وعليه وبغية دوران الأرض في مدارها لملايين السنين بصورة طبيعية لابدّ من مساواة قوّة الجاذبية للقوّة الطاردة، وتختل لهذه المعادلة لو إزدادت أو قلت المسافة وكذلك لوازدادت أو قلت الحركة فتتيه الأرض في الفضاء أو تنجذب باتجاه الشمس.

وهنا يرد هذا السؤال: لم كلّ هذه العبارات المختلفة؟

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّها من قبيل العطف التفسيري؛ ولكن يبدو أنّ الإمام عليه السلام استعمل كلّ عبارة بمعنى معين ليوضح جوانب الموضوع كافّة، توضيح ذلك إن أريد ثبات جسم فلابدّ من موضع يستند إليه، ومن ثم حاجته لدعائم وأعمدة قوية ومحكمة، وقد قال الإمام عليه السلام إنّ الله أثبت الأرض دون الحاجة إلىٰ

هذه الأمور، فهي تسبح في الفضاء بانتظام دون موضع وأعمدة، ثم أشار في العبارة اللاحقة إلىٰ أنّ الله حال دون إعوجاج الأرض أو تهافتها وانفراجها وأودها، ولكلّ من هذه المفردات معنى معين، فالأود إشارة إلىٰ الثقل والضغط الذي يؤدّي إلىٰ الإعوجاج، كما يوجب أحياناً التهافت أو الانفراج في البناء، والله حفظ الأرض من كلّ ذلك.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ سائر عجائب الأرض والتدبير الإلهي لإعدادها للحياة البشريّة فقال عليه السلام : «**أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وضَرَبَ أَسْدَادَهَا**[1]**، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وخَدَّ**[2] **أَوْدِيَتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ**».

فالعبارة الأُولى إشارة إلىٰ العديد من الآيات القرآنيّة الواردة بشأن الجبال وأنّ الله وتد بها الأرض وجعلها كالمسامير، فقد جاء في سورة النبا: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً**﴾[3][4] ولما كان أحد آثار الجبال أنّها تكمن بصورة سد في مقابل السيول والعواصف فقد عبّر عنها بالأسداد، وبالنظر إلىٰ أنّ الخلل والشقّ في الجبال والمواضع الخالية في بعض أقسامها يؤدّي إلىٰ خزن الماء ومن ثم جريان العيون، وكذلك شقوق الجبال التي تؤدّي إلىٰ ظهور الأودية وانحدار مياه الأمطار إلىٰ الأودية فقد ركز عليها الإمام عليه السلام في خطبته.

ولما أراد عليه السلام الإشارة إلىٰ ربوبية الله وتدبيره والتي تعدّ من صفات أفعاله فقد تطرق إلىٰ صفات الذات وأشار بعبارات غاية في الروعة والدقّة إلىٰ علم الله وقدرته ووحدانيته فقال: «**هُوالظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وعَظَمَتِهِ، وهُوالْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيء مِنْهَا بِجَلَالِهِ وعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلَا**

---

١. «أسداد» جمع «سدّ».
٢. «خد» أخذ في الأصل من خد الإنسان الواقع على طرفي الوجه ثم اطلق على الشقوق الواسعة والعميقة في الأرض. وذكر في الخطبة بمعنى الشق.
٣. سورة النبأ، الآية ٧.
٤. راجع شرح هذا الموضوع في التفسير الأمثل ذيل الآية ٣ من سورة الرعد والآية ١٥ من سورة النحل.

يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَال فَيَرْزُقَهُ».

أساس كلّ هذه الصفات في الواقع علمه وقدرته اللامتناهيّة، ومن له القدرة اللامتناهيّة يغلب كلّ شيء ويسمو على كلّ موجود، لا يغلبه شيء ولا يفر من قدرته وبالطبع غني عن الكلّ، لأنّه القادر على كلّ شيء.

كما أنّ من كان علمه لامتناهياً فهو عليم ببواطن الأشياء وظواهرها بل الظاهر والباطن لديه على حد سواء، كما يتساوى لديه القوي والضعيف والبعيد والقريب والأعلى والأسفل.

ولا يخفى الدور الذي يلعبه الإلتفات إلىٰ هذه الصفات في تربية الإنسان وتزكيته بغض النظر عن الارتقاء بمستوى معرفته.

ثم واصل كلامه عليه السلام في شرحه لقدرة الله تعالى في عالم الوجود فقال: «خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وضَرِّهِ».

نعم فالعالم كلّه ملك الله وقوانينه حاكمة في كلّ مكان وأينما اتّجهنا فإنّما نحن خاضعين لسلطانه وليس خارج ذلك إلىٰ العدم ولا معنى للفرار من سلطته.

وهنا يتساءل شرّاح نهج البلاغة أنّ الفرار من الضرر ممّا لا شك فيه؛ ولكن ما المراد بالهروب من المنفعة ؟

فأجابوا: إنّ المراد بأنّ الشخص إذا لم يرد أن يكون مديناً لآخر لكي لا يخضع له أو بعبارة أخرىٰ يهرب من منافعه وعطاياه لكي لا يضطر للخضوع له؛ فإنّ مثل هذا العدد لا معنى له إزاء الله ولطفه وقهره.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوأَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[1].

---

١. سورة الأحزاب، الآية ١٧.

ثم جرى الكلام هنا عن الامتناع عن قبول رحمة الله وعقابه فأشار عليه السلام إلى أن لا سبيل أمامكم سوى القبول سواء أراد بكم رحمة أو مصيبة إزاء رحمته؛ ففي كلّ الأحوال أنتم مدينون له.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالتأكيد على وحدانيته سبحانه فقال: «**وَلَا كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ**».

قلنا مراراً، إنّ الذات الإلهيّة لامتناهية من جميع الجهات، ومن الطبيعي أن تستحيل الأثنية في الوجود اللامتناهي، لأنّ التعدد إنّما يقترن دائماً بالمحدودية، لأنّ كلّ واحد منهما فاقد لوجود الآخر، أو بعبارة أخرى فإنّ حد كلّ واحد منهما نقطة نهايته وهذا ما لا ينسجم مع الذات الإلهيّة اللامتناهيّة وغير المحدودة.

والجدير بالذكر أنّ هذا القسم ينطلق بالتوحيد ويختتم بالتاكيد عليه بعد ذكر سلسلة من صفات الذات وصفات الأفعال.

القسم الخامس

هُوَالْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا. وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوِاجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!

الشرح والتفسير

العجز عن خلق بعوضة

تحدّث الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة عن قضية فناء العالم وقدرة الله المطلقة على خلق العالم وعدمه بعد أن فرغ من أبحاثه العميقة في الأقسام السابقة من هذه الخطبة بشأن خلق العالم ولا سيما الأرض وعجائبها فقال: «هُوَالْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا».

ثم واصل كلامه فقال: «وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَو اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا[1] وَسَائِمِهَا[2]، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا[3] وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ[4] أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا،

---

١. «مراح» من مادة «روح» مأوى الحيوانات.

٢. «سائم» من «سوم» على وزن «قوم» الراعي وتعني في الأصل الذهاب خلف الشيء.

٣. «اسناخ» جمع «سنخ» تعني الأصول والجذور وهنا تعني أنواع الحيوانات.

٤. «متبلدة» من مادة «بلادة» بمعنى الغباء مقابل الذكاء.

عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَة، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا».

فهذا الكلام لا يعد حقيقة إبان صدوره من الإمام عليه السلام آنذاك، بل هو حقيقة واقعة اليوم، ذلك أنّه لو اجتمع علماء العالم كافّة لخلق بعوضة لعجزوا عن ذلك، لأنّ قضية بعث الحياة في الجمادات مستحيلة، أضف إلىٰ ذلك فإنّ بنية البعوضة من حيث الأجنحة والأرجل والدماغ والأعصاب وجهاز الهضم والانجاب على درجة من التعقيد والدقّة فغير الخالق سبحانه لا يستطيع المخلوق خلق بعوضة.

وتشير كلّ عبارة من العبارات: «مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا» إلىٰ نقطة معينة، فالعبارة الأولى تشير إلىٰ عجز الإنسان والحيوان عن خلق بعوضة، بينما تشير العبارة الثانية إلىٰ الجهل بتلك الأسباب والعوامل.

وقد ورد مثل هذا المعنى في القرآن الكريم بشأن خلق الذباب حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[1].

ثم قال عليه السلام: «وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً[2] حَسِيرَةً[3]، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!».

نعم لو عزمت هذه البعوضة الصغيرة على أذى الإنسان وسائر الحيوانات ولم يحد الله من انجابها لتكاثرت بشكل يضيّق الحياة على الإنسان ولعجزت كلّ المبيدات عن مواجهتها، وما نشاهده اليوم من القضاء عليها في بعض المناطق بفعل المواد السامة فذلك لأنّها محدودة في انجابها وإلّا لكانت كالجراد في خروجها عن السيطرة ولشكلت أسراباً عظيمة تملأ أركان الفضاء، وهذه البعوضة التي تبدو في

---

١. سورة الحج، الآية ٧٣.

٢. «خاسئة» من مادة «خسأ» على وزن «مدح» تعني في الأصل الذلّة وخاسىء بمعنى الذليل والعاجز.

٣. «حسير» من «حسر» على وزن «حبس» تعني في الأصل العري ورفع غطاء شيء ثم استعملت بمعنى الضعف والتعب.

ظاهرها ضعيفة قد كشفت في بعض الأحيان عن قدرتها ـ بإذن الله ـ لتهاجم أحياناً بصورة جماعية فيلاً فتقضي عليه.

ويمتاز بعضها ـ في ظروف معينة ـ بنقلها للميكروبات الخطيرة أو السموم القاتلة فتشعر الإنسان بعجزه عن مواجهتها لتثبت له مدى قدرتها.

تأمّلان

١. المعاد الجسماني وإعادة المعدوم

تحدّث بعض شرّاح نهج البلاغة بشأن المعاد الجسماني عند العبارة «هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا» التي تصدر بها هذا الجانب من الخطبة واستشهدوا على ذلك بهذه الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[1].

ثم أضافوا أنّ جميع الأنبياء وخاصة النّبي الأكرمﷺ أخبر عن فناء هذا العالم، وأضافوا أنّ الفلاسفة خالفوا هذا الأمر لا على أساس عدم إمكانيّة فناء العالم، بل على أساس استحالة انعدام العالم مع بقاء العلّة وهي الذات الإلهيّة المقدّسة.

ثم خاضوا في شرح مسألة امتناع إعادة المعدوم وأشاروا إلىٰ شكّ البعض في مسألة المعاد الجسماني، والحقّ فناء العالم ليس بمحال، لأنّ الله فاعل مختار وإن رآى المصلحة خلق الشيء أو عدمه، كما ليس هنالك من شكّ في المعاد الجسماني، فقد صرّح القرآن في العديد من آياته بهذا الأمر، كما أنّه ليس هنالك من دليل عقلي على امتناعه[2].

وليست هنالك من علاقة بين مسألة استحالة إعادة المعدوم ومسألة المعاد، لأننا إن قلنا إعادة المعدوم مستحيلة؛ يعني ذلك أنّ إعادة ذلك الشيء بجميع خصوصياته حتى الزمان والمكان محال وبالطبع ليست هنالك من عودة للزمان الذي مضى، إلّا

١. سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

٢. انظر: هذا الموضوع في الجزء الأوّل من نفحات الولاية بحث المعاد الجسماني.

أنّ عودة الإنسان في المعاد يوم القيامة لا تعني عودة الزمان والمكان الماضيين، فليس هنالك من عاقل يزعم بعودة ذلك الزمان الذي عاشه في الدنيا يوم القيامة، بل المراد عودة إنسان بجميع خصائصه في زمان ومكان آخر، مثلاً حين يحيي المسيح عليه السلام ميتاً فسيكون ذلك الشخص السابق قطعاً وإن أحياه في زمان ومكان آخر، وهكذا إحياء الأموات في القيامة.

وزبدة الكلام فما جاء في هذه الخطبة هو بعينه ما ورد في القرآن الكريم، بل شرح الإمام عليه السلام في الواقع آيات المعاد هنا بعبارات رائعة وعميقة.

٢. الخلقة العجيبة للبعوض!

صرّح الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة لواجتمعت الكائنات كافّة لخلق بعوضة لما استطاعت، ولواطلق الله العنان للبعوض في التكاثر لما كانت هنالك من قوّة في العالم قادرة على القضاء عليها وكما أسلفنا فإنّ هذا الكلام لا يبدو حقيقة على عهد نزول القرآن وعصر الإمام فحسب بل هو كذلك حتى في عصرنا الراهن.

فللبعوضة خلقة معقدة؛ أغلبها لا تعيش سوى في المياه الراكدة في حافات الأنهار والمستنقعات وما شابه ذلك، وتضع انثى البعوض ما يقرب من ١٥٠ بيضة في كلّ مرّة لتفقس عن بعوضة ولكلّ بعوضة وليدة انبوب تنفسي نحيف للغاية يرتبط بسطح المياه تتعلق به البعوضة، ثم تظهر بعد بضعة أيّام قشرة على جوانبه كما يحدث الكثير من التغييرات في بنيتها داخل القشرة التي تبدو ظاهراً عديمة الحركة، وبعد عدّة أيّام تخرج البعوضة غير الكاملة من تلك القشرة فتطير وتقضي سائر عمرها لتعيش في الهواء.

والتغييرات التي تطرأ خلال هذه المدّة القصيرة على بنية البعوضة وتحولها من كائن مائي إلىٰ طائر حقّاً لمذهلة وعجيبة.

يقول العلماء إنّ ذكور البعوض تتغذى على عصارة الفواكه وسوائل النباتات؛

بينما تتغذى الاناث على امتصاص الدم فهي تلسع الإنسان وتـمتص دمـه كـمادة غذائية.

والبعوض حشرات صغيرة لها جناحان ولو وُضعت تـحت المـجهر لشـوهدت بنيتها الظريفة والعجيبة ويستحيل على الإنسان صنع مثلها فضلاً عن كائن حي قادر على التغذية والنمو والانجاب.

والعجيب أنّ بعضها عديمة اللون بحيث لا ترى بالعين المجردة.

والبعوض العادي وإن كانت حشرات مؤذية قد تسلب الإنسان القوي والشديد البنية نومه ليلة كاملة، لكنها غالباً ليست خطيرة، مع ذلك هنالك بـعض البـعوض خطير وسام بحيث يستطيع القضاء على أقوى الحيوانات[١].

٨٠٠٣

---

١. القاموس.

القسم السادس

وإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْت وَلَا مَكَان، وَلَا حِين وَلَا زَمَان. عُدِمَتْ عِنْدَ ذلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وزَالَتِ السِّنُونَ والسَّاعَاتُ. فَلاَ شَيءَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ. بِلاَ قُدْرَة مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وبِغَيْرِ امْتِنَاع مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، ولَوقَدَرَتْ عَلَى الإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا. لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيء مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، ولَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ، ولَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَان، وَلَا لِخَوْف مِنْ زَوَال ونُقْصَان، وَلَا لِلإِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِر، وَلَا لِلإِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِر، وَلَا لِلإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيك فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشَة كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

الشرح والتفسير

الغنى عن الخلق

قال الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ومواصلة لكلامه السابق بشأن وجود العالم وعدمه: «وإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيءَ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْت وَلَا مَكَان، وَلَا حِين وَلَا زَمَان».

ثم واصل كلامه فقال: «عُدِمَتْ عِنْدَ ذلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وزَالَتِ السِّنُونَ والسَّاعَاتُ».

ثم استنتج من ذلك: «فَلاَ شَيءَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ

الأُمُورِ. بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، ولَوقَدَرَتْ عَلَى الأِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا».

إشارة إلىٰ تسليم جميع عالم الخلقة لإرادة الله سبحانه وتعالى، فليس له من اختيار في بداية خلقه ولا حين زواله ونهاية حياته، فلو كان خلقه وفناؤه بيده لعاش الخلود، فمما لا شك فيه كلّ كائن يسعى لبقائه.

طبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع كون الإنسان مختاراً في أفعاله، لأنّ مراد الإمام عليه السلام بيان بداية الخلقة وختامه الخارج عن الإرادة والاختيار والذي يتم وفق الحكمة والمصلحة.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ هذه النقطة فقال: «لَمْ يَتَكَاءَدْهُ[1] صُنْعُ شَيءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، ولَمْ يَؤُدْهُ[2] مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ».

لأنّ التعب والضعف والعجز من خصائص الإنسان المحدود القدرة، فإنّ أراد القيام بعمل يفوق طاقته فإنّه يعجز، وإن كان بمستوى طاقته فإنّه يشعر بالتعب أمّا بالنسبة لمن كانت قدرته مطلقة فحمل القشة من الأرض والجبل العظيم لديه على حد سواء فهو ليس بحاجة لوسيلة أو أداة ليستعين بها وإرادته تكفي في ذلك: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3].

وينسجم كلام الإمام عليه السلام هذا مع ما ورد في جانب من آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا﴾[4]؛ وقال في موضع آخر بعد الإشارة إلىٰ خلق السماء والأرض ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾[5].

ثم خاض عليه السلام في بيان هذه النقطة المهمّة في أن خلقه لعالم الخلقة لم يكن لجلب

---

١. «يتكاءده» من «كاد» على وزن «وعد» بمعنى المشقّة والعبارة هنا تعني لا يشق عليه وكؤود: كثير المشقّة.

٢. «يؤده» من مادة «أود» على وزن «قول» بمعنى الثقل ولم يؤده بمعنى لم يثقل عليه.

٣. سورة يس، الآية ٨٢.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

٥. سورة الاحقاف، الآية ٣٣.

نفع أو دفع ضرر لأنّه غني بالذات ولا فناءه بعد خلقه لتعب منه، وهكذا ينفي أي حاجة تحتاجها الذات القدسيّة في خلق العالم ومن ثم في فنائه.

فقد أشار عليه السلام في القسم الأوّل إلىٰ الأهداف السبعة التي يتطلع إليها الإنسان عادة في قيامه بأعماله ثم نفاها جميعاً عن الله تعالى كونها دلالات على الضعف والعجز والنقص فقال إنّه لم يخلق الموجودات لتوطيد حكومته كونه وجوداً لا متناهي وغني من جميع الجهات: «ولَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَان».

كما أنّه واجب الوجود الذي ليس للزوال والنقصان من سبيل إليه «وَلَا لِخَوْف مِنْ زَوَال ونُقْصَان».

كما ليس له مثيل: «وَلَا لِلاِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِر[1]».

وبما أنّه لا ضد له ولا عدو والكلّ خاضع لسيطرته «وَلَا لِلاِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِر[2]».

كما أنّه ليس بحاجة لمخلوقاته ليقضى بها حاجته «وَلَا لِلاِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ».

وحيث له شريك ولا قرين «وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيك فِي شِرْكِهِ».

وكذلك: «وَلَا لِوَحْشَة كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا».

لأنّ الوحشة حيث الشعور بالخطر من جانب العدو أو بروز المشاكل والمصائب ولا عدوله ولا مشكلة تجري عليه، ومن الطبيعي أنّ هذه الأهداف السبعة إنّما تعود لجلب المنفعة ودفع الضرر، لكن الإمام عليه السلام شرحها بأسلوب رائع وركز على جميع المصاديق بما لا يتصور أبلغ وأفصح منه ومن الواضح حين تنتفي كلّ هذه الأهداف يثبت أنّ الله خلق الخلق إفاضة ولطفاً بالمخلوقات لا لجلب منفعة، لأنّ جلب المنفعة ودفع الضرر من لوازم الممكنات وهو واجب الوجود.

---

١. «مكاثر» من «الكثرة» كما تطلق على من يطلب الكثرة.

٢. «المثاور» من مادة «ثور» على وزن «غور» تعني المهاجم.

تأمّل

هل هناك زمان دون مخلوق

ما ذكره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة حول فناء الدنيا في البداية والنهاية حيث إنّ الله واحدٌ أزليٌّ أبديٌّ ليس له بداية ولا نهاية، آثار سؤالاً لدى شرّاح نهج البلاغة وهو كيف مرت مدّة لم يظهر فيها الفيض من الذات الإلهيّة الفياضة على الدوام وأجابوا بأنّ المراد ليس إنعدام وجود الأشياء بصورة مطلقة بل في مرحلة الذات الإلهيّة، أي كانت هنالك موجودات لكنها ليست مستقلة عنه (طبعاً هذا الجواب لا يبدو مقنعاً).

إن السؤال الأهم الذي نطرحه هنا هو: كيف ينسجم ما طرحه الإمام عليه السلام بشأن فناء العالم مع ظاهر الآيات القرآنيّة؟ فقد صرّح القرآن في عدّة آيات أنّ هذا العالم سيتعرض إلىٰ الدمار في خاتمة المطاف لا أنّه يعدم بالمرّة إذ قال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[1].

وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[2].

كما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾[3].

إضافة إلىٰ ذلك يقول إنّ الموتى يخرجون من قبورهم، ويعتقد أغلب العلماء أنّ الجنّة والنار موجودتان الآن طبق ظاهر الآيات والروايات وأعمالنا هي التي تبلورهما، فكيف والحال هذه يصرّح بانعدام جميع الأشياء بنهاية العالم ولا يبقى سوى الله فيزول حتى الزمان والمكان؟ كما ورد في الخطبة المذكورة، والذي يقال

١. سورة التكوير، الآيات ١ ـ ٦.
٢. سورة ابراهيم، الآية ٤٨.
٣. سورة طه، الآيات ١٠٥ ـ ١٠٧.

في جواب السؤال الأوّل: كما أنّ الله فياض فهو حكيم على الاطلاق وفاعل ليس بمجبر فممكن أن تقتضي حكمته أن لا يكون شيء في البداية ثم يوجد، وعليه فإنّ فيضه لا يمنع من انعدام الإشياء قبل خلقها.

ويقال في الجواب على السؤال الثاني، إنّ العالم يتحطم في البداية كما ورد في الآيات المذكورة، لكنه يعدم بعد ذلك بصورة كـلية بـحيث لا يـبقى سـوى الذات القدسيّة ثم يكتسب كلّ ما فُنِي ـ بطريقة إعادة المعدوم وبالطبع بشكلها المعقول[1] ـ حلة الحياة وكما كان في السابق بالضبط من تلك الجنّة والنار والإنسـان والقـبور وهذا أمر معقول وسنشير إلىٰ هذا المطلب في القسم القادم من الخطبة أيضاً.

٭٭٭

١. لإعادة المعدوم صيغتان؛ صيغة غير معقولة وأخرى معقولة، والصيغة غير المعقولة أن يـعود المـوجود الذي فنى بجميع خصائصه بما فيه الزمان إلى ما كان عليه في السابق وهذا محال حيث لا معنى لعودة الزمان ثم إنّه تناقض، أمّا الصيغة المعقولة فهي أن يعاد كلّ شيء بصورته السابقة ما عدا الزمان، ولعل عدم الإلتفات إلى هذا الفارق أدى إلى ذلك النزاع اللفظي بين العلماء بشأن إعادة المعدوم فرآها البعض مـحالة بـينما رآهـا البـعض الآخر ممكنة.

القسم السابع

ثُمَّ هُو يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقْلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وعَمىً إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وحَاجَةٍ إِلَى غِنىً وكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وقُدْرَةٍ.

الشرح والتفسير

دوام الخلقة والفناء

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لأهداف عالم الخلق تحدّث في هذا الجانب من الخطبة عن فناء العالم والهدف من ذلك فقال: «ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَا لِسَأَمٍ[1] دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقْلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا».

فجميع هذه الأمور كالتعب والعجز والملالة وطلب الراحة، ناشئة من محدودية القوّة وقدرة الفاعل وليس لهذه الحوادث من سبيل إلىٰ صاحب القدرة المطلق، فهذه كلّها صفات الممكنات ومن توهم مثل هذه الصفات على الله فقد وقع في هوة

1. «سأم» بمعنى التعب والملل ونفي الملل في العبارات التالية ليس تكراراً بل نفى في العبارة الأُولى الملل الناشيء من تدبير العالم من الذات القدسيّة، وفي العبارة التالية الملل الناشيء من طول بقاء العالم.

التشبيه (الواجب بالممكن).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا أو هنالك من يحتمل هذه الأمور على الله لينفيها الإمام عليه السلام؟

لا شك في أنّ أصحاب العقول السليمة لا يتصورون مثل هذا الاحتمال، إلّا أنّ هذه الوسوسة قد تساور أذهان بعض الأفراد العاديين، أولئك الذين يرون الله جسماً ويرون له أذناً وعيناً ويداً ورجلاً وظفيرة ويا له من وهم ساذج! والسؤال الآخر الذي يرد هنا أنّ الإمام عليه السلام يذكر هذه الأهداف لنفي فناء الدنيا إلّا أنّه لم يذكر بدل ذلك أي هدف ايجابي والجواب على هذا السؤال واضح: أنّ الله حكيم وكلّ أفعاله تستند إلىٰ الحكمة والتي تعود آثارها وفوائدها على الإنسان وسائر الموجودات، لا إلىٰ ذاته القدسيّة الغنية عن كلّ شيء، ولعل الهدف الأصلي من هذا الفناء حتى لا يشتبه الإنسان فيتصور وجوده من نفسه ويعتقد بأزليّة وأبديّة السماء والأرض وليعلم أنّ كلّ شيء متوقف على إرادة الله.

ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه وفي خلاصة للأبحاث السابقة: «**ولٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَة مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَة بَشَيء مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لانْصِرَاف مِنْ حَالِ وَحْشَة إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاس، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْل وعَمىً إِلَى حَالِ عِلْم وَالْتِمَاس[1]، وَلَا مِنْ فَقْر وحَاجَة إِلَى غِنىً وكَثْرَة، وَلَا مِنْ ذُلّ وَضَعَة[2] إِلَى عِزّ وقُدْرَة**».

فما بيّنه الإمام عليه السلام في ختام هذه الخطبة وضمن ست عبارات نفي الأهداف التي لا تليق بذاته الطاهرة بالنسبة لخلق العالم؛ باختلاف طفيف مع الأهداف السبعة التي مضت في الأقسام السابقة فذكرها الإمام عليه السلام هنا بصيغة خلاصة وبعبارات جديدة وخلاصتها أنّه لم تكن لديه من حاجة لإيجاد عالم الخلق ولا في فنائه ولا في

---

١. «التماس» من لمس بمعنى الطلب.

٢. «ضعة» من مادة «وضع» بمعنى الخسة.

الخلق الجديد بعد الفناء.

وهنا يطرا هذا السؤال أيضاً: إن كان خلق الله للعالم ثم إفناؤه ثم الخلق الجديد لا لنفعٍ ولا حاجة ودفع نقص فماذا كان هدفه من ذلك ولماذا لم يشر الإمام عليه السلام إلىٰ ذلك الهدف؟

والجواب على عن هذا السؤال هو ما ذكرناه سابقاً فهو وجود كامل من جميع الجهات، وليس هنالك لقيامه بأفعاله ما يعود إليه، بل يعود عادة على المخلوقات والممكنات دون أن يعود عليه بشيء، وبعبارة أخرىٰ كلّ ما لدى مخلوقاته منه وليس لديهم من شيء فيهبوه لله: ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1].

٭٭٭

١. سورة الحجر، الآية ٢١.

١٨٧

ومن خطبة له عليه السلام

وَهِيَ فِي ذِكْرِ المَلَاحِمِ[١]

نظرة إلىٰ الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من قسمين، تطرق الإمام عليه السلام في القسم الأوّل إلىٰ قوم سيتصدون في المستقبل للدفاع عن الحقّ والقيام من أجل بسط القسط والعدل في عصر يُملأ فيه العالم بالمفاسد ويضيق فيه الناس والذي يتناسب مع ظهور المهدي عليه السلام وصحبه.

وفي القسم الثاني وعظ أصحابه وأهل زمانه في اجتناب الفتن وعدم التفرق عن إمامهم.

وجدير ذكره أنّ المدائني ـ كما ورد في سند الخطبة ـ ذكر في كتابه (صفين) أقسام أخرىٰ من هذه الخطبة التي لم يذكرها المرحوم السيد الرضي وقال في

---

١. سند الخطبة:
روى هذه الخطبة أبوالحسن المدائني من علماء القرن الثالث في كتاب (صفين) وتبدأ الخطبة التي رواها «إذا كثر فيكم الاخلاط...» ثم ذكر الخطبة بعد عبارات مفصلة مع اختلاف وإضافات بما يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر لأنّه أولاً عاش لفترة مديدة قبل السيد الرضي، وثانياً ما نقله يحتوي على إضافات بالنسبة لما نقله السيد الرضي كما ذكر جانب منها الزمخشري في ربيع الابرار (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٨).

آخرها: إنّ رجلاً من أهل البصرة قال لرجل من أهل الكوفة إلىٰ جانبه: أشهد أنّه كاذب على الله ورسوله. قال الكوفي: وما يدريك ؟ (فلم يجبه) ثم أضاف، قال الكوفي: والله ما نزل من المنبر حتى شلت يد الرجل البصري ورجله فحملوه إلىٰ بيته ومات في تلك الليلة[١].

١. مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٩؛ كما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ١٣٦.

القسم الأوّل

أَلَا بِأَبِي وأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّة أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ وفِـي الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلَا فَـتَوَقَّعُوا مَـا يَكُـونُ مِـنْ إِدْبَـارِ أُمُـورِكُمْ، وَانْـقِطَاعِ وُصَـلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ. ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي. ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَاب، بَـلْ مِـنَ النِّـعْمَةِ والنَّـعِيمِ، وتَـحْلِفُونَ مِـنْ غَـيْرِ اضْطِرَار، وتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاج. ذَاكَ إِذا عَضَّكُمُ الْبَلاَءُ كَمَا يَعَضُّ الْـقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هذَا الْعَنَاءَ، وأَبْعَدَ هذَا الرَّجَاءَ!

الشرح والتفسير

الحوادث المرعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالحديث عن طائفة من خواص الله تعالى الذين ينهضون بمهمّة خاصة فقال: «أَلَا بِأَبِي وأُمِّي[1]، هُمْ مِنْ عِدَّة أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ وفِي الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ».

والسؤال من هي هذه الطائفة وما مهمتها ؟ مرّ ذلك مجملاً في متن الخطبة ومن هنا كان هنالك اختلاف بين شرّاح نهج البلاغة، فالبعض يعتقد أنّهم الأحد عشر معصوماً من ولد علي عليه السلام الذين هم أسماؤهم في السماء معروفة، بينما لا يعرفهم في الأرض سوى طائفة معينة.

---

١. ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة (الخوئي) في تركيب العبارة المذكورة أنّ (هم) مبتدأ و(بأبي وأمي) في محل خبر و(من) بيانيّة وهذه العبارة تشبه العبارة (بأبي أنتم وأمي) والتي استخدم فيها هنا بدل الضمير المخاطب ضمير الغائب في آخر الجملة.

وذكر بعض علماء أهل السنّة أنّ المراد بهم طائفة من المؤمنين والأولياء الذين عبّر عنهم بالقطب والأبدال، وهي العبارات التي عادة ما يستخدمها المتصوفة في كلماتهم ، إلّا أنّ العديد من القرائن تشير إلىٰ أنّ المراد بهم الإمام المهدي عليه السلام وخواص أصحابه لأنّ الإمام عليه السلام، أخبر بعد هذه العبارة عن حوادث خطيرة تذكر الإنسان بعلامات آخر الزمان وظهور المهدي عليه السلام. أضف إلىٰ ذلك فقد ورد في جانب من الخطة التي رواها المدائني في كتاب (صفين)[١] إشارة إلىٰ الخسف في البيداء وهروب طائفة منها وأننا لنعلم أنّ الخسف في البيداء من علامات الظهور التي أشارت إليها الروايات[٢].

ويتّضح منها أنّ مهمتهم هي تلك المهمّة التي أشارت من الروايات في مصادر الفريقين ومنها «يَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً وقِسطاًكَما مُلِئَتْ ظُلْماً وجَوْراً»[٣].

وطرح البعض هذا السؤال: كيف يقول الإمام عليه السلام (بأبي أنتم وأمي) والحال أنّ المهدي أحدهم بينما البقية هم أصحابه؟

والجواب على هذا السؤال أنه صدرت مثل هذه العبارات من الأئمة عليهم السلام بشأن من لهم مهمّات خاصة، ومن ذلك ما ورد ذيل زيارة وارث «بِأبي أنْتُم وأُمّي طِبْتُمْ وطابَتِ الأَرْضُ الَّتي فيها دُفِنْتُمْ» التي وردت عن بعض الأئمة عليهم السلام حين قرأوا هذه الزيارة على قبور شهداء كربلاء.

ونقل المرحوم الأربلي في كشف الغمة عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: رأيت عمي الحمزة وأخي جعفر بن أبي طالب في المنام فقلت لهما: «بِأَبي وأُمّي أنتُما أَيُّ الأَعْمالِ وَجَدْتُما أَفْضَلُ؟» فقالا: فديناك بآبائنا وأمهاتنا: «وَجَدْنا أَفْضَلَ الأَعْمالِ الصَّلاةُ عَلَيْكَ وسَقْيَ الْماءِ وحُبَّ عَلِيّ بنِ أَبي طالب»[٤].

---

١. مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٧٨.

٢. انظر: بحث علامات الظهور في كتاب سفينة البحار مادة «هدى»؛ بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١٩ و١٨١.

٣. وردت هذه الروايات في جميع الكتب المؤلفة بشأن المهدي عليه السلام بما فيها كتب الفريقين.

٤. كشف الغمة، ج ١، ص ٩٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٨٤.

ثم تنبأ الإمام عليه السلام بالحوادث الخطيرة مُستقبلاً والتي تنتظر الناس، وهي الحوادث التي تشبه العلامات التي ذكرت في الظهور فقال عليه السلام: «أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ».

ومن الطبيعي أن تبدأ مسيرة التخلف وتقطع الأواصر الاجتماعيّة حين يتزعم بعض الأفراد قليلي الخبرة والسذج والذين يفتقرون إلىٰ الكفاءة، لكن لماذا تتجه طائفة من الزعامات إلىٰ الصغار وقليلي التجربة في الإدارة والتدبير؟ لا شك في كونهم فئة من المهزوزين والآذان الصاغية لكلّ أمر وهذا من أكبر عوامل البؤس والشقاء.

ثم خاض عليه السلام في شرح هذه الحوادث الأليمة فقال: «ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي».

فقد ذكر الإمام عليه السلام باديً ذي بدئ في هذا الجانب من الخطبة مسألة حلية وحرمة الأموال وذلك لتوقف المصير المادي والمعنوي للمجتمعات عليها حيث أشار عليه السلام إلىٰ أنّ جمع الأموال الملوثة بالحرام والغصب والرشوة والغش إنّما يبلغ درجة في المجتمع بحيث يكون تحصيل الدرهم من الحلال أعقد من تحمل ضربة السيف في المعركة، ومن هنا قلّما يتعرض من ينفق أمواله في سبيل الله آنذاك إلىٰ الأجر والثواب لأنّهم يعلمون أنّ أموالهم ليست طاهرة، إلّا أنّ الآخذين لا يعلمون ذلك، أو أنّهم يعلمون لكنهم يضطرون لأخذ تلك الأموال المشكوكة أو المحرمة، وعليه فلا مسؤولية عليهم أمام الله وأجرهم وثوابهم ثابت عنده بينما تبدو القضية معكوسة لو كان المجتمع سليماً وعلى ضوء الحديث النبوي المعروف: «إنَّ الْيَدَ الْعُلْيا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلى»[1] فيكون أجر المعطي أعظم من المعطى له.

على كلّ حال فما ورد في كلام الإمام عليه السلام بشأن كثرة الأموال الحرام في آخر الزمان صرحت بها بعض الروايات ومن ذلك ما ورد في الحديث النبوي الشريف:

١. ميزان الحكمة، ج ١، ص ٤٣ مادة «أخ».

«أَقلُّ ما يَكُونُ في آخِرِ الزَّمانِ أَخٌ يُوثَقُ بِهِ اَودِرْهَمٌ مِنْ حَلال»[١].

ويتّضح ممّا ذكرنا آنفا أنّ العبارة لا تنطوي على مفهوم معقد ومجهول كما ذهب إلىٰ ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة فقدموا عدّة احتمالات مستبعدة وضعيفة.

ثم خاض عليه‌السلام في سائر المشكلات التي يعاني منها ذلك المجتمع الفاسد والذي ينتظره الناس بحكم الإجبار فقال: «ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَاب، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ والنَّعِيمِ، وتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَار، وتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاج».

فأيّ مجتمع إنّما يؤول إلىٰ الإنهيار إن شهد هذه البلايا الثلاث، الأثرياء يسكرون بالثروة فينسون الله وخلقه، وبالطبع فإنّ سكر النعمة أخطر من سكر الشراب، فسكر الشراب قد ينتهي بعد مرور ليلة بينما قد يستمر سكر النعمة طيلة العمر، كذلك القسم من غير اضطرار والذي يوهن من شأن الله تعالى، والكذب من دون احراج الذي يزيل الثقة والاطمئنان وبالتالي تتعقد الحياة في ظلّ هذا المجتمع.

وقال عليه‌السلام في اختتامه لهذا التكهن: «ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ[٢] الْبَلاَءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ[٣] غَارِبَ[٤] الْبَعِيرِ مَا أَطْوَلَ هذَا الْعَنَاءَ، وأَبْعَدَ هذَا الرَّجَاءَ!».

يعتقد أغلب الشرّاح أن هذه العبارة منفصلة عن العبارات السابقة فإنّ السيد الرضي ـ طبق عادته ـ أسقط بعض العبارات حين اقتطافه لبعض العبارات الرائعة لخطب الإمام عليه‌السلام.

ولا يبدو هذا الكلام مستبعداً، لأنّ «ذاكَ» تشير ظاهراً إلىٰ النجاة والفرج الذي سيحصل للمؤمنين بعد كلّ ذلك البلاء، والعبارة «ما أَطْوَلَ هذَا الْعَنَاءَ وأَبْعَدَ هذَا الرَّجاءَ» شاهد متين على هذا المعنى حيث قال عليه‌السلام: هنالك أمل في النجاة بعد كلّ هذا البلاء.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٧.

٢. «عَضّ» من مادة «عضّ» على وزن «خزّ» تستعمل كناية عن الحوادث التي تزعج الإنسان.

٣. «قتب» جهاز الناقة (اطار صغير أصغر قليلاً من سنام الناقة يوضع عليها ليجلس عليها الراكب).

٤. «الغارب» موضع بين العنق والسنام.

كما تشير العبارة «ألا بِأَبى وأُمّى» أنّ الإمام عليه السلام كان ينتظر تلك الفئة التي تنتشل المجتمع الإسلامي من الشر والفساد، وعلى كلّ حال فإنّ أنسب تفسير لمجموع هذا البحث ما ذكر سابقاً وقلنا إنّه ناظر لحوادث آخرالزمان المريرة ونجاة المجتمع البشري منها بواسطة الإمام المهدي عليه السلام.

وهنا لابدّ من الإشارة إلىٰ نقطتين ضروريتين: الأُولىٰ أنّه لماذا شبّه الإمام عليه السلام البلاء بالقتب (خشبة توضع على الناقة لحل مشكلة سنامها الذي يؤذي ظهر الناقة)؟ لا يستبعد أنّ هذا التشبيه على أساس أنّ القتب يوضع لانقاذ الناقة من مشكلة بروز السنام، لكنه يخلق مشكلة أخرىٰ في أنّه يؤذي ظهر الناقة ورقبتها ويجرحها أحياناً، والبلاء في ذلك الزمان والحوادث هكذا في أنّ التفكير بالسبيل للخلاص منها يخلق مشكلة أخرىٰ للناس.

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يصرح عليه السلام باستبعاد الأمل بالنجاة بينما تورد الروايات قرب ذلك الأمل؟

والجواب أنّ ظهور الإمام عليه السلام مشروط بشرائط إن تحققت كان الفرج قريباً وإن لم تتحقق فهو بعيد؛ وبعبارة أخرىٰ يمكن للمؤمنين بتوفيرهم لشرائط الظهور من قبيل التزكية والتهذيب والاستعداد الكامل والأدعية المتواصلة أن يقربوا ظهور الإمام عليه السلام بينما إن تركت هذه الأمور تأخر الظهور، وعليه فالظهور قريب من جهة وبعيد من جهة والذي نأمّل أن يكون قريباً بلطف الله ورحمته.

تأمّل

الحوادث الأليمة آخر الزمان

وردت في هذه الخطبة وبعض خطب نهج البلاغة وروايات النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بعض الأخبار عن المستقبل المظلم والمعقد الذي ينتظر المؤمنين.

ومن خصائص ذلك الزمان عدم إكتراث أغلب الناس بالحلال والحرام. فيرون

كلّ ما يقع في أيديهم حلالاً كيفما حصلوا عليه ومن أي شخص اقتنصوه وهذه القذارة تلوث جميع حياتهم.

الخاصية الأخرىٰ سكر النعمة الذي يؤدّي إلىٰ نسيان المبدأ والمعاد فيعيش الإنسان في عالم من الجهل على غرار من يسكر من الشراب، كما أنّ الإبتعاد عن الأحكام والتمسك بالحجج الواهية لممارسة الأفعال غير المباحة والتعويل على الحيل الشرعيّة من الخصائص الأخرىٰ لذلك الزمان وبالتالي تتحول البدع إلىٰ سنن وتلبس السنن ثوب البدع.

جاء في الحديث النبوي الشريف: «**يَأْتي عَلَى النّاسِ زَمانٌ لا يَبْقى أحَدٌ إلّا أكلَ الرِّبا فَإنْ لَمْ يَأْكُله أَصابَهُ مِنْ غُبارِهِ**»[1].

كما ورد في حديث آخر في وصايا الرسولﷺ إلىٰ ابن مسعود أنّه يأتي على الناس زمان يتناولون فيه الأطعمة اللذيذة ويركبون المراكب الفارهة ويتزين الرجال لنسائهم وتخرج النساء دون حجاب ويشاركن في التجمعات حتى وصفهم النّبيﷺ بأنّهم منافقو الأُمّة في آخر الزمان ثم قال: «**يَاابْنَ مَسْعُودُ يَأْتي عَلَى الناسِ زَمانٌ الصّابِرُ عَلى دينِهِ مِثْلُ الْقابِضِ عَلَى الْجَمْرَةِ بِكَفِّهِ**»[2]، وسائر الحوادث الأليمة التي يطول ذكرها.

هذه النبوءات وبالإضافة إلىٰ جانبها الاعجازي هي تحذير للمسلمين المخلصين للإسلام في ضبط أنفسهم ويعلم أنّ هذا العصر سينتهي بظهور المهدي الموعود (أرواحنا فداه).

٨٠٠٣

---

١. مستدرك الوسائل، ج ١٣، الباب ١ من أبواب الربا، ح ١٨.

٢. سفينة البحار، مادة زمان.

القسم الثاني

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ. وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ.

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشرح والتفسير

وصايا للنجاة من الفتنة

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه عن الحوادث الأليمة في المستقبل في الجانب السابق من هذه الخطبة حتى ذكّر أصحابه هنا ببعض الوصايا التي تنجيهم من أخطار تلك الأحداث فقال عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هذِهِ الأَزِمَّةَ**[1] **الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ**».

هذه العبارة كناية عن أنّ الحوادث ستقع حولكم وتحمل آثار الفتنة والفساد فعليكم أن لا تتزعموها ولا تسهموا في تطورها، فالواقع أنّه يذكّرهم بما أمر به القرآن الكريم حين يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2].

---

1. «ازمة» جمع «زمام»، معروفة.
2. سورة المائدة، الآية ٢.

ثم أضاف: «وَلَا تَصَدَّعُوا[١] عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ[٢] فِعَالِكُمْ. وَلَا تَقْتَحِمُوا[٣] مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ[٤] نَارِ الْفِتْنَةِ، وأَمِيطُوا[٥] عَنْ سَنَنِهَا[٦]، وخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ[٧] لَهَا».

هذا الكلام إشارة إلىٰ أنّ الناس إن لم يسهموا في استفحال الفتن ولم يلجوها وابتعدوا عنها وقطعوا دابرها فسوف لن تتنامى مخلفاتها والقضية بالضبط أشبه بسيل الماء العظيم الذي يعجز الناس عن السيطرة عليه، لكنهم إن فسحوا المجال لكي ينحدروا إلىٰ الوديان والسهول فإنّ الاضرار التي تصيبهم ستكون أقل ممّا لو ولجوه وكانوا في وسطه.

ثم ذكر عليه السلام علّة ذلك فقال: «فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، ويَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ».

إشارة إلىٰ أنّ موج الفتنة على درجة من القوّة بحيث لو انبرىٰ المؤمنون لمواجهته لهلكوا ولسلم غيرهم من نحّىٰ نفسه عنها، وعليه لا ينبغي تبديد الطاقات عبثاً في مثل هذه الموارد، بل لابدّ من الحفاظ عليها والتربص حتى تحين الفرصة المناسبة وهذا بالضبط الفلسفة الأصليّة للتقية في المسائل الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتي تعني ببساطة حفظ الطاقات وانتظار الفرصة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلىٰ موقعه بغية فواق الغافلين والانتفاع بفيوضاته عليه السلام فقال: «إِنَّمَا مَثَلي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيُ بِهِ مَنْ

---

١. «تصدعوا» من مادة «صدع» على وزن «صبر» تعني في الأصل التشقق ثم جاءت بمعنى التفرق والاختلاف أو افشاء الشيء وأريد بها التفرق.

٢. «غبّ» عاقبة الشيء كما جاء بمعنى بين يوم ويوم وأريد به هنا المعنى الأوّل.

٣. «تقحموا» من مادة «اقحام» الإلقاء بالنفس دون روية.

٤. «فور» و«فوران» معروف.

٥. «اميطوا» من مادة «ميط» على وزن «صيت» بمعنى الإبتعاد ومعنى الابعاد في باب الأفعال.

٦. «سنن» بمعنى الطريق و«سَنَن» على وزن «كهن» جمع «سنّة» بمعنى الأساليب.

٧. «قصد السبيل» يعني وسط الطريق سواء طريق الحقّ أم الباطل ولكن غالباً ما تطلق على السبيل الوسط للحقّ قال القرآن: ﴿وَعَلَىٰ اللهِ قَصدُ السَّبيلِ﴾ (النحل، الآية ٩) وأريد بها في الخطبة المعنى الأوّل.

وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا[١]، وأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا».

نعم، فالإمام عليه السلام حين يتكهن بحوادث المستقبل المريرة وظلمات الفتن يشير إلىٰ سبيل النجاة فيقول: إنّكم إنّما تنجون من شر الأشرار والفتن التي يثيرها المفسدون إن سمعتم ما أقول لكم وحفظتموه وفكرتم فيه كما ينبغي.

وقد شبّه الإمام عليه السلام نفسه هنا بالسراج المنير في أمواج الظلمة ثم أمر الناس بالاستضاءة بنور هذا السراج، فقد أمر أولاً بسماع كلامه وحفظه ثم أردفه بالأمر للتعمق به وإدراك حقيقته (وهذا هو الفارق بين مفهوم العبارة «فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا»، والعبارة «وأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا» حيث الأولىٰ سماع وإدراك وحفظ والأخرىٰ دقّة وتعمق).

تأمّل

الانسحاب من الفتن

أحياناً تظهر في المجتمعات البشريّة بعض الفتن التي لا يقوى الأفراد المؤمنون على مواجهتها، كما لا يستطيعون تشكيل خلية للوقوف بوجهها وليس للأفراد الذين يقفون مباشرة إزاء هذه الفتن ويقتحمونها من مصير سوى الهزيمة والانكسار.

فأفضل سبيل في ظلّ هذه الظروف هو الانسحاب من أمام سيول الفتنة والتربص بالفرصة المناسبة بغية مواجهتها، وبالطبع فإنّ الاجراءات المتهورة لا تنطوي على نتيجة سوى التضحية بالطاقات والقضاء على الفرص المستقبلية، وهذه هي فلسفة النهي عن النهضات في عصر أئمّة العصمة عليهم السلام وهذا في الواقع فرع من فروع التقية التي تهدف إلىٰ حفظ القوى واستغلالها في الوقت المناسب.

فقد أكّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة على هذه النقطة وأكّد عليها مع أنّه أشجع فرد في الأمّة ومن ابطال مواجهة أعداء الإسلام وخصوم الدعوة.

---

١. «وعىٰ» من مادة «وعي» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ وتحذف منها الواو حين ترد بصيغة فعل الأمر والفعل المضارع.

١٨٨

وَمِن خُطبَةٍ لَهُ عَلَيهِ السَّلامُ

فِي الوَصِيَّةِ بِأُمُور[1]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: أوصى أولاً بالورع والتقوى واجتناب المعصية وذكرهم بنعم الله لتكون لهم دافعاً نحوالتقوى والطاعة.

ثم ذكرهم بالموت والانتقال من الدنيا وكيفية هذا الانتقال بعبارات تهز النفس لتكون عاملاً نحوالطاعة وترك المعصية.

وأخيراً حذّر من سرعة انقضاء الأيّام والليالي والساعات ولابدّ من الجد والمثابرة للتزود للدار الآخرة.

---

١. **سند الخطبة:**

لم يرد في كتاب مصادر نهج البلاغة مصدر آخر لهذه الخطبة غير نهج البلاغة سوى كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي ويتّضح من كثرة الاختلافات مع ما جاء في نهج البلاغة أنّه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧). طبعاً مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يبدو من المستبعد جدّاً صدورها من غير الإمام المعصوم.

القسم الأوّل

أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللهِ وكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلاَئِهِ إِلَيْكُمْ، ونَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وبَلاَئِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَة، وتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَة! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

الشرح والتفسير

التوصية بالتقوى والحمد

دعا الإمام عليه السلام جميع مخاطبيه في هذا القسم من الخطبة كما أشرنا سابقاً إلىٰ التقوى وشكر الله على نعمه فقال: «أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللهِ وكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلاَئِهِ إِلَيْكُمْ، ونَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وبَلاَئِهِ[1] لَدَيْكُمْ».

رغم أنّ «آلاء» و«نعماء» تستعمل في أغلب الموارد بمعنى واحد هو النعمة، إلّا أنّ البعض يعتقد أن آلاء إشارة إلىٰ النعم المعنويّة ونعماء إشارة إلىٰ النعم الماديّة؛ سيما إن وردت المفردتان مع بعضهما.

وتستعمل كلمة «البلاء» بمعنى الامتحان والاختبار أو بمعنى الحوادث السارّة والأليمة وفي العبارة السابقة وبالنظر إلىٰ تناسق العبارات فهي بمعنى الحوادث السارّة، وقال البعض: المقصود هو الحوادث الأليمة التي يختبر الله الإنسان بها وتسبب ارتقاء رتبته وزيادة ثوابه عند الله وتعتبر نعمة بالنظر إلىٰ هذا الأمر.

---

١. «بلاء» أحياناً من مادة «بلو» ناقص واوي وأخرى من مادة «بلى» ناقص يائي والأولى بمعنى الاختبار والامتحان، فالامتحان بوفور النعمة أحياناً وندرتها، وأحياناً بسلب النعم والآفات. قال الله تعالى ﴿بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء، الآية ٣٥) والثانية تعني الكبر ثم وردت بمعنى الغم والحوادث الأليمة التي تنهك الإنسان، كما وردت هذه المفردة بمعنى اختبار، لأنّها ثقيلة على جسم الإنسان وروحه.

على كلّ حال فكلام الإمام عليه السلام هذا شبيه ما إستند إليه علماء الكلام في بحث معرفة الله، وقالوا: الدافع الرئيسي لهذا البحث هو مسألة شكر المنعم، لأنّ الإنسان يرى نفسه غارقاً في النعم وحيث إنّ شكر منعم النعمة كامن في فطرة الإنسان فإنّه يفكر في واهب النعمة فيتجه إليه ليتعرف عليه ومن شأن هذا الأمر أن يكون سبباً لطاعته وتركه للمعصية.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح بعض هذه النعم فقال: «فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ[1] لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ[2] فَأَمْهَلَكُمْ!».

فقد أشار الإمام عليه السلام بادئ الأمر إلىٰ النعم والرحمة المختصة بهذه الأمّة مثل خاتمية النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكونها خير أمّة وعدم نزول البلاء على الأمّة ما دام النّبي فيهم أو هم يستغفرون، ثم خاض عليه السلام بعد ذلك إلىٰ مسألة ستر الله تعالى مقابل خرق هذا الستر من قبل العصاة وكذلك إعطاء المهلة الكافية من أجل التوبة والعودة إلىٰ النفس وعدم العجلة في معاقبتهم وكل واحدة منها نعمة عظيمة للغاية.

---

١. «أعورتم» من مادة «عار» بمعنى العيب وكل شيء يعدّ اظهارها عيباً يطلق عليه العورة وحين يرد في باب الأفعال كما ورد في العبارة فهو يعني إظهار العيب.

٢. «أخذ» وردت هذه الكلمة بمعنى العقاب.

القسم الثاني

وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وإِقْلاَلِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى واعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً، وَلاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً. أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، ووَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

الشرح والتفسير

أفضل الوعظ

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلىٰ نقطة مهمّة من شأنها أن تكون دافعاً قوياً للتقوى آنفة الذكر؛ والتي تكمن في ذكر الموت، فأوصى بصورة عامة إلىٰ ذكر الموت فقال: «وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وإِقْلاَلِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ!».

نعم! فليس هنالك من عقل يسوغ للإنسان الغفلة عن حادثة لابدّ له من الوصول إليها، وعدم الإكتراث للشيء الذي لا أمل في الفرار منه، فالعاقل مَن يقرّ بهذه الحقيقة في أنّ الموت مصير حتمي لجميع الناس، بل الموجودات كافّة، وما أعظم ما قال الشاعر:

كُلُّ ابنُ أُنثىٰ وإنْ طَالتْ سَلامَتُهُ ... يَوماً عَلىٰ آلةِ حَدباءِ مَحمُولُ

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح دقيق يهزّ الأعماق في تفاصيل لحظات الموت خلال ١٢ عبارة صغيرة وعميقة المعنى فقال: «فَكَفَى واعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ».

نعم ! فقد حملوا على أكتاف الناس ليتجهوا بهم صوب موطنهم الأبدي دون رغبتهم وأوردوهم حفرة القبر دون إرادتهم.

ثم كشف عليه السلام عن مصيرهم ببيانه لصفتين فقال: «فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً[1]، وكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً».

إشارة إلىٰ أنّ كلّ شيء ينتهي في لحظة فيبلغ بهم البعد عن الدنيا درجة كأنّهم لم يعيشوا فيها ويقتربوا من الآخرة وكأنّهم عاشوا فيها منذ الأزل.

ثم قال عليه السلام: «أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ».

أجل ! كانوا يشعرون بالوحشة حين يمرون بتلك القبور الهامدة فيشيحون عنها بوجوههم، سيما إن كان مرورهم بالليل، بينما أصبحت الآن وطنهم ولو عادوا اليوم بهذه الحال إلىٰ بيوتهم ومساكنهم لاستوحش منهم الناس وبالعكس سيعيشون هم أيضاً تلك الوحشة ـ إن كان لهم إدراك وشعور ـ.

من جانب آخر فإنّ مشكلتهم الرئيسيّة أنّهم لم يعمروا دار الآخرة واستفرغوا كلّ طاقاتهم في عمران الدنيا حيث وصف ذلك الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه فقال: «وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا».

والأسوأ من ذلك لا مجال هنا لتلافي ما فرط منهم وهذا ما أكّده الإمام عليه السلام بقوله: «لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالا، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً».

فهل لثمار الشجرة إن انفصلت عنها من عودة إليها ومواصلة حياتها ناضجة كانت أم فاسدة ؟ وهل الوليد الذي يخرج من بطن أُمه سواء كان جنيناً كاملاً أم ناقصاً يستطيع العودة إلىٰ رحمها ويواصل نموه ؟ كلا، نعم هذا هو حال أصحاب الدار

---

١. «عمار» جمع «عامر» من مادة «عمارة» و«عمران» معروفة.

الآخرة ليس لهم من سبيل إلىٰ العودة ولذلك تغلق صحيفة أعمالهم وإلى الأبد، فلا يسعهم تلافي سيئة ولا إضافة حسنة، ولعل هذه أعظم مصيبة يفجع بها أصحاب الدنيا الآثمين، وإلّا فإنّ اقترن الموت بالأعمال الصالحة فلا يعدّ مصيبة فحسب بل سعادة ورحمة فهو لا يعني سوى تحطيم القفص وانطلاق الروح الإنسانيّة وتحليقها في الفضاء العلوي، ومن هنا حين نزلت ضربة أشقى الأولين والآخرين عبد الرحمن بن ملجم على رأس مولى المتّقين علي عليه السلام قال: «فُزْتُ ورَبِّ الْكَعْبَةِ».

ثم تناول عليه السلام سبب ذلك البؤس والشقاء فقال: «أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، ووَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ[١]».

نعم ! فالوثوق بالدنيا كالوثوق بالسراب الذي يدعو الإنسان في الصحراء المحرقة نحوه فلا يزيده إلّا عطشاً ويحيل أمله يأساً، أو كالاعتماد على الجدار الرخو الذي ينهار عاجلاً أم أجلاً فيبقى الإنسان تحت أنقاضه.

تأمّل

ذكر الموت

لم يقتصر التأكيد على ذكر الموت ونهاية الحياة على أمير المؤمنين عليه السلام بل هذا ما أكّده اساتذة الأخلاق والهداة إلىٰ الصراط وفي مقدمتهم جميعاً القرآن الكريم بغية إيقاظ الغافلين الموتى في أنّ هذه الحياة زائلة وليست خالدة، فأطفال الأمس هم شباب اليوم وشباب اليوم هم كهول الغد وكهول الغد كأوراق الخريف التي تتساقط برياح الأجل لتلتحق بصفوف الأسلاف.

ويبدو الإلتفات إلىٰ هذه الحقيقة مدعاة لليقظة والاعتبار، فأغلب الناس يجدّون في العمل وكأنّهم مخلدون في هذه الدنيا، والحال ليس هنالك من طمأنينة لاستمرار هذه الحياة ولولساعة أخرىٰ، ويكفي الإلتفات إلىٰ هذه النقطة في انزال

١. «صرعت» من مادة «صرع» على وزن «فرع» بمعنى التمريغ بالتراب.

الإنسان من مركب الغرور وفتح عينه على الحقائق وإنارة الطريق أمامه.

ويبدو ذكر الموت وختام الحياة مفيداً نافعاً حين يتأمّل الإنسان تلك الأحداث التي تواجهه حين الموت والانفتاح على العبارات والأمور التي ركز عليها أمير المؤمنين في هذه الخطبة؛ فالانفصال عن الأعزة، ومغادرة الثروة والقصور والمقامات، والإبتعاد عن الأحبّة، ونزول تلك الحفرة تحت التراب، والأهم من كلّ ذلك غلق صحيفة الأعمال واستحالة تلافي الأخطاء كلّ هذه الأمور تعدّ أعظم واعظ وأفضل ناصح.

ومن هنا جاء في الحديث النبوي الشريف: «إنّ أكْيَسَ الْمُؤْمِنينَ، أكْثَرُهُم ذِكْراً لِلْمَوْتِ وأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْداداً»[١].

وفي حديث آخر أنه ﷺ سئل: «هَلْ يَحْشُر مَعَ الشُّهَداءِ أَحَدٌ» فقال: «نَعَمْ مَنْ يَذْكُر الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ واللَّيْلَةِ عِشْرينَ مَرَّةً»[٢].

ونختتم هذا البحث بحديث ينطوي على الدروس والعبر ورد بهذا الشأن عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «إنّ ابنَ آدَم إذا كَانَ فِي آخِرِ يَوم مِنْ أيّامِ الدُّنيا وَأوّلِ يَوم مِنْ أيّامِ الآخرةِ مَثّلَ لَهُ مَالُهُ وَعَملُهُ وَوُلدُهُ، فَيلتَفت إلىٰ مَالِهِ وَيقولُ: وِاللهِ إنّي كُنتُ عَلَيكَ حَريصاً شَحِيحاً فَما لِي عِندَكَ؟ فَيقُول: خُذْ مِنّي كَفَنَكَ، قَالَ: فَيلتَفِت إلىٰ وُلدِهِ فَيقُول: وَاللهِ إنّي كُنتُ لَكُم مُحبّاً وَعَلَيكُم مُحامِياً فَماذا لِي عِندَكُم، فَيقُولُون: نُؤَدّيكَ إلىٰ حُفرتِكَ وَنُوارِيكَ فِيها، قَالَ فَيلتَفِت إلىٰ عَملِهِ فَيقُول: إنّي وَاللهِ كُنتُ فِيكَ لَزاهِداً وإنْ كُنتَ عليَّ لَثقِيلاً فَماذا عِندَكَ ؟ فَيقُول: أنا قَرينُكَ فِي قَبرِكَ وَيَومَ نَشرِكَ حَتّى أعرض أنا وأنتَ عَلىٰ رَبِّكَ»[٣].

٨٠٠٣

١. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٦٧.

٢. المحجة البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٠.

٣. الكافي، ج ٣، ص ٢٣١، ح ١.

القسم الثالث

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، والَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، ودُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، والْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وأَسْرَعَ الأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشرح والتفسير

سبيل النجاة

كشف الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة سبيل النجاة بعد أن فرغ من التذكير بالموت ونهاية الحياة الدنيا والانتقال السريع إلىٰ عالم الآخرة والحسرة على ما بدر من تقصير واسراف فقال عليه السلام: «فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، والَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، ودُعِيتُمْ إِلَيْهَا».

قطعاً المراد من المنازل منازل الآخرة التي ورد الحث في الآيات والروايات على إعمارها كما ورد الحض على الرغبة فيها والدعوة إليها، حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقال في موضع آخر: ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَى صِرَاط

1. سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

مُسْتَقِيمٍ﴾.[١] وقال في سورة البقرة: ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾[٢].

ثم أشار عليه السلام إلىٰ سبيل آخر من سبل النجاة فقال: «وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، والْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ».

ويمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى إكمال النعم الماديّة الدنيويّة أو إتمام هذه النعم مع زيادة نعم الله الكبرى في القيامة، لأنّ الصبر على الطاعة والإبتعاد عن المعصية بمقتضى الآية الشريفة: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣] سبب زيادة النعم الماديّة والمعنويّة الدنيويّة والأخرويّة، ونعلم أنّ الشكر الحقيقي في أن يستعين الإنسان بنعم الله على طاعته ولا يستغلها أبداً ويتقوى بها على معصيته.

ونقرأ في حديث عن علي عليه السلام أنّه قال: «أَقَلُّ ما يَلْزِمُكُم اللهِ أنْ لا تَسْتَعينُوا بِنِعْمَتِهِ عَلَى مَعاصيهِ»[٤].

ثم قال في الختام كدليل على ما ذكر: «فَإِنَّ غداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وأَسْرَعَ الأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ![٥]».

والمراد من الغد في هذه العبارة إمّا الموت كما قال الشاعر:

عَلَى المَوْتِ إِغْدادُ النُّفُوسِ ولا أرى بَعيداً غَدَاً ما أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِن غَدِ

أو المراد يوم القيامة كما ورد في الخطبة ٢٨: «ألا وإنَّ اليَوْمَ الْمِضمارُ وغَداً السِّباقُ».

ولكن بالإلتفات إلىٰ أنّ جانباً مهمّاً من هذه الخطبة ركز على الموت ونهاية

---

١. سورة يونس، الآية ٤٥

٢. سورة البقرة، الآية ٢٢١

٣. سورة ابراهيم، الآية ٧.

٤. نهج البلاغة، الكلمة ٣٣٠.

٥. «عمر» على وزن «دهل» وعمر على وزن «ظهر» كلاهما بمعنى واحد أي مدّة الحياة، وقال البعض يطلق العمر على الأربعين سنة الأُولى والعمر بضمتين على جميع العمر أو الشق الثاني منه.

الحياة الدنيا وغلق صحيفة الأعمال؛ فالمعنى الأوّل هو الأمثل والعبارات الواردة بشأن سرعة مضي الأيّام والشهور والسنوات والعمر شاهد آخر على هذا المعنى.

والطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام ولتوضيح سرعة مضي العمر انطلق من أجزائه الصغيرة فأشار في البداية إلىٰ سرعة مضي الساعات في اليوم ثم مضي الأيّام في الشهر والشهور في السنة والسنوات في العمر ليتّضح تماماً هذا المرور السريع والحقّ أنّ الأمر كذلك. فأغلب الكهول حين يسألون: كيف مضى عمركم ؟ يجيبون: أسرع من البرق أو كطرفة العين، كأننا بالأمس كنّا نلعب مع الصبية في الأزقة ونسرح ونمرح مع الشباب، ولم نكد ننظر في المرآة حتى طالعتنا علامات الكهولة وبدت واضحة على رؤوسنا ووجوهنا، فضعف البدن وشلت الأعضاء عن الحركة وانحنت القامة وتقطعت الأنفاس.

والحقّ أنّ الخطبة برمتها سيما الجانب الأخير منها تحذير غاية في التأثير لإيقاظ العقول النائمة، قال ابن أبي الحديد في ختام هذه الخطبة: «كَلامٌ شَريفٌ وَجيزٌ بالغٌ في مَعْناه والْفَصْلُ كُلُّه نادِرٌ لا نَظيرَ لَهُ»[1].

ﮪﮫ

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ١٠٠.

١٨٩

ومن كلام له عليه السلام

فِي الإيمانِ ووُجُوبِ الْهِجْرَةِ[1]

نظرة إلىٰ الخطبة

رغم قصر هذه الخطبة إلّا أنّها عظيمة المضامين ومؤلفة من أربعة أقسام، خاض القسم الأوّل في أقسام الإيمان (الإيمان الراسخ والمتقلب) وتطرق الثاني إلىٰ مفهوم الهجرة في الإسلام على أنّها من المفاهيم المستمرة والدائمة، وأشار في القسم الثالث إلى صعوبة إدراك بعض أحاديث المعصومين أو تعذر تحملها، وأخيراً أشار القسم الرابع إلى سعة علمه عليه السلام داعياً الجميع للانتهال من منبعه الفياض قبل فقده.

---

١. سند الخطبة:

روىٰ هذه الخطبة عدد من الأعلام ممّن عاش قبل وبعد السيد الرضي. كما روى بعضها كلّ من المرحوم محمد بن حسن الصفار المتوفىٰ عام ٢٩٠ في بصائر الدرجات والمرحوم الصدوق المتوفىٰ عام ٣٨١ في عيون الأخبار والخصال. ورواها الآمدي في غرر الحكم والثعالبي في الإيجاز والإعجاز باختلاف (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩).

القسم الأوّل

فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ، ومِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ والصُّدُورِ، إِلَى أَجَل مَعْلُوم، فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَد فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ.

الشرح والتفسير

الإيمان الثابت والأجوف

كما أشير سابقاً فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلىٰ أقسام الإيمان الثابت منه وغير الثابت، فقال: «فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ، ومِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ والصُّدُورِ، إِلَى أَجَل مَعْلُوم».

فتقسيم الإيمان إلىٰ ثابت ومستقر وأجوف ومتزلزل وبعبارة أخرىٰ عارٍ ممّا وردت الإشارة إليه في الأخبار والروايات.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[1]: «فَالْمُسْتَقَرّ الإِيمانُ الثابِتُ والْمُسْتَوْدَعُ الْمُعارُ»[2].

وفي حديث آخر عن أبي الحسن عليه السلام في تفسير الآية السابقة: «ما كانَ مِنَ الإيمانِ الْمُسْتَقَرِّ فَمُسْتَقَرٌّ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وأبداً وما كانَ مُسْتَوْدَعاً سَلَبَهُ اللهُ قَبْلَ الْمَماتِ»[3].

---

1. سورة الأنعام، الآية ٩٨.
2. ميزان الحكمة، ج ١، ص ٢٦٥، ح ١٣٥٠.
3. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥١، ح ٢٠٧.

ورغم الاختلاف في تفسير الآية المذكورة؛ ومن ذلك ما قيل أنّ المراد من المستقر أولئك الذين قرّوا في الدنيا من الرحم والمستودع أولئك الذين ما زالوا في الأرحام، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من أن يكون للآية عدّة تفاسير.

على كلّ حال فإن كان للإنسان نفس مطمئنة ورسخ الإيمان في أعماقه كان إيمانه مستقراً ولا يتزلزل مهما تغيرت الظروف وتعرض للترغيب والترهيب؛ بينما يمكن زواله بسهولة إزاء المغريات ما لم يكن راسخاً.

وأسباب تزلزل الايمان متعددة؛ منها عدم الانفتاح على الأدلة المحكمة واتباع الهوى وضعف النفس ومقارفة الذنوب والمعاصي، فكلّ من هذه الأمور قد يزلزل الإنسان آواخر عمره ليغادر الدنيا في خاتمة المطاف بلا إيمان.

والعبارة: «عَوَارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ والصُّدُورِ» كناية عن أنّ الإيمان لم يتسلل لحدّ إلى قلب الإنسان وروحه ولذلك لم يستقر، أشبه بالإنسان الذي يبلغ جدار منزل ولا يدخله. فبالطبع ليس لهذا الشخص من استقرار.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فحذر من البراءة من الأفراد قبل اختتام عمرهم، ذلك لأنّ مصير الإنسان يتّضح آخر عمره؛ فقال عليه السلام: «فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَد فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ».

وعلى هذا الضوء فلا يمكن إصدار الأحكام القطعيّة بحقّ أي شخص، لا بشأن الفرد المؤمن ولا غير المؤمن، لإمكانيّة عودة كلّ منهما آخر الطريق بفعل بعض العوامل المختلفة، وإن كان هنالك من حكم فهو حكم مرحلي ومؤقت.

تأمّل

عناصر ثبات الإيمان

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأوّل من هذه الخطبة المذكورة آنفاً إلى تصنيف الإيمان إلى صنفين مستقر ومتزلزل، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي العناصر

التي تقف وراء زعزعة الإيمان وثباته ؟

وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة إجمالاً. فالكبائر والاستخفاف بالوظائف الشرعيّة لمن دواعي زعزعة الإيمان وسوء العاقبة؛ إلّا أنّ الآيات والروايات أكّدت على أمور معينة، منها:

مجالسة رفاق السوء والمنافقين؛ ففي الآية ٢٨ و٢٩ من سورة الفرقان يُعرب بعض أصحاب النار يوم القيامة عن أسفهم لاتخاذهم بعض الأصدقاء فيقولون: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾.

وفي الآية ٥٦ و٥٧ من سورة الصافات ينادي أحد أصحاب الجنّة صاحبه الضال في جهنم: ﴿تَاللهِ إِنْ كِدْتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عمّا يثبت الإيمان في قلب الإنسان ؟ فقال: «الَّذي يُثْبِتُهُ فيهِ الْوَرَعُ، والَّذي يُخْرِجُهُ مِنْهُ الطَّمَعُ»[١].

وروي عنه عليه السلام أنّه قال: «مَنْ كانَ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوافِقاً فَاثْبُتْ لَهُ الشَّهادَةَ بِالنَّجاةِ ومَنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوافِقاً فَإِنَّما ذلِكَ مُسْتَوْدَعٌ»[٢].

كما بين أميرالمؤمنين علي عليه السلام لكميل سبيل ثبات الإيمان فقال: «يا كُمَيلَ! إِنَّما تَسْتَحِقّ أَنْ تَكُونَ مُسْتَقَراً إِذا لَزِمْتَ الْجادَّةَ الْواضِحَةَ الَّتي لا تُخْرِجُكَ إِلى عِوَجٍ ولا تُزيلُكَ عَنْ مِنْهَجِ ما حَمَلْناكَ عَلَيْهِ وهَدَيْناكَ إِلَيْهِ»[٣].

طبعاً لا تقتصر عناصر ثبات وزعزعة الإيمان على ما ذكر سالفاً، غير أنّها تمثّل أهم تلك العناصر.

---

١. ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٣٥٩.
٢. الكافي، ج ٢، ص ٤٢٠.
٣. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٧٢.

القسم الثاني

وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ. مَا كَانَ للهِ فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الأُمَّةِ ومُعْلِنِهَا. لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَد بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وأَقَرَّ بِهَا فَهُومُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الإِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ ووَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا.

الشرح والتفسير

سلوني قبل أن تفقدوني

أشار الإمامعليه‌السلام في هذا الجانب من الخطبة إلىٰ ثلاثة أمور مهمّة: الأوّل تفسير واضح لمفهوم الهجرة، فنحن نعلم أنّ الهجرة كانت من علامات الإيمان أوائل الدعوة؛ أي أنّ من آمن وكان في سائر المناطق غير المدينة ومنها مكة وجب عليه الإلتحاق بالنّبيصلى‌الله‌عليه‌وآله في المدينة؛ لينهل من تعاليم الإسلام ويشد بحضوره شوكة المؤمنين، إلّا أنّ الهجرة فقدت مفهومها كما يبدو بعد بسط الإسلام لنفوذه على الجزيرة العربية، وعليه فلم يعد من ضرورة لأنّ يلتحق بالنّبي من آمن في سائر المناطق، غير أنّ الهجرة بمفهومها الواقعي أي جوهر الهجرة وروحها ما زال باقياً

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى من الهجرة فقال: «**وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ للهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ**[١] **الْإِمَّةِ وَمُعْلِنِهَا**»[٢].

«إمّة»: بكسر الهمزة في العبارة المذكورة بمعنى (الحالة) وتشير هنا إلى الإيمان، أي الشخص الذي يكتم إيمانه، إلّا أنّ البعض قرأها بضم الهمزة ليصبح معنى العبارة، أولئك الأفراد من الأمّة الإسلاميّة الذين كتموا إيمانهم وأولئك الذين أعلنوه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد هذا البيان الإجمالي إلى شرح معنى الهجرة بكلام رقيق فقال: «**لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَد بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاهَا قَلْبُهُ**»[٣].

وزبدة كلام الإمام عليه السلام أنّ الهجرة باقية في كلّ زمان ومكان على غرار عصر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لكن ليس بمعنى انتقال المؤمن من مكان إلى آخر، بل بمعنى معرفة حجّة الله أي خليفة رسول الله الحقّ، وحسب تعبير الحديث النبوي الشريف معرفة إمام الزمان والإيمان به، سواء حصل هذا الأمر عن طريق الهجرة المكانيّة أو بدونها، فالمهاجر الحقّ من عرف إمام زمانه، لأنّ الهدف من الهجرة الذي يتمثل في معرفة حجّة الله في الأرض قد حصل عليه، ومن لم يكن كذلك فهو مستضعف قد يكون معذوراً وقد لا يكون كذلك.

فأولئك الذين تعذر عليهم السبيل إلى المعرفة هم من الطائفة الأُولى (معذورون) وأولئك الذين أُتيح لهم سبيل المعرفة ولم يغتنموه فهم من الطائفة الثانية (غير معذورين).

---

١. «مستسرّ» من مادة «سرّ» بمعنى الشخص الذي يكتم شيئاً.

٢. طبقاً لما ورد في العبارة فإنّ (ما) في العبارة (ما كان لله...) نافية، إلّا أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة اعتبروها زمانيّة بمعنى (ما دام) وقالوا إنّ مفهوم العبارة هو أنّ الهجرة باقية ما دام الله بحاجة إلى إيمان الناس والحاجة هنا بمعنى الطلب والمراد منها أوامر الله ونواهيه للناس، ولكن يبدو المعنى الأوّل أنسب.

٣. لابدّ من الإلتفات إلى أنّ (إلّا) محذوفة في بعض نسخ صبحي الصالح لكنّها موجودة في النسخ المصححة وليس للعبارة من معنى صحيح بدون (إلّا).

ويطلق «المستضعف» في القرآن والروايات الإسلاميّة على معنيين: الأوّل: الأفراد الذين يعانون من الضيق في الحياة الماديّة كما ورد في الآية ٥ من سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾. هذه الآية إشارة إلىٰ قصة بني اسرائيل والفراعنة وتشير إلىٰ أصل كلّي في باب المستضعفين.

الثاني: الأفراد الذين يعانون من الضيق من الناحية الدينيّة ولا يستطيعون الهجرة من مناطقهم وقد قال القرآن الكريم فيهم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَّدُنْكَ نَصِيراً﴾[1]. فهذه الآية تتحدّث عن مسلمي مكة الذين تعذرت عليهم الهجرة وضيّق عليهم المشركون في أداء مناسكهم الدينيّة بحرية وقد شجع القرآن مسلمي المدينة على إنقاذهم من مخالب المشركين واطلق عليهم اسم الاستضعاف.

ولهذه المفردة معنى ثالث في الروايات حيث يراد بها الشخص العاجز عن تحري الحقّ ومعرفته؛ سواء بسبب الضعف الفكري أو بعده عن مصادر التحقيق. ففي الخبر سئل الإمام الباقرعليه السلام عن المستضعف فقال: «هُو الَّذي لا يَهْتَدى حيلَةً إلَى الْكُفْرِ فَيَكْفُرُ ولا يَهْتَدى سَبيلاً إلى الإيمانِ، لا يَسْتَطيعُ أنْ يُؤْمِنَ ولا يَسْتَطيعُ أنْ يَكْفُرَ»[2].

ومراد الإمامعليه السلام في الخطبة هو المعنى الثالث.

وسنقدم شرحاً وافياً في بحث التأملات بشأن حقيقة الهجرة.

ثم أشارعليه السلام إلىٰ الأمر الثاني فقال: «إنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ[3]، لا يَحْمِلُهُ إلّا عَبْدٌ

---

١. سورة النساء، الآية ٧٥.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٤٠٤، باب المستضعف، ح ١.

٣. «مستعصب» من مادة «صعب» بمعنى المشكل وصعوبة فهم الشيء ومجييء المفردتين صعب ومستصعب مع بعضهما، للتأكيد.

مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلَا يَعِي[١] حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ[٢]».

لقد ورد مثل هذا التعبير في سائر الروايات عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام وربّما يكون إشارة إلىٰ الروايات التوحيدية العميقة المتعلقة بصفات الله الجماليّة والجلاليّة ومقامات النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وأفعالهم في عالم التكوين بإذن الله وشفاعتهم الواسعة لمذنبي الأمّة وعلمهم بالغيب وحوادث المستقبل بتعليم الله تعالى والتي لا يحتملها كلّ شخص؛ ذلك لأنّ أغلب الجهّال يرون صفات الله على غرار صفات المخلوق ويرون النّبي والإمام المعصوم كسائر الناس العاديين، فمن الطبيعي أن لا يتحمل أمثال هؤلاء الأفراد استيعاب تلك الأحاديث، على غرار ما جاء في بعض خطب نهج البلاغة حيث إنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين أشار إلىٰ جانب من الأخبار الغيبيّة اتّهمه بعض الجهّال الذين ضاق عليهم قبول ذلك الكلام بالكذب والعياذ بالله.

وسنتطرق إلىٰ جانب من هذه المقامات في آخر هذه الخطبة وبالتأكيد سوف لن يتحمله الجميع.

والعلاقة بين هذا القسم من الخطبة وما ذكره الإمام عليه السلام بشأن الهجرة أنّ من يهاجر لمعرفة إمام زمانه عليه أن يتحلى بصدر رحب وروح واسعة وفكر رصين ليتسنى له الانتهال من فيض هذه العيون الربانيّة الجياشة.

ثم قال عليه السلام في الأمر الثالث: **«أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ[٣] بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا[٤]،**

---

١. «يعي» من مادة «وعى» على وزن «سعي» بمعنى الفهم والحفظ.

٢. «رزينة» من «رزانة» بمعنى الوقار ورزين بمعنى الشخص الوقور.

٣. «تشغر» من «شغور» على وزن «شعور» لها عدّة معان ومنها الهجوم الذي يناسب العبارة المذكورة ومن معانيهاالرفع ورفع الرجل بمعنى شروع الحركة أي قبل حركة الفتنة.

٤. «خطام» بمعنى «زمام» والعبارة «تطأ في خطامها» كناية عن كون الفتنة كالدابة في ارسالها وطيشها ولا قائد لها.

وتَذْهَبُ بِأَحْلامِ[١] قَوْمِهَا».

هذا الكلام هو الآخر من الأحاديث الصعبة والمستصعبة بشأن مقامات المعصومين التي لا يتحملها الجهّال؛ إلّا أنّ عليّاً عليه السلام قالها كراراً وأجاب كلّ شخص بما سأل.

والجدير بالذكر أنّ هذا الكلام لم يقتصر على مصادر الشيعة بل رواه علماء العامّة أيضاً، قال يحيى بن سعيد بن المسيب حسب نقل الاستيعاب: «ما كانَ أَحَدٌ مِنَ النّاسِ يَقُولُ سَلُوني غَيْرَ عَليٍّ بنِ أبى طالِب رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ»[٢].

كما روى في ذلك الكتاب عن أبي الطفيل قال: رأيت عليّاً عليه السلام خطب وقال: «سَلُوني فَوَاللهِ لا تَسْأَلُونني عَنْ شَئْ إِلّا أَخْبَرْتُكُمْ؛ وسَلُوني عَنْ كِتابِ اللهِ فَوَاللهِ ما مِنْ آيَة إِلّا وأَنَا أَعْلَم أَبِليل نُزِّلَتْ أَمْ بِنَهار أَمْ في سَهْل أَمْ في جَبَل»[٣].

كما ورد عن عبد الله بن عباس في كتاب الاستيعاب أنّه قال: «وَاللهِ لَقد أُعْطِيَ عَليُّ بْنُ أبى طالِب تِسْعَةُ أَعْشارِ الْعِلْمِ وأَيْمُ اللهِ لَقَدْ شارَكَكُمْ فِي الْعُشْرِ الْعاشِرِ»[٤].

ونختتم هذا الكلام بحديث آخر ذكره محمدبن يوسف البلخي في كتابه، فقد روى: أنّ عليّاً عليه السلام خطب الناس فقال: «سَلُوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونى...» سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض، فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له: أين جبرئيل في هذه الساعة. فرمق بطرفه إلىٰ السماء ثم رمق بطرفه إلىٰ المشرق ثم رمق بطرفه إلىٰ المغرب فلم يجد موطناً فالتفت إليه وقال: يا هذا الشيخ أنت جبرئيل. فقال الرجل: بخ بخ لك يا علي بن أبي طالب إنّ الله يباهي بك ملائكته. قال ذلك ثم صفق طائراً من بين الناس[٥].

وضمنياً فإنّ أعلميّته عليه السلام بطرق السماء بالنظر لأهميّتها بالنسبة للأرض.

---

١. «أحلام» جمع «حلم» على وزن «نهم» بمعنى العقل كما وردت بمعنى النوم والرؤيا والمعنى الأوّل هو المراد.

٢. الاستيعاب، ج ٢، ص ٥٠.

٣. المصدر السابق، ص ٥٢.

٤. المصدر السابق، ص ٥٠.

٥. احقاق الحق، ج ٧، ص ٢٦١ وجاءت هذه الرواية مع اختلاف طفيف في بحار الأنوار (من كتاب فضائل شاذان بن جبرئيل) ج ٣٩، ص ١٠٨، ح ١٣.

تأمّل

الهجرة في الإسلام

نعلم أنّ التاريخ الإسلامي كتب على أساس الهجرة أي أنّ المسلمين لم يعتمدوا ميلاد النّبيﷺ كمبدأ للتاريخ ولا بعثته، بل جعلوا المبدأ عام الهجرة وهذا يدل على أنّ أهم فصل في حياة المسلمين كان الهجرة، والواقع أنّ الهجرة هي التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ الإسلام لتكون انطلاقة للحكومة الإسلاميّة وتقدم المسلمين في جميع المجالات.

فالوسط المكي لم يستطع استيعاب الرسالة بصورة تامة رغم الدعوة النبويّة التي استمرت ثلاث عشرة سنة، لأنّ زعماء قريش الطغاة سعوا للقضاء على كلّ حركة تهدد كيانهم في مهدها؛ حيث كانوا يرون الوثنية راعية لمصالحهم والتوحيد خطراً عليها؛ إلّا أنّ النّبي الأكرمﷺ أعدّ خلال هذه الفترة طائفة من الفتية المخلصين فأوفدهم إلىٰ المدينة قبل أن يهاجر إليها ثم التحقت بهم صفوة من أهل المدينة فاتفقوا وتعاهدوا حتى قدم رسول الله فاستقبل هنالك وأخذ ينشر الإسلام بكلّ حرية وتمكن من بناء مسجد.

واستمرت الهجرة كفريضة إلهية؛ أي أنّ كلّ فرد كان يعتنق الإسلام وأينما كان في الجزيرة العربية ينبغي عليه الإلتحاق بالمدينة وشد ظهور المسلمين، أمّا أولئك الذين لم يهاجروا فلم يشملوا بالولاية الإسلاميّة حسب النص القرآني الصريح ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾[1].

ويبدو أنّ موضوع الهجرة قد انتهى إبان فتح مكة وبسط نفوذ الإسلام على جميع المنطقة، ولم يُعتبر الأفراد الذين قدموا إلىٰ المدينة من مكة بعد ذلك التاريخ من المهاجرين حيث ورد في الحديث النبوي الشريف: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّة»[2].

---

١. سورة الانفال، الآية ٧٢.

٢. كنز العمال، ح ٤٦٢٥١.

ثم اتسع مفهوم الهجرة فأصبح المهاجر مَن يغادر بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام، كما يعتبر من زمرة المهاجرين مَن يهجر منطقة إلىٰ أخرىٰ لدفع شر خصوم الدعوة، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «أَيُّها النّاسُ هاجِرُوا وتَمَسَّكُوا بِـالأِسْلامِ فَإِنَّ الْهِجْرَةَ لا تَنْقَطِعُ مادامَ الْجِهادُ»[1].

ثم تجاوزت الهجرة هذا المعنى لتشمل الهجرة الباطنيّة والمعنويّة بالإضافة إلىٰ الهجرة المكانيّة والخارجيّة، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «وَالْمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطايا والذُّنُوبَ»[2].

كما ورد عن علي عليه السلام أنّه قال: «يَقُولُ الرَّجلُ هاجَرْتُ ولَمْ يُهاجِرْ إنّما الْمُهاجِرُونَ الَّذينَ يَهْجُرُونَ السَّيِّئاتِ ولَمْ يَأْتُوا بِها»[3].

وعلى هذا الضوء فمن يهاجر من مكان إلىٰ آخر دون أن تكون له هجرة معنوية وباطنيّة، أي لا يبتعد عن الذنوب والمعاصي، فهو ليس في زمرة المهاجرين الواقعيين.

ويبدو دليل هذا الاتساع في مفهوم الهجرة واضحاً، لأنّ روح الهجرة وجوهرها الانتقال من الكفر إلىٰ الإيمان ومن المعصية إلىٰ الطاعة.

ومن هنا يدخل في دائرة الهجرة مَن عرف إمام كلّ زمانه ثم سارع إلى الإلتحاق به لنيل المعارف الدينيّة كما ورد في الخطبة.

---

١. كنزالعمال، ح ٦٤٢٦٠.

٢. ميزان الحكمة، ج ١١، ح ٢١٠٦٥.

٣. سفينة البحار، مادة هجرة.

١٩٠

ومن خطبة له عليه السلام

يَحْمَدُ اللهَ ويُثْني عَلى نَبِيِّه ويَعِظُ بِالتَّقْوى[1]

نظرة إلى الخطبة

تعدّ هذه الخطبة من أبلغ خطب أمير المؤمنين عليه السلام وتتكون من عدّة أقسام:

القسم الأوّل: في حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوة والرسالة وتطرق وتطرق فيها لنصره صلى الله عليه وآله على أعدائه بلطف الله.

القسم الثاني: تضمّن التأكيد على مسألة التقوى، فقد دعى الجميع إلى الاستعداد لسفر الآخرة والحديث عن نهاية الحياة وخطورة الموت والحوادث التي تعقبه.

القسم الثالث: الحديث عن المصير المشرق للصالحين في الدار الآخرة ونعم الجنّة العظيمة والسكينة التامة والثواب الأُخروي العظيم الخالد ضمن التأكيد على

---

١. سند الخطبة:

قال ابن أبي الحديد: وأعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خطبه ومن ناصح كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائعة المستحسنة البريئة من التكلّف ما لا يخفى. وقد أخذها ابن نباتة فأودعها خطبه وشذر بها كلامه. وقال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد نقله لهذا الكلام: فلو لم يكن ابن أبي الحديد اطلع عليها في غير نهج البلاغة لم يقل إنّها من أعيان خطبه مع ملاحظة أنّ ابن نباتة توفي سنة ٣٧٤ هجري أي قبل صدور نهج البلاغة. وروى الآمدي من هذه الخطبة في غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣).

تقلب الدنيا وشرح العذاب الأخروي الذي ينتظر المجرمين في الآخرة.

القسم الرابع: عاد الإمام عليه السلام إلى ما بيّنه في القسم الثاني من الخطبة ليحث الجميع بعبارات جديدة على التأهب للرحيل إلىٰ عالم الآخرة.

القسم الخامس وهو القسم الأخير من الخطبة: خاطب فيه الإمام عليه السلام أصحابه وحذرهم من التسرع والقيام بالنهضات غير المجدية والقرارات الساذجة بغية نيل الشهادة وأمثال ذلك، وصرّح بأنّ الشهادة ستكون من نصيب من سار على الطريق المستقيم وإن مات على فراشه.

القسم الأوّل

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعامِهِ، وأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ.

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ؛ لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، والْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ.

الشرح والتفسير

نبي الرحمة والجهاد

استهل الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بحمد الله والثناء عليه فقال: «أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعامِهِ، وأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ؛ عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ[1]».

التعبير بـ «الوظائف والحقوق» لعله إشارة إلىٰ الواجبات الدينيّة كالصوم والصلاة والخمس والزكاة التي لا تتمّ بصورة كاملة إلّا بتوفيق الله، ويمكن أن تكون إشارة إلىٰ حقوق الله التي تفرزها نعمه كنعمة الأذن والعين والعقل والفتوة والمعافاة والتي يتطلب كل واحدة منها شكراً.

ثم خاض في الشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة وبعض صفاته فقال: «وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ؛ لَا يَثْنِيهِ[2] عَنْ ذلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، والْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ».

---

١. «مجد» بمعنى الشرف والجلال والوقار والعظمة، وهذه الصفة تختص بصورة تامة بالله تعالى.

٢. «يثنيه» من مادة «ثنو» على وزن «سعي» تعني في الأصل طي الخبر وحين تقترن بالعطف على وزن «كتف» بمعنى طي الضلع وهي كناية عن الانصراف عن الشيء وعدم الاهتمام به.

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبته إلىٰ نقطتين مهمتين في سيرة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ الأولىٰ، أنّه منتصر دائماً في قتاله لأعدائه، وهـذا دليـل واضـح عـلى زعامته صلى الله عليه وآله وخططه في مواجهة الأعداء وخصوم الدعوة، إلىٰ جانب الإمداد الغيبي والعناية الإلهيّة.

والأخرىٰ، أنّ اتحاد الأعداء ووقوفهم بوجهه لم يؤثر على عـزمه وإرادتـه صلى الله عليه وآله ويصرفه عن دعوته، فكان يحث الخطى ـ بصبرٍ على المصاعب ـ نحو هدفه حتى بلغه.

ومن الحوادث التاريخية المعروفة عندما جاء رؤوساء قريش إلى أبـي طـالب وأرادوا أن يكلّموا النبي صلى الله عليه وآله وقالوا له: يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهّت الأحلام، وفرّقت الجماعة.. فإن كـنت إنّـما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا التي يأتيتك رئياً تراه قد غلب عليك ـ وكان يسمّون التابع من الجن رئياً ـ فربّما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك مـنه، فقال لهم: «ما جِئتُ بِما جِئتُكُم بِهِ أطلبُ أموالَكُم ولا الشّرف فِـيكُم، ولا المُـلك عليكُم، ولكنّ الله بَعَثَنِي إِلَيكُم رَسُولاً، وَأَنزَلَ عَلَيَّ كِتاباً، وَأَمرنِي أنْ أكُونَ لَكُم بَشِيراً ونَذِيراً، مُبَلِّغُكُم رِسالاتِ رَبّي ونَصحتُ لَكُم، فإنْ تَقبَلُوا مِنّي ما جِـئتُكُم بِـهِ فَـهَو حَظّكُم فِي الدُّنيا وَالآخرةِ، وإنْ تَردُّوهُ عَلَيَّ أصبِر لأمرِ اللهِ حَـتّى يَـحكُمَ اللهُ بَـيني وَبَينَكُم»[1].

وكذلك عندما جاء روءساء قريش إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد آتيناك تقضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنّه سفّه أحلامنا، وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب

١. سيره ابن هشام، ج ١، ص ٣١٧.

رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك، فقال: «مَاذا يَسألُونَني؟»، قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وآلهك، فقال: «أتُعطُونني كلِمَةً واحدَةً تَملِكُونَ بِها العربَ والعَجمَ؟»، فقال له أبوجهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: «قُولُوا: لا إله إلّا الله»، فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1].

وروي أنّ النبي ﷺ استعبر ثم قال: «يا عَمّاهُ لَو وُضِعَتِ الشَّمسُ في يَميني والقَمَرُ في شِمالي ما تُرِكَ هذا القَوْلُ حَتّى أنفَذَهُ أو أُقتَلَ دُونَهُ»، فقال له أبوطالب: امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً[2].

---

١. سورة ص، الآية ٥.

٢. انظر: بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٤٣؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٧.

القسم الثاني

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ. وبَادِرُوا الْمَوْتَ وغَمَرَاتِهِ، وامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ فإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ؛ وكَفَى بِذلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، ومُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ! وقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الأَرْمَاسِ، وشِدَّةِ الإِبْلاَسِ، وهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، ورَوْعَاتِ الْفَزَعِ، واخْتِلاَفِ الأَضْلاَعِ، واسْتِكَاكِ الأَسْمَاعِ، وظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وخِيفَةِ الْوَعْدِ، وغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

الشرح والتفسير

الأهوال القادمة

خاض الإمام عليه السلام بعد حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، في موضوع مهم ومصيري في حياة الإنسان ألا وهو التقوى فقال: «فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلاً[1] مَنِيعاً[2] ذِرْوَتُهُ[3]».

فالواقع أنّ عالم الدنيا بمنزلة البئر الذي يتعذر الخلاص من مخاطره سوى من خلال التمسك بحبل متين ألا وهو التقوى، ثم شبّه التقوى بالحصن الحصين حيث ينجو مَن تحصّنَ فيه من الأخطار أو كقمة الجبل المنيعة وعلى هذا الأساس فإنّ التقوى وسيلة للنجاة من حضيض الذلّة إلىٰ ذروة السعادة والعزّة كما أنّها الدرع الذي يقي الإنسان عواصف الشهوات والهوى والهوس.

---

١. «معقل» بمعنى الملجأ والجبل المرتفع من العقل بمعنى المنع.

٢. «منيع» من «منع» بمعنى الأصم الصعب المنال والبرج العالي.

٣. «ذروته» تطلق على قمة الجبال والجانب المرتفع من كلّ شيء.

ثم تعرض الإمام عليه السلام إلىٰ أهم وسائل العبرة والعظة فرسمها بصورة دقيقة ومعبرة فقال: «وبَادِرُوا الْمَوْتَ وغَمَرَاتِهِ،[١] وامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ: فإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ؛ وكَفَى بِذلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، ومُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ!».

فمن الطبيعي أنّه ينبغي للشخص المقبل على سفر مليىء بالأخطار والذي لا عودة فيه، من التأهب التام له وتوفير جميع السبل التي تلزم للمسير إليه وهو السفر المعروف بسفر الآخرة الشاق، وممّا لا شك فيه أنّه ليس هنالك أي خشية أو قلق إن اتجه الإنسان إليه بصحيفة أعمال مليئة بالحسنات وخالية من السيئات، وهنا خاض الإمام عليه السلام في ذكر جانب من الحوادث المريرة للموت والقبر فقال: «وقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الأَرْمَاسِ[٢]، وشِدَّةِ الإِبْلاَسِ[٣]، وهَوْلِ الْمُطَّلَعِ[٤]، ورَوْعَاتِ[٥] الْفَزَعِ، واخْتِلاَفِ الأَضْلاَعِ[٦]، واسْتِكَاكِ[٧] الأَسْمَاعِ، وظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وخِيفَةِ الْوَعْدِ، وغَمِّ الضَّرِيحِ[٨]، ورَدْمِ[٩] الصَّفِيحِ[١٠]».

بالإلتفات إلىٰ أنّ الموت لا يعني لنا انتهاء كلّ شيء حيث تبقى الروح بعد الموت تعيش الحياة الأخرىٰ الخالدة، فإنّ القبور الضيقة والمظلمة مقارنة بالبيوت الواسعة والجميلة تبدو غاية في الوحشة إلىٰ جانب القلق المتعلق بضغطة القبر والخوف من

---

١. «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» بمعنى إزالة آثار الشيء، ثم أطلقت هذه المفردة على ما يغطي تمام وجه الأرض، ووردت في هذه الخطبة بمعنى غمرات الموت وشدائده التي تستولي على تمام وجود الإنسان.

٢. «أرماس» جمع «رمس» بمعنى القبر والتراب وهذا هو المعنى المراد بها أي القبر.

٣. «إبلاس» تعني في الأصل الحزن الذي يصيب الإنسان في أوقات الشدّة.

٤. «مطلع» تعني في الأصل الموضع المرتفع ثم اطلق على مواقف يوم القيامة أو عالم البرزخ الذي يطلع فيه الإنسان على نتيجة أعماله.

٥. «روعات» جمع «روع» بمعنى الخوف.

٦. «اضلاع» جمع «ضلع» المواضع جوانب الصدر.

٧. «استكاك» من مادة «سك» بمعنى سدّ الشيء واستكاك الاسماع صممها على أعتاب الموت.

٨. «ضريح» القبر أو اللحد في وسط القبر.

٩. «ردم» غلق الشيء كما تطلق على السد الكبير وملْ الحفرة بالتراب.

١٠. «الصفيح» الحجر العريض.

المستقبل وفقد الأعزّة والأحبّة والشعور بالوحدة المطلقة وتآكل أعضاء الجسم تحت التراب وبالتالي الانتقال من الوسط الهادىء والمرفه إلىٰ الوسط المرعب، كلّ ذلك من الأمور التي يهتز لها الإنسان لمجرّد التفكير بها فيحذر الإمام عليه السلام من ضرورة التأهب لمثل هذا السفر الشاق والمليىء بالأخطار.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام جسّد لمخاطبيه بهذه العبارات العشر الفصيحة والبليغة كلّ الأمور ذات الصلة بالموت والقبر وكأنّهم يرونها عياناً؛ وهي الأمور التي ينتظرها الجميع دون استثناء والتفكير فيها ينتشل الإنسان من نوم الغفلة مهما كانت عميقة فيوقظه ويجبره على إصلاح أعماله وأقواله.

ولعل هذا هو السبب في ما ورد من الوصايا الإسلاميّة التي توصي بوضع الميت على الأرض قبل وضعه في قبره حين يحمل إليه والتريث مدّة ثم التقدم ووضعه ثانية على الأرض والصبر مدّة أخرىٰ وهكذا حتى يرد ذاك الموضع الموحش[1].

٭٭٭

١. وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٨٣٨، وكتاب الطهارة، أبواب الدفن، باب ١٦، ح ٦.

القسم الثالث

فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَن، وأَنْتُمْ والسَّاعَةُ فِي قَرَن. وكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، ووَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاَزِلِهَا، وأَنَاخَتْ بِكَلاكِلِهَا، وانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْم مَضَى، أَوشَهْر انْقَضَى، وصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وسَمِينُهَا غَثّاً. فِي مَوْقِف ضَنْكِ الْمَقَامِ، وأُمُور مُشْتَبِهَة عِظَام، ونَار شَدِيد كَلَبُهَا، عَال لَجَبُهَا، سَاطِع لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّج سَعِيرُهَا، بَعِيد خُمُودُهَا، ذَاك وُقُودُهَا، مَخُوف وَعِيدُهَا، عَم قَرَارُهَا، مُظْلِمَة أَقْطَارُهَا، حَامِيَة قُدُورُهَا، فَظِيعَة أُمُورُهَا. (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً) قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وانْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، واطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، ورَضُوا الْمَثْوَى والْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وكانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً واسْتِغْفَاراً؛ وكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً، تَوَحُّشاً وانْقِطَاعاً. فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، والْجَزَاءَ ثَوَاباً، (وكانُوا أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا) فِي مُلْك دَائِم، ونَعِيم قَائِم.

الشرح والتفسير

أهوال المحشر!

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من التذكير بالموت وشدائده حتى حث الجميع على الاستعداد والتأهب لهذا السفر الخطير والمرعب فتحدث بعبارات رائعة عن بداية القيامة واختتام الدنيا فقال: «فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى

سَنَن[١]، وأَنْتُمْ والسَّاعَةُ فِي قَرَن[٢]. وكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا[٣]، وأَزِفَتْ[٤] بِأَفْرَاطِهَا[٥]، ووَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلازِلِهَا، وأَنَاخَتْ[٦] بِكَلاَكِلِهَا[٧]».

العبارة: «وأَنْتُمْ والسَّاعَةُ فِي قَرَن» وبالإلتفات إلىٰ أنّ القرن هو الحبل الذي يربط به البعيران، إشارة إلىٰ أنّ المسافة بينكم وبين القيامة ليست بعيدة، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلىٰ القيامة الصغرى أي الموت أو القيامة الكبرى بمعنى يوم القيامة، ذلك لأنّ عمر الدنيا مهما كان فهوقليل ولابدّ أن تحل القيامة، والفارق بين العبارة «وكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا» والعبارة «وأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا» هو أنّه قال في العبارة الأُولىٰ قد جاءت علامات الآخرة بينما تطرق في العبارة الأخرىٰ إلىٰ توفر مقدماتها.

وذهب البعض إلىٰ أنّ العبارة «وأَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا» إشارة إلىٰ مصاعب القيامة، فالبعير حين ينام ويلصق صدره بالأرض يقذف بثقله على الأرض، لكن لا يبعد أن تكون إشارة قضية الموت والقيامة كالناقة التي تنام على عتبة أبواب الجميع. كناية عن أنّ أحداً؛ لا ينجو منه.

ثم قال بشأن أوضاع الدنيا: «وانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا[٨]، فَكَانَتْ كَيَوْم مَضَى أَوشَهْر انْقَضَى، وصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً[٩]، وسَمِينُهَا غَثّاً[١٠]».

نعم، فأولئك الذين كانت أعمارهم قصيرة كأنّها بمثابة يوم ومن عمّر طويلاً

---

١. «سنن» بمعنى الطريق والأسلوب وتطلق على الجادة أيضاً.

٢. «قرن» ما يقرن به البعيران.

٣. «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامات.

٤. «ازفت» من مادة «ازف» على وزن «شرف» بمعنى قربت.

٥. «افراط» جمع «فرط» على وزن «شرط» جبل صغير وعلامة والمراد بها هنا المعنى الثالث.

٦. «أناخت» من «أناخ» بمعنى نوم الدابّة.

٧. «كلاكل» جمع «كلكل» بمعنى الصدر.

٨. «حضن» بمعنى الصدر.

٩. «رث» بمعنى قديم.

١٠. «غث» بمعنى المهزول ويقابل السمين.

فكأنّه عاش شهراً.

العبارة: «أَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا» إشارة إلىٰ أنّ الدنيا أخذتهم مدّة بأحضانها ثم رمتهم إلىٰ الموت وتشير العبارات «صَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثًّا» إشارة إلىٰ تقلب جميع نعم الدنيا فالجديد يصبح قديماً ويزول والسمان يضعفون ويودعون هذا العالم.

ثم واصل عليه السلام كلامه عن وضع الإنسان في نهاية الدنيا ليخوض في مواقف القيامة وكان هنا كلام مقدر وربّما لم يورد السيد الرضي بعض العبارات على طريقته في الاقتطاف ليصف العصاة الظلمة حين يردون المحشر ويرون ذلك المشهد المرعب فقال: «فِي مَوْقِف ضَنْكِ[1] الْمَقَامِ، وأُمُور مُشْتَبِهَة عِظَام، ونَار شَدِيد كَلَبُهَا[2]، عَال لَجَبُهَا[3]، سَاطِع لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّج[4] سَعِيرُهَا، بَعِيد خُمُودُهَا، ذَاك[5] وُقُودُهَا، مَخُوف وَعِيدُهَا، عَم[6] قَرَارُهَا، مُظْلِمَة أَقْطَارُهَا، حَامِيَة قُدُورُهَا، فَظِيعَة أُمُورُهَا».

يشير التعبير بالموقف إلىٰ مشهد القيامة أو مشهد جهنّم، بقرينة الصفة التي جاءت بعد ذلك وجدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام بيّن بهذه العبارات والصفات الاثنتي عشرة التي وصف بها نار جهنم جميع هذه الاعجازات الإلهيّة بدقّة متناهية وفصاحة تامة بحيث يقضّ مضاجع الآثمين.

النار المحرقة والخطيرة، النار الشديدة اللهيب والتي تتداعى منها تلك الأصوات الرهيبة بفعل ما يحدث فيها من انفجارات، فهي لا تخمد أبداً ودخانها كثيف وقاتل تلتهم كلّ ما حولها بحيث تحيل النهار الواضح إلىٰ ظلمة مطلقة.

---

١. «ضنك» بمعنى الشدّة والضيق.

٢. «كلب» بمعنى عضّة الكلب ثم استعملت في كلّ انزعاج وشدّة.

٣. «لجب» بمعنى اضطراب الأمواج.

٤. «متأجج» من مادة «أجيج» بمعنى إشعال النار المقرون بالصوت.

٥. «ذاك» من مادة «ذكاء» على وزن «دواء» بمعنى إشتد لهيبها وحرارتها.

٦. «عم» صفة مشبهة تعني العمي من مادة «عمى» على وزن «جفا».

فالإمام عليه السلام يشير إلىٰ هذه الصفات وكأنّه يراها بأُم عينيه خلف حجب الغيب.

ثم خاض عليه السلام في أوضاع أهل الجنّة فرسم لها صورة دقيقة بما يؤجج نيراناً من الشوق في قلوب المؤمنين فقال مستشهداً بالآية الكريمة: «﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً[1]﴾: قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وزُحْزِحُوا[2] عَنِ النَّارِ، واطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، ورَضُوا الْمَثْوَى والْقَرَارَ».

حيث أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلىٰ خمسة امتيازات عظيمة لهذه الطائفة الورعة من أصحاب الجنّة والتي يمكن خلاصتها في السكينة والطمأنينة المطلقة حيث الأمان من العذاب وغياب العتاب وابتعاد عن النار والاستقرار التام في الجنّة والرضا بهذه العاقبة.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح جانب من أعمال هذه الفئة فقال: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وكانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً واسْتِغْفَاراً؛ وكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً، تَوَحُّشاً وانْقِطَاعاً».

حيث رسم الإمام عليه السلام بهذه الصفات الأربع مقامهم الرفيع بأجمل الصور ليعتبره العنصر الذي جعلهم من أصحاب الجنّة.

فمن جانب كانت أعمالهم في الدنيا طاهرة ونقية عن الرياء والعجب والفخر، وكانت أعينهم باكية من خشية الله وعلى مصاب المظلومينَ من عباد الله، ومن جانب آخر كانوا ينقطعون في الليل للتهجد والعبادة والخشوع والخضوع والاستغفار كما كان نهارهم ليلاً بسبب ابتعادهم عن أهل الدنيا والتنازع على المتع الماديّة فلا يعيشون سوى الانقطاع إلىٰ الله، نعم هذه هي صفات أصحاب الجنّة من ذوي المقامات الرفيعة والسعداء من أصحاب النجاة فاستحقوا بذلك تلك الدرجات، ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، والْجَزَاءَ ثَوَاباً، ﴿وكَانُوا

---

١. «زمر» جمع «زمرة» على وزن «عمرة» طائفة صغيرة.

٢. «زحزحوا» من مادة «زحزح» على وزن «قهقهة» بمعنى الإبعاد.

أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا﴾[1] فِي مُلْك دَائِم، ونَعِيم قَائِم».

وعلى هذا الضوء فقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ أهليتهم واستعدادهم بالإضافة إلىٰ أجرهم وثوابهم العظيم، فقد حاربوا هوى أنفسهم مدّة قليلة وأثبتوا أهليتهم ورفعة مقامهم من خلال عبادتهم لربهم وخشيتهم منه وسهرهم الليالي بالعبادة وإخلاصهم لله تعالىٰ فأفاض الله الجواد الكريم عليهم عظيم أجره وثوابه الذي يفوق تلك الأعمال والذي لا يعرف من معنى للزوال والفناء.

ΣΟΘ

١. سورة الفتح، الآية ٢٦.

القسم الرابع

فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ. وبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، ومَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلاَ رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلاَ عَثْرَةً تُقَالُونَ. اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وطَاعَةِ رَسُولِهِ، وعَفَا عَنَّا وعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير

الاستعداد للرحيل

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في بيانه لمصير الطالحين والصالحين حين الموت وفي القيامة، مطلباً يؤدّي إلىٰ النجاة والتوفيق حين الموت والعرض على الله فقال: «**فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ**[1]».

من الواضح أنّ عبارة الإمام عليه السلام البليغة هذه إشارة إلىٰ التقوى والعمل الصالح الذي يدعو إلىٰ الفلاح بينما يدعو التولي عنه إلىٰ الفشل والخسران كما صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[2].

ثم واصل كلامه في الحديث عن قصر عمر الإنسان وذمّ التعويل على ما بقى منه

---

١. «مبطل» من مادة «بطلان» بمعنى إبطال الحق.

٢. سورة النور، الآية ٥٢.

والإبهام الذي يحيط بلحظة الموت فدعى الجميع لادّخار العمل الصالح والمسارعة للخيرات فقال: «وبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، ومَدِينُونَ[١] بِمَا قَدَّمْتُمْ».

يا له من تعبير رائع (التعبير بالرهن والدين) بالنسبة للذنوب السالفة وكأنّ الذنوب تطوق عنق الإنسان كدين ليكون بمنزلة المرهون بكلّ كيانه إزاء هذا الدين فلا ينفك عنه ما لم يتب ويبادر إلىٰ تلافي ما فرط منه بالعمل الصالح، الأمر الذي أكّده القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢].

ورد في الحديث النبوي الشريف (الخطبة الشعبانيّة في أهميّة شهر رمضان): «أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمالِكُمْ فَفُكُّوها بِاسْتِغْفارِكُمْ»[٣].

ثم حذر الجميع فقال: «وكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلاَ رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلاَ عَثْرَةً تُقَالُونَ[٤]».

فالحقيقة هي أنّ الإمام عليه السلام يشير إلىٰ هذه النقطة وهي أنّ الموت يمكن أن يأتي الإنسان في كلّ حادثة لا سيما أننا نرى موت الفجأة أثر السكتة القلبيّة أو سائر حوادث الموت الذي لا عودة فيه والتي تعجز أمامه جميع الأسباب الظاهريّة، ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بدعاء قصير وجامع فقال: «اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وطَاعَةِ رَسُولِهِ، وعَفَا عَنَّا وعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

---

١. «مدينون» من مادة «دين» بمعنى الجزاء ويقال المدينون لمن جُوزوا على عمل قاموا به.

٢. سورة المدثر، الآية ٣٨.

٣. وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٢٢٧، ح ٢٠، الباب ١٨ من أبواب حكم شهر رمضان.

٤. «تقالون» من مادة «إقالة» بمعنى الإعادة وتعني هنا قبول العذر.

القسم الخامس

إلْزَمُوا الأَرْضَ، واصْبِرُوا عَلَى الْبَلاَءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وهُوعَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وحَقِّ رَسُولِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، ووَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، واسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاَتِهِ لِسَيْفِهِ؛ فإِنَّ لِكُلِّ شَيءٍ مُدَّةً وأَجَلاً.

الشرح والتفسير

لكلّ شيء أجل ومدّة

خاطب الإمامعليه السلام في القسم الأخير من هذه الخطبة أولئك الذين يتطلعون إلىٰ الشهادة بفارغ الصبرودون تروٍ ويتعجلون في مواجهة العدو بعيداً عن تخطيط الإمامعليه السلام فقال: «إلْزَمُوا[1] الأَرْضَ، واصْبِرُوا عَلَى الْبَلاَءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ».

فكما أنّ هنالك من يتهرب من الجهاد في سبيل الله، هنالك من يتعجل ويبغي الشهادة قبيل أوانها، ورغم أنّ نيّات هؤلاء الأفراد مقدسة لكن الأعمال التي لا تخضع للتخطيط وتسبق أوانها تنطوي على العديد من الأخطاء والانعكاسات السلبيّة.

ومن هنا نهى الإمامعليه السلام عن مثل هذه الأفعال ثم قال بصيغة دليل لما ذكر: «فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وهُوعَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وحَقِّ رَسُولِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ

1. «الزموا» من «لزوم» بمعنى الملازمة والعبارة إلزموا الأرض الأمر بالتوقف والسكون.

شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، واسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاَتِهِ[١] لِسَيْفِهِ».

واختتمها بالعبارة: «فإِنَّ لِكُلِّ شَيءٍ مُدَّةً وأَجَلاً».

وتبدو هذه العبارة مجدية في كلّ عصر وزمان وتشكل رداً حاسماً على المتسرعين من الأفراد من ذوي النيات الطاهرة الذين ربّما يعشقون الجهاد والشهادة لكنهم لا يميزون الوقت المناسب من غير المناسب فهم يتحرقون على الدوام ويمارسون بعض الضغوط على زعامتهم إلّا أنّ الزعيم الحكيم من لا يستجيب للضغوط ولا يتعجل النتائج، لكنه يبشرهم بأنّ الله سيثيبهم على تلك النيات إن كانوا صادقين في دعواهم وإيمانهم بالمبدأ والمعاد والنّبيﷺ وأهل بيته عليهم السلام فسيحصلون لا شك على ثواب المجاهدين في سبل الله والشهداء ولا يصدق هذا الكلام على الجهاد والشهادة فحسب بل يشمل جميع أفعال الخير التي ينبغي ممارستها في وقتها المناسب، وقد وردت مثل هذه العبارة في الخطبة الخامسة من نهج البلاغة بتعبير آخر إذ قال: «ومُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْت ايناعِها كَالزّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ».

ويصدق هذا الكلام على عصرنا وزماننا إذ إنّ هنالك طائفة تسعى لمواجهة المنافقين في الداخل والأعداء في الخارج دون التطلع إلىٰ الفرصة المناسبة والتخطط الدقيق، أو تعيش حالة من الانتظار الممل لظهور الإمام المهدي عليه السلام والقتال بين يديه والذي يقال لجميع هؤلاء إنّ الله سيعطيكم أجر المجاهدين والشهداء إن صدقتم في إيمانكم وأخلصتم في نيّاتكم.

تأمّل

الثورات المتعجلة

قد يضيق البعض ذرعاً في المجتمعات التي تعيش حالة من المعاناة بفعل العدو

---

١. «اصلات» بمعنى سل السيف.

الداخلي أو الخارجي فيعمد إلىٰ القيام بالثورة في غير وقتها، الأمر الذي لا يؤدّي إلىٰ فشل تلك الثورة فحسب بل يوقظ العدو ويسلب زمام المبادرة في المستقبل، وهذه إحدى المعضلات التي تواجه القيادات الحكيمة.

وقد حفل تاريخ التشيع بالعديد من هذه الثورات المتعجلة عقب واقعة كربلاء والتي جوبهت بالنهي من جانب الأئمّة عليهم السلام، مع ذلك فقد التحق بها بعض من اشياعهم المخلصين.

والقضية المهمّة هي أنّ الثورة ضد العدوبغية القضاء عليه تتطلب العديد من الشروط التي يسعى القائد الحكيم لتوفرها جميعاً لتفضي الثورة إلىٰ نتائجها المتوخاة منها.

فالقائد عادة يرى ما لا يراه الفرد العادي ويتمتع بسعة افق تجعله يرى ويفكر في ما خلف هذا الواقع، والذي تفيده هذه الخطبة أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام ورغم كونه أعظم بطل ومجاهد في الإسلام قد عانى من مثل هؤلاء الأفراد إلىٰ جانب أولئك المتقاعسين عن الجهاد.

فقد عانى في الواقع من افراط وتفريط هاتين الطائفتين.

فبعض الأفراد لا يكاد يسمع الآيات والروايات الواردة في مقام الشهداء وثواب الشهادة ودعوة الناس لهذا المضمار حتى يعيشوا حالة عجيبة من عشق الشهادة، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يريهم أفضل سبيل والذي تلخص في نصحهم عدم الاستعجال واليقين بأنّ الله سيعطيهم أعظم الأجر والثواب إن صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في نيّاتهم.

١٩١

ومن خطبة له عليه السّلام

يَحْمَدُاللهَ ويُثْنى عَلى نَبِيِّهِ ويُوصى بِالزُّهْدِ والتَّقْوى[١]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: في حمد الله والثناء عليه المقرون بذكر النعم وجانب من صفات الجلال والجمال، ثم الشهادة للنّبي ﷺ بالرسالة وتوضيح الظروف التي بعث فيها النّبي وهداية الأمّة.

القسم الثاني: الحديث عن التقوى وبركاتها والوصيّة بالتمسك بهذه العروة الإلهيّة في جميع شؤون الحياة.

القسم الثالث: تحذير أصحاب الدنيا من الغرور بها والكشف عن الدنيا وعيوبها ليعتبر بذلك الآخرون.

---

١. **سند الخطبة:**
ذكر ابن أبي الحديد اختلاف الرواية في بعض كلماتها، ممّا يدل على أنّه رآها في غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٨).

القسم الأوّل

أَلْحَمْدُ للهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، والْـغَالِبِ جُـنْدُهُ، والْـمُتَعَالِي جَدُّهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَامِ، وآلائِهِ الْعِظَامِ. الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وعَلِمَ مَا يَمْضِي ومَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْـخَلاَئِقِ بِـعِلْمِهِ، ومُـنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلاَ اقْتِدَاء وَلَا تَـعْلِيم، وَلَا احْتِذَاء لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيم، وَلَا إِصَابَةِ خَطَأ، وَلَا حَضْرَةِ مَلأ.

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ والنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَـمْرَة، ويَمُوجُونَ فِي حَيْرَة. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، واسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

الشرح والتفسير

بديع خلق الله

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة التي تعدّ من أفصح خطبه عليه السلام بحمد الله والثناء عليه ووصفه بثلاث صفات فقال: «أَلْحَمْدُ للهِ الْفَاشِي[1] فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، والْغَالِبِ جُنْدُهُ، والْمُتَعَالِي جَدُّهُ».

التعبير «الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ» التي تفيد سعة حمد الله في جميع مخلوقاته يمكن أن تشير إلىٰ حمده من قِبل الأقوام المؤمنة والثناء عليه، أو إشارة إلىٰ الحمد والثناء التي تعيشه موجودات العالم كافّة ولا سيما إزاء نعم الله بلسان الحال والقال فتسبح الله وتقدسه وتحمده، وغلبة جند الله تستند إلىٰ أنّ جند الله تعالى لا

---

١. «الفاشي» من مادة «فشو» على وزن «كشف» بمعنى الانتشار والاتساع.

يقتصرون على ملائكته سبحانه بل كلّ ما في العالم، وليس لأحد مقاومته والوقوف بوجهه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١].

والعبارة: «وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ» اقتباس من الآية الشريفة: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾[٢] وبالإلتفات إلىٰ أنّ الجَدّ هنا تعني العظمة فإنّها إشارة لعظمة الذات الإلهيّة المقدّسة[٣].

ثم ركز الإمام عليه السلام على النعم الماديّة والمعنويّة ليحمد الله ويثني عليه إزاء تلك النعم فقال: «أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَامِ[٤]، وآلائِهِ الْعِظَامِ».

بالنظر إلىٰ أنّ (تؤام) على وزن (غلام) جمع (توأم) على وزن (جوهر) بمعنى الأشياء المقترنة مع بعضها فإنّها تشير إلىٰ النعم الإلهيّة التي تكون عادة متصلة ومتتالية، فمثلاً نعمة اللسان هي وسيلة للتكلّم وكذلك عنصر لدفع الطعام تحت الأسنان بغية مضغه من جانب كونه وسيلة مهمّة لابتلاع الطعام وتذوق الأطعمة وللاطلاع على سلامة الطعام من فساده وهكذا سائر النعم التي لا تعدّ ولا تحصى، وهل يطيق الإنسان احصاء نعم الله وأفضاله؟

ويمكن أن تكون «آلاء» مقابل «نعم» إشارة إلىٰ النعم المعنويّة في مقابل النعم الماديّة، ثم خاض في معرفة الله فحمده واثنى عليه وذكره بخمس صفات من شأن كلّ واحدة منها أن تكون دافعاً لحمد الله والثناء عليه فقال عليه السلام: «الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وعَلِمَ مَا يَمْضِي ومَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، ومُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ».

فهذه الصفات الخمس التي تنطلق من سعة حلم الله تعالى وتنتهي بخلق الخلائق

---

١. سورة الفتح، الآية ٧.

٢. سورة الجن، الآية ٣.

٣. فالتعبير عن الجد بهذا الأسم لعظم مقامه.

٤. «تؤام» على وزن «غلام» جمع «توأم» على وزن «جوشن» تعني في الأصل المولود مع غيره في بطن واحدة ويقال لهما التوأمان، ثم اطلق على كلّ شيء يقترن بآخر ويشير في العبارة المذكورة إلى أنّ نعم الله سبحانه وتعالى ليست مفردة بل مقرونة عادة بالعديد من النعم.

وابداع الكائنات تعدّ أهم صفات الله التي تشمل العلم والقدرة والعدالة واللطف والرحمة.

ثم أشار إلىٰ هذه الحقيقة أن خلق الله تعالى دون أدنى سابقة تعلم وتجربة ومشورة فقال عليه السلام: «بِلاَ اقْتِدَاء وَلَا تَعْلِيم، وَلَا احْتِذَاء[1] لِمِثَالِ صَانِع حَكِيم، وَلَا إِصَابَةِ خَطَإٍ، وَلَا حَضْرَةِ مَلأ».

فالواقع إنّ الشخص الذي يستلهم من الآخرين في صناعته إنّما يستند إلىٰ ذلك في واحدة من طرق خمسة:

الأوّل: أن يقلد غيره، والثاني: أن يتعلم، والثالث: أن يرىٰ صناعة عالم غيره فيستفيد منها في تحقيق غرضه، والرابع: الاستفادة من أخطائه السابقة والخروج بتجربة، والخامس: أن يستشير جماعة معينة ويتعاون معها، أمّا الله الصانع الحكيم فخلقه لا يستند إلىٰ سابقة وغني عن كلّ ما قيل سابقاً ومن هنا يطلق على خلقه الابداع (الخلق دون سابقة).

وتبدو هذه المسألة في غاية الأهميّة إذ إنّ الإنسان مهما صنع ومهما ابدع وابتكر إنّما شاهد نماذج ذلك في عالم الخلق؛ فمثلاً الذين اخترعوا الطائرة فممّا لا شك فيه أنّهم استفادوا واستلهموا تصميمها من الطيور، ومن هنا كان هنالك شبه كبير بين أنواع الطائرات وأنواع الطيور، وفي نفس الوقت وبغية تحقيق أهدافهم عليهم أن يستفيدوا من علوم السابقين وتجاربهم ويقوموا باختباراتهم الواسعة والمتكررة ليتمكنوا من تلافي أخطائهم عن طريق الاختبار والتجربة، وعادة ما يعمدون إلىٰ تشكيل بعض المجالس وعقد المؤتمرات والندوات لهذا الغرض والحال فإنّ الصانع الحكيم ليس بحاجة إلىٰ أي من هذه الأمور في خلقه الواسع والأنواع الخارجة عن الحدود من مخلوقاته.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه خاض في الشهادة للنبي صلى الله عليه وآله

---

١. «الاحتذاء» يعني التنسيق من مادة «حذو» على وزن «جذب» بمعنى التنسيق والانسجام.

بالرسالة والأوضاع على عهد بعثته ليشرحها بعبارات قصيرة وعظيمة المعنى وليكشف النقاب عن مضمون تلك الدعوة فتبدو واضحة وجلية وملموسة، فقال: **«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ؛ ابْتَعَثَهُ والنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ[١]، ويَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ[٢]، واسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ[٣]»**.

فقد استعار الإمام عليه السلام عدة تشبيهات لرسم صورة واضحة لِما كانت عليه الناس في العصر الجاهلي؛ فقد شبههم أحياناً بالشخص الذي وقع في ورطة مرعبة فهو لا ينفك عن الصراخ وطلب النجدة، وأحياناً أخرىٰ شبههم بأنّ أزِمَّهم أُنيطت بأيدي أفراد فاسدين مفسدين لا يقودونهم سوى إلىٰ الهاوية، وأخيراً شبه قلوبهم بالمخازن المقفلة بحيث لم يلجها أي علم ومعرفة وفضيلة.

حقّاً، إنّ الإنسان ما لم يقف على وضع الناس في العصر الجاهلي من الناحية الفكريّة والعقائديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والسياسيّة لا يسعه إدراك عظمة النّبي صلى الله عليه وآله وعظمة الدعوة الإسلاميّة، ومن هنا يذكر الإمام عليه السلام في العديد من خطب نهج البلاغة وبعبارات غاية في الروعة والجمال الوضع آنذاك للأجيال الذين لم يدركوا ذلك العصر أو أنّهم أدركوا واقعه ولكنهم نسوه ومن ذلك ما قاله في الخطبة الثانية من النهج: **«أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ... والنَّاسُ في فِتَنٍ انْجَزَمَ فيها حَبْلُ الدِّينِ...»**.

ووقال عليه السلام في الخطبة ٢٦: **«إنّ اللهَ بَعَثَ مُحَمّداً... وأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ في شَرِّ دِين وفي شَرِّ دار...»**.

والخطبة ٥٩: **«بَعَثَهُ والنّاسُ ضُلّالٌ في حيرَةٍ وحاطِبُونَ في فِتْنَة...»**.

---

١. «غمرة» الماء الكثير الذي يغطي كلّ شيء ثم اطلق على كلّ شدّة.

٢. «حين» بفتح الحاء تعني الموت والهلكة واستعمل بمعنى الغم والهم الشديد الذي يؤدّي بالإنسان إلىٰ الموت وحين بكسر الحاء بمعنى الزمان وقد وردت في هذه الخطبة بالمعنى الأوّل.

٣. «رين» بفتح الراء تعني الصدأ الذي يصيب المعادن والذي يفيد الفساد والتلف أو ضياع شفافية المعدن ولمعانه.

والخطبة ١٩٥: «أَرْسَلَهُ وأَعْلامُ الْهُدى دارِسَةٌ ومَناهِجُ الدّينِ طامِسَةٌ...».

حقّا لونظرنا إلىٰ عبارات الإمامعليه السلام في هذه الخطب مع بعضها البعض الآخر لتجسدت أمامنا صورة غاية في الروعة عن الاوضاع في العصر الجاهلي والمشاكل التي كان يعاني الناس منها آنذاك على الصعيد العقائدي والاجتماعي والأخلاقي وبالتالي سنقف على مدى أهميّة الإسلام والجهود التي بذلها رسول اللهصلى الله عليه وآله في الإرتقاء بذلك المجتمع وتحويله من مجتمع جاهلي ذي تقاليد متوحشة إلىٰ مجتمع إسلامي ذي مبادىء إنسانيّة عاليّة.

القسم الثاني

عِبَادَ اللهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، والْـمُوجِبَةُ عَـلَى اللهِ حَقَّكُمْ، وأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ والْجُنَّةُ، وفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وسَالِكُهَا رَابِحٌ، ومُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَـلَى الأُمَـمِ الْـمَاضِينَ مِنْكُمْ والْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى، وأَخَذَ مَا أَعْـطَى، وسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

الشرح والتفسير

التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة

يشكل هذا الجانب من خطبة الإمام عليه السلام هدفها الأصلي وما مضى في القسم الأوّل يمثّل في الواقع مقدمة وتمهيداً لهذا القسم، ذلك لأنّه لا موضوعيّة للحديث عن الورع والتقوى ما لم يكن هناك إيمان بالله وإيمان بنبوّة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام: «عِبَادَاللهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، والْـمُوجِبَةُ عَـلَى اللهِ حَقَّكُمْ».

وهذا التعبير بشأن التقوى بديع، فهو يمثل حقّ الله من جانب على عباده ومن جانب آخر يجعل للعباد حقّاً على الله تعالى، أمّا حقّ الله فدليل ذلك أنّ نتيجة الورع والتقوى هو طاعة جميع أوامر الله ونواهيه وطاعة حقّ الله لدى عباده، وأمّا حقّ العباد على الله فكونهم يستحقون على أثرها الأجر والثواب.

وقد ذهب العديد من شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ التقوى هنا تعني الطاعة التامة لأوامر الله تعالى، والحال أنّ التقوى هي خشية الله الباطنيّة والالتزام بالمبادئ التي يكون أثرها طاعة أوامر الله.

فالتقوى تظهر في مراحلها الابتدائيّة بصورة العدالة وفي مراحل أروع بصورة العصمة وكل ذلك من الصفات الباطنيّة.

والشخص الذي يستخف بالطاعة ولا يكترث للذنب هوشخص عديم التقوى وذلك الشخص الملتزم بتعاليم الدين والعامل بها هو المتقي وتظهر آثار كلّ من الحالتين على الأعمال.

ثم قال عليه‌السلام في تحصيل هذه الجوهرة الثمينة: «وأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللهِ».

نعم، فسلوك سبيل التقوى، التقوى التي تحيط بحياة الإنسان، ليست ميسرة إلّا بتوفيق الله، حتى أنبياء الله وأولياءه يفوّضون أمورهم إلىٰ الله ويسألونه الأخذ بأيديهم ويقولون: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

وورد في الدعاء الذي ورد الحث عليه عقب زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليه‌السلام: «كُلَّما وَفَّقْتَني بِخَيْرٍ فَأَنْتَ دَليلي عَلَيْهِ وطَريقي إِلَيْهِ»[2].

ثم أشار عليه‌السلام إلىٰ معطيين مهمين من معطيات التقوى كدليل عليها فقال: «فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ والْجُنَّةُ».

نعم ! فمعظم الحوادث المريرة الفرديّة والاجتماعيّة التي تعكر صفو حياة الإنسان في هذا العالم معلولة للمعصية والخروج عن جادة العدل والانصاف؛ فالتقوى تنقذ الإنسان في هذا العالم من السقوط في مستنقع الذنب وعواقبه الخطيرة وتجعله يعيش حياة هانئة مقرونة بالسكينة والسعادة وفخير زادٍ يتزوّد به الإنسان

---

١. سورة هود، الآية ٨٨، ورد هذا الكلام في القرآن على لسان النبي شعيب عليه‌السلام تجاه قومه الطاغين.

٢. بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٥٥.

هي التقوى كما تقول الآية الشريفة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[1].

التي تعني دخول الجنّة والتلذذ بنعمها الخالدة، فهل هناك من جوهرة ثمينة أثمن من التقوى بحيث تحفظ الإنسان في الدنيا وتنجيه في الآخرة.

ثم أشار في مواصلته لحديثه إلىٰ ثلاثة أمور مهمّة بشأن التقوى فقال عليه السلام في الأمر الأوّل: «وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ».

إلّا أنّ وضوح جادة التقوى ومسلكها كونها من جانب منسجمة بصورة تامة مع فطرة الإنسان، ومن جانب آخر قد بين مسار هذه الجادة في عالم التشريع في الكتاب والسنّة النبويّة المطهرة.

وأمّا ربح السالك لهذا الطريق كونها تسوق المتّقين إلىٰ الجنّة وفق الآية القرآنيّة: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[2] هذا من جانب، ومن جانب آخر تنقذ صاحبها في الدنيا من الدنس والدناءة والحياة المظلمة وتجعله سعيداً ذا عزّة لدى الجميع، أمّا حفظها لمستودعها (إذا اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المفعول) فسبب ذلك أنّ الله تعالى تعهد بمثوبة المتّقين والورعين، وعليه فأمانة هؤلاء محفوظة لدى الله وملائكة الله حفظت أعمال المتّقين، وإن اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المكان فإنّ موضع التقوى هو القلب الذي يحفظها بعناء ويصونها من كلّ شيء، واعتبر البعض (حافظ) بمعنى المحفوظ وعليه يصبح معنى الجملة، المتّقون محفوظون في ظلّ التقوى.

الأمر الثاني الذي أشار إليه الإمام عليه السلام هي أنّ التقوى حقيقة خالدة لا تتأثر بالزمان والمكان فقال: «لَمْ تَبْرَحْ[3] عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ

---

١. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٢. سورة مريم، الآية ٦٣.

٣. «تبرح» من مادة «برح» بمعنى الإبتعاد لكنها تعطي معنى الإيجاب حين تقترن بكلمة النفي.

والْغَابِرِينَ[١]، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غداً، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى وأَخَذَ مَا أَعْطَوسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى[٢]».

نعم فالتقوى كالقصر الجميل الفخم والهادئ الذي يدعو إليه الجميع والذي كان وما زال ماثلاً أمام أعين جميع الناس وقد دعي إليه الجميع من جانب الكتب السماوية وأنبياء الله وأوليائه، فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[٣].

وقال الإمام عليه السلام في الأمر الثالث: «فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٤]».

والسؤال الذي يرد: لم كان طلاب التقوى قلائل مع ما لها من الأهميّة؟ ولا يبدو الجواب على هذا السؤال صعباً، ذلك لأنّ التقوى تعني مخالفة هوى النفس ومخالفة هوى النفس ليس بالأمر الهيّن، فسبيل التقوى ينطوي على الكثير من المطبات والصعوبات وإن كانت عاقبته حلوة هنيئة، ذلك لأنّ جادة هوى النفس معبدة للسائرين ولكنّ عاقبتها في غاية الخطورة.

إنّ الله تعالى لما خلق الجنّة قال لجبرئيل: انظر إليها. فلما نظر إليها قال: «يا ربِّ لا يَتْرُكُها أحَدٌ إلّا دَخَلَها» فلما حفّها بالمكاره قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال: «يا رَبِّ أخْشى أنْ لا يَدْخُلَها أحَدٌ» ولما خلق النار قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال: «يا رَبِّ لا يَدْخُلُها أحَدٌ» فلما حفّها بالشهوات قال: انظر إليها، فلما نظر إليها قال: «يا رَبِّ أخْشى أنْ يَدْخُلَها كُلُّ أحَد»[٥]. فهذا الحديث في الواقع شرح لما ورد عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعن وعلي عليه السلام: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكارِهِ وحُفَّتِ النّارُ بِالشَّهَواتِ»[٦].

١. «الغابرين» جمع «غابر» من غبور على وزن «عبور» تعني بقاء الشيء وعليه فغابرين تعني الباقين.

٢. «اسدى» من مادة «سدى» على وزن «عبا» بمعنى الإحسان والعطاء.

٣. سورة النساء، الآية ١٣١.

٤. سورة سبأ، الآية ١٣.

٥. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢.

٦. بحارالأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢؛ نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

القسم الثالث

فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وأَلظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، واعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَف خَلَفاً، ومِنْ كُلِّ مُخَالِف مُوَافِقاً. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، واقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، ودَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ، وبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، واعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلاَ فَصُونُوهَا وتَصَوَّنُوا بِهَا، وكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً، وإِلَى الآخِرَةِ وُلاَّهاً. وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا. وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا، ولَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، ونُطْقَهَا كَاذِبٌ، وأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلَا وهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، والْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، والْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ، والْجَحُودُ الْكَنُودُ، والْعَنُودُ الصَّدُودُ، والْحَيُودُ الْمَيُودُ.

الشرح والتفسير

سماع نداء التقوى

خاض الإمام علي عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في بحث واسع وعميق عن آثار التقوى على الإنسان صاحب البصيرة وتطرق إلى أبعادها المختلفة باثنتي عشرة عبارة قصيرة وعميقة المعنى فقال عليه السلام: «فَأَهْطِعُوا[1] إِلَيْهَا، وأَلِظُّوا[2] بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، واعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَف خَلَفاً، ومِنْ كُلِّ مُخَالِف مُوَافِقاً».

---

١. «اهطعوا» من مادة «هطوع» على وزن «طلوع» بمعنى الاندفاع سريعاً نحو الشيء.

٢. «ألظوا» من مادة «لظّ» على وزن «خط» بمعنى الإلحاح على الشيء.

وكانت التقوى قد دعت إلىٰ نفسها جميع الناس وقد بيّنت للجميع آثارها الطيبة والمحمودة ولذلك قال الإمام عليه السلام سارعوا إليها بآذانكم لسماعها ثم انهضوا وجدوا واجتهدوا في تحصيل مقدماتها فإن كانت لكم تقوى فسوف لن تحزنوا على ما يفوتكم من حطام الدنيا واعلموا أنّ التقوى حافظتكم من مخالفيكم.

ويمكن أن تكون «مُخالِف» في العبارة إشارة إلىٰ الذنوب السالفة التي تزول آثارها بالتقوى، أو المراد اعداءُ الإنسان ومخالفوه، لأنّ الله وعد المتّقين بالنصر والغلبة إذ قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾[2].

ثم نصحنا بست عبارات أخرى فقال: «أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ واَقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وارْحَضُوا[3] بِهَا ذُنُوبَكُمْ، ودَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ».

وعبارة «أَيْقِظُوا بِها نَوْمَكُمْ» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ النوم العادي، أي ينبغي في ظلّ التقوى قضاء جانبٍ من الليل في العبادة والتفرغ لمناجاة الله تعالى: «في مقابل واقْطَعُوا بِها يَوْمَكُمْ» كما يُحتمل أن يكون المراد، اليقظة من نوم الغفلة بالتقوى، والعبارة «اَشْعِرُوها قُلُوبكم» بالنظر إلىٰ أنّ (شعار هي الثياب الملاصقة للبدن) فيمكن أن تكون إشارة إلىٰ تنوير القلب بالتقوى أو اجعلوا التقوى شعاركم وعلامتكم أو ايقظوا قلوبكم بالتقوى (حيث إنّ أشعروا من مادة شعور).

والعبارة: «دَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ» إشارة إلىٰ الأسقام الباطنيّة التي تعالج بواسطة التقوى.

وقال في العبارة التاسعة حتى الثانية عشرة: «وبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ[4]، وَاعْتَبِرُوا

---

١. سورة النحل، الآية ١٢٨.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

٣. «ارحضوا» من «رحض» على وزن «محض» بمعنى الغسل.

٤. «الحمام» بكسر الحاء الموت.

بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وتَصَوَّنُوا[١] بِها».

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.[٢] وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٣].

والعبارة «واعتبروا...» إشارة إلىٰ أنّ عاقبة عدم التقوى واضحة لكم في هذه الحياة الدنيا وترونها بأُم أعينكم كما تقرأونها في التاريخ بشأن الأفراد والمجتمعات التي سارت إلىٰ ذلك المصير المشؤوم والأسود فما عليكم إلّا الاعتبار بهم ولا تكونوا ممن يعتبر بهم الآخرون، وقد أشار القرآن في قصة يوسف وإخوته وامرأة عزيز مصر إلىٰ النتائج السلبيّة التي عمت البعض بسبب انعدام التقوى والبركات التي ساقتها التقوى ليوسف فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٤].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ عواقب الانغماس في الدنيا التي يفرزها انعدام التقوى فحذر من هذه الدنيا الغرور بتسع عبارات قال فيها: «وكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً[٥]، وإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهاً[٦]. وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيا. وَلَا تَشِيمُوا[٧] بَارِقَهَا[٨] ولَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا[٩]. وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتَنُو بِأَعْلَاقِهَا[١٠]».

---

١. «تصونوا» من مادة «صون» على وزن «قوم» بمعنى الحفظ وتصون بالتشديد بمعنى حفظ النفس.

٢. سورة الحديد، الآية ٢١.

٣. سورة الأعراف، الآية ٢٦.

٤. سورة يوسف، الآية ١١١.

٥. «نزاه» جمع «نازه» بمعنى عفيف النفس.

٦. «ولاه» جمع «واله» بمعنى المشتاق.

٧. «لا تشيموا» من مادة «شيم» على وزن «غيب» نظر إليه أين يمطر.

٨. «بارق» السحاب الذي يقدح منه البرق و جاء أيضاً بمعنى السيف البراق.

٩. «ناعق» من مادة «نعق» على وزن «برق» بمعنى مناداة الحيوانات ثم اطلقت على المناداة بصورة عامة.

١٠. «اعلاق» جمع «علقة» على وزن «فتنة» بمعنى الشيء النفيس (وإن كانت له حيثية ظاهرية) وتوجب تعلق النفس بها.

ففي الواقع إنّ الإمام عليه السلام لفت الانتباه في هذه العبارات العميقة المعنى إلىٰ طرق نفوذ الدنيا إلىٰ فكر الإنسان وروحه ليحذر منها جميعاً وضرورة الإبتعاد عن زخارف الدنيا وزبرجها والتوجه إلىٰ الآخرة واسناد المتّقين وعدم الإكتراث لمقامات أصحاب الدنيا وغض الطرف عن الأموال والثروات والقصور والزينة الظاهريّة وصم الاسماع عن وساوس المتهافتين على الدنيا وتنحيتهم جانباً وعدم الانخداع بمظاهر الدنيا البراقة والانقطاع عن جميع الأمور التي تذل صاحبها.

والحقّ أن كلّ من امتثل هذه التحذيرات وسار على الدرب سوف لن يقع في شباك الشيطان وفخ طلاب الدنيا.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ أدلة تحذيراته السابقة فقال: «فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ[1]، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ[2]، وَأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ».

فالواقع إنّ كلّ دليل من هذه الأدلة الأربعة إشارة إلىٰ جانب من التعبيرات السابقة:

فبرق الدنيا خادع لا حقيقة له وليس وراءه مظر وكلامها كاذب بدليل أنّها لم تف لأحد من الناس في أي وقت من الأوقات، وأموالها منهوبة من قِبل أصحاب الدنيا ينهبونها من غيرهم، وكونها مسروقة من غيرهم في أنّ كلّ شخص يمتلك مالاً نفيساً على الظاهر يجعل صاحب الدنيا يتطلع إليه فيسلبه إيّاه في الوقت المناسب.

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية ليحذر مخاطبيه من الوقوع في ورطة الدنيا من خلال ذكره لست رذائل من رذائلها فقال عليه السلام: «أَلاَ وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ[3] الْعَنُونُ[4]، وَالْجَامِحَةُ[5]

---

١. «خالب» من «خلابة» بمعنى الخادع.

٢. «محروبة» بمعنى منهوبة.

٣. «المتصدية» بمعنى المرأة تتعرض إلى الرجال وتميلهم إليها من مادة تصدي بمعنى التعرض.

٤. «عنون» من مادة «عن» على وزن «ظن» بمعنى الظهور.

٥. «جامحة» من «جموح» على وزن «فتوح» الصعبة على راكبها.

الْحَرُونُ[١]، والْمَائِنَةُ[٢] الْخَؤُونُ[٣]، والْجَحُودُ الْكَنُودُ[٤]، والْعَنُودُ الصَّدُودُ[٥]، والْـحَيُودُ[٦] الْمَيُودُ[٧]».

---

١. «حرون» بمعنى «الجامحة» أيضاً مع هذا الفارق أن الجموح، حيوان يركض هنا وهناك مضطرباً، وعنون، حيوان معاند متمرد يقف ولا يتحرك.

٢. «مائنة» أي كاذبة من مادة «مين» على وزن «عين» بمعنى الكذب.

٣. «خؤون» المبالغة في الخيانة.

٤. «الكنود» الجحود والبخل وتعني في الأصل الأرض التي لا يظهر عليها شيء.

٥. «صدود» أي المعترض والمانع من مادة «صد» وتستعمل بمعنيين الاعراض والمنع.

٦. «حيود» من مادة «حيد» على وزن «صيد» تعني الميل عن الطريق.

٧. «ميود» بمعنى المنحرف والمضطرب من مادة «ميدان» على وزن «ضربان» بمعنى الانحراف والاضطراب.

القسم الرابع

حَالُهَا انْتِقَالٌ، ووَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وعُلْوُهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرَب وسَلَب، ونَهْب وعَطَب. أهْلُهَا عَلَى سَاق وسِيَاق، ولَحَاق وفِرَاق. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذاهِبُهَا، وأعْجَزَتْ مَهارِبُهَا، وخَابَتْ مَطَالِبُهَا؛ فَأَسْلَمَتْهُمُ الْـمَعَاقِلُ، ولَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ، وأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاج مَعْقُور، ولَحْم مَجْزُور، وشِلْومَذْبُوح، ودَم مَسْفُوح، وعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وصَافِق بِكَفَّيْهِ، ومُرْتَفِق بِخَدَّيْهِ، وزَار عَلَى رَأْيِهِ، ورَاجِع عَنْ عَزْمِهِ؛ وقَدْ أَدْبَرَتِ الْـحِيلَةُ، وأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، (وَلَاتَ حِينَ مَنَاص) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وذَهَبَ مَا ذَهَبَ، ومَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنْظَرِينَ).

الشرح والتفسير

عاقبة أصحاب الدنيا

بالنظر إلىٰ أنّ حبّ الدنيا والتعلق الشديد بالأمور الماديّة هوأساس أنواع الذنوب والمعاصي والجنايات، وبالنظر إلىٰ أنّ عصر الإمام عليه السلام شهد بسبب الفتوحات الإسلاميّة سعة الثروات التي عمّت البلاد الإسلاميّة وانغمس بعض الناس في حالة من الدعة والرفاهية وبطر النعمة. فقد نهى الإمام عليه السلام في خطبته الناس عن التكالب على الدنيا والانغماس في لذاتها فكشف بعبارات قلّما يرى نظيرها آثار السوء للتعلق بهذه الدنيا، ولذلك أكّد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بخمس عبارات قصيرة على تفاهة النعم الماديّة فقال: «حَالُهَا انْتِقَالٌ، ووَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وعِزُّهَا ذُلٌّ،

وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وعُلُوُهَا سُفْلٌ[١]».

أمّا تغير حال الدنيا فليس بخافٍ على أحد؛ فما أكثر أولئك الذين تربعوا على عرش السلطة ليلاً ويفكرون في الاستيلاء على البلدان، فلم يطلع عليهم الفجر حتى زالت عروشهم وفارقوا الحياة فبين لحظة وأخرىٰ تتهاوى عروش الأقوياء ويحل محلهم الضعفاء فيصبح أعزّة الأمس أذلّة اليوم.

وأمّا زلزلة وطأتها وخطواتها فذلك لأنّ مقر الإنسان في هذا العالم متزلزل على الدوام، فعلى أي شيء إستند من قبيل المال والثروة والفتوة والصحة والسلامة فهي متقلبة وليست ثابتة. وأمّا أنّ عزّتها عين ذلّتها، فقد فسّر ذلك بعض الشرّاح أنّ العزّة الماديّة واللامشروعة سبب الذلّة في الآخرة، وقال البعض الآخر إنّه سبب الإبتعاد عن الله في هذه الدنيا؛ إلّا أنّ التفسير الأنسب هو أنّ العزّة الماديّة تؤدّي إلىٰ التعلق الشديد وهو التعلق الذي يسوقه إلىٰ الذلّة ويجعله يعيش الخنوع مقابل كائن من كان بغية حفظها، وأمّا أنّ جدّها هزل فسبب ذلك التقلب وسرعة الزوال وعدم الاستقرار، وأمّا علوها تسافل فلأنّ الأفراد من ذوي المقامات الرفيعة يخضعون للعديد من المطبات بغية حفظ مناصبهم ومواقعهم ويستعينون من أجل حفظ تلك القدرة بالأفراد الفاسدين والطالحين.

ثم أكمل هذا الموضوع بذكره لصفتين أُخريين في وصف الدنيا فقال: «دَارُ حَرَب وسَلَب، ونَهْب وعَطَب. أَهْلُهَا عَلَى سَاق وسِيَاق[٢]، ولَحَاق وفِرَاق[٣]».

المفردات «حَرَب وسَلَب، ونَهْب» وإن كانت جميعها تشير إلىٰ معنى أخذ أموال الآخرين؛ لكن يبدو هنالك اختلاف دقيق بينها، «حَرَب» أخذ جميع أمواله لأنّها

---

١. «علو وسفل» بمعنى الأعلى والأسفل والتي تلفظ أحياناً بضم الحرف الأوّل وكسره.

٢. «ساق» بمعنى «ساق» الرجل. والعبارة «على ساق» تطلق على من يقف على رجل ويستعد للقيام بعمل. وسياق من مادة سوق بمعنى التقدم والاندفاع وعليه فالعبارة على ساق وسياق أنّ أهل الدنيا يتأهبون للحركة للعالم الآخر.

٣. «لحاق وفراق» نقطتان متقابلتان بمعنى الإلتحاق والانفصال.

فسّرت لغوياً بهذه العبارة «أَخْذُ جَميعِ مالِهِ».

لكن «سلب» غالباً فسّرت بمعنى أخذ ثياب الأفراد وما في أيديهم ولذلك ورد في الحديث: «مَنْ قَتَلَ قَتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ»[1].

وأمّا «نَهْب» التي وردت لغوياً بمعنى الغنيمة فربّما تكون إشارة إلىٰ الاغتنام الجماعي، وعليه يصبح معنى كلام الإمامعليه السلام أنّ الدنيا تسلب الإنسان جميع وجوده أو جانباً منه أو قد تأتي جماعة من السلّابين ليتحكموا بالأمور فيسلبوا الناس أموالهم.

نعم، فالدنيا لو نظرنا إليها بإمعان لوجدناها ميداناً لصراع السلّابين والناهبين الذين يمارسون فيها السلب والنهب بصور مختلفة وهذا العمل لا ينتهي سوى إلىٰ الهلكة والزوال، والحال يستعد جميع الناس إلىٰ السفر نحو العالم الآخر وليس هنالك من يعلم بما يصيبه غداً، ثم أشار الإمامعليه السلام بثلاث عبارات أخرىٰ إلىٰ جانب آخر من مصائب الدنيا وعيوبها فقال: «قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا[2]، وخَابَتْ مَطَالِبُهَا».

إشارة إلىٰ أنّ الإنسان اليقظ كلّما حاول النجاة من مصائبها لم يكن الأمر عليه سهلاً فتشخيص سبيل الفرار منها يبدو متعذراً والأعقد منه الظفر بموضع الهروب.

وقد جربنا هذه المسألة عند الأفراد الذين يتعلقون بالدنيا ثم يصحون من غفلتهم وينوون الهروب فإنّ العديد من المشاكل تعرقل حركتهم وعليهم بذل قصارى جهدهم بغية الوصول إلىٰ سبيل الخلاص، ثم أشارعليه السلام إلىٰ مصير أصحاب الدنيا حين يقفون على أعتاب الموت فقال: «فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ[3]، ولَفَظَتْهُمُ[4] الْمَنَازِلُ، وأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ[5]».

---

١. بحارالأنوار، ج ٤١، ص٧٣، كما ورد هذا الحديث عن النبي الأكرمصلى الله عليه وآله في سنن البيهقي، ج٦، ص٣٠٧و٣٠٩.

٢. «مهارب» جمع «مهرب» على وزن «مطلب» بمعنى مكان الهروب.

٣. «معاقل» جمع «معقل» على وزن «مجلس» بمعنى القلعة الحصينة والملجأ.

٤. «لفظت» من مادة «لفظ» على وزن «حلف» بمعنى رمت ويقال لهذه الألفاظ كأنّها ترمى من الفم.

٥. «محاول» جمع «محالة» على وزن «حوالة» تعني الحذق وحسن التدبير والتصرف.

نعم ! حين يطفح بهم الكيل ويتخلى عنهم كلّ شيء ويجعلهم وحيدين أمام الحوادث فلا يسع أقوى الأقوياء الدفاع عنهم حيث النتائج العكسية التي تنتهي بهم إلى الموت وحالهم كما يضرب به المثل: «إذا حل الموت أعيى الطبيب».

وبالتالي سوف لن يكون مصير من اغتروا بالدنيا إلّا كما قال الإمام عليه السلام: : «فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ[١]، ولَحْمٍ مَجْزُورٍ[٢]، وشِلْوٍ[٣] مَذْبُوحٍ، ودَمٍ مَسْفُوحٍ[٤]، وعَاضٍّ[٥] عَلَى يَدَيْهِ، وصَافِقٍ[٦] بِكَفَّيْهِ، ومُرْتَفِقٍ[٧] بِخَدَّيْهِ[٨]، وزَارٍ[٩] عَلَى رَأْيِهِ، ورَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ».

فقد بين الإمام عليه السلام عاقبة ومصير المغرورين بالدنيا فالصور التسع الواردة في الفقرة المذكورة لا تُبقي مجالاً لما هو أفصح وأبلغ وأدق منها فهذه الأصناف التسعة يُشعر كلّ منها بنوع من ضربات الدنيا التي تهز كيان المغررين بها والقدر الجامع بينهم جميعاً مصيرهم البؤس والشقاء والحسرة والندم؛ سواء أولئك الذي تلقّوا ضربات ثقيلة وسيقوا نحو الموت أو أولئك الذين بقوا ولم تعدّ أمامهم سوى الحسرة.

وقد عكس التاريخ نماذج كثيرة لكلّ من هذه الأصناف التسعة ولعل الكثير منّا قد رآها خلال مدّة عمره القصيرة.

---

١. «معقور» من مادة «عقر» على وزن «فقر» يعني مجروح وقتل أو قطع يد الناقة ورجلها.

٢. «مجزور» من مادة «جزر» بمعنى المسلوخ.

٣. «شلو» بعض لحم الحيوان المذبوح.

٤. «مسفوح» يعني «مسفوك» من مادة «سفح» على وزن «صبر» بمعنى السفك وتستعمل عادة في سفك الدماء.

٥. «عاض» من مادة «عض» على وزن «سد» ويطلق هذا اللفظ عادة على أولئك الذين يعضون أيديهم بأسنانهم من شدّة الندم.

٦. «صافق» من مادة «صفق» على وزن «دفع» تعني ضرب اليدين ببعضها مع الصوت وتشير هنا إلى الأشخاص الذين يضربون أيديهم ببعضها من شدّة الحسرة.

٧. «مرتفق» بمعنى الشخص الذي يستند على يديه ووردت في العبارة كناية عن الشخص الحائر الذي وضع رأسه على يديه وغرق في التفكير، وارتفاق يعني الاستناد.

٨. «خديه» مثنى «خد» لدى الإنسان وهو معروف.

٩. «زار» بمعنى اللوم والتوبيخ من مادة «زري» ولذلك وردت بمعنى الاستصغار والاستحقار.

ثم اختتم الخطبة بالإشارة إلىٰ هذه الحقيقة أنّه حين حلول الحوادث الشاقة والموت الحتمي تغلق جميع السبل فقال: «وقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وأَقْبَلَتِ الْـغِيلَةُ[١]، ﴿وَلَاتَ[٢] حِينَ مَنَاص[٣]﴾».

وأضاف عليه السلام: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وذَهَبَ مَا ذَهَبَ، ومَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا[٤]، ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾».

نعم ! فأولئك الذي ركبوا يوماً موجة الغرور وعاشوا في تلك القصور الفارهة وضنوا أنفسهم من أمراء الأرض والسماء لم يجدوا بدأ حين أتاهم القضاء ونزل بهم المقدور سوى الاستسلام بكلّ ذلّة ومغادرة الدنيا وكأنّهم لم يكونوا فيها، فلم تبكهم عينٌ ولم يصدع عليهم خاطر، ثم واصلت الدنيا من بعدهم مسيرتها وأعقبهم مجيئ الأقوام والأمم المقتدرة والقوية الذين حلوا وفنوا فطواهم غبار النسيان ومحوا من صفحة التاريخ.

والعبارة: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاص﴾ المقتبسة من القرآن المجيد[٥] أوردها الإمام عليه السلام بشأن طائفة من الأقوام السابقة التي عاشت غرور الاختلاف وظنت الخلود في الحياة الدنيا وحين حلّ بها عذاب الله تعالت أصواتها طالبة النجدة إلّا أنّ وقت النجاة قد ولّىٰ ومضى.

والعبارة: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ آية قرآنيّة أخرىٰ[٦] أشارت إلىٰ حال الفراعنة حين غرقوا جميعاً في البحر وخلّفوا تلك القصور والعيون والنعم للآخرين وغادروها دون أن يبكيهم أحد.

---

١. «الغيلة» بمعنى الشر والقرار الخطير الخفي وتطلق هذه المفردة على الاغتيال.

٢. «لات» أداة نفي كانت في الأصل لا نافية أضيفت إليها التاء للتأكيد بينما قيل إنّها زائدة وللمبالغة.

٣. «مناص» بمعنى من مادة «نوص» الفرار.

٤. «بال» بمعنى القلب والخاطر.

٥. سورة ص، الآية ٣.

٦. سورة الدخان، الآية ٢٩.

ولعلّ التعبير بعدم بكاء السماء عليهم والأرض كناية عن حقارة ودناءة قرنائهم وأصحابهم في الحياة الدنيا، ذلك لأنّ المعروف عند العرب أنّهم حين يريدون الإشارة إلىٰ علو منزلة شخص بعد أن فقدوه يقولون: لقد بكته السماوات والأرض وأظلم لفقده الشمس والقمر.

كما قيل إنّه قد يكون المراد من بكاء أهل السماء والأرض ذلك لأنّ الملائكة أحياناً تبكي علىٰ المؤمنين والمقرّبين من الله تعالى، بينما لا تبكي على الظلمة والجبارين.

ﮋﮊ

١٩٢

ومن خطبة له عليه السلام

تُسمّى القاصِعَةُ

وهِيَ تَتَضَمَّنُ ذَمَّ إبليسَ لَعَنَهُ اللهُ، عَلَى اسْتِكْبارِهِ وتَرْكِهِ السُّجُودَ لِآدَمَ عليه السلام، وأنَّه أوّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْعَصَبيَّةَ وتَبِعَ الْحَمِيَّةَ، وتَحْذيرَ النّاسِ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقَتِهِ[1]

نظرة إلى الخطبة

قيل في شأن هذه الخطبة أنّ أهل الكوفة عاشوا حالة كبيرة من الفساد آواخر خلافة الإمام عليه السلام إثر ازدياد الثروات وانتقال الثقافة الفاسدة من بعض البلدان المجاورة للبلاد الإسلاميّة والمشاكل التي خلفتها فترة الخلافة في المجتمع

---

١. سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد أن ذكر أنّ هذه أطول خطب أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكره الشارحون وهي في عدة فصول في المواعظ والزواجر وأنّ طائفة ممن عاشوا قبل السيد الرضي ذكروها في كتبهم وكانت نسخة خطية عند السيد ابن طاووس ذكرها في كتابه (اليقين) وقال رأيت هذه النسخة مع أخبار في فضائل أهل البيت عليهم السلام وردت عن الأعلام السابقين ويعود تاريخها إلى سنة ٢٨٠ هجري، كما روى المرحوم الكليني فصلاً من هذه الخطبة في الجزء الرابع من كتابه الكافي كما روى المرحوم الصدوق بعضها في كتابه (من لايحضره الفقيه) ورواها بعد السيد الرضي؛ الزمخشري في (ربيع الأبرار) وروى الماوردي في (أعلام النبوة) المعجزة التي رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حركة الشجرة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٥٦).

الإسلامي، وفي مقدمتها التفاخر والتعصب القبلي والنعرات الجاهلية حتى بلغ الأمر ببعض الفتية الطائشين إلى التنازع فيما بينهم فإذا جرح أحدهم أو ضرب استعان بقبيلته فتهب دون أدنىٰ تريث وتمحيص لنجدته ويراق المزيد من الدماء، فانبرى الإمام عليه السلام بهذه الخطبة بغية إطفاء الفتنة فعرض بالذم للكبر والعصبيّة القبليّة الجاهليّة، فأدّى حقّ الكلام وبالغ في النصح والوعظ، فهي خطبة غاية في الفصاحة والبلاغة والإثارة ومن هنا سُمّيت بالقاصعة وإن لم ترد مفردة (القاصعة) في هذه الخطبة.

وذكر بعض شرّاح نهج البلاغة وجوهاً أخرىٰ لسبب التسمية على ضوء تعدد معاني مفردة القاصعة؛ فقد ذكر المرحوم الشارح الخوئي سبعة وجوه في تسمية هذه الخطبة بالقاصعة إستند كلّ واحد منها إلىٰ أحد معاني (القصع) لغوياً ويبدو ما ذكرناه هو أنسب الجميع.

على كلّ حال تتألف هذه الخطبة من عدّة أقسام صنفها كلّ من شرّاح نهج البلاغة حسب ذوقه وطريقته فقسمها البعض إلىٰ خمسة أقسام وآخر إلىٰ أحد عشر قسماً وثالث إلىٰ تسعة عشر قسماً.

ومن الواضح أنّ جميع أقسام هذه الخطبة تدور حول محور واحد هو ذمّ التعصب الجاهلي والتكبر والفخر، ولا سيما التعصبيات القبليّة والعرقيّة التي تعدّ مصدراً للعديد من الاختلافات والإرباكات والمفاسد الاجتماعيّة وتتضح هذه الحقيقة من خلال التمعن في عموم الخطبة إلىٰ جانب سبب ايرادها من قبل الإمام عليه السلام ونحن بدورنا نقسمها إلىٰ عشرين قسماً:

القسم الأوّل: بعد حمد الله والثناء عليه أشار إلىٰ طرد الشيطان لتعصبه وتكبره على آدم عليه السلام.

القسم الثاني: إشارة لخلق الإنسان من الطين والذي يبعث فيه روح التواضع، والتذكير ثانية بسوء عاقبة الشيطان بسبب كبره وتعصبه.

القسم الثالث: تحذير الجميع من الوقوع في فخ الشيطان والسير في طريقه.

القسم الرابع: ذم الأفراد الذين سقطوا في شباك التكبر والفخر الجاهلي الموهوم.

القسم الخامس: تحذير الجميع من اجتناب طاعة وإتباع الحكّام المتكبرين والمتعصبين.

القسم السادس: الوصية بالاعتبار بالأقوام السابقة والعاقبة السيئة التي كانت بانتظار المتكبرين منهم والسعادة التي نالها المتواضعون وفي مقدمتهم أنبياؤهم عليهم السلام.

القسم السابع: الحديث عن الحياة المتواضعة لموسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام وما كانا يرتديان من ثياب بسيطة حين دخولهما على فرعون المتكبر المغرور وبالتالي تواضع أولياء الله في جميع شؤون حياتهم.

القسم الثامن: الإشارة إلىٰ اختيار الأرض الجافة والمحرقة لبناء الكعبة بمواد البناء البسيطة ليطرد عنهم الكبر والغرور وتصوير الشعائر التي ترمز إلىٰ البساطة والتواضع التام.

القسم التاسع: أشار فيه الإمام عليه السلام إلىٰ مختلف شباك الشيطان ولا سيما الظلم والجور واعتبر إمتثال الفرائض الدينيّة كالصوم والصلاة والزكاة وسيلة لمقاومة الشيطان.

القسم العاشر: يشير إلىٰ مصادر التعصب والغرور.

القسم الحادي عشر: إشارة إلىٰ التعصب الإيجابي وعلاماته وآثاره.

القسم الثاني عشر: اعتبر مصير الأُمم السابقة درساً وعبرة ودعى الجميع للنظر في سيرة تلك الأقوام.

القسم الثالث عشر: الحديث عن الآثار المباركة للوحدة والألفة وعواقب السوء للفرقة والتشتت والاختلاف.

القسم الرابع عشر: أعاد مخاطبيه ثانية إلىٰ التاريخ الماضي والتذكير بالآثار السلبيّة لاختلاف أبناء اسماعيل واسحاق وبني اسرائيل.

القسم الخامس عشر: أشار عليه السلام إلىٰ النعمة العظيمة في وجود النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآثارها على المجتمع الإسلامي.

القسم السادس عشر: عرض فيه بالذم لتلك الطائفة من الناس التي عادت القهقرىٰ بعد الدعوة إلىٰ عادات الجاهليّة.

القسم السابع عشر: ركز فيه على الأفعال المشينة للناكثين والقاسطين.

القسم الثامن عشر: أشار فيه الإمام عليه السلام إلىٰ منزلته من النّبي بصفته أوّل من آمن به من الرجال ولازمه تلك المدّة.

القسم التاسع عشر: تحدّث فيه الإمام عليه السلام عن معجزة الشجرة التي تحركت من مكانها نحو النّبي بأمره صلى الله عليه وآله.

القسم العشرون: تحدّث فيه عن مناقب أهل البيت عليهم السلام واختتم به الخطبة بعنوانه «مسك الختام».

٭٭٭

القسم الأول

أَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ؛ وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ. وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ) اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوا للهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيراً؟!

الشرح والتفسير

الشيطان رأس العصبية

كما أشير في سبب الخطبة أنّ الهدف الأصلي من هذه الخطبة الطويلة والمفعمة بالمواعظ والإرشادات الساميّة التي تهذب الإنسان، مواجهة الكبر والغرور والعصبيّة الجاهليّة والطائفيّة التي كانت مصدر النزاعات القبليّة الدمويّة على عهد الإمام عليه السلام، وعلى هذا الضوء استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه، الله المتجلبب

بالعظمة والكبرياء التي لا تليق إلّا بذاته القدسيّة فقال: «**أَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، واخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وجَعَلَهُمَا حِمىً**[1] **وحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، واصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ. وجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ**».

لا شك في أنّ العزّة والعظمة مختصة بالذات الإلهيّة المقدّسة، ذلك لأنّ كلّ ما سواه كائنات ضعيفة وعاجزة أمامه، إضافة إلىٰ أنّ كلّ ما لديها منه، متى ما شاء أفاضه عليها ومتى شاء سلبه منها.

والعبارات الخمس الواردة في هذه الخطبة من قبيل قوله عليه السلام: لبس العز والكبرياء والتي لا تليق بغيره وأنّهما صفتان مختصتان بالله تعالى ويعبر عنهما أحياناً بالحمى والحرم (المنطقة المحظورة التي لا يحق للغير الدخول فيها) كما يعبر عنها بأنّ الله تعالى اختارهما لنفسه وخص باللعن من سلك سبيل التكبر والفخر، كلّ هذه العبارات المختلفة تهدف إلىٰ إيضاح حقيقة واحدة حيث تشير جميعها إلىٰ أن لا سبيل لعباد الله أمام الذات الإلهيّة القدسيّة سوى التواضع تجاهها وتجاه بعضهم البعض الآخر.

والواقع هو إنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلىٰ الكبر ولا بحاجة إلىٰ أن يمدحه الآخرون به، فذاته القدسيّة عظيمة من جميع الجهات، ولكن لما كان الكبر والفخر لدى العباد مصدراً للبؤس والشقاء وظلم الناس لبعضهم البعض الآخر، فقد ورد هذا التحذير في العبارات السابقة من هذا الأمر ودعي الجميع للبساطة والتواضع.

وعلى هذا الأساس أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه إلىٰ أول امتحان للتواضع حين خلق الله آدم عليه السلام فقال: «**ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وهُوَالْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، ومَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ**

---

[1] ١. «حمى» بمعنى المنطقة الممنوعة من مادة «حماية» بمعنى الممانعة والدفاع عن الشيء ومن هنا تطلق الحميّة على وزن «جزية على» المريض الذي يجتنب ما يضرّ به.

سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ﴾».

وبالطبع فإنّ اختبار الله يختلف عن اختبار العباد؛ فإننا حين نختبر أحداً نريد أن نبدل جهلنا به إلىٰ علم ولذلك يعبر عن هذا الامتحان بالاختبار؛ أمّا الله تعالى طبق ما ورد سالفاً، العالِم بمكنونات القلوب ومحجوبات الغيوب لا يريد قط بهذه الاختبارات إضافة شيء لعلمه، بل اختباره لتظهر النيات الباطنيّة والخلقيّة والأسرار الخفية لعباده بلباس الأفعال فيستحقوا الثواب والعقاب، ذلك لأنّ النية لوحدها ليست كافية في هذا الأمر، والثواب والعقاب إنّما يترتب على الأعمال.

وهذا ما ذكره الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة إذ قال: «إِنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالأَمْوالِ والأَوْلادِ لِيَتَبَيَّنَ السّاخِطُ لِرِزْقِهِ والرّاضي بِقِسْمِهِ وإِنْ كانَ سُبْحانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لكِنْ لِتُظْهِرَ الأَفْعالُ الَّتي بِها يَسْتَحِقُّ الثَّوابَ والْعِقابَ»[1].

ثم خاض عليه السلام في شرح قضية إبليس وسبب تمرده على أمر الله تعالى فقال: «اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ. فَعَدُوا للهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، ونَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وادَّرَعَ[2] لِبَاسَ التَّعَزُّزِ[3]، وخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ».

فالواقع أنّ السبب الرئيسي لتمرد إبليس عملياً على أمر الله تعالى هو تعصبه وغروره الذي أفرزه حسابه الخاطئ والذي يستند إلىٰ الفخر والأنانيّة حيث لم يرَ في خلق آدم سوى حيثية التراب ولذلك عد نفسه أفضل منه فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[4] بينما أغفل تماماً الجانب المهم في وجود آدم إلّا وهو الروح الإلهيّة: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[5].

---

١. نهج البلاغة، الكلمة ٩٣.

٢. «ادرع» من «درع» على وزن «فكر» بمعنى الثوب ويستعمل أحياناً بمعنى لبس الثوب.

٣. «تعزز» بمعنى افتخر ورأى نفسه عزيزاً.

٤. سورة ص، الآية ٧٦.

٥. سورة ص، الآية ٧٦.

نعم ! فالعجب والأنانيّة أسوأ حجاب يصد الإنسان عن إدراك أوضح الحقائق.

وقد التبس الأمر على إبليس حتى في تقييمه لأفضليّة النار على التراب، لأنّ التراب هو المصدر الأساس للحياة ونمو النباتات وتفتح الأزهار والثمار وأنواع البركات، وبينما تقتصر فاعليتها على بعض جانب من حياة الإنسان.

على كلّ حال فإنّ تعبير الإمام عليه السلام إبليس بأنّه عدوالله إشارة إلىٰ أنّه لم يكن عدواً لآدم فحسب، بل كان عدواً لخالق آدم ومتمرداً على أوامره فقد أرسى أولى لبنات العصبية ومنهج التكبر والاستكبار، العمل الذي يعتبر في الواقع محاربة لله تبارك وتعالى؛ ذلك لأنّ العزّة والعظمة لا تليق إلّا بذاته المقدّسة وجمال عباد الله في تواضعهم فالتكبر والغرور حسب ما ذكر علماء الأخلاق من أُمّهات الرذائل.

روى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه سأله عن أدنىٰ مراحل الكفر والإلحاد؟ فقال عليه السلام: «إنَّ الْكِبْرَ أَدْناهُ»[1]. كما ورد في الخبر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنّهما قالا: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّة مِنْ كِبْر»[2].

ثم اتّجه الإمام عليه السلام إلىٰ مخاطبيه ليحذّرهم من عاقبة الشيطان السيئة فقال: «ألا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيا مَدْحُوراً[3]، وأَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً؟».

فالعبارة إشارة لآيات القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[4].

وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١، باب الكبر.

٢. المصدر السابق، ص ٣١٠.

٣. «مدحور» بمعني مطرود من مادة «دحر» على وزن «دهر».

٤. سورة الحجرات، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

٥. سورة ص، الآيتان ٨٤ و ٨٥.

القسم الثاني

ولَوأَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصارَ ضِيَاؤُهُ، ويَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وطِيبٍ يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ. ولَوفَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، ولَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ. ولكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاِخْتِبَارِ لَهُمْ، ونَفْياً لِلاِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وإِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وكَانَ قَدْ عَبَدَاللهَ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلاَّ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ. ومَا بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الشرح والتفسير

الاعتبار بعاقبة إبليس

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في مواصلته لاختبار إبليس الذي ذكر سابقاً بعد أن أشار إلى قضية مهمّة وهي أنّ الله تبارك وتعالى يختبر عباده بأمور تخفى فلسفتها عليهم وربّما يشق عليهم تحملها: «ولَو أَرَادَاللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ[1]

---

١. «يخطف» من «خطف» على وزن «عطف» بمعنى الأخذ بسرعة.

الأَبْصارَ ضِيَاؤُهُ، ويَبْهَرُ[1] الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ[2] وَطِيب يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ[3] لَفَعَلَ ولَوفَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، ولَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ».

إشارة إلىٰ أنّ الامتحان الإلهي إنّما يفقد أثره إذا كان منسجماً مع رغبات العباد وميولهم؛ ذلك لأنّ الجميع سوف يعملون على أساسه؛ سواءٌ كانوا من عباد الله أو من عبدة الأهواء ولا ينطوي مثل هذا الامتحان على أية نتيجة، أما إن كان على خلاف رغباتهم فآنذاك تمتاز صفوف المؤمنين المخلصين من العاصين المتكبرين.

فامتحان أصحاب الغرور والتكبر ينبغي أن يكون في الأمور التي تستهدف غرورهم وتكبّرهم على غرار الامتحان الذي حصل للملائكة وإبليس.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه: **«ولكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاِخْتِبَارِ لَهُمْ، ونَفْياً لِلاِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وإبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ[4] مِنْهُمْ».**

وعلى هذا الضوء تتضح علية خفاء فلسفة الأحكام الشرعيّة، طبعاً تبدو واضحة لدينا فلسفة العديد من هذه الأحكام بحكم العقل والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن، إلّا أنّ جانباً مهماً من هذه الأحكام ما زال مبهماً، وذلك لمعرفة المطيع المخلص من المتمرد العاصي. جدير ذكره إنّ هنالك أدلة أخرىٰ غير ما ذكر في خفاء أسرار هذه الأحكام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ عاقبة فعل إبليس المتكبر والمتعصب ليعتبر بها الجميع فحذرهم من مغبة اتباع خطواته حتى لا يبتلوا بما ابتلي به من عاقبة سيئة فقال: **«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وجَهْدَهُ[5] الْجَهِيدَ،**

---

١. «يبهر» من مادة «بهر» على وزن «بحر» بمعنى الحيرة والبهت.

٢. «رواء» بمعنى حسن المنظر.

٣. «عرف» بمعنى الرائحة الطيّبة.

٤. «خُيَلاء» بمعنى التكبّر.

٥. «جهد» على وزن «مهد وجهد» على وزن «كفر» كلاهما يعني السعي الجاد وجهيد على وزن «فعيل» من هذه المادة يذكر للتأكيد وعليه فجهد وجهيد تعني منتهى السعي.

وكَانَ قَدْ عَبَدَاللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَة، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي[1] الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْأخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَة وَاحِدَة».

والعبارة «لا يُدرى أمِنْ سِنِي الدُّنْيا أمْ مِنْ سِنِي الأخِرَةِ» لا تعني عدم علم الإمام بهذا الأمر، بل إشارة إلىٰ أنّ الناس لا يعلمون بذلك، والمراد من سنوات الدنيا هذه السنوات التي نعيشها والمعلومة المقدار، كما أنّ سنوات الآخرة ما أشير إليه كراراً في القرآن الكريم ومن ذلك: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[2].

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يمكن زوال ستة آلاف سنة من العبادة بساعة من التكبر؟ والجواب واضح؛ فالبناء عمل شاق وطويل، أمّا الهدم فعمل بسيط وسريع، فقد يستغرق بناء بيت عدّة سنوات إلّا أنّ حريقاً يحيله خراباً خلال لحظات، كما يبنى السد العظيم في عدّة سنوات بينما ينهار بطرفة عين بفعل الزلزال أو تفجيره بالديناميت والمواد المفجرة، ومسألة إحباط الأعمال بفعل بعض الذنوب لمن المطالب المهمّة التي سنتعرض إليها في مبحث التأمّلات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلىٰ أنّ مصير المتكبرين من البشر هو ذات مصير إبليس فقال: «فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلاً، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْر أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً».

ثم قال عليه السلام في التأكيد على هذا المعنى: «إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ. ومَا بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ أَحَد مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ[3] فِي إِبَاحَةِ حِمىً[4] حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ».

إشارة إلىٰ أنّ جميع المكلفين سواسية أمام الله تعالى وليس لأي أحد أي امتياز على آخر، فليس لله مع أحد من قرابة، والمعصية من أي عبدٍ صدرت هي معصية،

١. «سني» هي سنين في الأصل وحذفت النون للإضافة.
٢. سورة الحج، الآية ٤٧ وقريب من هذا المعني سورة السجدة، الآية ٥.
٣. «هوادة» بمعنى اللين والرخصة.
٤. «حمى» بمعنى المنطقة المحظورة من حمى على وزن «نفى» بمعنى المنع والاعراض.

والطاعة هي الطاعة فلا ينبغي أن يتصور البعض أنّ العقاب الأليم الذي شمل إبليس على تكبره يختص به والآخرون بمعزل عن ذلك إن إرتكبوا نفس الفعل.

تأملات

١. حبط الأعمال

جاء في هذا الجانب من الخطبة أنّ عبادة ستة آلاف سنة قد ذهبت هدراً بفعل ساعة من الكبر ومسألة الاحباط والتكفير، وبعبارة أخرىٰ زوال الأعمال الحسنة أو تدارك الأعمال السيئة بالتوبة والطاعة، لمن المسائل المهمّة التي حظيت باهتمام المتكلمين والمفسرين وأرباب الحديث.

فالذي يستفاد من بعض الآيات القرآنيّة أنّ هناك سلسلة من الأعمال السيئة التي من شأنها القضاء على الأعمال الصالحة ومنها الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر الذي ورد في الآية ٨٨ من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والآية ١٤٧ من سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وصرّحت الآية ٧ من سورة العنكبوت بشأن التكفير قائلة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

طبعاً هذا لا يعني جعل السيئات والحسنات أمام بعضهما البعض الآخر يوم القيامة بحيث لوكانت الحسنات أكثر لما اكترث للسيئات أو لوكانت السيئات أكثر أهملت الحسنات بصورة كليّة. فليس هنالك هذا النوع من الاحباط والتكفير وهولا ينسجم مع الآيات القرآنيّة أيضاً فقد جاء في الآيتين ٧ و٨ من سورة الزلزال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

وزبدة الكلام إنّ لكلّ عمل صالح وطالح آثاره الخاصّة عند الله يوم القيامة، ولكن لهذا المطلب استثناءات فهنالك بعض الأعمال الصالحة التي تغطي الأخطاء، وبعض الأعمال القبيحة التي تزيل الحسنات[١].

---

١. للوقوف على المزيد بهذا الشأن انظر: التفسير الأمثل ذيل الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

٢. هل إبليس من الملائكة؟

جاء في هذا القسم من الخطبة أنّ إبليس كان من الملائكة وقد طرده الله من الجنّة ومن حضيرة الحقّ لتلك المعصية الكبيرة.

ولعل هذه العبارة توحي بأنّ إبليس كان حقّاً من الملائكة بينما يصرّح القرآن علانيّة: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[1].

كما جاء في القرآن من جانب آخر أنّ الملائكة معصومون ولا يقارفون المعصية قط: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[2]. فكيف لملك معصوم أن يتمرد على أوامر الله ويسلك طريق الكفر ومخالفة الله تعالى؟!

ومن هنا يتّضح أنّ إبليس كان في مصاف الملائكة بفعل عبادته الكثيرة ولم يكن حقّاً من الملائكة فهذه العبارة وإن كانت مجازية إلّا أنّ القرائن الكثيرة والواضحة تزيل أيّ إبهام.

٣. كبر إبليس أساس كفره

يستفاد من الآيات القرآنيّة والروايات الإسلاميّة وهذه الخطبة أن كبر إبليس أدّىٰ بالتالي إلىٰ كفره، أقصى درجات الكفر، ذلك لأنّه اعترض على حكمة الله وعدّ أمره بالسجود لآدم منافياً للحكمة ولذلك عوقب بأشدّ العذاب وهو الطرد من حضيرة القدس وحبطت أعماله وعبادته التي استغرقت ستة آلاف سنة.

فالكلام يحمل رسالة واضحة للجميع هي عدم الاستخفاف بالكبر والعصبية، التي قد تقود أحياناً إلىٰ الكفر واحباط الأعمال والطرد من القرب الإلهي، طبعاً كان بإمكان إبليس أن يرجع ويتوب، ولكن كان أوّل شرط في توبته طاعة أمر الله في السجود لآدمعليه السلام ، فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال:

---

١. سورة الكهف، الآية ٥٠.

٢. سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

«وَاللهِ لَو أنّ إبْليسَ سَجَدَ للهِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ والتَّكَبُّرِ عُمْرَ الدُّنيا، ما نَفَعَهُ ذلِكَ ولا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ ما لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ كَما أمَرَ اللهُ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ»[١].

٤. وحدة حكم الله في الجميع

إنّ أحد الدروس المهمّة في هذا الجانب من الخطبة هي أنّ علاقة الخلق بالخالق علاقة الطاعة والعبودية وأنّ جميع مخلوقات الله سواسية في الأحكام في الشرائط المتساوية أو المتشابهة وما يعتقده طائفة من اليهود والنصارى أنّهم أبناء الله وخواصه وسوف لن يَنالُهم سوى جانب من العقاب على أعمالهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٢] إنّما هي عقيدة خاطئة وفكرة باطلة.

وعليه فإنّ كلّ كبر وعصبية وعصيان سيؤدي إلى الطرد من رحمة الله وسوف لن يكون مصير كلّ من ارتكب هذه المعصية سوى مصير إبليس، وهذه القاعدة سارية على جميع العباد على اختلاف مراتبهم.

---

١. الكافي، ج ٨، ص ٢٧١.

٢. سورة المائدة، الآية ١٨.

القسم الثالث

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُواللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِـهِ، وأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ ورَجِلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَـهْمَ الْـوَعِيدِ، وأَغْـرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، ورَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَـرِيبٍ، فَـقَالَ: (رَبِّ بِـمآ أَغْـوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، ورَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وإِخْوَانُ الْـعَصَبِيَّةِ، وفُـرْسَانُ الْكِـبْرِ والْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، واسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِـنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الأَمْرِ الْـجَلِيِّ، اسْـتَفْحَلَ سُـلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، ودَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ ولَجَاتِ الذُّلِّ، وأَحَلُّوكُمْ وَرَطَـاتِ الْقَتْلِ، وأَوْطَؤُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وحَزّاً فِـي حُـلُوقِكُمْ، ودَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْـمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وأَوْرَى فِي دُنْيَاكُـمْ قَـدْحاً مِـنَ الَّـذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، ولَهُ جَدَّكُمْ.

الشرح والتفسير

أعدى أعداء الإنسان

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في الاستنتاج من قصة ضلال الشيطان وطرده من الرحمة إثر كبره وعصبيته ليحذر الجميع من سوء العاقبة والمصير فقال: «فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُو اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ[1] بِدَائِهِ، وأَنْ

---

١. «يعدي» من «عدو» على وزن «صبر» تعني في الأصل التجاوز والعدوان والعداوة معروفة و«عدوى» بمعنى ☜

يَسْتَفِزَّكُمْ[١] بِنِدَائِهِ، وأَنْ يُجْلِبَ[٢] عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ ورَجِلِهِ[٣]». وعبارة الإمام عليه السلام هذه اقتباس من القرآن الكريم حيث قال تعالىٰ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[٤].

وخيل تعني الفرس وكذلك الفرسان وأريد بها هنا المعنى الثاني ورجل تعني المشاة وهي إشارة إلىٰ كثرة الأعوان الذين يقفون إلىٰ جانب الشيطان سواء من نوعه أو من البشر والذين يعينونه على إضلال الآخرين؛ فبعضهم سريع كالفرسان والآخر بطيئ كالمشاة.

وبالطبع فإنّ الصفات الرذيلة وعوامل المعصية ومراكز الفحشاء والدعايات السامة والمضلّة ووسائل الذنوب تعدّ من أعوان الشيطان وجنوده حيث حذّر الإمام عليه السلام الناس من كلّ هذه الأمور.

ثم أقسم الإمام عليه السلام بعمره لتأكيد هذا الكلام فقال عليه السلام: «فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ[٥] لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وأَغْرَقَ[٦] إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ[٧] الشَّدِيدِ، ورَمَاكُمْ مِنْ مَكَان قَرِيب».

ثم استشهد الإمام عليه السلام بقوله تعالىٰ عن إبليس: «فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾».

أمّا قسم الإمام عليه السلام بعمره فيشير إلىٰ أنّ القضية غاية في الجدية؛ وليت شعري أي

☜ الركض وكذلك بمعنى انتقال المرض من شخص لآخر وهذا هو المراد في العبارة أي أنّ الشيطان ينقل إليكم مرضه في التعصب والغرور.

١. «يستفز» من «استفزاز» بمعنى الاستنهاض والإثارة.

٢. «يجلب» من «جلب» بمعنى الصراخ بشخص أو نقله من موضع إلىٰ آخر.

٣. «رجل» جمع «راجل» بمعنى المشاة.

٤. سورة الاسراء، الآية ٦٢.

٥. «فوق» من «فوق» موضع الوتر من السهم، إشارة إلىٰ أنّ الشيطان استعد لاطلاق سهمه عليكم والمفردة تشير إلىٰ هذا المعنى.

٦. «اغرق» من مادة «اغراق» و«غرق» على وزن «ورق» استوفى مد قوسه ويطلق أيضاً على كلّ عمل بمنتهى السعي.

٧. «نزع» بمعنى استئصال الشيء أو جره مثل مد القوس.

شيء أشرف من عمر الإمام وقوله عليه السلام إنّ الشيطان فوّق لكم سهم الوعيد واغـرق إليكم بالنزع الشديد إشارة إلىٰ أنّ خطر الشيطان قد أحاط بكم بأخدع صوره التي قلّما تخطئ وقد دلكم على سبله وذلك من خلال المظاهر الماديّة للدنيا وتـزيين نعمها الماديّة والغرق في مستنقع الشهوات واللذات.

وتعبير الإمام عليه السلام بأنّ الشيطان جند طاقاته وقواه كافّة واستعد للهجوم عـليكم وقد استهدفكم من مكان قريب فكنتم في مرماه من كلّ جانب، إشـارة إلىٰ كـثرة عناصر الوساوس الشيطانيّة في باطن الإنسان وخارجة، فهوى النفس مـن جـهة والعوامل الخارجية للمعصية من جهة أخرىٰ.

والعبارة ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ التـي تـبدأ بـلام القسـم ونـون التـوكيد الثـقيلة وتنتهي بالمفردة أجمعين، شاهد على أنّه بمنتهى الجد في تحقيق اهدافه المشؤومة، ومن هنا لابدّ أن يعيش الناس اليقظة والحـذر حـتى لا يـقعوا فـي شـباك فـخّه ومصائده.

جدير ذكره أنّ العبارة: «رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي...» من أكاذيب الشيطان وافترائـاته على الله تعالى والتي تشير إلىٰ مدى تمرده ووقاحته بحيث يفتري على الله مثل هذا الكذب، الله الذي يهدي الجميع ويزودهم بعناصر الهدى، ولما كان كلام الشـيطان واضح البطلان فالقرآن لا يرد عليه، فكيف يضلّه الله سبحانه وتعالى وهو الذي أمره والملائكة بقوله: ﴿فَإِذا نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ فالشرف الذي حظى به آدم عليه السلام على أساس روح الله التي نفخت فيه، إلّا أنّ الشيطان الحسود والأناني تجاهل ذلك واكتفى بالنظر إلىٰ خلقه من الطين ! فهل الضلال كان من جانب الله أم من نفس الشيطان؟!

ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه: «قَذْفاً بِغَيْب بَعِيد، ورَجْماً بِظَنّ غَيْرِ مُصِيب».

فقد وردت العبارة «رَجْماً بِظَنّ غَيْرِ مُصِيب» بـهذه الصـيغة فـي أغـلب نسـخ نهج البلاغة والتي يظن أحياناً أنّها لا تنسجم مع الآية الشريفة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] والحال إنّ الآية الشريفة نازلة بشأن قوم سبأ لا بشأن جميع الناس وإلّا فالمؤمنون ليسوا بقلّة في أمم الأنبياء.

ورجّحت طائفة من شرّاح نهج البلاغة النسخة الأخرىٰ التي لا تتضمن كلمة «غير» وبصيغة: «رَجْماً بِظَنٍّ مُصِيب» لأنّهم قالوا إنّ ظن الشيطان بشأن الناس مطابق للواقع حيث لم ينج من وساوسه سوى قلّة قليلة من الناس وهذا ما صرح به القرآن الكريم إذ قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٢] وقال في موضع آخر: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٣].

أضف إلىٰ ذلك بأنّها أكثر انسجاما مع العبارة التالية في هذه الخطبة التي قال فيها: «صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وفُرْسَانُ الْكِبْرِ والْجَاهِلِيَّةِ».

فالعبارة: «أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ» كناية عن أنّهم عجنوا بالكبر على درجة وكأنّهم أصبحوا أبناءه كما أنّ التعبير إخوان العصبيّة كناية عن علاقتهم الوثيقة بالعصبيات القبليّة والقوميّة وما شابه ذلك.

والعبارة «وفُرْسَانُ الْكِبْرِ والْجَاهِلِيَّةِ» كناية عن أنّهم بلغوا درجة من الكبر والجهل والغرور وكأنّهم اعتلوا مركباً من الجهل والكبر اندفعوا به إلىٰ الأمام.

ثم قال الإمام عليه السلام: «حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ[٤] مِنْكُمْ، واسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ[٥] مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ[٦] الْحالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الأَمْرِ الْجَلِيِّ. اسْتَفْحَلَ[٧] سُلْطَانُهُ

١. سورة سبأ، الآية ٢٠.

٢. سورة سبأ، الآية ١٣.

٣. سورة ص، الآية ٢٤.

٤. «جامحة» بمعنى الحيوان الجامح. من «جموح» على وزن «فتوح».

٥. «الطماعية»، «طماعية» و«طمع» بمعنى واحد.

٦. «نجمت» من «نجوم» بمعنى ظهرت كما يطلق على النبات بدون ساق لأنّه يظهر من الأرض و يطلق على النجوم لأنّها تظهر في السماء.

٧. «استفحل» من مادة «استفحال» ومن «فحل» على وزن «نخل» بمعنى العظيم البارز و«استفحال» الثقيل والمتعب.

عَلَيْكُمْ، ودَلَفَ[١] بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ».

إشارة إلىٰ أنّ إبليس يسعى بادئ الأمر إلىٰ الهيمنة على الأفراد الذين يتمردون عليه ثم يرسخ قاعدته لديهم ثم يبسط نفوذه عليهم فيهجم عليهم بجنوده والحال فهم فقدوا قدرتهم الدفاعيّة وعانوا من أنواع المصائب الماديّة والمعنويّة، كما أشار الإمام عليه السلام بثمان عبارات قصيرة عميقة المعنى إلىٰ آثار ذلك الهجوم الشيطاني الواسع فقال: «فَأَقْحَمُوكُمْ[٢] وَلَجَاتِ[٣] الذُّلِّ، وأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ[٤] الْقَتْلِ، وأَوْطَؤُوكُمْ[٥] إِثْخَانَ[٦] الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وحَزّاً[٧] فِي حُلُوقِكُمْ، ودَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ[٨]، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وسَوْقاً بِخَزَائِمِ[٩] الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ».

فهذه العبارات الغاية في الدقة والبيان والمقرونة بمنتهى البلاغة والفصاحة تجسد عظم بؤس المهزومين أمام الشيطان، الذين إن هربوا من جنده وأعوانه ولجأوا إلىٰ كهف فسوف لن يكون سوى كهف الذل والهوان وإن قاوموا فليس لهم من مصير سوى الموت والفناء كما أنّ موتهم سوف لن يكون هيناً بل ممزوج بالضرب والجرح وغرز السهام في العيون وقطع الحناجر وتحطيم الأنوف وبالتالي سوف يجرون إلىٰ نار الغضب الإلهيّة.

ثم خلص عليه السلام إلىٰ استنتاج قاطع فقال: «فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً[١٠]،

---

١. «دلف» من «دلوف» بمعنى المشي ببط ورفع الخطوات القصيرة وتشير هنا إلى التقدم التدريجي للشيطان.

٢. «اقحموكم» من مادة «قحوم» بمعنى العمل دون تروي و «اقحام» يعني حمل شخص بالقوّة على عمل معين.

٣. «ولجات» بمعنى الملاجئ والكهوف جمع «ولجة» على وزن «درجة» ما يلجا إليه المارة عند المشاكل.

٤. «وَرَطات» بمعنى المشاكل والمهالك جمع «وَرَطه» على وزن «غفله».

٥. «اوطأوكم» من مادة «وَطئ» بمعنى الوطئ بالارجل.

٦. «اثخان» من «ثخونة» تعني في الأصل الضخامة والغلظة و«اثخان» المبالغة في قتل العدو.

٧. «حزّ» بمعنى القطع.

٨. «مناخر» جمع «منخر» الانف أو خرم الانف.

٩. «خزائم» جمع «خزامة» على وزن «كتابة» حلقة توضع في أنف البعير فيشد فيها الزمام ويسحب عند الجماح.

١٠. «حرج» على وزن «خرج» و«حَرَج» على وزن «حرم» بمعنى الانزعاج والمحدودية الشديدة وتعني في الأصل اجتماع الأشجار والتفافها.

وأَوْرَى[1] فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً[2] مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ[3]، وعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ[4]. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ[5]، ولَهُ جِدَّكُمْ[6]».

إشارة إلىٰ أنّ إبليس أعدى أعدائكم في الدين والدنيا وخطره أعظم من خطر كلّ عدو فلابد من تجنيد طاقاتكم لمواجهته.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الفساد بالحرج يعني الصعوبة والمشقّة (ووردت في بعض النسخ جرح والتي تبدوانسب للعبارة) وعن وساوس الشيطان المضلّة بالقدح (ما يشعل به النار)، لأنّ قداحة صغيرة يمكن لها أن تحرق بيتاً أو حياً، ووساوس الشيطان قد تقود أحياناً إلىٰ تصدع مجتمعات وإنهيارها، ولا سيما العصبيات العمياء والكبر والغرور كما ذُكر في الخطبة حيث تأجيج نيران القبليّة التي تدعو إلىٰ مزيد من سفك الدماء واغراق الأرض بها من الأفراد الأبرياء.

والتعبير بالجد بفتح الجيم بمعنى القطع تشير إلىٰ قطع العلاقة مع إبليس وعدم طاعة أوامره (وقد ورد الجد في بعض النسخ بكسر الجيم والذي يعني السعي والمثابرة والذي يبدو أنسب للعبارات السالفة) فالبعض يبذل قصارى جهده وسعيه في مجاهدته لإبليس وجنده.

٭٭٭

١. «أورى» من مادة «وَرَى» على وزن «نفى» تعني في الأصل الاخفاء ويطلق الورى على النار الكامنة في الوسائل النارية وتقتدح عن طريق الجدحة وتعني في هذه العبارة اشعال النار.

٢. «قَدْح» اخراج النار من الآلة (شيء أشبه بالكبريت).

٣. «مناصبين» جمع «مناصب» بمعنى المجاهر بالعداوة من مادة نصب بمعنى العداوة.

٤. «متألبين» طائفة تجتمع على القيام بعمل من ماده «ألب» على وزن «سلب» بمعنى الاجتماع.

٥. «حدّ» و«حدّت» بمعنى الشدّة والغضب، وفي الأصل بمعنى الحدّة.

٦. «جدّ» يعني القطع. ولما كان كلّ موجود عظيم يمتاز عن الآخرين فقد اطلق على الجد وورد في الآية الشريفة ﴿وأنّه تعالى جَدُّ رَبِّنا﴾ إشارة إلىٰ عظمة الله والمعنى المراد بها قطع العلاقة.

القسم الرابع

فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، ووَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، ودَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، ويَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وحَلْقَةِ ضِيقٍ، وعَرْصَةِ مَوْتٍ، وجَوْلَةِ بَلَاءٍ. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ ونَخَوَاتِهِ، ونَزَغَاتِهِ ونَفَثَاتِهِ. واعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وأَعْوَاناً، ورَجِلاً وفُرْسَاناً، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، ونَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير

التحذير من التشبه بالشيطان أو قابيل

عبأ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الجميع للوقوف بوجه الشيطان ووساوسه وأشار إلى سوابقه السيئة وعداوته بعبارات تفيض فصاحة وبلاغة فقال:

«فَلَعَمْرُ اللهِ[١] لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ[٢]، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ وقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ».

وهذه العبارات العميقة المعنى هي اقتباس من الآيات القرآنيّة الشريفة؛ فالآية ٣٣ من سورة الحجر تشير إلىٰ أنّ الشيطان حقر آدم بهذه الصيغة قائلاً: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ فغروره وحسده وتكبره جعله يتناسى العبارة: ﴿نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ من كلام الله والتي تعدّ من أعظم مفاخر آدم عليه السلام، كما قال تعالىٰ عن إبليس في الآية ١٢ من سورة الأعراف ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ والحال لو تخلى عن كبره وغروره لأيقن أنّ التراب هو مصدر أنواع البركات وأساس حياة الموجودات وهو أفضل من النار، وصرّحت الآية ٦٤ من سورة الإسراء أنّ الله تعالى قال له: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كما قال تعالىٰ عن الشيطان في الآية ١٦ من سورة الأعراف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وهنا تكمن خطورة هذا العدو الذي ينبغي الحذر منه فهو لا يقرّ بشخصية آدم الرفيعة ولا يسلم بنسبه وقد جند طاقاته كافّة من أجل اغوائه واضلاله.

ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه: «يَقْتَنِصُونَكُمْ[٣] بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ[٤]. لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ. فِي حَوْمَةِ[٥] ذُلٍّ، وحَلْقَةِ ضِيقٍ، وعَرْصَةِ مَوْتٍ، وجَوْلَةِ بَلَاءٍ».

---

١. «العمر الله» «عَمْر»، بفتح «العين» بمعنى العمر، بضم «العين» يستعمل في القسم وعليه فالعبارة لعمري تعني أقسم بنفسي و«لعمر الله»: تعني ببقاء ذات الله تعالى.

٢. «حسب» تذكر هذه العبارة عادة مقرونة بالنسب لكنهما مختلفان في المعنى. فالحسب في الأصل قدر الشيء ومنزلته وشرفه وبما أنّ الأصل والنسب يؤثر على منزلة الإنسان وقدره فإنّ هذه المفردة تشمل أيضاً النسب الرفيع والعزيز فيقال الحسب لمقدار كلّ شيء، والواقع أنّ هذه المفردة أخذت من مادة حساب لأنّ الأفراد يحسبون مفاخرهم ومفاخر آبائهم عند ذكر الحسب.

٣. «يقتنصون» من مادة «قنص» علي وزن «حبس» بمعنى يصيدون.

٤. «بنان» جمع «بنانة» تعني لغوياً الأصابع ورؤوس الأصابع والشخص الذي تقطع بنانه لا يقوى على العمل.

٥. «حومة» بمعنى أهم موضع في الشيء وتطلق الحومة على القسم الرئيسي من القتال أو الذل.

والعبارة: «وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ» تشبه ما ورد في القرآن الكريم بشأن هجوم الملائكة على الكفار يوم بدر: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]. فإنّ قطع كلّ بنان إن كان بشأن الأيدي يؤدّي بالإنسان إلىٰ العجز عن الإتيان بأغلب الأعمال، ذلك لأنّ لكلّ عمل وسيلة ووسائل الأعمال عادة الأصابع والأيدي، وإن كان المراد بنان الأرجل فذلك يؤدّي إلىٰ اختلال توازن الإنسان حين المشي والعبارة الواردة في الخطبة إشارة إلىٰ أنّ الشياطين يهجمون عليكم ويعيقونكم عن العمل بحيث يسلبونكم زمام التفكير والقدرة على اتخاذ القرار.

ثم ركز الإمام عليه السلام على لب الموضوع فاستعار تشبيهات غاية في الجمال وبمنتهى الفصاحة والبلاغة ليحذر الجميع من الآثار السيئة للعصبية العمياء والكبر الأجوف فقال عليه السلام: «فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ[2]، وَنَزَغَاتِهِ[3] وَنَفَثَاتِهِ[4]».

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذه العبارات العصبيات الطائشة والأحقاد الجاهلية بالنار الكامنة في أعماق القلوب التي تقتدح فجأة وتلتهم جميع كيان الإنسان فتسري إلىٰ الخارج لتعم وتحرق أمم بأسرها، ويعدّ الإمام عليه السلام هذه الصفة الرذيلة من وساوس الشيطان والتي تنتقل من الخارج إلىٰ بواطن المسلمين أي هي قريبة من المسلم الحقّ.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «واعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ

---

١. سورة الأنفال، الآية ١٢.

٢. «نخوات» جمع «نخوة» بمعنى الكبر.

٣. «نزغات» جمع «نزغة» بمعنى الفساد من مادة «نزغ» على وزن «وضع» بمعنى الدخول في فعل بقصد الافساد.

٤. «نفثات» جمع «نفثة» بمعنى ما يخرج من الفم من اللعاب وفي الأصل من مادة «نفث» على وزن «حبس» بمعنى النفخ واستعملت هنا لخروج مقدار من اللعاب حين النفخ على الشيء وهي كناية عن وساوس الشيطان في العبارة، السائد بين السحرة أنّهم يقرأون بعض الأوراد عند السحر وينفخون على الشخص المطلوب فهي كناية عن الوسوسة.

تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً[١] بَيْنَكُمْ وبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وجُنُودِهِ».

فقد شبّه الإمام عليه السلام في هذه العبارات التواضع بالتاج والتعزز بما يلقى تحت الأقدام ممّا لا قيمة له وشبّه التكبر بالغل الذي يوضع على العنق والبساطة بالمسلحة أو بالموضع الذي يحفظ الإنسان من مكائد العدو وكلّ منها يحمل رسالة واضحة للناس ولا سيما الأفراد المؤمنين منهم.

ثم بين الإمام عليه السلام دليلاً واضحاً لهذه الوصايا فقال: «فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وأَعْوَاناً، ورَجِلاً وفُرْسَاناً».

طبعاً ليس جميع هؤلاء من الجن بل بعضهم من الناس الشياطين من الضالّين والمضلّين أعوان الشيطان وأنصاره وقد قال القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[٢].

وهنا تطرق الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة وعميقة المعنى إلىٰ قصّة قابيل الشخص الثاني بعد الشيطان الذي إعتراه الكبر والعصبيّة فارتكب جناية عظيمة وغاص في وحل الندم والشقاء فقال عليه السلام: «وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ».

العبارة «ابن أُمّه» بدلاً من أخ إشارة إلىٰ البعد العاطفي للموضوع، أي أنّ التكبر فعل فِعله رغم تلك العلاقة العاطفيّة بينهما فدفعه لقتل أخيه ولعلنا نلمس شبيه هذا المعنى في قصة موسى وهارون حين نقم على عبادة بني إسرائيل للعجل وقد أخذ برأس أخيه هارون فناداه على سبيل آثارة عواطفه: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾[٣].

---

١. «مسلحة» بمعنى موضع الجمع وبعبارة أخرىٰ يطلق على المواضع ومخازن السلاح لأنّهم يجمعون عادة مقداراً من الأسلحة في الموضع وقد وردت بهذا المعنى في العبارة السابقة.

٢. سورة الأنعام، الآية ١١٢.

٣. سورة طه، الآية ٩٤.

والعبارة: «سِوى ما أَلْحَقَتِ» من قبيل ما يصطلح عليه بالاستثناء المنقطع وقد وردت هنا لشدة الذم كأن نقول: «ليس لفلان من فضل سوى الكذب والخيانة».

والعبارة: «عَداوَةُ الْحَسَد» إشارة إلىٰ أنّ الحسد يؤدّي بالإنسان إلىٰ العداوة والخصومة؛ العداء الذي من شأنه أن يكون مدعاة لقتل الأخ لأخيه.

ثم خاض الإمامعليه السلام في توضيح هذا الأمر فقال: «وقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، ونَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وأَلْزَمَهُ آثَامَ[1] الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ».

ويستفاد من هذه العبارات أنّ الانحرافات إنّما تنطلق بادئ الأمر من باطن الإنسان ثم يعمقها الشيطان لتطال آثارها المشؤومة الإنسان وعليه فكلّ ما هنالك يعزى إلىٰ باطن الإنسان الملوث وهذا رد حاسم على أولئك الذين يقولون لماذا يفعل الشيطان كل هذا ولماذا يبتلينا الله تعالى بكلّ تلك المصائب.

وقد نقل ابن أبي الحديد عند هذه العبارة حديثاً عن رسول اللهصلى الله عليه وآله رواه المؤرخ المعروف الطبري أنّه قال: «ما مِنْ نَفس تُقْتَلُ ظُلْماً إلاّ كانَ عَلى ابْن آدَمَ الأَوّلَ كِفْلٌ مِنها وذلِكَ بِأَنَّهُ أَوّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وأضاف ابن أبي الحديد: إنّ كلام أمير المؤمنينعليه السلام في هذه الخطبة يؤيد ذلك[2].

وقد وردت عدّة أبحاث مطولة في الروايات الإسلاميّة بشأن إقامة السنة الحسنة والسنة السيئة وآثارهما سنتطرق إلىٰ ذلك إن شاء الله في محله والذي يمكن قوله على نحو الخلاصة: إنّ كلّ من سن فعل خير وحثّ الناس على القيام به فهو شريك لهم في الأجر والثواب ومن سن سنة سيئة فهو شريك لهم في الذنب والمعصية بسبب انتهاكه للحرمات وتشجيعه الناس من ضعاف الإيمان على المعصية.

---

١. «آثام» جمع «إثم» بمعنى الذنب و تعني في الأصل تلك الحالة التي يصل إليها روح و عقل الإنسان و يمنعه من الوصول الى الكمال والحسنات.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ١٤٦.

القسم الخامس

أَلَا وقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وأَفْسَدْتُمْ فِي الأَرْضِ مُصَارَحَةً للهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، ومُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللهَ اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَآنِ، ومَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، والْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، ومَهَاوِي ضَلَالَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ. أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وجَاحَدُوا اللهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، ومُغَالَبَةً لِآلَائِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، ودَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وسُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً. وَلَا تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ. وجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ ودُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، ونَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، ومَوْطِئَ قَدَمِهِ، ومَأْخَذَ يَدِهِ.

الشرح والتفسير

اجتناب تبعية المتكبرين

لما فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمات في المقاطع السابقة بشأن مخاطر الكبر

والغرور والعصبية حذر مخاطبيه مباشرة من سوء عاقبة السير على هـذا المسـار الشيطاني وألقىٰ باللائمة على أولئك الذين يثيرون الخلافات والنزاعات ويؤججون نيران الصراعات تحت ذرائع واهية تستند إلىٰ العصبية القبلية والتفاخر الذي تقوم به جماعة على أخرىٰ فقال عليه السلام: «**أَلاَ وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ[1] فِي الْبَغْيِ، وأَفْسَدْتُمْ فِـي الأَرْضِ مُصَارَحَةً[2] للهِ بِالْمُنَاصَبَةِ[3]، ومُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنينَ بِالْمُحَارَبَةِ**».

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المخاطب بهذه العبارات هم جند الشـام واتباع معاوية ولعلهم إستندوا في ذلك إلىٰ خطاب الإمام عليه السلام اللاذع والشديد الذي لم يكن مناسباً لما عليه أهل الكوفة والعراق، في حين يفهم من سبب هذه الخطبة وسائر الخطب أنّ مخاطبي الإمام عليه السلام هم طغاة الكوفة والعراق الذين كانوا يثيرون الصراعات بين القبائل وأدّوا إلىٰ المزيد مـن الفسـاد وإراقـة الدمـاء انـطلاقاً مـن التعصبات الجاهليّة والقبليّة؛ الأمر الذي يعتبر عداءً صريحاً لله من جانب وحـرباً شعواء على المؤمنين من جانب آخر.

ثم اشتد كلام الإمام عليه السلام فخاطبهم قائلاً: «**اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ، ومَنَافِخُ الشَّيْطَانِ**».

وبالنظر إلىٰ أنّ «ملاقح» جمع «ملقح» على وزن مجرم، فإنّ مفهوم العبارة أنّ الكبر والتعصب سبب ايجاد البغض والعداوة وكذلك «منافخ» جمع «منفخ» عـلى وزن «مصرف» وسيلة ينفخ بواسطتها ومفهومها أنّ الشيطان يوسوس في القـلوب عن هذا الطريق ويسوقهم إلىٰ الفساد.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ آثار ومخاطر هذه الوساوس والنفخات الشيطانيّة فقال:

---

١. «أمعنتم» من مادة «إمعان» بمعنى المبالغة في القيام بشيء مشتقة في الأصل من مادة «معن» على وزن «دهن» بمعنى ارتواء الأرض بالماء.

٢. «مصارحة» من مادة «صرح» بمعنى الوضوح والظهور ومصارحة تعني مواجهة الشخص بصورة علنية.

٣. «مناصبة» من مادة «نصب» على وزن «نسب» بمعنى التعب والمشقّة كما تعني المناصبة التظاهر بالعداوة التي تؤدّي إلىٰ تعب ومعاناة الطرفين.

«الَّتِي خَدَعَ بِهَا الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، والقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا[١] فِي حَنَادِسِ[٢] جَهَالَتِهِ، ومَهَاوِي[٣] ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً[٤] عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً[٥] فِي قِيَادِهِ».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ».

في إشارة إلىٰ أنّ مسألة الكبر والغرور وآثارها ومخاطرها الجمة أمر متجذر في جميع الأمم والشعوب والذي كان مصدر الحروب الدموية والنزاعات الواسعة ومختلف أنواع الجرائم والجنايات والحماقات.

فالتكبر والتعصب صفتان سودتا وجه التاريخ البشري واللتان تعتبران من أهم شباك الشيطان في العصور الماضية والحاضرة والقادمة.

نقل أحد شرّاح نهج البلاغة (المرحوم محمد جواد مغنية) في شرحه أنّ الفيلسوف الانجليزي المعروف (راسل) قال: إنّ كلّ إنسان يحب أن يكون إلهاً والغريب قلّ من يعتقد أنّ هذا الأمر محال، ثم يضيف هذا الشارح العالم أنّ هذا الكلام صحيح إلّا أنّ أولئك الذي يتمنون أن يكونوا آلهة ولا يبلغون ذلك يعمدون لاشباع رغباتهم الباطنيّة إلىٰ التكبر والفخر بالعظام البالية لآبائهم أو ما هم عليه من مقام أو ذكر أسمائهم في الصحف.

ثم ركز الإمام عليه السلام على الموضع الأصلي للقضية والذي يكمن في الطاعة العمياء لزعماء القبائل والمفسدين والمتكبرين الأنانيين الذين يدعون الناس إلىٰ أهوائهم وملذّاتهم ويثيرون الفتن والمفاسد فقال عليه السلام: «أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ

---

١. «أعنقوا» من مادة «عنق» بمعنى الرقبة و«عناق» الاسراع في الذهاب خلف الشيء.

٢. «حنادس» جمع «حندس» على وزن «قبرص» بمعنى الظلام ومن هنا يقال حنادس لليالي الثلاثة الأخيرة في الشهر لشدّة ظلمتها وامتزاجها بالمحاق.

٣. «مهاوي» جمع «مهواة» يعني الحفرة كما تعني الحفرة العميقة التي يقع فيها السيل وليس له من سبيل.

٤. «ذلل» جمع «ذلول» بمعنى الشخص المنقاد والمستسلم للحيوان الهادئ.

٥. «سُلُس» جمع «سلس» على وزن «خشن» بمعنى السهل والمنقاد.

وكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ[١] عَلَى رَبِّهِمْ، وجَاحَدُوا اللهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، ومُغَالَبَةً لِآلَائِهِ[٢]».

فهذا الكلام في الواقع اقتباس من الآية القرآنيّة الشريفة التي يظهر فيها الناس ندمهم يوم القيامة على طاعتهم لكبرائهم وزعمائهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاً * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾[٣].

وإننا كلّما تأمّلنا تاريخ البشريّة الماضي نرى أنّ أحد العناصر الرئيسيّة في الحروب والصراعات وإراقة الدماء كان يكمن في التكبر والعصبيات القبلية والقوميّة والتي ما زالت قائمة لحد الآن، وهي أحد العوامل المهمّة في نشوب الحرب العالمية الأُولىٰ والثانية التي حطمت دولاً من العالم وأودت بحياة الملايين من الناس، والحال لو أمعن الإنسان النظر لأدرك أنّ أصله من التراب وأصله الآخر نطفة لا قيمة لها ونهايته جثة متعفنة، فقد نهى الإسلام عن الافتخار بالآباء والمناصب والتمسك ببعض الألقاب التي تفرز الغرور والغفلة، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «حُبُّ الرَّجُلِ دِينُهُ، ومُرُوَّتُهُ، خُلْقُهُ، وأَصْلُهُ عَقْلُهُ»[٤].

فقد قاله النّبي الأكرمﷺ حين حاول البعض الاستخفاف بسلمان الفارسي حين سألوه عن نسبه، فرد عليهم بأنّ نسبه عتقه من العبودية بواسطة النّبي الأكرمﷺ.

والعبارة: «أَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ» إشارة إلىٰ أنّ هؤلاء رأوا أنّ نسبهم هو الأفضل ونسب الآخرين أدنىٰ، ثم نسبوا دناءة نسب الآخرين إلىٰ الله تعالى، واعتقدوا أنّ الله تعالى خلق خلقاً فاضلاً وكانوا هم من ذلك الخلق، وخلق تعالىٰ خلقاً أدنى هم الآخرون كما نسبوا لأنفسهم ما نالوا من النعم الإلهيّة على أنّها تستند

---

١. «هجينة» بمعنى الفعلة القبيحة والمستهجنة من مادة هجونة.

٢. «آلاء» جمع «ألا» على وزن «جفا» أو إلا على وزن «فعل» بمعنى النعم وقيل بمعنى خصوص النعم المعنويّة خاصة حين تأتي مع مفردة النعمة، ويقال: «النعم والآلاء».

٣. سورة الأحزاب، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

٤. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٨١، ح ١٦.

إلىٰ كفائتهم وجدارتهم وتنكروا لنعم الله وآلائه وألطافه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ ذكر السبب الذي يقف وراء ضرورة عدم تبعية مثل هؤلاء الأفراد فقال: «**فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِزَاءِ[1] الْجَاهِلِيَّةِ**».

فقد شبّه الإمام عليه السلام العصبية والفتنة بالبيت، وأعمدته دعاة الفساد، وأركانه المتكبرون الأنانيّون، وقد نهى الجميع عن السكن في هذا البيت، كما شبه عليه السلام الشعارات السائدة في زمان الجاهليّة لإثارة القبائل وتأليبها على بعضها البعض الآخر، بالسيوف الحادة، ثم شبه زعماء الفساد بهذه السيوف.

فقد كان السائد في العصر الجاهلي أنّ أية قبيلة من القبائل إذا ما تعرّضت لتهديد من الطرف الآخر عمد زعماؤها بدلاً من اعتماد الفكر والمنطق في إصلاح الأمور وإرساء الصلح والسلام إلىٰ تأليب الآخرين على اطلاق شعارات الحرب مستغلين جميع الوسائل من أجل إثارة عواطف الأفراد الجهّال بغية تأجيج نار الحرب، سيما أنّ كل قبيلة كانت تنادي الأخرىٰ بأسماء آبائها وأجدادها السابقين فزعماء القبائل في الواقع هنا بمنزلة السيوف.

ويشير التاريخ إلىٰ أنّ الزعماء المتهافتين على المناصب والمقامات في العصور السابقة كانوا يعبئون الجماهير بمختلف الشعارات ويزجون بالجهّال في أتون الحرب بغية الحفاظ على مصالحهم ومقاماتهم ولعلنا نلمس اليوم ما عليه وسائل الإعلام العالميّة التي تعتمد شتىٰ الأساليب وبصورة واسعة بغية الحفاظ على الحكومات الاستكبارية ومصالح كبار رؤساء الأموال، وكما قال القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**﴾[2]، وهذه هي الفئة التي وقفت على الدوام بوجه الأنبياء الذين بعثوا لتنوير عقول الناس وهدايتهم إلىٰ

---

١. «اعتزاء» بمعنى النسب من مادة «عزو» على وزن «رزم».

٢. سورة النمل، الآية ٣٤.

الصراط المستقيم وبسط القسط والعدالة الاجتماعيّة، فهبت لمعاداتهم ومواجهتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[١].

ثم أضاف عليه السلام: «فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً».

في الواقع إنّ هؤلاء الذين يكفرون بنعم الله ويسلكون سبيل الكبر والغرور بدلاً من توظيف هذه النعم في خدمة الخلق إنّما يهبون لمناجزة نعمهم ويحسدون أنفسهم في ما أفاض الله عليهم ذلك لأنّ فعل هؤلاء بالنتيجة يتفق مع ما عليه الحساد والأعداء، فكلاهما ينشد سلب النعمة والفضل الإلهي من الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال: «وَلاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ[٢]».

ذهب بعض الشرّاح إلى أنّ المراد بالأدعياء ذلك المعنى الأصلي (الأفراد الذين لا حسب لهم ولا نسب، أبناء الحرام) بينما فسّرها البعض الآخر بأنّ المراد بها المنافقين، ذلك لأنّ النفاق إنّما هو نتيجة دناءة النسب وخسة الجوهر، وأخيراً هناك من فسّرها بالوضيعين.

جدير ذكره أنّ التكبر الذي يعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبة إنّما يستند إلى عقدة الحقارة، وهذا ما صرحت به الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ما مِنْ رَجُل تَكَبَّرَ اَو تَجَبَّرَ إلاّ لِذِلَّة وَجَدَها في نَفْسِهِ»[٣].

ثم خاض عليه السلام في شرح أوصاف طائفة الأدعياء فقال: «الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ».

إشارة إلى أنّ هؤلاء المنافقين المستكبرين إنّما استغلوا حسن نياتكم وأنفذوا

---

١. سورة سبأ، الآية ٣٤.

٢. «أدعياء» جمع «دعي» على وزن «جلي» تعني في الأصل المتبنى أي الولد من أب آخر ومن ينسب نفسه لآخر، وبما أنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يمتلكون نسباً واضحاً يطلق عليهم الأدعياء ووردت بمعنى عديم النسب أو ابن الزنا.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣١٢.

إليكم نياتهم السيئة وأمراضهم النفسيّة وأعمالهم المريضة والمطالب الباطلة ورسخوها في أوساطكم؛ وعليه فما عليكم إلّا التعرف عليهم والانسحاب من تبعيتهم وطرح أفكارهم الفاسدة وخططهم الشيطانيّة من أوساطكم.

ثم أفصح الإمام عليه السلام عن التعريف بهم فقال: «وهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وأَحْلاَسُ[1] الْعُقُوقِ[2]».

بالنظر إلىٰ معنى الفسوق وهو الخروج عن الطاعة والعقوق الذي يطلق على مطلق العصيان، فإنّ المراد بالعبارة السابقة أنّ جميع المعاصي والمفاسد الاجتماعيّة إنّما تنبع من المفسدين والمستكبرين حيث يقوم هؤلاء الأفراد باستقطاب الناس وشدهم إليهم كونهم مصداق للعبارة: «النّاسُ عَلى دينِ مُلُوكِهِمْ».

ثم تحدّث الإمام عليه السلام عن العلاقة القائمة بين هذه الفئة وإبليس ومدى ارتباط افكارهم وخططهم بوساوسه فقال: «اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَل. وجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ[3] عَلَى النَّاسِ، وتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ ودُخُولاً[4] فِي عُيُونِكُمْ، ونَفْثاً[5] فِي أَسْمَاعِكُمْ».

فالواقع، إنّما يمتطي إبليس هذه الفئة بالدرجة الأُولىٰ لإضلال الناس وإغوائهم، ثم يستعين بها في هجومه عليهم فإن استسلموا لقنهم مطالبه بلسان زعماء هذه الفئة الضالة فيعطل لديهم جميع مصادر الفهم والإدراك بما فيها العقل والعين والاذن؛ فيسلبهم عقلهم بأمانيه البعيدة وأهوائه ورغباته ويزين لهم الدنيا، فيصادر بصيرتهم ويقرأ في آذانهم كلمات الخداع ويوسوس إليهم فلا تكون عاقبتهم إلّا تلك التي

---

١. «أحلاس» جمع «حلس» على وزن «حرص» بمعنى كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، ثم اطلق «الحلس» على كل شيء ملازم لآخر ولذلك يقال للأفراد الذين يلازمون البيوت «أحلاس البيوت».

٢. «عقوق» تعني في الأصل التقطيع والتمزيق ثم اطلقت هذه الكلمة على مخالفة الأب والأم والآخرين و«أحلاس العقوق» بمعنى الأفراد الملازمين للطغيان والعصيان.

٣. «يصول» من مادة «صولة» بمعنى الهجوم.

٤. «دخول» معروف المعنى ولكن يأتي بمعنى الفاسد أيضاً وهذا ما أريد به في العبارة.

٥. «نفث» تعني في الأصل طرح مقدار من لعاب الفم وحيث يقترن بالنفخ فقد وردت بمعنى النفخ أيضاً.

أشار الإمام عليه السلام إليها في خطبته وعلى هذا الأساس فقد جعلكم أهدافاً لسهامه ووطأكم بقدمه واستحوذ عليكم: «فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ[1]، ومَوْطِئَ قَدَمِهِ، ومَأْخَذَ يَدِهِ».

فمن الطبيعي أن يتيه الإنسان تحت أرجل الشيطان ويكون بدنه عرضة لسهامه ويحكم عليه قبضته إذا ما فقد عقله وبصيرته وإدراكه.

وقد ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ العبارة «ومَأْخَذَ» إشارة إلىٰ الأسر في مخالب الشيطان، وعليه يكون مفهوم العبارات الثلاث أنّ الشيطان يقضي عليكم أو يذلكم أو يأسركم، إلّا أنّ التفسير الذي أوردناه يبدو أنسب مع العبارات السابقة.

والواقع أنّ هذه الكلمات العميقة للإمام عليه السلام بشأن نفوذ الشيطان في الإنسان اقتباس من القرآن الكريم إذ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[2].

وقال تعالى في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ وقد مر شبيه ما ورد في هذه العبارة في الخطبة السابعة حين قال: «اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مِلاَكاً واتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً... فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ».

تأمّل

التكبر والعصبية

«التكبر» يعني الشعور بالأفضلية من الآخرين، و«التعصب» يعني التعلق غير المنطقي بشخص والتفاني في الدفاع عنه بصورة عمياء، أو الغلو في الحب للقبيلة

---

١. «نبل»، السهام.

٢. سورة الأنعام، الآية ١٢١.

وتمجيدها بحقّ وبغير حقّ، وتعصب من مادة عـصب عـلى وزن غـضب بـمعنى الأوعية الخاصّة التي تربط عضلات الإنسان بدماغه وتشكل سلسلة الأعصاب.

ثم اطلقت على الفئة والجماعة المنسجمة فكرياً والمتعاضدة فيما بينها، ويطلق على هذه الجماعة «عُصبة» على وزن «سُفرة» وتطلق مفردة «تعصّب» عادة على التبعية الهمجية المطلقة والتي يفرزها عادة الجـهل وضـيق التـفكير والكـبر؛ لأنّ الشخص الذي يريد أن يلصق بنفسه قيمة معينة يسعى لإكبار من يتعلق به أو يتعلق بهم، فيتجاهل نقط ضعفهم ويبالغ في تضخيم نقاط قوتهم إن وجدت فيهم.

وهذه الرذيلة الأخلاقيّة الجاهليّة إذا انطلقت من التعصب العرقي والقبلي فإنّها تؤدّي إلى اندلاع النزاعات والحروب والعنف والصراعات الدمويّة التي حدثت في التاريخ القديم والتاريخ المعاصر.

ولعل أحداً لم يأمن مخاطر الكبر والعصبيّة منذ التاريخ الجاهلي حتى تاريخنا الراهن. فقد نشب في العصر الجاهلي قتالان عنيفان بين القبائل العربية باسم الفجار المعروفة في التاريخ. حيث حدثت فجار الأُولىٰ حين كان لفرد من قبيلة بني كنانة دين بذمة رجل من قبيلة هوازن الذي ما كان يستطيع تسديد دينه؛ فشاهد الرجل الهوازني قرداً في سوق عكاظ (السوق الذي كان يعقد كلّ سنة قرب الطائف) وقال: هل مِن رجل يبيعني هذا القرد مقابل ديني من فلان الكناني ومراده من هذا الكلام تحقير الرجل الكناني الذي عجز عن تسديد دينه، وهنا قام رجل من كنانة فـقتل القرد، فصرخ الهوازني بوجه الرجل واستنجد الكناني بقبيلته فاقتتلت القبيلتان قتالاً شديداً.

وفجار الثانية التي حدثت بعد وفاة عبد المطلب، وسببها أنّ فتى من قبيلة بني غفار جلس في زاوية من سوق عكاظ ومد رجليه وكان يقول: أنا أفضل العـرب ومن لم يقبل ذلك فليقطع رجليَّ، فانبرى له فتى جاهل من قبيلة بني قيس وسـل سيفه وضربه على رجليه، فاقتتلت قبيلتيهما قتالاً شديداً حتى تصالحا بعد مدّة من

العداوة والخصومة[1]، وما شهده القرن العشرين متمثلاً في الحرب العالمية الثانية وكان سببها كما نعلم العصبية الألمانيّة النازيّة والتي خلفت عشرات الملايين من القتلى وعشرات الملايين من الجرحى والعديد من المفقودين وذلك الخراب العظيم الذي حلّ بأوروبا وسائر دول العالم، وحتى اليوم فإنّ العوامل الرئيسيّة التي تقف وراء اعتداءات المستكبرين والجناة الاسرائيليين لا تستند إلىٰ شيء سوى إلىٰ الكبر والتعصب.

وبالنظر لما ذكرناه سابقاً نقف على عمق كلام الإمام عليه السلام في إظهاره لكلّ هذا القلق من النتائج الوخيمة للكبر والعصبيّة، وفي ذلك ورد عن النّبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ كانَ في قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَل مِنْ عَصَبِيَّة، بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَعَ أَعْرابِ الْجاهِلِيَّةِ»[2].

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَعَصَّبَ أَو تُعُصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَ الإِيمانِ»[3].

ﮩﮨ

١. الكامل، لابن الأثير، ج ١، ص ٥٨٨و٥٨٩.
٢. منهاج البراعة، ج ١١، ص ٣٠٩.
٣. المصدر السابق.

القسم السادس

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلاَتِهِ، ووَقَائِعِهِ ومَثُلاَتِهِ، واتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، ومَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، واسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وأَوْلِيَائِهِ؛ ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، ورَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ. قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وابْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، ومَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَى والسُّخْطَ بِالْمَالِ والْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، والاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى والإِقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ). فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

الشرح والتفسير

آفة التكبّر

لما فرغ الإمام عليه السلام من تحذيراته في المقطع السابق من هذه الخطبة من تبعية المستكبرين والعصاة المتعصبين، أخذ في هذا الجانب من الخطبة بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ ويوقفهم على مصير الأمم المستكبرة وأئمّة الكبر

والغرور في التاريخ القديم فقال: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلاَتِهِ،[١] وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ[٢]».

فقد عرض لنا القرآن الكريم كيف كانت عاقبة الطغاة سيئة ومصيرهم أسود كفرعون وجنوده حيث هلكوا غرقاً في أمواج البحر وكانت أجسامهم طعمة لحيتان البحار، وطغاة مع أقواهم هلكوا تحت الزلازل الشديدة ومنهم مَن أُمطروا بالحجارة أو خسف بهم الأرض ومنهم مَن قلبَ الله بهم مدنهم فجعل عاليها سافلها كقوم لوط، وطائفة أخذهم بالطوفان والعواصف التي جعلتهم كأعجاز النخل الخاوية كقوم عاد، بينما أخذ البعض الآخر بالصاعقة ليحيلهم أجساداً خاوية بطرفة عين كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

ثم قال عليه السلام: «واتَّعِظُوا بِمَثَاوِي[٤] خُدُودِهِمْ، ومَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ،[٥] واسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ[٦] الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ».

يبدو أنّ الوصايا الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام: «اعتبروا» و«اتَّعِظُوا» و«اسْتَعِيذُوا» إشارة إلىٰ المراحل الثلاث التي تنتظر الإنسان اليقظ في مسيرته نحو الحقّ حين تأمّله لسيرة الماضين: وأهمها مصير الأمم السابقة بما كانت تمتلكه من نعم وما كانت عليه من عزة وقدرة ثم الت إلىٰ الزوال أثر الكبر والغرور، لكي يتعلم الدروس والعبر من تاريخ حياتهم ومماتهم فيستعيذ بالله في خاتمة المطاف حتى لا

١. «صولات» جمع «صول» على وزن «قول» بمعنى التسلط والغلبة.

٢. «مثلات» جمع «مثلة» على وزن «عضلة» بمعنى العقوبة ومن ذلك العذاب الذي نزل على الأمم السابقة والذي اصبح يضرب به المثل.

٣. سورة العنكبوت، الآية ٤٠.

٤. «مثاوى» جمع «مثوى» من مادة «ثواء» بمعنى الإقامة في موضع، وعليه فالمثوى بمعنى المنزل والمكان.

٥. «جنوب» جمع «جنب» على وزن «جمع» بمعنى الجهة والجانب.

٦. «لواقح» جمع «لاقح» من مادة «لقاح» تشير في العبارة إلىٰ عوامل ظهور الكبر والغرور.

يُصاب بالكبر والغرور.

وتشير العبارة «كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ» إلىٰ آثار الكبر المشؤومة والتي تعد من الحوادث المريرة التي لا تقل عن الزلازل والعواصف والحوادث الطبيعية المفجعة الأخرىٰ.

ثم طرق هذا المعلم الربّاني العظيم سبيلاً آخر بغية خلق النفرة في قلوبهم إزاء الكبر والغرور فقال عليه السلام: «فَلَو رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وأَوْلِيَائِهِ؛ ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، ورَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ. فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وعَفَّرُوا[1] فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ».

لعل بعض المتكبرين يعتقدون أنّ التكبر يكشف عن الشخصية وأنّها بالتالي نعمة من نعم الله تعالى، فالإمام عليه السلام يشير إلىٰ أنّ هذا العمل لوكان نعمة وكرامة لأنعم به تعالى على أنبيائه وأوليائه قبل كلّ شخص آخر؛ بينما نرى القضية معكوسة تماماً حيث كرَّهَ تعالىٰ إليهم الكبر والغرور، والتواضع بمثابة تاج وضع على رؤوسهم، وعلى هذا الأساس عاشوا الخضوع لله تعالى فكانوا يعفّرون وجوههم بالتراب، كما عاشوا البساطة والتواضع للمؤمنين.

والعبارة: «وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ» كناية لطيفة عن التواضع، لأنّ الطيور حين تريد أن تحنو على فراخها تضمها تحت أجنحتها بعد أن تفتحها لها.

والعبارة: «وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ» لا تفيد هنا معنى الضعف والعجز، بل تعني أنّهم كانوا لا تيكبّرون على أبناء مجتمعهم فهم عباد بُسطاء وأنّهم يشاطرون الآخرين حياتهم.

ثم هم الإمام عليه السلام برفع الخطأ واللبس الذي شاب بعض المستكبرين الذين اعتقدوا بأنّ المال والأولاد علامات على القرب من الله تعالى، فخاض في بعض

---

١. «عفّروا» من مادة «عفر» بمعنى التمريغ بالتراب.

التفاصيل من سيرة وحياة خاصة أولياء الله وأنبيائه وما تعرضوا له من امتحانات واختبارات بعبارات فصيحة وبليغة ليركز على أربعة أنواع من الاختبارات فقال: «قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ[1]، وابْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ[2]، وامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، ومَخَضَهُمْ[3] بِالْمَكَارِهِ».

فطرق الله تعالى الامتحانيّة لا تحصى، فأحياناً بالنعمة وكذلك بالنقمة، وتارة بالمرض والسقم وأخرىٰ بالصحة والعافية وثالثة بالعزّة وأخرىٰ بسلبها؛ لكن يمكن تقسيم هذه الاختبارات إلىٰ أقسام متعددة؛ الضيق في المعيشة والجوع والعطش، الحوادث الشاقة والأليمة من قبيل المصائب التي تحملها المسلمون الأوائل في شعب أبي طالب حتى مختلف الغزوات وحالة اللاأمن التي كان يفرضها عليهم خصوم الدعوة، إلىٰ جانب الأمراض والمعاناة التي سادت حياة جميع أنبياء الله، إنّما تعدّ دليلاً على هذه الامتحانات ومن ذلك حياة موسى بن عمران عليه السلام منذ ولادته حتى لجوئه إلىٰ بيت النبي شعيب عليه السلام، وحين انبرى لدعوة الفراعنة وما أعقبها من حوادث أليمة والمصائب التي عاشها في بني اسرائيل، وكذلك مختلف المراحل التي شهدها نبي الله إبراهيم عليه السلام في حياته من بابل حتى أرض مصر ثم مكة ولا سيما سيرة النّبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله والغنية عن التوضيح، كلّها شواهد حية على هذا الأمر.

ثم خاض عليه السلام في دفع خطأ مهم بعد ذكره لهذه المقدمة والذي أصيب به العديد من الناس في الماضي والحاضر والذي يتمثل في ظنهم بأنّ كثرة الأموال والأولاد دليل على التوفيق والسعادة والقرب من الله تبارك وتعالى فقال عليه السلام: «فَلاَ تَعْتَبِرُوا

---

١. «مخمصة» بمعنى الجوع وخلو البطن من الطعام، ومن مادة «خمص» على وزن «المس» بمعنى الجوع الشديد الذي يدعو إلى خسف البطن.

٢. «مجهدة» مصدر ميمي بمعنى المشقّة من «جهد» على وزن «مهد» و«جهد» على وزن «كفر» بمعنى التعب الناتج من السعي والحركة.

٣. «مَخْض» من مادة «مخض» على وزن «خفض» تعني في الأصل، تحريك اللبن ليخرج زبده، ثم أطلقت على كل حركة شديدة وشاقة.

الرِّضَى والسُّخْطَ بِالْمَالِ والْوَلَدِ جَهْلاً بِمَواقِعِ الْفِتْنَةِ، والاِخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى والاِقْتِدَارِ».

ثم استدل عليه السلام بآية قرآنيّة أشارت صراحة إلىٰ هذا الأمر فقال: «فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّال وبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ[1]﴾».

ثم خلص من الآية الشريفة إلىٰ هذه النتيجة فقال: «فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فالعبارة «فِي أَنْفُسِهِمْ» بشأن المستكبرين إشارة إلىٰ أنّهم ليسوا على شيء من الفضيلة، بل هم عباد ضعاف وعاجزون يرون أنفسهم كباراً. والعبارة «فِي أَعْيُنِهِمْ» (استناداً لعودة الضمير للمستكبرين) تشير إلىٰ أنّ عباد الله ليسوا ضعافاً وعاجزين قط، بل المستكبرون يظنونهم مستضعفين بفعل زهدهم وورعهم وتقواهم وطاعتهم لأوامر الله، ومن هنا يتّضح اختلاف مفردة المستضعف هنا مع ما وردت في العبارة السابقة حيث قال عليه السلام الأنبياء مستضعفون إشارة إلىٰ تواضعهم ووزهدهم وبساطة حياتهم، وقوله أولياء الله المستضعفين في عين المستكبرين إشارة إلىٰ الضعف والعجز والذلّة التي يظنونها.

تأمّل

تصحيح خطأ

أشارت العديد من الآيات القرآنيّة إلىٰ هذا الموضوع حيث إنّه كان في الأقوام السابقة بعض الأفراد الذين يعتقدون بأنّ كثرة الاموال والأولاد دليل على القرب من الله تعالى، وقد دفع بهم هذا التصور الخاطئ لأنّ يعتقدوا لأنفسهم ببعض المقامات المعنويّة بموازاة تلك الإمكانات الماديّة الضخمة ليوردوا هذا الأمر بصيغة مغالطة

---

١. سورة المؤمنون، الآيتان ٥٥ و٥٦.

فيزعموا أنّ هذه نعم الله فمن شمله الله بهذه النعم فقد أحبّه، ومن أحبّه الله كان مقرّباً منه، وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون باستخفاف إلىٰ المؤمنين على المستوى المادي والمعنوي.

وقد غفلوا عن أنّ إفاضة الإمكانات الماديّة إنّما يستند إلىٰ عدة عوامل، فقد تكون نعمة من نعم الله، كما قد تكون للامتحان والاختبار أو الاستدراج للعذاب، أي أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يتابع نعمه على بعض الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم فيسلبها تعالى منهم بغتة ليكون ذلك أشد وقعاً على قلوبهم وأكثر إيلاماً. والقضية أشبه بالضبط بذلك المعتدي الذي يتسلق شجرة مثمرة ثم يأخذ بالتسلق شيئاً فشيئاً حتى يسقط فجأة فتتحطم جميع عظامه.

٭٭٭

القسم السابع

ولَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ(عليهما السلام)عَلَى فِرْعَوْنَ، وعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، ودَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ:

«أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ والذُّلِّ، فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»؟ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وجَمْعِهِ، واحْتِقَاراً لِلصُّوفِ ولُبْسِهِ! ولَوأَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، ومَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، ومَغَارِسَ الْجِنَانِ، وأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّماءِ ووُحُوشَ الأَرَضِينَ لَفَعَلَ، ولَوفَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا. ولكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّة فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَة تَمْلأُ الْقُلُوبَ والْعُيُونَ غِنىً، وخَصَاصَة تَمْلأُ الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ أَذىً.

الشرح والتفسير

درس وعبرة في قصة موسى(عليه السلام)

تابع الإمام(عليه السلام) في هذا المقطع من الخطبة من خلال طريق آخر ينطوي على الدروس والعبر ذم الكبر والغرور والعصبية التي تشكل المحور الأصلي لهذه الخطبة، فأشار إلىٰ قصّة موسى بن عمران(عليه السلام) حين دخل مع أخيه هارون على

فرعون وكانا يرتديان تلك الثياب البسيطة فتعرضا إثر ذلك لاستخفاف فرعون المتكبر فقال عليه السلام: «وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عليهما السلام عَلَى فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ[1] الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ،[2] فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ».

فقد دخل موسى وهارون عليهما السلام بذلك اللباس البسيط وعصا الرعي على فرعون ليحطما كبرياءه وطغيانه ويبيّنا له ولحاشيته أنّ العزّة ليست في الأموال والكنوز وكثرة الخدم ليعلنا نهاية ذلك النوع من العيش وانطلاقة العهد الجديد في الحكومة الإلهيّة بواسطة المستضعفين.

ثم واصل عليه السلام حديثه فتطرق إلىٰ ردود الفعل التي ابداها فرعون إزاء دعوة موسى وهارون فقال عليه السلام: «فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ[3] مِنْ ذَهَبٍ»؟ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ!».

نعم! فالنظام المادي للجهاز الفرعوني يدور حول هذا المحور في أنّ من كانت إمكاناته في الذهب والجواهر أكثر كانت شخصيته أسمى، وثياب الصوف البسيطة إنّما هي لباس الشخصيات الوضيعة في المجتمع؛ أي لم يكن هنالك أي دور للقيم الإنسانيّة في بيان شخصية الإنسان في ظلّ ذلك النظام، والقيم الاعتبارية والخيالية هي التي تحدد معيار الشخصية.

وقد تعرض الإمام عليه السلام لشرح هذه الحقيقة بعبارات غاية في الروعة والبيان والتي لم تكن لها آنذاك قيمة واقعية بينما كان يحسبها كذلك فرعون وحاشيته فقال: «وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ[4]، وَمَعَادِنَ

١. «مدارع» جمع «مدرع» على وزن «منبر» بمعنى الجبّة.

٢. «عصيّ» جمع «عصا».

٣. «أساورة» و«أساور» جمع «أسورة» وجمع «سُوار» على وزن «غبار» أو «سوار» على وزن «كتاب» وهي في الأصل كلمة فارسية (دستور) بمعنى السوار الذي يوضع في اليد للزينة.

٤. «ذهبان» جمع «ذهب» معروف.

الْعِقْيَانِ[١]، ومَغَارِسَ[٢] الْجِنَانِ، وأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ووُحُوشَ الأَرَضِينَ لَفَعَلَ، ولَوفَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، ولاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا».

إشارة إلىٰ أنّ الحكيم تبارك وتعالى يستطيع أن يمد أنبياءه بجميع أسباب القوّة ويزينهم بمختلف صنوف الذهب والمجوهرات والثروات ويغدق عليهم القصور ووسائل الراحة، بل يجعل أنبياءه أغنىٰ الملوك والسلاطين ـ لأنّه خالق السماوات والأرض ومالك كلّ شيء ـ لكنه حكيم فإن فعل ذلك سيزول الهدف الأصلي لبعث الأنبياء والدعوة إلى الله تعالى، بل ستكون النتيجة معكوسة وتتحول القيم والمثل إلىٰ ما يضادها ويفسد الإيمان وتسوء الأخلاق والتربية.

ولذلك خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل ست مفاسد في بيان الآثار السيئة لمثل هذا الأمر وهي:

١. انعدام معطيات الامتحان الإلهي للعباد في ظلّ هذه الظروف، ذلك لأنّ الأفراد غير المؤمنين وبسبب ما عليه الأنبياء من إمكانات وزينة سيندفعون إليهم دون الاقتناع بمنهجهم ودعوتهم.

٢. زوال ثواب المحسنين، ذلك لأنّ إيمانهم لا يكون خالصاً في ظلّ تلك الشرائط.

٣. لا يعدّ الوعد الإلهي وأخبار الوحي بشأن الحلال والحرام دافعاً لطاعة الناس، بل الدوافع الماديّة هي التي تحركهم، كما أنّ سيرتهم سوف لن تعدّ أسوة ونموذجاً للعباد.

٤. سوف لن يحصل المؤمنون بالأنبياء على الأجر الجزيل الذي يناله

---

١. «عقيان» مفردة وهو نوع من الذهب الخالص.

٢. «مغارس» جمع «مغرس» يعني محلّ غرس الأشجار.

المجاهدون في سبيل الله.

٥. لا يستحق المؤمنون المخلصون ثواب المحسنين ذلك لأنّهم لم يتحملوا عناءً.

٦. بعض الصفات المقدّسة والأسماء من قبيل المؤمن والصالح والمجاهد والمخلص سوف تفقد مصاديقها الواقعية كما ستفقد بعض الصفات التي تنسب إلىٰ الأنبياء من قبيل الزهد والورع والتقوى وعدم التعلق بالدنيا مفهومها ومعناها.

ثم قال الإمام عليه السلام في توضيحه لهذا المعنى: «**ولكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَة تَـمْلأُ الْـقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنىً، وخَصَاصَة[1] تَمْلأُ الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ أذىً**».

فالواقع إنّهم كانوا رجالاً أشداء باستطاعتهم اقتناء الذهب والمجوهرات ووسائل الزينة، إلّا أنّهم جعلوا كلّ أسباب الترف ومباهج الدنيا التي تعدّ مصدراً للكبر والغرور والفخر والعجب والأنانيّة وراء ظهورهم، وجعلوا الهدف الرسالي أمام عيونهم.

٨٠٠٣

---

١. «خصاصه» من «خصاص» على وزن «أساس» تعني في الأصل الشق الذي يظهر في جدار البيت ثم اطلق على الفقر والحاجة التي توجب الشدّة في العيش.

القسم الثامن

ولَوْكَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّة لَا تُرَامُ، وعِزَّة لَا تُضَامُ، ومُلْك تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الإِعْتِبَارِ، وأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الإِسْتِكْبَارِ، ولآمَنُوا عَنْ رَهْبَة قَاهِرَة لَهُمْ، أَورَغْبَة مَائِلَة بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. ولكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، والتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، والْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، والإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، والإِسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ.وكُلَّمَا كانَتِ الْبَلْوَى والإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كانَتِ الْمَثُوبَةُ والْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

الشرح والتفسير

زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبة بوضوح إلىٰ الحياة المتواضعة للأنبياء ومنهم موسى بن عمران عليه السلام، ثم واصل كلامه في هذا الجانب من الخطبة لبيان الآثار المعنويّة والتربويّة للبساطة والتواضع فقال: «ولَوْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّة لَا تُرَامُ[1]، وعِزَّة لَا تُضَامُ[2]، ومُلْك تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ[3] الرِّحَالِ[4]، لَكَانَ ذلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الإِعْتِبَارِ، وأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الإِسْتِكْبَارِ،

---

١. «ترام» من مادة «روم» على وزن «قوم» تعني الطلب.

٢. «تضام» من مادة «ضيم» بمعنى الذلّة.

٣. «عقد» جمع «عقدة».

٤. «رحال» جمع «رحل» ما يوضع على ظهر البعير ويجلس عليه و«شدّ الرحال» تعني الاستعداد للسفر أو السفر.

ولاَمَنُوا عَنْ رَهْبَة قَاهِرَة لَهُمْ، أَورَغْبَة مَائِلَة بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً».

نعم، فالمحور الأصلي الذي حظى باهتمام الأنبياء هو الإخلاص وطهارة النيّة، والحقّ أنّ الأنبياء عليهم السلام لو كانوا ذوي قوّة قاهرة وملكوا كنوز الأرض وعاشوا حياتهم في القصور مترفين كالسلاطين لما اعتبر بهم الناس، وإذا آمن بهم البعض فإمّا عن خوف من سلطانهم، وإمّا عن طمع في ملكهم، حيث «النّاسُ عَبيدُ الدّنيا».

ثم قال عليه السلام مؤكدا هذا الكلام: «ولكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، والتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، والْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، والاِسْتِكَانَةُ[1] لأَمْرِهِ، والاِسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لاَ تَشُوبُهَا[2] مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلىٰ خمسة أشياء ينبغي أن تتم جميعها على أساس الإخلاص في النيّة وهي: ١. قبول دعوة الأنبياء، ٢. التصديق بالكتب السماوية، ٣. الخشوع العملي للذّات الإلهيّة القدسيّة، ٤. التسليم القلبي لأوامر الله، ٥. التسليم العملي وإمتثال الأوامر، وعلى هذا الأساس ينبغي أن ينطلق الإيمان والعمل والأخلاق من قاعدة الإخلاص؛ فقد قال تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4].

ثم أشار عليه السلام في مواصلته لكلامه إلىٰ هذه النتيجة فقال: «وكُلَّمَا كانَتِ الْبَلْوَى والاِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كانَتِ الْمَثُوبَةُ والْجَزَاءُ أَجْزَلَ».

إشارة إلىٰ أنّ بساطة حياة الأنبياء وانصرافهم عن زخارف الدنيا وزبرجها جعل المؤمنين إزاء امتحان أشدّ صعوبة، وبالطبع كلّ ما كان الامتحان أشق وأصعب كان

---

١. «استكانة» تعني الخضوع.

٢. «تشوب» من «شوب» على وزن «شوق» تعني الخدعة وخلط شيء مع آخر للخداع.

٣. سورة الزمر، الآية ٣.

٤. سورة البينة، الآية ٥.

الأجر والثواب أعظم وأبلغ وهذا في الواقع درس عـظيم فـي الإخـلاص لجـميع الأفراد الذين يسعون إلىٰ السير على خط الأنبياء حيث ينبغي أن يسيروا على نفس النهج ليستطيعوا إعداد الأتباع المخلصين.

ﮩﮩ

القسم التاسع

أَلا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَار لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِياماً». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَال خَشِنَة، ورِمَال دَمِثَة، وعُيُون وَشِلَة، وقُرًى مُنْقَطِعَة؛ لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ووَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَار سَحِيقَة ومَهَاوِي فِجَاج عَمِيقَة، وجَزَائِرِ بِحَار مُنْقَطِعَة، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهُ، ويَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاَءً عَظِيماً، وامْتِحَاناً شَدِيداً، واخْتِبَاراً مُبِيناً، وتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، ووُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ.

الشرح والتفسير

الدروس والعبر في بيت الله

سلك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة سبيلاً آخر لمتابعة الغاية الأصلية التي تتمثل في القضاء على التكبر والدعوة للبساطة والتواضع ليشرحه بعبارات غاية في الروعة والجمال والبلاغة بحيث عجز البلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثلها فقال: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إِلَى الآخِرِينَ مِنْ

هذا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ ﴿الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً﴾».

فالذي يستفاد من هذه العبارة أنّ الكعبة التي هي أقدم معبد في العالم قد بنيت لأوّل مرّة في زمن آدم عليه السلام (ثم جدد بناؤها على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام) كما يفهم أنّ بساطتها ومواد بنائها البدائيّة تهدف إلىٰ عدم لفت انتباه الآخرين إلىٰ جانبها وبعدها المادي، بل الاستغراق في أبعادها المعنويّة حيث بيّن عليه السلام: أنّ الكعبة تحظى بمركزية يتوجه إليها الجميع ليأتوا كلّ سنة لأداء شعائر الحجّ ومناسكه بما يؤدّي إلىٰ تنامي شوكة المسلمين وقوّتهم وعزّتهم ووحدتهم وسمّوهم وعلوّ شأنهم ومبادئهم في مختلف الاتجاهات.

فالعبارة الواردة في كلام الإمام عليه السلام اقتباس من الآية الشريفة: ٩٧ من سورة المائدة التي تقول: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾.

وقد ورد «القيام» هنا كمصدر بمعنى اسم الفاعل أي تقويم حياة الناس من الناحية الماديّة والمعنويّة، على غرار الدعائم القوية التي يقوم عليها البيت والخيمة.

فبيت الله هو رمز الوحدة وقوّة المسلمين ورفعتهم وعظمتهم من جانب ومن جانب آخر فإنّه ينطوي على المناسك التي تطهر القلب من دنس المعصية وتفيض عليه نور الهدى وتغمره بالرحمة الإلهيّة.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر بساطة الكعبة، عرج على التعرض لخصائص الأرض التي تضم البيت وهي مكة فقال: «ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ[1] بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ[2] الدُّنْيَا مَدَراً[3]. وَأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْراً[4]. بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ

١. «أوعر» من «وعر» على وزن «قعر» تعني الأرض الوعرة والشديدة.
٢. «نتائق» جمع «نتيقة» بمعنى البقاع المرتفعة من مادة «نتق»، على وزن «فتق» بمعنى الحفر والارتفاع.
٣. «مدر» بمعنى الطين اليابس.
٤. «قطر» بمعنى البلد والمنطقة.

دَمِثَة[١]، وعُيُون وَشِلَة[٢]، وقُرًى مُنْقَطِعَة؛ لَا يَزْكُو[٣] بِهَا خُفٌّ[٤]، وَلَا حَافِرٌ[٥] وَلَا ظِلْفٌ[٦]».

فقد كشف الإمامعليه‌السلام بهذه الصفات الثمان لأرض مكة عن محروميّة هذه الأرض من مختلف الجهات؛ فقد تحدّث بادئ الأمر عن وعورتها وصعوبتها بحيث يرى كلّ من تشرف بها أنّ بيت الله واقع في وادٍ ضيق بين الجبال الشامخة والقاحلة والتي يصعب تسلقها، حتى استطاعوا اليوم حفر العديد من الأنفاق والمنعطفات لشقّ الشوارع التي يمكنها اختراق تلك الجبال بغية مرور الناس عليها.

ثم أشارعليه‌السلام إلىٰ قلة التربة الصالحة للزراعة؛ والحقّ أن كذلك، حيث يضطرون اليوم لحمل التربة من المناطق القريبة والنائيّة إليها بغية غرس بعض الأشجار، ثم تطرقعليه‌السلام إلىٰ ضيق وديانها، فنحن نعلم أنّ الوديان الواسعة التي تضم الأراضي الزراعيّة الصالحة للزراعة تعدّ من أفضل البقاع لمعيشة الإنسان، والعديد من المدن الكبيرة إنّما تقع في مثل هذه الوديان، بينما تتعذر الحياة والعيش بأي شكل من الأشكال في الوديان الضيقة.

ثم أشارعليه‌السلام إلىٰ جبال مكة الوعرة التي قلما ينموفيها نبات والرمال الناعمة التي يصعب السير عليها، وتنقلها الرياح من مكان إلىٰ آخر وعيونها قليلة المياه، والمناطق المعمورة المتفرقة على تلك الصحارىٰ الجرداء والتي تتوسطها، ليتطرق بالتالي إلىٰ عدم صلاحية تلك الأرض لتربية الحيوانات الأليفة كالجمل والبقر والشاة. حقّاً لولم يكن بيت الله وسط تلك الجبال فإنّ أحداً سوف لن يفكر أن تكون مكة موضع سكناهإلّا أنّ الله تبارك وتعالى اختار هذه المنطقة كأفضل موضع للعبادة

١. «دمثة» من مادة «دماثة» بمعنى اللينة.
٢. «وشلة» بمعنى قليل الماء من «وَشل» على وزن «حشر».
٣. «يزكو» من «زكاة» بمعنى النمو.
٤. «خف» تعني في الأصل النعل وهي هنا كناية عن الدابة لأنّ أسفل قدمها كالحذاء.
٥. «حافر» من الحفر وتعني قدم الفرس.
٦. «ظلف» كناية عن البقر والغنم.

ودعى المستطيعين كافّة إلىٰ التوجه إليها للإتيان بمناسك الحج بهدف تهذيب النفوس والقضاء على آثار الكبر والغرور.

وهذه هي الحقيقة التي أذعن لها خليل الله إبراهيم عليه السلام الذي أمر بإعادة بناء الكعبة حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[١].

وحين فرغ الإمام عليه السلام من ذكر موضع البيت وخصائص أرض مكة، تطرق إلىٰ شعيرة الحج وزيارة بيت الله الحرام الذي بدأ منذ خلق آدم وسيستمر حتى نهاية الخليقة فقال: «ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا[٢] أَعْطَافَهُمْ[٣] نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً[٤] لِمُنْتَجَعِ[٥] أَسْفَارِهِمْ، وغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ[٦]. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ[٧] قِفَارٍ[٨] سَحِيقَةٍ[٩] ومَهَاوِي[١٠] فِجَاجٍ[١١] عَمِيقَةٍ، وجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ».

فهذه العبارات الرائعة للإمام عليه السلام اقتباس من الآيات القرآنيّة الشريفة، حيث اعتبر الإمام عليه السلام مكة بصفتها «مثابة» على غرار ما صرّح به القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[١٢]. كما عبّر عنها بالمنتجع (الموضع الذي يقصد لتحقيق المنافع) كما جاء في الآية القرآنيّة الشريفة: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[١٣]. والعبارة

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

٢. «يثنوا» من مادة «ثني» بمعنى طوي الشيء، أو تقريب شيء من آخر.

٣. «اعطاف» جمع «عطف» على وزن «كتف» بمعنى كتف الانسان.

٤. «مثابة» مكان الرجوع «ثوب» على وزن «فوق» بمعنى العودة.

٥. «منتجع» يعني محل الفائدة من «نجوع» بمعنى المنفع ولذلك يقال منتجع لمكان الراحة والمتنزّه أيضاً.

٦. «ملقى رحالهم» يعني محط رحالهم، من الأصل «إلقاء» و«رحال» جمع «رحل».

٧. «مفاوز» جمع «مفازة» بمعنى الصحراء.

٨. «قفار» جمع «قفر» بمعنى خلو المكان من السكن.

٩. «سحيقة» بمعنى البعيدة من «سحق» على وزن «سقف» بمعنى التليين والتبعيد.

١٠. «مهاوي» جمع «مهوى» منخفضات الأراضي من «هُوِيّ» على وزن «حُلِيّ» بضم «الحاء» وتشديد «الياء») بمعنى السقوط والوقوع.

١١. «فجاج» جمع «فج» بمعنى الطرق الواسعة بين الجبال من «فج» على وزن «حج» بمعنى فتح الساقين وتبعيدهما عن بعضهما.

١٢. سورة البقرة، الآية ١٢٥.

١٣. سورة الحج، الآية ٢٨.

«تهوى إليه ثمار الأفئدة» اقتباس من الآية الشريفة: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[١].

وتنسجم العبارة «من مفاوز قفار» مع الآية الشريفة: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٢].

وهكذا تحدّث عن توجّه مختلف الأقوام من مناطق العالم إلىٰ مكة وأردفها بالإشارة إلىٰ مناسك الحج والأعمال التي تختزن الدروس والعبر فقال: «حَتَّى يَهُزُّوا[٣] مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ[٤] عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً[٥] غُبْراً[٦] لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ[٧] وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا[٨] بِإِعْفَاءِ[٩] الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلىٰ جانب من مناسك الحج من قبيل ارتداء ملابس الإحرام وترك ما يحرم على المحرم من الزينة، وكذلك الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة وفق آداب معينة ينطوي كلّ واحد منها على تعليمات تربوية من دروس الحج، والحقّ لا يسع الإنسان الوقوف على عمق تأثير هذه التعليمات ما لم يؤدّي الإنسان تلك المناسك ويطلع عن كثب على هذا المشروع التهذيبي. ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه: «ابْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ».

فالتعبير بالابتلاء والامتحان والاختبار يدل جميعاً على الامتحان، إلّا أنّها ذكرت

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

٢. سورة الحج، الآية ٢٧.

٣. «يهزوا» من مادة «هزّ» على وزن «حظ» بمعنى التحريك.

٤. «يرملون» من مادة «رمل» على وزن «عمل» بمعنى الهرولة.

٥. «شعث» جمع «أشعث» بمعنى الشعر مع تلبد فيه.

٦. «غبر» جمع «اغبر»: من علا بدنه الغبار.

٧. «سرابيل» جمع «سربال»: الثياب.

٨. «شوهوا» من مادة «شوه» على وزن «قول» بمعنى أنّ مناظرهم مشوّهة.

٩. «إعفاء» بمعنى الترك و«اعفاء الشعور» يعني ترك الشعر بلا قص.

مرّة بوصف عظيم وأخرىٰ شديد وثالثة مبين، والمراد الامتحان المهم للغاية الذي يكون كبيراً وشديداً وواضحاً، وامتحان الحج ينطوي على هذه الصـفات الثـلاث. والعبارة «تَمْحِيصاً بَلِيغاً» إشارة إلىٰ نتيجة هذا الامتحان الذي يترك بصماته العميقة في تطهير القلوب واخلاص النيات، حيث ورد في الخبر أنّ زائر بيت الله بعد إتيانه بتلك المناسك العظيمة يعود كما ولدته أُمّه، حيث قال الإمام الصادقعليه السلام : قال أبي: «مَنْ أَمَّ هذَا الْبَيْتَ حاجّاً أو مُعْتَمِراً مِبْرأً مِنَ الْكِبْرِ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهيئَةِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

وبالطبع فإنّ كلّ هذه الكلمات في إطار تحقيق هدف الخطبة المتمثل بمكافحة الكبر والغرور والعجب والأنانيّة، لأنّ الحج يخلع عن الإنسان ثوب الغرور والكبر ويلقنه درس التواضع والإخلاص.

---

١. الكافي، ج ٤، ص ٢٥، باب فضل الحج والعمرة، ح٢.

القسم العاشر

وَلَوأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ. وَلَوكَانَ الإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

الشرح والتفسير

الكعبة المقدّسة

واصل الإمام عليه السلام هنا ماذكره في المقطع السابق من الخطبة، فأشار إلىٰ هذه النقطة وهي أنّ الله كان قادراً على أن يجعل البيت في أروع البقاع مناخاً، ويشيدها ويزينها بالأحجار الكريمة؛إلّا أنّه لم يفعل ذلك خشية إلتفات الناس وتركيزهم على الجوانب الماديّة فيقلّ أجرهم وثوابهم، فأشار عليه السلام لهذا الأمر بعبارات بمنتهى الروعة والجمال بما يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله فقال عليه السلام: «وَلَوأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ

بَيْتَهُ الْحَرَامَ، ومَشَاعِرَهُ[١] الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وأَنْهَارٍ، وسَهْلٍ وقَرَارٍ، جَمَّ[٢] الأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ[٣] الْبُنَى،[٤] مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ[٥] سَمْرَاءَ،[٦] ورَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وأَرْيَافٍ[٧] مُحْدِقَةٍ[٨]، وعِرَاصٍ[٩] مُغْدِقَةٍ[١٠]، ورِيَاضٍ نَاضِرَةٍ[١١]، وطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ».

فقد رسم الإمامعليه السلام صورة رائعة ودقيقة لمنطقة نضرة من خلال اثنتي عشرة صفة مختلفة.

فذكر الإمامعليه السلام كلّما ينبغي ذكره بهذا الخصوص فأشارعليه السلام بدقّة متناهية إلىٰ جميع مواضع الجمال التي تتصف بها الأرض الجميلة والمعمورة فبلغ بها منتهى الفصاحة والبلاغة والبديع والبيان، فالواقع لو كان البيت في منطقة نظرة حسنة جميلة المناخ، لتبدل إلىٰ مُتنزَّه لطيف يقصده الناس من أجل الاستجمام والرفاهية، ولزالت الدروس التربوية والأخلاقيّة للحج.

ثم قالعليه السلام بشأن بنيان الكعبة: «ولَوْكَانَ الإِسَاسُ[١٢] الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، والأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، ويَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، ونُورٍ وضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذٰلِكَ

---

١. «مشاعر» جمع «مشعر» موضع تقام فيه بعض مناسك الحج ويقال له «مشعر» حيث تجرى فيه الشعائر الإسلاميّة.
٢. «جم» كثير.
٣. «ملتف»: مجتمع ومتراكم من مادة «لف» على وزن «كف».
٤. «بنى» جمع «بنية» يعني بناء.
٥. «برّة» و«بُرّ» بمعنى الشعير.
٦. «سمراء» معروفة اللون.
٧. «أرياف» جمع «ريف» تعني القرية.
٨. «محدقة» يعني الموضع الذي تكثر فيه البساتين.
٩. «عراص» جمع «عرصة» فناء الدار.
١٠. «مغدقة» يعني كثيرة وفي الأصل من «غدق» على وزن «شفق» بمعنى الماء الوفير.
١١. «ناضرة» الخضراء من مادة «نضرة» الرفاهية الحاصلة بسبب وفور النعمة.
١٢. «أساس» بكسر الهمزه جمع «أُس» (بفتح أو بكسر أو بضم الهمزه) دعامة.

مُصَارَعَةَ[1] الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، ولَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، ولَنَفَى مُعْتَلَجَ[2] الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ».

قطعاً أنّ فلسفة الحج تهدف إلىٰ دفع الإنسان إلىٰ مقاومة هوى النفس والوساوس الشيطانيّة، وتصبح هذه المقاومة ضعيفة إن كانت لهذه المناسك مسحة جماليّة، بينما تصبح مقاومة الوساوس الشيطانيّة والأهواء النفسيّة أقوىٰ حين تقام هذه المناسك بنوع من الصعوبة والمشقّة في ذلك الوسط الجاف والبسيط؛ وعلى هذا الأساس تشتد مقاومة عباد الله ويصبح إيمانهم أقوى وأرسخ وتنفعهم الآثار التربويّة للحج.

والمراد من «مُصَارَعَةَ الشَّكِّ» مبارزة وساوس الشك والهواجس التي تخطر على قلب المؤمن وهي الوساوس الباطنيّة، والمراد من «مجاهدة إبليس» وساوسه الخارجيّة، ومفهوم العبارة «مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ» تلاطم أمواج الشكوك التي تطغىٰ علىٰ المؤمنين في التكاليف الدينيّة الشاقة، و«شكّ» و«ريب» وإن فسّرت بمعنى واحد إلّا أنّ بعض أرباب اللغة ذهب إلىٰ أنّ الريب بمعنى الشك والترديد الذي يرفع عنه الغطاء لاحقاً، بينما يمكن أن يكون الشك باقياً.

ثم خلص الإمامعليه‌السلام إلىٰ نتيجة كلّية فقال: «ولكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، ويَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ المَجَاهِدِ، ويَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، ولِيَجْعَلَ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً[3] إِلَى فَضْلِهِ، وأَسْبَاباً ذُلُلاً[4] لِعَفْوِهِ».

إشارة إلىٰ أنّ الواجبات الشرعيّة كالصوم والصلاة والحج والزكاة والخمس

---

١. «مصارعة» من «صرع» على وزن «فرع»: الصرع في الأرض و يقال المصروع على من أصيب بمرض الصرع لأنّه يطرحه أرضاً.

٢. «معتلج» تعني «التلاطم» من مادة «اعتلاج» يعني نزاع أحدهما للآخر.

٣. «فتحاً» بمعنى «الفتح» معروفة.

٤. «ذلل» جمع «ذلول» بالمعنى التسليم والانقياد.

والجهاد في سبيل الله وكذلك بعض النواهي وترك الأهواء والرغبات غالباً ما تكون ثقيلة وشاقة، لتتميز صفوف المطيعين والمتواضعين إزاء أوامر الله من العصاة والمتكبرين عبدة الأهواء، ولولا ذاك لما إمتازت هذه الصفوف عن بعضها البعض الآخر.

والمفردات «شدائد» و«مجاهد» و«مكاره» وإن كانت متقاربة المفهوم والمعنى وأنّها تشير جميعاً إلىٰ الأعمال الشاقّة والصعبة، لكنها تستند إلىٰ ثلاث رؤى؛ الشدّة التي تتطلب الصبر والمشقّة التي تستلزم التحمل والحلم والكراهية التي تقتضي الصبر والاستقامة.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام قد بين أربع نتائج من قبيل اللازم والملزوم لهذا الأمر وهي: ١. إزالة الكبر من القلوب. ٢. استبداله بالتواضع الذي يمثل الهدف الأصلي للخطبة. ٣. فتح أبواب الجنّة. ٤. شمول العفو والرحمة.

تأمّل

«أَفْضَلُ الأَعْمالِ أَحْمَزُها»!

ما ورد آنفاً في كلام الإمام عليه السلام هوعين ما صرحت به الروايات «أَفْضَلُ الأَعْمالِ أَحْمَزُها»[١] ويشير هذا الحديث المروي عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلىٰ أنّ الطاعة وأعمال الخير تختزن أجراً وثواباً أعظم كلّما كانت الطاعة وأعمال الخير شاقة على الجسم عند الإمتثال.

«أَحْمَزَ» من مادة «حَمْز» تعني لغوياً الشدّة والصعوبة والمشقّة، ويفيد هذا التعبير أنّ للأعمال الشاقّة والثقيلة والمجهدة قيمة عظيمة عند الله تعالى. وسبب ذلك واضح فهي تتطلب قوّة وطاقة أكبر على مستوى الروح والجسم بغية الإتيان بها، ونعلم جميعاً أنّ أجر الأعمال وثوابها على قدر مشقّتها والقوّة اللازمة للإتيان بها.

---

١. بحارالأنوار، ج ٦٧، ص ١٩١.

ولا تقتصر هذه القوّة على الجانب البدني (مثل حج بيت الله مشياً على الأقدام في ظلّ ظروف تشير إلىٰ عظمة هذه السنة) فغالباً ما تتعداها إلىٰ الجانب الروحي والمعنوي؛ فمثلاً «إخلاص النيّة» بحيث لا يقارفها أي شائبة في التوجه لغير الله لا تبدو عملية سهلة وبالأمر الهيّن، وكذلك يبدو التواضع والخشوع الذي لا ينسجم مع روحية الإنسان المتمردة أمراً في غاية الصعوبة، ومن هنا شق على إبليس تحمله فشق على نفسه عصى الطاعة والعبودية وإلىٰ الأبد.

فكلّ مشقّة من هذه المشقات توجب عظيم الثواب والأجر من جهة وتهذب النفس البشريّة وعلى هذا الضوء كانت الرياضات مدعاة لصفاء النفس وقوتها واقتدارها.

وبالطبع فإنّ مكافحة الكبر والعصبية التي تعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبة لمن أبرز مصاديق الحديث الشريف «أَفْضَلُ الأَعْمالِ أَحْمَزُها» كما أنّ حج بيت الله الحرام في تلك البقعة الصعبة والوعرة والمحرقة وطبق آدابها المعروفة لتشق على النفس البشريّة؛ من قبيل الإحرام والسعي بين الصفا والمروة وطواف بيت الله والوقوف بصحراء عرفة والمشعر ومنى وحلق الرأس وهي من المصاديق الأخرىٰ الواضحة للحديث الشريف.

القسم الحادي عشر

فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، ومَكِيدَتَهُ الْكُبْرَى، الَّتي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فما تُكْدِي أَبداً، وَلاَ تُشْوِي أَحَداً، لاَ عَالِماً لِعِلْمِهِ، ولاَ مُقِلاًّ فِي طِمْرِهِ. وعَنْ ذلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ والزَّكَوَاتِ، ومُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لأَطْرَافِهِمْ، وتَخْشِيعاً لأَبْصَارِهِمْ، وتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وإِذْهَاباً لِلْخُيَلاَءِ عَنْهُمْ، ولِمَا فِي ذلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، والْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالأَرْضِ تَصَاغُراً، ولُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ وغَيْرِ ذلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ والْفَقْرِ.

أُنْظُرُوا إِلَى مَا فِي هذِهِ الأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وقَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ.

الشرح والتفسير

آفة الكبر والغرور

واصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة متابعة الهدف الأصلي لهذه الخطبة والذي يتمثل بذم الكبر والغرور واستعراض سوء آثاره، غير أنّه سلك طريقاً رائعاً بهذا الخصوص فاتجه صوب الفرائض والعبادات والواجبات ليبين مدى تأثيرها في القضاء على آثار الكبر والغرور.

فحذر باديء الأمر وبصورة كلية من العواقب السيئة للبغي والظلم فقال: «فَاللهَ اللهَ

فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ».

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ السبب الجلي على هذا التحذير فقال: «فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ[1] إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، ومَكِيدَتَهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ[2] قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي[3] أَبَداً، وَلاَ تُشْوِي[4] أَحَداً، لاَ عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلاَ مُقِلاًّ[5] فِي طِمْرِهِ[6]».

فالأمور الثلاثة التي حذر منها الإمامعليه السلام في بداية كلامه والتي تـتمثل بـالبغي والظلم والكبر من قبيل اللازم والملزوم لبعضها البعض الآخر.

فالأفراد المتكبرون لا يرون سوى أنفسهم ولذلك فهم لا يرون من أهميّة لحقوق الآخرين فيرتكبون أنواع الظلم والجور والذي يعد من الشباك الخـبيثة والخـطيرة للشيطان والتي لا ينجومنها سوى أولياء الله والصالحين من الأفراد المؤمنين.

والعبارة: «فَمَا تُكْدِي أَبَداً...» إشارة إلىٰ عموميّة هذا التحذير؛ فلا يتصور العالم أنّ بإمكانه النجاة من هذه المصيدة بما لديه من علم ومعرفة فقط، أو ينجو من آثاره شخص فقير بفقره، فكلّ شخص بدون استثناء معرض للتلوث بالبغي والظلم والكبر ستكون عاقبته سيئة ومريرة.

ثم تطرق الإمامعليه السلام إلىٰ العبادات الإسلاميّة ليركز على جانب مهم منها فشرح الانعكاسات الإيجابية لهذه العبادات في القضاء على آثار الكبر والغـرور وإحـياء روح التواضع والبساطة فقال: «وعَنْ ذلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ[7] عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ

---

١. «مصيدة» (بسكون الصاد وفتح الياء) وقرأها البعض بكسر الميم وتعني الفخ.

٢. «تساور» من «سور» على وزن «غور» بمعنى الوثوب والمقاتلة وتعني هنا نفوذ السموم في القلوب.

٣. «تكدي» من مادة «كَدْى» على وزن «كسب» بمعنى البخل والحبس والتعطيل.

٤. «تشوي» من مادة «شيّ» على وزن «شرّ» تـاتي بـمعنى الطـبخ أحـياناً وأخـرىٰ بـمعنى اليـد والقـدم وأطـراف الجسم وإن وردت في باب الأفعال عنت تخطىء المقتل.

٥. «مقلّ» تعني الفقير من مادة «قليل».

٦. «طمر» الكساء البالي.

٧. اختلف الشرّاح والمفسرون في تركيب هذه الجملة «عَنْ ذلِكَ ما حَرَسَ اللهُ». قال ابن أبي الحديد: إنّ «ما» زائدة و«ذلك» إشارة إلىٰ الظلم والتكبر، وعلى هذا الضوء يصبح مفهوم الجملة أنّ الله حـفظ عـباده مـن هـذه

والزَّكَوَاتِ، ومُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لأَطْرَافِهِمْ[١]، وتَخْشِيعاً لأَبْصَارِهِمْ، وتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وتَخْفِيضاً[٢] لِقُلُوبِهِمْ، وإِذْهَاباً لِلْخُيَلاَءِ[٣] عَنْهُمْ».

إشارة إلىٰ أنّ أحد الجوانب الفلسفية المهمّة لهذه العبادات تحطيم دوافع الكبر والغرور الذي يفضي إلىٰ البغي والظلم، فآداب الصلاة وأركانها تدعو الإنسان بصورة كاملة إلىٰ التواضع من قبيل الوقوف كالعبد الخاضع لله ومن ثم الركوع والأهم من كلّ ذلك السجود يربي في الإنسان روح التواضع من جهة ومن جهة أخرىٰ يصده عن الذنب والمعصية: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[٤].

كما أنّ الزكاة تعدّ في الواقع نوعاً من التقدير والاحترام للمحتاجين، فتعمل بدورها على إزالة الكبر والغرور عن روح الاثرياء والمتمكنين، وهكذا الصوم الذي يجعل الإنسان في مصاف الفقراء والمحتاجين بما يشعر به الإنسان من جوع وعطش والذي يحطم بالتالي كبره وغروره؛ طبعاً لا تنحصر فلسفة هذه العبادات بما ذكرناه آنفاً، إلّا أنّ ما مضى كان جانباً من فلسفتها والتي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة.

وقد أشير إلىٰ هذا المعنى في عدد من الروايات والأحاديث؛ فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ عِلَّةَ الصَّلاةِ أَنَّها إِقْرارٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ للهِ تَعالى وخَلْعُ الأَنْدادِ وقِيامٌ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبّارِ جَلَّ جَلالُهُ بِالذُّلِ والْمَسْكَنَةِ والْخُضُوعِ والإعتراف...»[٥].

☜الأمور الثلاثة بواسطة الصوم والصلاة والزكاة، وقال المرحوم الشارح الخوئي: إنّ «عن» هنا سببية وما مصدرية ومعنى الجملة إنّ الله لهذا السبب حفظ عباده عن الكبر والغرور والظلم بواسطة الصلاة والصوم والزكاة.

١. «أطراف» من مادة «طرف» على وزن «هدف» بمعنى قطعة من أي شيء وأطراف الجسم هي الأيدي والأرجل.

٢. «تخفيض» من «خفض» على وزن «لفظ» تعني السهولة واللين والتنزيل.

٣. «خيلاء» بمعنى التكبر والأنانية.

٤. سورة العنكبوت، الآية ٢٥.

٥. وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٤، كتاب الصلاة، أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح ٧.

كما قال عليه السلام في فلسفة الزكاة: «وهُوَمَوْعِظَةٌ لأهْلِ الْغِنى وعِبْرَةٌ لَهُمْ لِيَسْتَدِلُّوا عَلى فُقَراءِ الأخِرَةِ بِهِمْ»[١].

كما روي عنه عليه السلام في فلسفة الصوم: «عِلَّةُ الصَّوْمِ عِرْفانُ مَسِّ الْجُوعِ والْعَطَشِ لِيَكُونَ ذَليلاً مُسْتَكيناً...»[٢].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ذكره في العبارات السابقة بصورة إجمالية حول فلسفة الصوم والصلاة والزكاة فقال: «ولِمَا فِي ذلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ[٣] عِتَاقِ[٤] الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، والْتِصَاقِ كَرَائِمِ[٥] الْجَوَارِحِ بِالأَرْضِ تَصَاغُراً[٦]، ولُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ[٧] مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ وغَيْرِ ذلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ».

حقّاً إنّ ما ورد هنا، هوجانب من الجوانب الفلسفية لهذه العبادات الإسلاميّة المهمّة. ذلك لأنّ العبادات تنطوي على العديد من الجوانب ذات الأهميّة وفي مقدمتها تفعيل روح التواضع والبساطة ومناهضة الكبر والغرور، وفلسفة النهي عن الفحشاء والمنكر للصلاة وكونها معراج المؤمن إلىٰ جانب تربية روح التقوى والإخلاص في ظلّ الصوم ونبذ آفة التمايز الطبقي في الزكاة وغيرها من العبادات ممّا لا يسع الإنسان التنكر لدوره وجدواه.

وقد وردت إشارات واضحة في الأخبار والروايات إلىٰ هذه الأمور، من ذلك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ اللهَ أوحىٰ إلىٰ مُوسى عليه السلام أتعلم لِمَ اخْتَرْتُكَ مِنْ بَين

---

١. وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٥، كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة وما تستجب فيه، باب ١، ح ٧.

٢. من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٣، ح ١٧٦٧.

٣. «تعفير» تعني التمريغ في التراب من «عفر» بمعنى التراب والغبار.

٤. «عتاق» جمع «عتيق» بمعنى الشيء الثمين والقيم، و«عتاق الوجوه» إشارة إلى القسم المهم من وجه الإنسان، هي الجبهة.

٥. «كرائم» جمع «كريمة» نفيس، ثمين، شريف.

٦. «تصاغر» من مادة «صغر» معروفة.

٧. «متون» جمع «متن» بمعنى الظهر ويأتي بمعنى الأصل والمراد المعنى الأوّل.

خَلقِي؟ قَالَ مُوسى عليه السلام: لا، فَقَالَ تَعالىٰ: «يا مُوسى إنّي قَلّبْتُ عِبادِي ظَهْراً وبَطْناً فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً أذلَّ لِي نَفساً مِنكَ يا مُوسىٰ إنَّكَ إذا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّيْكَ عَلَى التُّرابِ»[١].

ثم خلص عليه السلام إلىٰ هذه النتيجة فقال: «أُنْظُرُوا إلى مَا فِي هذِهِ الأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ[٢] نَوَاجِمِ[٣] الْفَخْرِ وقَدْعِ[٤] طَوَالِعِ الْكِبْرِ». جدير ذكره أنّ بعض هذه العبادات تتكرر كلّ يوم حتى لا يشهد الإنسان يوماً يخلوفيه من مفهوم نبذ الكبر.

تأمّل

فلسفه العبادات

لاشك في أنّ الله تبارك وتعالى غني عن عباداتنا وعبادة الملائكة ولوسلك جميع من في السموات والأرض طريق الإيمان أو الكفر لما أضاف ذلك إلىٰ جلاله شيئاً أو انتقص منه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٥].

وكذلك قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٦].

وكل إنسان مهما كان له من شيء فمن الله تعالى ونفحة من نفحاته سبحانه، وعليه فلا يستطيع هذا المخلوق أن يقوم بفعل من شأنه زيادة عظمة الله، ومن هنا يمكن الاستنتاج أنّ فلسفة الأحكام وفائدتها ولا سيما العبادات إنّما تعود على الإنسان نفسه، وللعبادات فلسفة مشتركة وفلسفة خاصّة: فالفلسفة المشتركة للعبادات تتمثّل في الخضوع والتواضع لله وتحطيم صنم الكبر والغرور والطغوى والعصيان، أضف إلىٰ ذلك فإنّ العبادة تذكر الإنسان بالله وتبث الروح في قلبه ونفسه

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٣٦٣.

٢. «قمع» بمعنى القهر.

٣. «نواجم» جمع «ناجمة» كلما يطلع ويظهر. من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور.

٤. «قدع» تعني الكفّ والمنع.

٥. سورة إبراهيم، الآية ٨.

٦. سورة آل عمران، الآية ٩٧.

وتزيل عنه آثار الغفلة، وهكذا فإنّ العبادات تأخذ بالانسان دائماً إلىٰ مسير العبوديّة والطاعة.

ناهيك عن أنّ لكلّ عبادة فلسفتها المختصة بها؛ فالصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والصوم يشد من عزم الإنسان في مواجهة هوى النفس، والزكاة تحد أو تقضي على التمايز الطبقي، والحج يؤدّي إلىٰ وحدة المسلمين وتنامي قدرة الإسلام وشوكته، وقد وردت الإشارات لكلّ هذه الأمور في الروايات الإسلاميّة بشأن فلسفة الأحكام[١].

٭٭٭

١. راجع كلمات نهج البلاغة القصار، الكلمة ٢٥٢.

القسم الثاني عشر

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ، أوحُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وأَنْتَ طِينِيٌّ.

وأَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلَاداً ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ).

الشرح والتفسير

العصبية الطائشة

خاض الإمام عليه السلام هنا في بيان نقطة أخرىٰ لمواجهة الكبر والغرور والعصبية الجاهلية وخلاصتها أنّ للأفراد المتعصبين أدلتهم على ذلك وإن كانت ضعيفة وواهية وخاطئة؛ إلّا أنّ تعصبكم القبيح أدّىٰ إلىٰ هذه النزاعات وسفك الدماء بما ليس له مبرر، وهذا يعني أنّ تعصبكم أسوأ واقبح من ذلك التعصب.

فقال عليه السلام : «وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا عن عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ[1] الْجُهَلَاءِ، أوحُجَّةٍ تَلِيطُ[2] بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ».

---

١. «تمويه» يعني الخداع وتعني في الأصل طلي النحاس بالذهب لخداع الآخرين.

٢. «تليط» من مادة «لوط» على وزن «موت» بمعنى الالتصاق وتستعمل عبارة «لاطَ بِقَلْبي» لمن تعلق بشيء لا يفارقه وكأنّه لصق به. وتستعمل هذه المفردة بصيغة أجوف واوي وأجوف يائي.

إشارة إلىٰ أنّه كلّما تأمّلنا تاريخ الأسلاف والأقوام المعاصرة نخلص إلىٰ هذه النتيجة أنّهم كانوا يمتلكون ذريعة لتعصبهم من قبيل إخفاء الحقيقة على الجهّال أو اختراق أفكار السفهاء والسذج وبالنتيجة تحقيق سلسلة من المنافع الماديّة، بينما ليس لتعصبكم أي أثر أو فائدة ويفتقر إلىٰ أيّ دليل، سوى الكلمات البذيئة والجنونيّة والاقتتال الطائش الذي ينتهي إلىٰ سفك الدماء، والفارق بين الجهّال والسفهاء هو أنّ الجهّال يفتقرون إلىٰ أدنىٰ علم بينما للسفهاء حض من علم، ومن شأن بعض الأسباب الواهيّة أن تسوق الطائفتين لتحقيق أهداف ومنافع المتعصبين والمستكبرين.

طبعاً ليس مراد الإمامعليه السلام أنّ تعصبكم معلول لعدم وجود علّة، ذلك لأنّ لكلّ شيء في العالم على ضوء النظرة الفلسفية علّة، بل المراد أنّه كان لمن سبقكم من المتعصبين بعض الذرائع الظاهريّة الخادعة، وأنّكم لتفتقرون حتى إلىٰ هذه الذرائع، فالمتعصبين الذين خاطبهم الإمامعليه السلام كانوا يتصفون بضحالة ثقافتهم وعقائدهم الجاهليّة التي أفرزت ذلك التعصب والتي لا تصلح أن تكون ذريعة أبداً.

ثم أشارعليه السلام إلىٰ نموذجين من التعصبات التي يبدو أنّها كانت معززة ظاهرياً ببعض الأدلة وإن لم تكن صائبة؛ أحدهما تعصب إبليس واستكباره والآخر تعصب الأثرياء المستكبرين أصحاب الثروة فقال: «**أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِهِ، وطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وأَنْتَ طِينِيٌّ**».

لا شك في أنّ إبليس خلق من النار، حيث كان ينحدر من الجن الذين خلقوا من النار بينما خلق آدم من الطين والتراب، وللنار ظاهرياً نور وشعاع، بينما يمتاز الطين بالظلمة، الأمر الذي يمكن أن يكون ذريعة لإبليس في الكبر، والحال تمتاز النار بأنّها محرقة والطين باعث الحياة، أضف إلىٰ ذلك فإنّ فضيلة آدم بفعل الروح الإلهيّة التي ولجت فيه حيث قال تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ**

سَاجِدِينَ﴾[1] لكن إبليس وبفعل أنانيّته وتعصبه لم يشأ إدراك تلك الحقيقة.

ثم خاض عليه السلام في الطائفة الثانية وهم الأثرياء المتكبرون من الأمم السابقة الذين ابطرتهم النعمة وكثرة عددهم حيث كانوا يتباهون بذلك والحال ليست لديكم حتى هذه الذرائع في تعصبكم فقال: «وأَمَّا الأَغْنِيَاءَ مِنْ مُتْرَفَةِ[2] الأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لآثَارِ مَوَاقِعِ[3] النِّعَمِ، فَقَالُوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلاَداً ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4]».

إشارة إلىٰ أنّهم جعلوا نعم الله في الجوانب الماديّة التي تشمل القوّة البشريّة والأموال الطائلة وسيلة للكبر والتعصب وتمردوا على دعوة الأنبياء حتى شملهم العقاب الإلهي، أمّا تعصب مخاطبي الإمام عليه السلام فقد دفعهم إلىٰ الاقتتال والنزاع تحت طائلة ذراع واهيّة وطفوليّة، فهي لا تشبه تعصب الشيطان ولا تعصب المترفين المستكبرين السابقين، بل تدور حول محور بعض الأمور التي لا تصلح لأنّ تكون حجة قط، وهذا أسوأ أنواع التعصب.

❊❊❊

١. سورة الحجر، الآية ٢٩.

٢. «مترفة» و«مترف» كما ورد في لسان العرب من مادة «ترف» على وزن «هدف» بمعنى التنعّم ويقال عادة للشخص أغرته وفرة النعمة وساقته للطغيان.

٣. «مواقع» جمع «موقع» بمعنى المحلّ و مواقع النعم إشارة إلى النعم التي يستفاد منها والمراد من الآثار اللذات التي تتوفر لأصحاب النعم.

٤. سورة سبأ، الآية ٣٥.

القسم الثالث عشر

فَإِنْ كَانَ لاَبُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، ومَحَامِدِ الأَفْعَالِ، ومَحَاسِنِ الأُمُورِ، الَّتي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ والنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ ويَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ؛ بِالأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ، وَالأَحْلاَمِ الْعَظِيمَةِ، والأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، والآثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، والْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، والْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، والأَخْذِ بِالْفَضْلِ، والْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، والإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، والإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، والْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، واجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ.

الشرح والتفسير

العصبية الممدوحة

التعصّب كما ذكرنا سابقاً بمعنى التعلق الشديد بالشيء والذي يظهر بصورتين؛ بصورة سلبيّة ويراد بها التعلق الشديد الهمجي البعيد عن المنطق بالمسائل ذات القيمة الدنيئة وربّما العديمة القيمة والوهميّة والتي تفضي إلىٰ العديد من الخلافات والنزاعات الدمويّة.

والصورة الإيجابية والمراد بها الصمود والإصرار على الأمور ذات المثل والقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة الرفيعة، وهذا التعصب ليس فقط منزّه عن العيب والذنب، بل يعتبر من نقاط القوّة والإيجابية، من قبيل من يصمد لحفظ الدين والإيمان أو حفظ الوطن والعرض والشرف.

ومن هنا سعى الإمام عليه السلام لدفع مخاطبيه المتعصبين للنجاة من تعصباتهم السلبيّة

والقبيحة فاقترح عليهم العصبية الإيجابيّة ليشبع تطلعهم العاطفي ويسوق قواهم الباطنيّة نحو المشروع الإيجابي، وهذه هي الخطة التي ينبغي أن يمارسها جميع الزعماء الحكماء في مجتمعاتهم بغية إصلاح المفاسد الاجتماعيّة، فبدلاً من الوقوف بوجه الأمواج العاتية للدوافع السلبيّة لابدّ من السعي إلىٰ تغيير مسارها ودفعها باتجاه القنوات الإيجابية ولذلك قال عليه السلام: «**فَإِنْ كانَ لاَبُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، ومَحَامِدِ الأَفْعَالِ، ومَحَاسِنِ الأُمُورِ، الَّتي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ**[1] **والنُّجَدَاءُ**[2] **مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ ويَعَاسِيبِ**[3] **الْقَبَائِلِ**».

أي لا ينبغي أن يكون مثلكم في هذه الأمور الجهّال الذين يفتقرون إلىٰ المنطق، بل عليكم الإقتداء والتأسي بالعقلاء والأفراد الواعين الذين يتسابقون في كسب الفضائل ونيل مكارم الأخلاق ويوظفون إمكاناتهم كافّة في ميدان هذا السباق الإنساني.

ثم خاض عليه السلام في شرح ذلك ببضع عبارات قصيرة فقال: «**بِالأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ، وَالأَحْلاَمِ الْعَظِيمَةِ، والأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، والآثَارِ الْمَحْمُودَةِ**».

فالواقع إنّ هذه الصفات الأربع التي وردت في كلام الإمام عليه السلام تبيّن أبعاد شخصية الإنسان، التي تتمثّل في الأخلاق الكريمة والفكر الحر والمقام الرفيع والآثار الحميدة (كالآثار العلميّة والخدمات الاجتماعيّة) وبالطبع فإنّ الشخص الذي ينال هذه الصفات هوإنسان فاضل يسعه أن يكون قدوة وأسوة للآخرين.

ثم ركز الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه على جزئيات وتفاصيل المسائل الأخلاقيّة ليشير إلىٰ عشرة نماذج من مكارم الأخلاق والصفات الإنسانيّة البارزة داعياً الجميع إلىٰ التمسك بها فقال: «**فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، والْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ،**[4] **وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، والْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، والأَخْذِ بِالْفَضْلِ، والْكَفِّ عَنِ**

---

١. «مجداء» جمع «مجيد» بمعنى العزيز والعظيم.

٢. «نجداء» جمع «نجيد» بمعنى الشجاع من «نجد» بمعنى الأرض المرتفعة.

٣. «يعاسيب» جمع «يعسوب» وهو أمير النحل. ويستعمل مجازاً بمعنى رئيس القوم كما هنا.

٤. «ذمام» يعني العهد.

الْبَغْيِ، والأِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، والاِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، والْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، واجْتِنَابِ الْـفَسَادِ فِـي الأَرْضِ».

وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان الجامع لهذه الصفات العشر هوإنسان ماجد كما أنّ المجتمع الذي تسوده هذه الخصال هو مجتمع سليم وسعيد ومتطور من جميع الجهات.

جدير ذكره أنّ الصفات المذكورة على صـنفين؛ فـبعضها تشـير إلىٰ اجـتناب المفاسد الفرديّة والاجتماعيّة مثل اجتناب القتل ومخالفة الكبر والإبتعاد عن الفساد في الأرض، والبعض الآخر يشير إلىٰ الأفعال النافعة والبناءة مثل حـفظ الحـقوق والوفاء بالعهد والإتيان بالخيرات والبذل والجود.

أمّا حفظ الجوار فيعني رعاية حقوق الجار التي ورد التأكيد عليها في الشريعة الإسلاميّة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «حُسْنُ الْجَوارِ يَعْمُرُ الدِّيـارِ ويَزِيدُ فِي الأَعْمارِ»[1].

وبالطبع فإنّ «حُسْنُ الْجَوار» لا يقتصر على كف الأذى عن الجار فحسب، بل لابدّ من نجدته ومدّ يد العون إليه، وإن تعرض للأذىٰ منه جابهه بكـلّ رفـق وود، والحقّ لو التزم الجميع بهذه التعاليم الإسلاميّة لسادت المحبّة جميع ربوع العالم.

والوفاء بالذمام إشارة إلىٰ الالتزام بالعهود التي تحظى بفائق الأهميّة في الشريعة السمحاء. وانصاف الخلق إشارة إلىٰ عدم التفريط بحقوق النفس والآخرين والنظر بعين واحدة، فينبغي أن يريد للآخرين ما يريده لنفسه ويرفض للآخرين ما يرفضه لنفسه.

تأمّل

العصبيّة الإيجابيّة والسلبيّة

يختزن الإنسان العديد من الدوافع المعقدة التي لو ترك لها العنان وانطلقت من

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٧، ح ٨.

مصادر الجهل لأدّت إلىٰ نتائج سلبيّة للغاية وأحياناً تكون قاتلة، ويتوجب علىٰ قادة المجتمع في مثل هذه الحالات أن لا ينبروا لمواجهة هذه الدوافع بغية القضاء عليها فحسب، بل لابدّ من تصحيح مسيرتها وإعادتها إلىٰ الطريق الصحيح، وبعبارة أخرىٰ لابدّ من توظيفها من خلال اختيار البدائل الإيجابية دون الاقتصار علىٰ مواجهتها.

فالسيل العظيم ربّما يؤدّي إلىٰ القضاء على أموال الناس وهدر طاقاتهم ما لم تتمّ السيطرة عليه، غير أنّه يكون سبباً للعمران والبناء من قبيل انتاج الطاقة الكهربائيّة وتشغيل المصانع الكبيرة وخزن المياه طيلة السنة وانعاش قطاع الزراعة لو بوشر ببناء سد عظيم بغية السيطرة على ذلك السيل.

ويبدو هذا المطلب واضحاً جلياً في النصوص الدينيّة؛ فقد ورد علىٰ سبيل المثال في خطبة النكاح: «اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي أَحَلَّ النِّكاحَ وحَرَّمَ الزِّنا والسِّفاحِ» فالله تبارك وتعالى لم يأمر قط بقمع وكبت الغريزة الجنسية، بل طرح موضوع النكاح الشرعي كي لا يؤدّي الأمر إلىٰ الأعمال التي تتنافى مع العفة، وحين نصح نبي الله لوط عليه السلام قومه ونهاهم عن إتيان الفاحشة اقترح عليهم الزواج من بناته فقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[١].

وجاء في سورة النور بشأن حدّ الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[٢] ثم رافقته دعوة عامّة لأبناء المجتمع إلىٰ الزواج والتكافل الاجتماعي بهذا الشأن فقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

كما صرّحت بعض الروايات الإسلاميّة: «فأمّا شُؤمُ الْمَرْأَةِ فكَثْرَةُ مَهْرِها...»[٤].

---

١. سورة هود، الآية ٧٨.

٢. سورة النور، الآية ٢.

٣. سورة النور، الآية ٣٢.

٤. وسائل الشيعة، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١١.

كما ورد في البعض الآخر: «وَمِن شُؤمُها شِدَّةُ مَؤُونَتِها»[1].

فقد تعارف بين الناس وجود بعض الأمور من قبيل الشؤم والتفائل ولكن بصورة خرافية وغاية في الضرر؛ فما كان من الإسلام إلّا أنّ كساها ثوب المنطق دون أن ينبري لاقتلاعها.

والقضية هذه جارية عينها على التعصب؛ فهنالك بعض الدوافع الباطنيّة للإنسان التي تسوقه نحوالتعصب فإن خلي بينه وبينها ساقته إلىٰ الجوانب السلبيّة التي تؤدّي إلىٰ الكبر والغرور وربّما الاختلاف والنزاعات الدموية؛ إلّا أنّ الإمام عليه السلام سعى توجيهه باتجاه الجوانب الإيجابية فصرح أنّه إن كان ولابدّ لهؤلاء الأفراد والقبائل من التعصب فليكن هذا التعصب في مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال والدفاع عن المظلومين ومواجهة الظالمين ومدّ يد العون إلىٰ المعوزين والمحتاجين.

١. وسائل الشيعة، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١٠.

القسم الرابع عشر

واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الاِجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، واللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، والتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، والتَّوَاصِي بِهَا، واجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ؛ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وتَخَاذُلِ الأَيْدِي.

الشرح والتفسير

الاعتبار بالماضين

دعا الإمامعليه السلام في هذا القسم وبعض الأقسام القادمة مخاطبيه إلىٰ تأمّل أحوال الأمم السابقة فاستعرض عناصر ضعفهم وقوتهم وعرفهم بالأسباب التي تقف وراء نجاحهم وفشلهم في مختلف زوايا حياتهم، حتى ينفتحوا على تجاربهم ويشقوا طريقهم الصائب في حياتهم في ظلّ الاستفادة من التاريخ، وهذا النوع من التعليم والتعلّم عن طريق النظر في تاريخ الأمم السالفة) ممّا أكّده القرآن الكريم في أكثر السور القرآنيّة والذي لا يخفى مدى تأثيره ودوره.

فقالعليه السلام: «واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ».

القسم الرابع عشر

واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، واللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، والتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، والتَّوَاصِي بِهَا، واجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ؛ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وتَخَاذُلِ الأَيْدِي.

الشرح والتفسير

الاعتبار بالماضين

دعا الإمام عليه السلام في هذا القسم وبعض الأقسام القادمة مخاطبيه إلىٰ تأمّل أحوال الأمم السابقة فاستعرض عناصر ضعفهم وقوتهم وعرفهم بالأسباب التي تقف وراء نجاحهم وفشلهم في مختلف زوايا حياتهم، حتى ينفتحوا على تجاربهم ويشقوا طريقهم الصائب في حياتهم في ظلّ الاستفادة من التاريخ، وهذا النوع من التعليم والتعلّم عن طريق النظر في تاريخ الأمم السالفة) ممّا أكّده القرآن الكريم في أكثر السور القرآنيّة والذي لا يخفى مدى تأثيره ودوره.

فقال عليه السلام: «واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلىٰ مصير بعض الأقوام مثل قوم عاد، وثمود وقوم نوح وقوم لوط وعاقبة الفراعنة وأمثال نمرود وما أصابهم من العذاب بفعل أعمالهم القبيحة فحذّرهم من مغبّة الإبتلاء بذات المصير.

والعبارة: «سُوءِ الأَفْعَالِ وذَمِيمِ الأَعْمَالِ» يمكن أن تكون تأكيداً لمعنى معين هو الأفعال القبيحة والذميمة، وهنالك احتمال آخر أنّ سوء الأفعال إشارة إلىٰ الأعمال السيئة وذميم الأعمال، الأفعال المستهجنة وإن لم تبلغ مرحلة الذنب مثل الغفلة عن المحرومين وترك الانصاف والبذل والعطاء والأثرة.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من هذا البيان الإجمالي خاض في التفاصيل ليستفيد من ذات الأسلوب القرآني الذي طرح كراراً بغية بيان المسائل المهمّة فقال: «فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ».

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ بيان العناصر التي تقف وراء هذه الأمور الخمسة (العزّة ودحر العدووالعافية والنعمة والكرامة) فقال: «مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، واللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، والتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، والتَّوَاصِي بِهَا».

ورغم أنّ هذه العناصر الأربعة تعود جميعاً إلىٰ مسألة الاتحاد والوحدة، غير أنّ كلّ واحد يعالج نقطة معينة: فاجتناب الفرقة ناظر لنفي عناصر التفرقة والاختلاف ولزوم الإلفة لترسيخ عوامل الوحدة، والتحاض إشارة إلىٰ الحض والتشجيع (ربّما التشجيع العلمي) والتواصي المراد به عن طريق البيان والحوار.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ الجانب السلبي لهذه المسألة؛ أي التفرقة وعناصرها فحذرهم بعبارات عميقة المعنى من ضرورة نبذ عوامل الفرقة والاختلاف فقال: «واجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ[1]، وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ[2]».

---

١. «فقرة» وجمعها «فقرات» بمنزلة العمود الذي يشد ظهر الإنسان ويجعله يستقيم وينحني.

٢. «مُنّة» بمعنى القوة و«مِنّة» على وزن «عِزّة» بمعنى النعمة العظيمة التي توجب القدرة والقوة وقال الراغب في المفردات إنّها مشتقة في الأصل من «منّ» وحدة الوزن.

آنذاك ركز الإمام عليه السلام على العوامل الخاصّة بعد ذكره لهذا المبدأ الكلّي فقال: «**مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وتَخَاذُلِ الأَيْدِي**».

فهذه العناصر الأربعة هي العوامل الرئيسيّة للاختلاف والتي لبعضها جانب باطني من قبيل الأحقاد الكامنة في الصدور والحسد والبخل بينما لبعضها الآخر جانب ظاهري من قبيل تولي البعض عن البعض الآخر وترك الأخوة والمؤمنين عند الحوادث والشدائد، نعم ! لوسادت هذه الأمور أية أمّة لكسرت فقرتها وسلبتها قوتها وقدرتها.

ﮋﮊ

القسم الخامس عشر

وتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ والْبَلاَءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً، وأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلاَءً، وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً. اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلَا سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، والإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاَءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، والأَمْنَ مَكانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وأَئِمَّةً أَعْلاَماً، وقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح والتفسير

عناصر انتصار المؤمنين الأوائل

بالنظر إلىٰ أنّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبة يتمثّل في مواجهة الكبر والغرور والعصبيات السلبيّة وقد بيّن الإمام عليه السلام ذلك في الفصل السابق ولفت انتباه مخاطبيه إلىٰ أحوال الأمم السالفة وانتصاراتهم ونجاحهم في ظلّ وحدتهم وإلفتهم، وعاد ثانية ليلفت أنظارهم إلىٰ التأمّل في سيرة الأمم السابقة وما عانوه من امتحانات شاقة وعسيرة ليستعرض لهم كيفية نجاحهم في تلك الامتحانات وتسلطهم على العدو، فأفاض الله عليهم العزّة والعظمة ومنحهم الأمن فقال: «وتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ والْبَلاَءِ».

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ توضيح تلك الامتحانات الصعبة فقال: «أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً[١]، وأَجْهَدَ العِبَادِ بَلاَءً، وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً».

ثم غاص أكثر في التوضيح بهذا الشأن ليركز على ما واجهتهم من صعوبات في حياتهم فقال: «اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ[٢] سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ[٣]، فَلَمْ تَبْرَحِ الحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلاَ سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ».

ورغم أنّ خطوب حياة الأقوام السابقة وامتحاناتهم الصعبة والشاقّة لا تقتصر على زمان الفراعنة، ولكن بما أنّ القرآن أشار كراراً إلىٰ المصائب التي عانى منها بنو إسرائيل فيع زمان فرعون والتي يعرفها جميع المسلمين، فقد أشار الإمامعليه السلام على وجه الخصوص إلىٰ تلك الحقبة حيث تحول فيها الجميع إلىٰ عبيد من جانب وكانوا يضطرونهم إلىٰ أعقد الأعمال ويزودونهم بأدنىٰ الإمكانات وحين يشعرون بالخطر يعمدون إلىٰ قتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهن للخدمة، وقد مضت عليهم عدّة سنين ولم يكن لهم من سبيل للنجاة حتى تلطف الله عليهم فكانت معجزة الله في انتصارهم على عدوهم بهلاك الفراعنة وأعوانهم، حيث قالعليه السلام في مواصلته لكلامه «حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، والاِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاَءِ فَرَجاً».

نعم ! فحين يجتاز الإنسان الامتحان يبعث الله عليه ما يفرج عنه مشكلاته وتُشرق عليه شمسَ النصر والغلبة، الأمر الذي لمسناه في موسىعليه السلام وقومه.

فقد أشار الإمامعليه السلام في هذه العبارة إلىٰ نصرهم بصورة كليّة، ثم خاض في التفاصيل فقال: «فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، والأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً

---

١. «أعباء» جمع «عِبء» على وزن «فكر» بمعنى الحمل الثقيل.

٢. «ساموا» من مادة «سوْم» على وزن «قوم» بمعنى البحث عن شيء أو إجبار الآخرين على العمل وكذلك الاستمرار أي أنّ العبارة «ساموهم...» تعني استمرارهم في عذاب بني اسرائيل.

٣. «مرار» نوع من الشجرة المرة المذاق. ثم اطلقت على كلّ حادث مرير.

حُكَّاماً، وأئِمَّةً أَعْلاَماً، وقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الأمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ».

وقد ورد المزيد من التوضيح في القرآن المجيد بشأن بني إسرائيل والفراعنة بهذا الخصوص والذي يكشف النقاب عن دقائق هذا النصر فقال تعالىٰ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم * وَنَعْمَة كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[1].

وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

١. سورة الدخان، الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

٢. سورة القصص، الآية ٥.

القسم السادس عشر

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَـانَتِ الْأَمْـلاَءُ مُـجْتَمِعَةً، وَالْأَهْـوَاءُ مُـؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُـتَرَادِفَـةً، وَالسُّـيُوفُ مُـتَنَاصِرَةً، وَالْـبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الْأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ! فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَـعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الْأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْـئِدَةُ، وَتَشَـعَّبُوا مُـخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِـبَاسَ كَـرَامَـتِهِ، وَسَـلَبَهُمْ غَـضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

الشرح والتفسير

الوحدة والفرقة، والنصر والهزيمة

بعد أن فرغ الإمامعليه السلام من كلامه السابق بشأن الأقوام السابقة ومصيرهم الذي يختزن الدروس والعبر، خلص في هذا المقطع من الخطبة إلىٰ نتيجة ليركز على العنصر الرئيسي للنصر المتمثّل باتحاد الصفوف والعنصر الرئيسي للفشل المتمثّل بتفرّق الصفوف ليشير إلىٰ أبعاد وحدة الكلمة من خلال عدّة عبارات بسبع جمل فقال: «فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلاَءُ[1] مُجْتَمِعَةً، وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ».

فالإمامعليه السلام أشار بهذه العبارات الغاية في الروعة والعميقة المعنى إلىٰ الاتحاد

---

١. «أملاء» جمع «ملأ» بمعنى الجماعة و القوم وأحياناً بمعنى الأيادي المتعاونة مثل أشراف القوم.

والاتفاق في جميع مظاهره ليعده عنصر الإقتدار والرفعة، الاتفاق في التطلعات والرغبات والخطط والمشاريع والاتفاق في العمل والاتفاق عند الصلح والقتال وبالتالي وحدة الصفوف في جميع مظاهر الحياة.

ويبدو الدليل على هذا الكلام واضحاً تماماً؛ ذلك لأنّه ليس للأفراد بمفردهم من قدرة كبيرة وكل واحد منهم كالقطرة بحيث لو كانت في صحراء وأشرقت عليها أشعة الشمس أو هبت عليها الريح لحولتها إلىٰ بخار، غير أنّ هذه القطرات أن اجتمعت مع بعضها البعض شكلت تلك البحار العظيمة التي من شأنها أن تكون مصدر لكلّ خير وبركة، فخيط العنكبوت بمفرده ضعيف وايل للزوال ولايسعه الصمود أمام أدنىٰ نسيم، غير أنّهم اليوم يلفونها مع بعضها ليصنعوا منها بدلة مضادة للرصاص والتي تفوق مقاومتها جميع المقاومات وهذا هو دور الاتحاد والاتفاق.

ولعل هذه العبارات واردة بشأن بني إسرائيل حين نهض موسى بن عمران عليه السلام بالأمر ووحّد صفوفهم فشملتهم العناية الإلهيّة والألطاف الربّانيّة فورثوا حكومة مصر والبلدان المجاورة لها، حتى تشكلت بعد موسى عليه السلام حكومات مقتدرة كحكومة داود وسليمان عليهما السلام، وربّما يكون أصلاً كلياً وعاماً حصل كراراً في تاريخ الأمم السابقة، وكلّما كان هنالك اتحاد واتفاق ووحدة قرار وخطة حكيمة كان هنالك الانتصار والغلبة، على كلّ حال فإنّ شرح الإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقة أنّه وإن كانت عدّة عوامل ضرورية للنصر والتقدم إلّا أنّ أهمها مسألة الاتحاد والاتفاق.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فذكر العنصر الرئيسي في الفشل والهزيمة وهو الاختلاف؛ الاختلاف في وجهات النظر وتشتت الصفوف، ثم أشار إلىٰ أبعاده المختلفة بخمس عبارات فقال: «**فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ، واخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ،**

وتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ[1] نِعْمَتِهِ، وبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ».

نعم، فحين تتجه طاقات أمّة نحو الاختلاف، وتستبدل الإلفة والمحبّة بالنفرة والعداوة وتتصاعد فيها ألسنة لهيب اختلاف الكلمة وتفرق الأفكار إنّما تخوض حربها ضد نفسها وتهدر طاقاتها بدلاً من تصديها لعدوها الذي ينوي القضاء عليها، والله سبحانه وتعالى ينزع عنها لباس العزّة ويكسيها لباس الذل والهوان.

ويمكن أن يكون هذا الجانب من كلام الإمام عليه السلام إشارة إلىٰ قصّة بني إسرائيل بعد تلك الانتصارات المتتالية حين فقدوا مجدهم وعزّتهم إثر الاختلاف والتشتت فتفرقوا في الأرض، وربّما يكون إشارة إلىٰ جميع الأقوام التي تعيش حالة السقوط بسبب كفران النعمة والاختلاف والتشتت عقب الانتصارات الباهرة التي تحققها في ظلّ الاتحاد ووحدة الكلمة.

٭٭٭

١. «غضارة» بمعنى السعة.

القسم السابع عشر

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وبَنِي إِسْحَاقَ وبَنِي إِسْرَائِيلَ (عليهم السلام). فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الأَحْوَالِ، وأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأَمْثَالِ!

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ والْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الآفَاقِ، وبَحْرِ الْعِرَاقِ، وخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، ومَهَافِي الرِّيحِ، ونَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ، أَذَلَّ الأُمَمِ دَاراً، وأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِها، وَلا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا. فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، والأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، والْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ؛ فِي بَلاءِ أَزْلٍ، وأَطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْؤُودَةٍ، وأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ.

الشرح والتفسير

الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة ما ذكره في المقاطع السابقة بشأن العناصر التي تقف وراء انتصار وفشل الأمم السابقة فركز على المصاديق العينية لهذا الموضوع وأخذ بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ فيكشف لهم النقاب عن قصة ولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام وبني إسرائيل ليعتبروا بهم فقال: «فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وبَنِي إِسْحَاقَ وبَنِي إِسْرَائِيلَ عليهم السلام. فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ[1] الأَحْوَالِ،

---

1. «اعتدال» الحد الوسط بين الافراط والتفريط وأيضاً المساواة بين الشيئين وتشابههما (كل واحدة عدل الأخرى) وهو المعنى المراد في العبارة.

وأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ[١] الأَمْثَالِ!».

وعلى هذا الضوء فقد دعاهم الإمام عليه السلام لمقارنة أنفسهم بمن سبقهم ليتعرفوا على عناصر نجاحهم وإخفاقهم لكي لا يقعوا في شباك الشيطان ويعيشوا هوى النفس والغرور والتعصب.

وهنا لابدّ من الإلتفات إلىٰ أنّ ولد إبراهيم عليه السلام ينقسمون إلىٰ ثلاث طوائف؛ طائفة هم بنو إسماعيل الذين يعدون أجداد النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وبنو إسحاق الذين يتفرعون إلىٰ فرعين؛ فرع هم بنو يعقوب الذين يشكلون قوم بني اسرائيل وفرع آخر هم بنو «عيسو» ومن نسلهم «الأدوميون» (قوم من أولي القوّة كانوا يقطنون في منطقة «أدوم» التي تمتد من جنوب البحر الميت إلىٰ شمال الحجاز).

ويحتمل أن يكون المراد بالعبارات السابقة قد أشار إلىٰ قانون كلّي في أنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار وعادة ما تعيش الشعوب والأمم ظروفاً متشابهة تستطيع من خلالها كلّ أمّة أن تحدد معالم مصيرها.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ شرح هذا الكلام بأسلوب الاجمال والتفصيل الذي يلعب دوراً في بيان الحقيقة فقال: «تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ[٢] والْقَيَاصِرَةُ[٣] أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ[٤] عَنْ رِيفِ[٥] الآفَاقِ، وبَحْرِ الْعِرَاقِ، وخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ[٦]، ومَهَافِي[٧] الرِّيحِ، ونَكَدِ[٨] الْمَعَاشِ».

---

١. «اشتباه» لها معنيان: الأول الخطأ في الفهم أو العمل و الثاني تشابه شيئين والمعنى الثاني هو المراد في العبارة أيضاً.

٢. «أكاسرة» جمع «كسرى» (بكسر وفتح الكاف) لقب عام لملوك ايران قبل الإسلام.

٣. «قياصرة» جمع «قيصر» على وزن «حيدر» لقب عام لملوك الروم.

٤. «يحتازونهم» من مادة «حيازة» بمعنى التملك والمعنى المراد في هذه العبارة أنّهم يقبضونهم عن الأرضي الخصبة.

٥. «ريف» الأرض الخصبة والزراعية.

٦. «شيح» نبات مر ذات ريحة طيبة.

٧. «مهافي» جمع «مهفى» المواضع التي تهفّ فيها الرياح أي تهب.

٨. «نكد» بمعنى الشيء القليل.

إشارة إلىٰ أنّهم سلبوهم حياة القرى والمدن المباركة وهجّروهم إلىٰ الصحارىٰ والمناطق الجرداء القاحلة.

ثم قال عليه السلام: «فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً[1] مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ[2] وَوَبَرٍ[3]، أَذَلَّ الأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً لَا يَأْوُونَ[4] إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا».

انذاك خاض عليه السلام في شرح معطيات هذا الوضع فقال: «فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلَاءِ أَزْلٍ[5]، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْؤُودَةٍ[6]، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ[7] مَشْنُونَةٍ[8]».

إشارة إلىٰ أنّ اختلاف الآراء وتشتت الأفكار، إنّما تفرز على الدوام المحن والخطوب التي تصيب المجتمعات البشريّة فتطمرها في وادي الجهل، كما يشير تاريخ الجاهلية إلىٰ أنّهم كانوا يمارسون الأعمال الهمجيّة والبربريّة، وقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ أربعة نماذج منها؛ فكانوا يعمدون إلىٰ وأد بناتهم أحياءً تحت ذريعة حفظ الحرمة وابراز الغيرة والنجاة من الفضيحة والعار، ويعبدون الأحجار التي كانوا يصنعونها بأيديهم فكان لكلّ قبيلة صنمها ووثنها، فقريش وبنو كنانة والأوس والخزرج كانوا يعبدون «مناة»، وبنو ثقيف «اللاة والعزى» وهذيل «سواع» وبنو كلب «ود» وسائر الطوائف كانت تعبد سائر الأصنام، وقد نصب «هبل» كأعظم صنم

---

١. «عالة» جمع «عائل» الفقير و«عيلولة» قضاء حوائج الآخرين.

٢. «دبر» جمع «دبرة» على وزن «شجرة» القرحة في ظهر الدابة.

٣. «وبر» شعر الجمال والمراد في العبارة أنّهم رعاة.

٤. «يأوون» من مادة «إواء» على وزن «كتاب» بمعنى الدخول والسكن في مكان.

٥. «أزل» بمعنى الشدّة؛ وتأتي بمعنى الحبس أيضاً.

٦. «موؤودة» من «وأد» على وزن «رعد» تعني في الأصل الثقل، ثم اطلقت على البنت التي كانت تدفن وهي حيّة في عصر الجاهليّة أيضاً، لأنّهم كانوا يخفونها تحت التراب ويضعون فوقها الكثير من التراب.

٧. «غارات» جمع «غارة» تعني في الأصل الهجوم، وحين يكون الهجوم من كلّ جانب يقال له «غارات مشنونة».

٨. «مشنونة» من «شنّ» على وزن «ظنّ» الهجوم من كلّ جانب.

لهم في الكعبة بينما كان «اساف» و«نائلة» على الصفا والمروة فكان الجميع يعظم هذه الأصنام الثلاثة فتحولت الكعبة مركز التوحيد والعبودية إلىٰ أكبر معبد وثـني للأصنام.

وقطع الرحم الوارد في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن يكون إشارة إلىٰ قتلهم أولادهم خشية الفقر أو بصفته عبادة يتقربون بها لأصنامهم، وتشير «الغارات المشنونة» الحروب المتعددة التي كانت تنشب بين القبائل العربية في العصر الجاهلي تحت مختلف الذرائع، حتى ذهب بعض المؤرخين إلىٰ أنّ نار تلك الحروب لم تكن تطفأ حتى ظهر الإسلام فوضع حداً للاقتتال القبلي وقتل الأولاد ووأد البنات وعبادة الأوثان.

وهذا هو مصير من يقطع أواصر الوحدة ويقبل على الاختلاف والتشتت والنفاق والذي يتجلى بصيغة معينة في كلّ أمّة ولا يقتصر على العصر الجاهلي.

تأمّل

القطرة والبحر

لعلنا سمعنا كراراً هذا الكلام في أنّ قطرات الأمطار ليس لها من قيمة تذكر بمفردها، غير أنّها إن اتصلت بسائر القطرات وشكلت نهراً عظيماً وتراكمت مع بعضها البعض الآخر ألفت كتلة عظيمة من شأنها القيام ببعض الأعمال الكبيرة ومن ذلك إنتاجها للقوّة الكهربائية التي تشغل المصانع والمعامل الضخمة، وتضيئ المدن والقرى وتسقي قطاعات واسعة من المزارع والحقول، وبالتالي يمكنها إضفاء الحياة والحيويّة.

ويبدو أنّ الناس كذلك، فكلّ إنسان مهما كانت قدرته وطاقته لا يمكنه القيام ببعض الأعمال بمفرده، على غرار قطرة المطر، ولكن ما أن تتظافر هذه الجهود الصغيرة حتى يكون لها تأثيراتها الواضحة في هذا العالم، فهي لا تشكل درعاً

حصيناً العدو فحسب، بل تلعب دورها في عالم الاقتصاد والعلم والمعرفة فتؤدي إلىٰ كلّ ذلك الرقي والتقدم والإزدهار، والحقّ لولا تلاقح قطرات علم العلماء طيلة التاريخ وفي المجتمعات البشريّة لما شهدنا ليوم كلّ هذا التقدم العلمي الهائل ولما كان التمدن يفوق مدنية العصور الحجرية.

وفإذا دبّ الاختلاف في صفوف المجتمعات البشريّة فلا تتوقف عجلة الرقي والتقدم فحسب، بل تنعدم كلّ القدرات والقوى في اتون الاقتتال الداخلي والذي لا يفضي سوى إلىٰ الدمار والخراب والتخلف.

وقد أكّد الإمام عليه السلام مراراً في هذه الخطبة الشريفة على هذا المعنى، فأخذ بيد مخاطبيه إلىٰ أعماق التاريخ البشري ليريهم عن كثب نتائج الاتحاد والفرقة.

من جانب آخر فقد ورد مثل هذا التأكيد في الآيات القرآنيّة والروايات الإسلاميّة؛ ولكن ما تجدر الإشارة إليه أنّ الظفر بوحدة الصفوف لا يبدو بالأمر الهيّن بل يحاط بالعديد من الصعوبات والعوائق، ومنها التعصب والكبر والفخر وترجيح المصالح الذاتية الضيقة والقصيرة الأمد على المنافع العامّة والبعيدة الأمد، وقد عدّها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة من العقبات التي تعترض سبيل الوحدة.

وقد أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى في سائر خطب نهج البلاغة أيضاً؛ ومن ذلك ما ورد في الخطبة ١٢٧ أنّه قال: «**وإيّاكُمْ والفُرْقَةَ فإنَّ الشّاذَّ مِنَ النّاسِ لِلشَّيْطانِ كَما أنّ الشّاذّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ**».

كما وردت إشارة رائعة إلى هذا المعنى في الخطبة ٨٦: «**ولا تَباغَضُوا فَإنّها الحالِقَةُ**».

ونختتم هذا الكلام بالرسالة المهمّة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1].

---

١. سورة الأنفال، الآية ٤٦.

القسم الثامن عشر

فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، والْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، ومُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ. يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، ويُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلَا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ.

الشرح والتفسير

عزتكم بالاسلام

بعد كلام الإمام عليه السلام في القسم السابق من هذه الخطبة بشأن خطوب العصر الجاهلي والمشاكل والإرباكات والفقر وعدم الاستقرار التي اتصف بها، تناول هنا شرح المعطيات المباركة التي حصلوا عليها في ظلّ انبثاق دعوة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما أصبحوا عليه من اتحاد وإلفة ومحبّة، ليشرح هذا الأمر بعبارات غاية في الجمال والبلاغة فقال: «فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ».

نعم؛ فقد كان كلّ قوم وقبيلة بل كلّ فرد في العصر الجاهلي يلهث خلف مصالحه ورغباته الضيقة حتى سادهم جو من الفرقة والاختلاف والتشتت، فجمعهم الله

تبارك وتعالى تحت راية واحدة في ظلّ الإسلام والتوحيد فانقلب كلّ شيء رأساً على عقب.

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ بيان هذه النعم من خلال تشبيهات واستعارات رائعة ليتطرق إلىٰ الواحدة تلو الأخرىٰ فقال: «**كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ[1] نَعِيمِهَا، والْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ[2]**».

فقد شبه الإمامعليه السلام هذه النعم بالطيور التي تفتح اجنحتها لتضم إليها صغارها فتمنحها الدفء والحنان والأمان، ثم شبهها ثانية بالماء العذب الفرات الذي ينحدر نحو الحقول والمزارع فيجعلها خضراء نضرة، ونتيجة ذلك الغرق في النعم والعيش بأمان في ظلّ حياة هانئة وديعة.

ثم واصل كلامهعليه السلام ليشير إلىٰ نعمة الحكومة الإسلاميّة، الحكومة العزيزة والمقتدرة فقال: «**قَدْ تَرَبَّعَتِ[3] الأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِب، وتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى[4] مُلْك ثَابت**».

والتاريخ الإسلامي أفضل شاهد على جميع ما ذكره الإمامعليه السلام بهذه العبارات حيث انتصار العرب بالخصوص والمسلمين بصورة عامة في ظلّ الإسلام، الأمر الذي يقرّه مؤرخو الشرق والغرب.

ثم أشار في ختام هذا الكلام إلىٰ النصر المطلق للمسلمين على خصومهم بعبارة بليغة فقال: «**فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، ومُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ. يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، ويُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لَا**

---

١. «جداول» جمع «جدول» بمعنى مجرى النهر.

٢. «فكهين» جمع «فكه» على وزن «خشن» بمعنى الراضين والفرحين فيالأصل من «فكاهة» على وزن «قبالة» بمعنى المزاح والضحك، يقول البعض انّ أصلها «فاكهة» أي انّ المزاح حلو كالفاكهة الحلوة.

٣. «تربعت» من «تربع» بمعنى الاقامة باطمئنان في مكان.

٤. «ذرى» جمع «ذروة» (بضم الذال وكسرها) فوق كلّ شيء مثل قلة الجبال.

تُغْمَزُ[١] لَهُمْ قَنَاةٌ[٢]، ولَا تُقْرَعُ[٣] لَهُمْ صَفَاةٌ[٤]».

إشارة إلىٰ سطوة الحكام والسلاطين في العهود السابقة عليهم إثر اختلافهم وفرقتهم وضعفهم وعجزهم حتى استعبدوهم بينما بث فيهم الإسلام روح الاتحاد والقدرة والعزّة فانحنوا لهم حيث تحولوا إلىٰ قوّة لا تقهر.

قال أحد المستشرقين: بلغ المسلمون درجة من القوّة بحيث يوصف بالجنون كلّ من يفكر في مواجهتهم.

---

١. «تغمز» من مادة «غمز» على وزن «همز» تعني الإشارة بالعين واليد للتعييب وتأتي بمعنى الانحناء وهنا المراد هو المعنى الثاني.

٢. «قناة» به بمعنى الرمح وتأتي بمعنى العصا أيضاً. ويقال لمسير الماء المستقيم أيضاً وهنا المراد هو المعنى الأوّل.

٣. «لا تقرع» من مادة «قرع» على وزن «فرع» يعني صدم شيء بآخر بحيث يصدر عنهما صوت عالٍ.

٤. «صفاة» بمعنى الحجر الصلد وفي العبارة كناية عن القوّة.

القسم التاسع عشر

أَلَا وإنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هذِهِ الأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ الأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، ويَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّها أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وبَعْدَ الْمُوَالاَةِ أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ.

تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، ونَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ. وإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ.

وإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وقَوَارِعِهِ، وأَيَّامِهِ ووَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ، ويَأْساً مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، والْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي.

أَلَا وقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ، وعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ.

الشرح والتفسير

اجتناب الفرقة

أشار الإمام عليه السلام في المقاطع السابقة إلىٰ شؤون بني إسرائيل وضعفهم قبل قيام موسى عليه السلام ومن ثم قوتهم واقتدارهم في ظلّ حركة موسى التي وحدت صفوفهم وبالتالي ضعفهم وذلتهم ثانية حين تولوا عن الدين الجديد ودعوة موسى، فذكّر المسلمين بهذه المراحل الثلاث، المرحلة الأُولىٰ المتعلقة بالعصر الجاهلي، والمرحلة الثانية المرتبطة بانبثاق الدعوة الإسلاميّة وما انطوت عليه من انتصارات باهرة والذي مر علينا في الأقسام السابقة، وخاض هنا في تفاصيل المرحلة الثالثة التي انطوت على تخلف المسلمين عن الوحدة والانتصارات السابقة فقال: «أَلَا وإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ[1] أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وثَلَمْتُمْ[2] حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكامِ الْجَاهِلِيَّةِ».

ثم خاض عليه السلام في شرح هذا الكلام فقال: «فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هذِهِ الأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ الأُلْفَةِ الَّتي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، ويَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا[3]، بِنِعْمَة لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لأَنَّها أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَن، وأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَر».

فكلّ هذه العبارات تشير إلىٰ أهميّة الاتحاد والإلفة، الأمر الذي أكّده القرآن الكريم في عدّة مواضع في قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً[4]﴾[5].

---

١. «نفضتم» من مادة «نفض» على وزن «نبض» بمعنى تحريك الشيء لإخراج ما في داخله والمراد في العبارة تقطع عرى الطاعة.

٢. «ثلمتم» من مادة «ثلم» على وزن «عزم» بمعنى الخرق والكسر.

٣. «كنف» بمعنى الحماية.

٤. سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٥. وشاهدنا آثار هذا الأمر القرآني وتعليمات الإمام في أيّامنا هذه، وقد أعدّ أعداء الإسلام والاستعمار الغربي ☜

فكشف النقاب أكثر عن الموضوع ليقول صراحة: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً وَبَعْدَ الْمُوَالاَةِ أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ الأِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ».

فقد أفصح الإمامعليه‌السلام في هذه العبارات عن مدى قلقه على أوضاع المسلمين آنذاك وكيف بدت عليهم آثار العصبيّة القبليّة التي جهد النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله على إزالتها في ظلّ التعاليم الإسلاميّة السمحاء، فكانت هذه العصبية أساس الاقتتال وسفك الدماء ولذلك صرّح لهم الإمامعليه‌السلام: (أنّكم لتتحدثون عن الإسلام والإيمان بينما لا تحسنون من الإسلام سوى اسمه ومن الإيمان سوى شكله)، نعم! إنّكم لتنطقون بالشهادتين وتأتون ظاهرياً بالصوم والصلاة لكنكم غافلون عن تعاليم هذا الدين.

ثم شرح الإمامعليه‌السلام هذه العبارة فقال: «تَقُولُونَ: النَّارَ وَلاَ الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا[1] الإِسْلاَمَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ».

عبارة هذه الشعار «اَلنَّارَ وَلاَ الْعارَ» اطلقت حسب بعض الشرّاح لأول مرّة من قبل «أوس بن حارثة»[2] وهو من الشعارات التعصبيّة البعيدة عن الإسلام. فهؤلاء يزعمون أنّهم مستعدون لدخول النار، لكنهم ليسوا مستعدين لأنّ تظهر عليهم القبيلة الفلانيّة، أو يراق لهم دم ولا يردّون الصاع صاعين. فالإمامعليه‌السلام يصف هذا الكلام بأنّه نقض العهود والتراجع عن الإسلام.

☜ خططاً جهنمية ضد البلدان الإسلاميّة ولبنان ليسيطروا عليها بواسطة عملائهم في المنطقة، لكي تضمن حماية إسرائيل من جانب ولتكون قاعدة من جانب آخر للتطاول على سائر البلدان الإسلاميّة غير أنّ الشعب اللبناني عبّر عن وحدته في ذلك اليوم التاريخي (يوم ٢٦ محرم الحرام ١٤٢٦) ليخرج بتلك المسيرات المليونية ويطلق الشعارات المعادية للامبريالية فأفشل تلك الخطط: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

١. «تكفئوا» من مادة «اكفاء» بمعنى الانقلاب.

٢. عاش في عصر الجاهليّة؛ وروى حفيده «حميد بن منهب» أنّ جده أوس بن الحارثة قدم على النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله وبايعه مع سبعين نفر من قبيلة «طيّ». (أسدالغابة، ج ١، ص ١٤١).

وقال جمع من شرّاح نهج البلاغة إنّ العبارة «النّارَ وَلاَ الْعارَ» عظيمة إن كانت في الأهداف القدسيّة، بينما تعدّ قبيحة ومذمومة إن كانت في المفاخر القبليّة الواهيّة.

إنّما يصح هذا الكلام إن لم تكن النار بمعنى جهنم، بل كانت بمعناها الواسع الذي يشمل نار المشاكل الدنيوية أيضاً. مثلاً يقال (نتحمل جميع المحن وحتى الموت لكننا لا نقبل بسيطرة الكفّار على البلاد الإسلاميّة) فالشعار بالطبع صحيح؛ أمّا أن يقال (نحن مستعدون لدخول النار لكننا لا نتحمل أفضلية القبيلة الفلانيّة) فالشعار هنا خاطئ وينسجم مع العصبية الجاهلية.

وعليه فلا يبدو صحيحاً ما ذكره المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغة حيث صرّح بأنّ هذا التقسيم مضحك، ذلك لأنّ من قال بهذا التقسيم إنّما فسّر النار بمعناها الواسع، رغم إنّ ما ورد في كلام الإمام عليه السلام على لسان المتعصبين آنذاك يراد به الجانب السلبي لذلك الشعار.

ثم أشار عليه السلام إلى العاقبة السيئة لهذا الأسلوب فقال: «وإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ[1] حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لاَ جَبْرَائِيلُ وَلاَ مِيكَائِيلُ وَلاَ مُهَاجِرُونَ وَلاَ أَنْصَارٌ[2] يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ[3] بِالسَّيْفِ[4] حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ».

إشارة إلى أنّكم حين كنتم متمسكين آنذاك بالإسلام فقد أمدكم الله بنصرته بملائكته وعنايته الغيبية التي عمت الأنصار والمهاجرين، فدحرتم الأعداء ونلتم

١. مرجع الضمير في «غيره» هو الإسلام الذي سبق ذكره، كما احتمل البعض أن يكون المراد الله.

٢. جاءت مفردة «لا» في أربعة موارد وردت في هذه الجملة ولو كانت «لا» نافيه للجنس لابدّ أن يراد جبرائيل وميكائيل والمهاجرون والأنصار بالنصب، كما جاء في بعض النسخ. وإن اعتبرناها «لا» نافية (اللام المشبهة بليس) فلابدّ أن تقرأ الكلمات الأربع المذكورة بالرفع كما جاءت في النسخة الموجودة.

٣. «المقارعة» النزاع والقتال والضرب.

٤. العبارة «إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ» يحتمل أن تكون من قبيل الاستثناء المنقطع، إشارة إلى أنّه سوف لن يكون لكم من نصير ومعين سوى الضرب بالسيف والذي لا يسعها أن تؤدّي إلى النصر مع ما أنتم عليه من الفرقة، وعليه ستهزمون، كما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة المذكورة استثناء متصل، اي أنّ معينكم الوحيد سيوفكم التي فيها نصركم، ولكن يبدو أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع سياق عبارات الإمام عليه السلام.

النصر وعشتم العزّة والكرامة والأمن، ولكن ستسلبون كلّ ذلك إذا وليتم ظـهوركم للإسلام وعليه فما لكم إلّا العودة إلىٰ الإسلام الأصيل واطردوا عن أنفسكم الكبر والغرور والعصبية الجاهلية واطفئوا نيران الفرقة لتشملكم عناية الله وألطافه.

ثم حذرهم الإمام عليه السلام ودعاهم لمقارنة أوضاعهم بما أصاب الأمم الظالمة مـن قبلهم، فاستعرض لهم نماذج العقاب الإلهي كما ورد في القرآن الكريم فقال: «وإِنَّ عِنْدَكُمُ الأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وقَوَارِعِهِ، وأَيَّامِهِ ووَقَائِعِهِ».

والعبارات الأربع «بأس» و«قوارع» و«أيّام» و «وقائع» كلّها إشارة إلىٰ العاقبة الثقيلة والصعبة للأمم المذنبة السالفة. ولكن لكلّ من هذه العبارات مفهومها الخاص؛ فالبأس تعني القتال والعذاب والقوارع إشارة إلىٰ العقوبات الشاقة من قبيل طوفان نوح والزلزلة التي أصابت قوم لوط وصاعقة قوم عاد وثمود، والأيّـام إشـارة إلىٰ مجموع الأيّام التي تشهد وقوع هذه الحوادث، والوقائع هي هذه الحوادث بما فيها المقدمة وذي المقدمة وآثارها ونتائجها.

و«أيّام الله» هنا إشارة إلىٰ أيّام الأمم السابقة الصعبة والمرعبة. فقد جـاء فـي القرآن المجيد بشأن قوم عاد: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[١]. وقال إثر ذلك: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[٢]. وسائر الآيات الكثيرة الواردة بشأن قوم فرعون ونوح وأمثالهم.

ثم قال عليه السلام : «فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا[٣] وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ[٤]، ويَأْساً مِـنْ بَأْسِهِ».

أي إن تأخر عقاب العصاة لبضعة أيّام أو بضعة شهور فلا تظنوا باستحالة وقوعه،

---

١. سورة القمر، الآية ١٩.

٢. سورة القمر، الآية ٢٠.

٣. «تستبطئوا» من مادة «استبطاء» «بُطء» على وزن «قفل» ضد السرعة.

٤. «بطش» تعني في الأصل الحصول على شيء بالقوة، وردت بمعنى العقاب لأنّهم يقبضون على المجرم بالقوّة حين العقوبة.

فقد اثبت التاريخ وقوع هذا العذاب رغم تأخيره، وبالطبع فليس لهذا التأخير من أهميّة مقارنة بعمر العالم.

ثم خاض عليه السلام في أسباب هذا الموضوع (التشابه في المصير) ليركز على أهمها فقال: «فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، والْحُلَمَاءَ[1] لِتَرْكِ التَّنَاهِي».

والكلام إشارة إلىٰ الآية القرآنيّة الشريفة التي تقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»[2].

وبالطبع وردت إشارات إلىٰ سائر عوامل سقوطهم في القسم القادم من الخطبة؛ إلّا أنّ عبارة الإمام عليه السلام تشير إلىٰ أنّ أفدح أخطائهم تركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأنّ تطبيق جميع الأحكام الشرعيّة يتوقف على إحياء هاتين الفريضتين، فإن أُقيمتا أُقيمت جميع الفرائض وإن تركتا تعطلت سائر الفرائض والت إلىٰ الفناء والزوال، ولذلك ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ... فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ»[3].

وسنتطرق إن شاء الله في الخطب القادمة إلىٰ الأهميّة الفائقة لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام في الموضع الذي ورد الحديث فيه صراحة عن هذه الفريضة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه في هذا الجانب من الخطبة بالقول: «أَلَا وقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الإِسْلَامِ، وعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ».

---

١. «الحلماء» جمع «حليم» بمعنى العاقل ومن مادة «حُلُم» على وزن «سُبُل» بمعنى العقل.

٢. سورة المائدة، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

٣. الكافي، ج ٥، ص ٥٦.

هذه الكلمات تشير إلىٰ أنّ الاكتفاء بظاهر الإسلام وبعض الطقوس الظـاهريّة ليس مدعاة للنجاة، بل لابدّ من الالتزام بأحكامه وتعاليمه وإقامة حدوده وتحكيم الإسلام في جميع المجالات وأنتم لستم كذلك، فأنـتم تـتشدقون بـاسم الإسـلام وتتصرفون تصرف الجاهلية، ومع ذلك تتوقعون العزّة والإقتدار.

القسم العشرون

أَلَا وقَدْ أَمَرَنِي اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ والنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَة سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ ورَجَّةُ صَدْرِهِ، وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. ولَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً.

الشرح والتفسير

تكليفي في قتال المفسدين

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلىٰ معاركه المعروفة ضد الفئات الظالمة في الجمل وصفين والنهروان وكيف كشف لهم عن قدرته وقوته، وكأنّه أراد بهذا الكلام أن يلوح بقوته لبعض القبائل المتمردة التي عاشت الاقتتال مع بعضها بفعل العصبيات القبليّة ويلقمها حجراً ويفهمها أنّها إن واصلت هذه المسيرة الخاطئة ستجابه بأشدّ العذاب فقال: «أَلَا وقَدْ أَمَرَنِي اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ والنَّكْثِ[1] وَالْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وأَمَّا الْقَاسِطُونَ[2] فَقَدْ جَاهَدْتُ، وأَمَّا الْمَارِقَةُ[3]

1. «نكث» بمعنى نقض العهد. وأهل النكث إشارة إلىٰ طلحة والزبير وأمثالهما ممن بايع الإمام عليه السلام ثم نقضوا البيعة وقاتلوا الإمام عليه السلام في معركة الجمل وأخيراً قتلوا ويقال لهم الناكثون.

2. «قاسطون» من مادة «قسط» تأتي بمعنى الظلم والعدالة، وتشير هنا إلىٰ أصحاب معاوية الذين كانوا جائرين عن الحقّ وظالمين بحقّ الناس.

3. «مارقة» من مادة «مروق» على وزن «غروب» بمعنى الخروج من شيء وغالباً هو السهم حين يطلق من القوس ويتجاوز الهدف، وقيل المارقة للخوارج في النهروان بسبب إفراطهم وتعصبهم وتحجّرهم وأنّهم كفّروا الجميع غيرهم (كالوهابية).

فَقَدْ دَوَّخْتُ[١]».

إشارة إلىٰ: أنّ قتالي لهذه الفئات الثلاث كان بأمر الله تعالى، ويستند هذا الكلام إلىٰ الرواية الواردة عن رسول الله ﷺ أنّه قال لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «وإنّكَ سَتُقاتِلُ بَعْدي النّاكِثينَ والْقاسِطينَ والْمارِقينَ»[٢].

وقد ورد هذا الكلام في (أسد الغابة) أنّه عليه السلام قال: «عَهْدٌ إليَّ رَسُولِ اللهِ أنْ أقاتِلَ النّاكِثينَ والْقاسِطينَ والْمارِقينَ»[٣]. هذا أولاً.

ثانياً: إشارة إلىٰ أنني هزمت الفئات الثلاث، أمّا أصحاب الجمل فقد تفرّقوا أيادي سبأ وكسرت شوكة خوارج النهروان، كما تحطم معاوية وصحبه يوم صفين، غير أنّ حيلة ابن النابغة عمربن العاص قد أنقذته من الهزيمة المطلقة.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليركز على زعيم الخوارج حرقوص بن زهير وكنيته ذوالثدية، الذي قتل شر قتلة يوم النهروان فقال: «وأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ[٤] فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَة[٥] سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ[٦] قَلْبِهِ ورَجَّةُ[٧] صَدْرِهِ».

وهنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن هذه الصاعقة، فقد ذهب البعض إلىٰ أنّ صاعقة من السماء نزلت حقّاً على زعيم الخوارج ذوالثدية فأهلكته وقذفت بجسمه في تلك الحفرة (ردهة بمعنى حفرة ماء) بينما يعتقد البعض الآخر أنّ تلك الصاعقة هي الصراخات الشجاعة المدوية التي كانت تنطلق من الإمام عليه السلام في بداية المعركة، فكانت هذه الصرخات تقض مضاجع البعض ومنهم ذو الثدية الذي إعتراه

١. «دوّخت» من مادة «دوخ» على وزن «فوق» بمعنى أضعف وأذل.

٢. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ١٣٠.

٣. أسد الغابة، ج ٤، ص ٣٣.

٤. «ردهة» النقرة التي يتجمع فيها الماء، ويقال للغرف والصالات الواسعة في البيوت.

٥. «صعقة» أخذت في الأصل من الصاعقة التي تسبب الهلاك. ثم اطلقت على الهلاك أو الخوف الذي يصيب قلب الإنسان.

٦. «وجبة» بمعنى السقوط والخفقان والعطل والسكوت، ومفردة «وجبة» تطلق على وقت الطعام.

٧. «رجّة» من مادة «رجّ» على وزن «حج» بمعنى الاهتزاز والارتعاد.

الرعب فصعق وصرع أرضاً لينحدر إلىٰ تلك الحفرة، ثم هدد ما تبقى من أولئك الأوغاد العتاة فقال: «وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْي. ولَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَـرَّةِ عَلَيْهِمْ لأُدِيلَنَّ[1] مِنْهُمْ إلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلاَدِ تَشَذُّراً[2]».

وتشير العبارة: «أَهْلِ الْبَغْيِ» إلىٰ ظلمة الشام وأصحاب معاوية الذين كانوا سيهلكون لولا قضية التحكيم يوم صفين، فالإمام عليه السلام يقول: لو أُتيحت لي الفرصة لقضيت عليهم وأرسيت حكومة العدل والقسط في ربوع البلاد الإسلاميّة كافّة.

ولعل ذكر هذا المعنى بصيغة الجملة الشرطية يشير إلىٰ أنّ الإمام عليه السلام سوف لن يُوفّق لشن هجومه الكاسح عليهم، فقد طالته المنية قبل أن يقوم بهذا العمل؛ ولكن على كلّ حال أعلن عن استعداده التام لمواجهتهم مادام فيه عرق ينبض ويعلم ضمنياً صحبه خططه المستقبليّة.

تأمّل

من هو ذو الثدية؟

اسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمى المعروف بذي الخويصرة، ذي الثدية ومُخدج، ولا يعلم وجه تسميته بذي الخويصرة؛ ولكن بالنظر إلىٰ اللحم الزائد في عضده كالثدي في الصدر لقب بذي الثدية، كما عرف بالمُخدج اليد لنقص في يده.

جاء في التفاسير في ذيل الآية ٥٨ من سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾. والمصادر التاريخية تؤكّد أنّه لما انتهت غزوة حنين وقف رسول الله صلى الله عليه وآله في موضع اسمه «جعرانة» لتوزيع الغنائم فطلب أبو سفيان وبعض المسلمين من قريش المزيد من الغنائم؛ فمنحهم رسول الله صلى الله عليه وآله أموالاً كثيرة لتأليف قلوبهم، فنهض ذو الثدية وخاطب

---

١. «أديلن» من مادة «دولة» تعني الانتقال وتأتي أحياناً بمعنى الضعف والمراد هنا هو المعنى الأوّل؛ أي لأمحقنهم.

٢. «يتشذر» من «تشذر» أي يتفرق.

رسول الله قائلاً: «إعدل يا محمّد!».

فقال صلى الله عليه وآله: «ويحك! فمن ذا يعدل إن لم أعدل؟». فاستأذنه عمر أن يضرب عنقه، فنهاه النّبي صلى الله عليه وآله وقال: «دَعْهُ، فَسَيَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هذا قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدّينِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ.... تُحْتَقَرُ صَلاتُكُمْ في جَنْبِ صَلاتِهِمْ، وَصَوْمُكُمْ عِنْدَ صَوْمِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجاوِزُ تَراقِيهِمْ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مُخْدَجُ الْيَدِ، إحدى يَدَيْهِ كَأَنَّها ثَدْيُ امْرَأَة أو بَضْعَةٌ تَدَرْدَر»[١].

وعلى ضوء هذه النبوءة فقد ظهرت فئة في الأمّة الإسلاميّة تقرأ القرآن وتعبد الله، ولكن حقيقة الأمر أنّهم خارجون عن الدين ولا يعرفون حقيقته.

وهذه الحقيقة معروفة بين المسلمين حتى أنّ عائشة المعروفة ببغضها لعلي عليه السلام قالت بعد النهروان وقتل ذي الثدية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يَقْتُلُهُ خَيرُ أُمّتي مِنْ بَعدِي»[٢].

وقد تحققت هذه النبوءة بعد صفين وقضية التحكيم، حيث اجتمع الخوارج عند عبدالله بن وهب الراسبي، فخطبهم ذوالثدية ودعاهم للقتال وكان زعيمهم عبد الله بن وهب (وإن كانت الزعامة الفكرية والعقائدية لذي‌الثدية)[٣].

يذكر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أخبرهم أنّ قوماً يخرجون من الدين ويقاتلون المسلمين وعلامتهم رجل (مُخدج اليد)[٤].

وكان الناس يبحثون عن ذي الثدية، لكنهم لم يعثروا عليه، فطعنوا في علي عليه السلام وقالوا: خدعنا ابن أبي طالب لنقاتل إخواننا[٥].

---

١. جاء هذا الحدث وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب السنّة المعتبرة (مع اختلاف طفيف) من قبيل: صحيح البخاري، ج ٧، ص ١١١ و ج ٨، ص ٥٢؛ صحيح مسلم، ج ٣، ص ١١٢؛ مسند أحمد، ج ٣، ٥٦ و٦٥؛ مصنف ابن أبي شيبة، ج ٨، ص ٧٤١؛ شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٢، ص ٢٦٦؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٠؛ أسد الغابة، ج ٢، ص ١٣٩ وكنزالعمال، ج ١١، ص ٣٠٧ فما فوق.

٢. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٦٧ و٢٦٨؛ البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٣٧.

٣. راجع، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٥٤ و ٥٥.

٤. مصنف ابن أبي شيبة، ج ١٠، ص ٧٤٠.

٥. المصدر السابق، ص ٧٣٧.

وكان علي عليه السلام يقول: «ما كَذِبتُ وَلاَ كُذِبْتُ».

فطلب ذا الثدية طلباً شديداً وقلب القتلى ظهراً لبطن فلم يعثر عليه، ثم قال: اطلبوا الرجل وأنّه لفي القوم، فلم يزل يتطلبه حتى وجده وهو رجل مخدج اليد كأنّها ثدي في صدره، فكبّر علي عليه السلام وسجد شاكراً[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧.

القسم الحادي والعشرون

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَكِلِ الْعَرَبِ، وكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ ومُضَرَ. وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، ويُمِسُّنِي جَسَدَهُ، ويُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. ولَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ ونَهَارَهُ. ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْم مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، ويَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ. ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، ولاَ يَرَاهُ غَيْرِي. ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ، وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، ولكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر».

الشرح والتفسير

التربية في كنف النّبي صلى الله عليه وآله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أمرين مهمين بغية تقوية معنويات

أصحابه في مقابل الأعداء والأوباش ومثيري الفتن القبليين؛ فتطرق إلىٰ موقفه في الغزوات الإسلاميّة أمام صناديد العرب والضربات الموجعة التي كان يسددها لهم، ليرعب ذلك الخصم العنيد، ومن ثم عرج على قرابته من رسول الله ﷺ والتي تنحصر به دون غيره، ليندفع المؤمنون بكلّ قوّة واخلاص لطاعة أوامره، وعليه فلا ينبغي التصور بأنّ الإمام عليه السلام خاض في الإشادة بنفسه في هذا الجانب من الخطبة؛ الأمر الذي يتناقض والجوانب السابقة من الخطبة، بل الإمام يتابع هدفاً أسمى من هذه التصورات. فقال بادئ الأمر: «أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَكِلِ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ[١] قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ».

والتعبير بالصغر في العبارة السابقة والذي يقابل الكبر إشارة إلىٰ شبابه عليه السلام ؛ لا الطفولة، فالعبارة سائدة لدى الجميع إذا إنّ الأفراد الذين تقدم بهم العمر حين يريدون الإشارة إلىٰ عصر الفتوة يقولون: (لقد فعلت كذا وكذا في الصغر).

على كلّ حال تتداعى في عبارة الإمام عليه السلام هذه الخواطر الرائعة للانتصارات التي تحققت في المعارك الإسلاميّة؛ سيما الضربات التي سددها في ميدان «بَدْر» إلىٰ «عتبة» و«الوليد» و«حنظلة» وحين دفاعه المستميت في ميدان «أُحُد» عن النّبي الأكرم ﷺ أمام حشود الأعداء والضربة المهلكة التي سددها يوم الأحزاب إلىٰ أشجع شجعان العرب «عمروبن عبدود» وذاع صيته في أرجاء الجزيرة العربية كافّة، ثم بطولاته في فتح «مكه» وغزوة «حنين» وسائر الغزوات الإسلاميّة والتي تكشف برمتها عن مدى إقتدار الإمام عليه السلام وشجاعته وصموده في الحروب دفاعاً عن الإسلام ونبيّ الإسلام ﷺ وتكشف عن الجانب المعنوي والروحي، وبالطبع فإنّ استعراض هذه الأمور يبث حالة الرعب والذعر في صفوف الأعداء ويدفع المؤمنين لخوض الجهاد.

---

١. «نواجم» جمع «ناجمة» من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور ويقال نواجم القرون وهي من قبيل الحاق الصفة بالموصوف.

وذكر بعض شرّاح نهج البلاغة كلاماً رائعاً بهذا الخصوص فبيّنوا أنّ النّبي الأكرمﷺ أمضى ثلاثة عهود بعد البعثة؛ الأوّل: العهد الذي استغرق ثلاث عشرة سنة في مكة والذي اكتفى فيه بإعداد صحبه لمقاومة الأعداء دون اللجوء إلىٰ السيف. والثاني: الذي يبدأ منذ الهجرة حتى معركة الأحزاب والذي كان موقف المسلمين فيها يقتصر على الدفاع. والثالث: عهد فتح مكة وغزوة حنين والذي تميز بالهجوم وإن كان الهدف إطفاء نار الفتنة.

وقد كان عليعليه السلام إلىٰ جانب النّبي الأكرمﷺ يضحي بنفسه طيلة هذه العهود، حيث بات على فراش النّبي ليفديه بنفسه في الفترة الأُولىٰ، ولا تنسى مواقفه في الفترة الثانية يوم بدر وأحد والأحزاب، كما تقدم الصفوف في فتح مكة وحنين في الفترة الثالثة[1].

وقال بعض الكتّاب إنّ أمير المؤمنينعليه السلام كان يدافع عن النّبي الأكرمﷺ حتى قبل البعثة وأشار إلىٰ قصة حدثت حين كانعليه السلام في الثامنة من عمره فقد كان يقول: إنّ النّبي لا يتحدّث في بيته عن العبيد ويخاطب الغلمان بالشباب ولا يغضب عليهم ولم يقل لأحدهم أُفٍ[2].

والتعبير «بكَلاكِلْ» (جمع كلكل بمعنى عظام الصدر) إشارة إلىٰ الأبطال والزعماء في المجتمع آنذاك، و«قرون» جمع «قرن» كناية عن المقتدرين من الأفراد وأنّ قرن الحيوان من أعضائه القوية.

ثم تطرق الإمامعليه السلام إلىٰ الأمر الثاني من هذا القسم؛ وهو علاقته الحميمة بالنّبي الأكرمﷺ والتي ابتدأت منذ الطفولة حتى آخر عمره حيث تربىعليه السلام في كنفهﷺ فقال: **«وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ».**

---

١. في ظلال نهج البلاغة (شرح محمّد جواد مغنية لنهج البلاغة)، ج ٣، ص ١٥١ ـ ١٥٥.

٢. المصدر السابق، نقلت هذه العبارة عن عبدالرحمن الشرقاوي.

ثم قال لمزيد من الايضاح: «وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ[١]. وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ».

فالعبارة تفيد أنّ النّبي الأكرمﷺ لم يفرق قط بينه وبين ولده، وقد احتضن الإمامعليه السلام منذ كان صغيراً وأفاض عليه من أخلاقه الساميّة وغمره بالحبّ والحنان، وأضافعليه السلام: «ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً[٢] فِي فِعْل».

إشارة إلىٰ أنّه تربى في حضن النّبيﷺ بحيث كان بمنتهى الصدق والإخلاص في القول والفعل والسير على الحقّ دون أدنىٰ انحراف.

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ بيان هذه النقطة وهي: إنّي إن اتبعت النّبيﷺ قبل البعثة واعتز بتلك الفترة وافتخر بتلك الفرصة، فذلك لأنّ النّبيﷺ كان يتمتع منذ نعومة أظفاره بهدى الله والطافه فقال: «ولَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً[٣] أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ ونَهَارَهُ. ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ[٤] أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْم مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، ويَأْمُرُنِي بِالاْقْتِدَاءِ بِهِ».

أي أنّ رعاية النّبي الأكرمﷺ لي لم تكن مقتصرة على الجوانب الظاهريّة فحسب، بل كان يعلمني كلّ يوم درساً في الأخلاق والكمال والفضيلة وكنت أعي ذلك.

وتشير العبارة «علماً» إلىٰ العلامات التي كانت توضع سابقاً على الطرق في الصحارى حتى يهتدي بها المسافرون في مسيرتهم فلا يضلون الطريق فيتجهون بكلّ ثقة إلىٰ مقصدهم، وقد كانت لعليعليه السلام هذه الهداية إلىٰ الحقّ.

---

١. «عرف» بمعنى الرائحة الزكية.

٢. «خطلة» من مادة «خطل» على وزن «خطر» بمعنى الخطأ الذي ينشأ عن عدم الرؤية.

٣. «فطيم» من «فطام» معروفة.

٤. «فصيل» ولد الناقة الفطيم.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ أحد الفصول المهمّة في حياة النّبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة؛ أي عبادته في غار حراء فقال: «وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ».

فالعبارة تشير إلىٰ أنّ عبادته صلى الله عليه وآله في غار حراء كانت تتكرر لسنوات حيث قال الإمام عليه السلام: «وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ» كما تشير إلىٰ أنّ عليّاً فقط كان يراه.

أضف إلىٰ ذلك فقد مضت على الدعوة الإسلاميّة سنوات ولم يؤمن بها إلّا ثلاثة: النّبي وخديجة وعلي (صلوات الله وسلامه عليهم).

وأمّا بشأن رؤية نور الوحي واستشمام ريح النبوّة فقد حملها بعض شرّاح نهج البلاغة على الجوانب المعنويّة بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ عدم المانع على حملها على الجوانب الظاهريّة والماديّة، أي أنّه حين نزول الوحي كان هنالك نور يسطع منه لا يراه سوى النّبي صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين عليه السلام كما كان الجو يتعطر برائحة زكية لا يشمها سواهما ولا مانع من وجود بعض الكائنات المادية التي يدركها الأفراد من ذوي الشعور القوي بينما يتعذر إدراكها على الآخرين، فمثلاً يقال: إنّ بعض الطيور ذات الحاسة القوية بإمكانها إدراك الأشعة فوق البنفسجية أو الأشعة الحمراء التي يتعذر إدراكها علينا نحن البشر وسنتحدث في مبحث التأمّلات عن عبادة النّبي صلى الله عليه وآله في غار حراء وإيمان خديجة عليها السلام وعلي عليه السلام بصفتهما أول من آمن بالله وصدق بالنبي.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ أمر آخر بشأن علاقته بالنّبي فقال: «وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ[1] الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ».

---

١. «رنّة» بمعنى العويل والصوت الحزين ويطلق أحياناً على الصراخ الشديد.

وأضاف عليه السلام فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : «إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وتَرَى مَـا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، ولكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر».

لعل هنالك من يقول: هنالك من لايزال يعبد الشيطان فكيف التوفيق بـين هـذا الكلام وماجاء في هذه الخطبة؟ والجواب واضح فـي أنّ عـرى الطـاعة المـطلقة للشيطان وعلى جميع المستويات التي كانت سائدة في العصر الجاهلي والتي تشمل الوثنية وعبودية الأصنام والانحرافات الأخلاقيّة والمظالم الاجتماعيّة الشديدة قد انهارت بظهور الإسلام وظهرت الفئات الخيرة الكثيرة المؤمنة في كلّ قرن وإن لم تكن أكثر عدداً وعدّة من اتباع الشيطان فإنّ كيفيتهم الوجوديّة ومقاماتهم لأرفـع وأسمى.

بعبارة أخرىٰ فقد صرح الشيطان منذ اليوم الأوّل قائلاً: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]. وقد زال هذا المعنى بانبثاق الدعوة الإسلاميّة، فطائفة كبيرة من المؤمنين من ذوي الإيمان القوي والعمل الصالح قد خرجوا مـن تـبعية الشيطان بالإضافة إلىٰ المخلصين والمراد بهم خاصة أولياء الله.

على كلّ حال فإنّ هذه العباراة من قبيل العديد من الروايات التي سنشير إليـها لاحقاً، والتي تشير إلىٰ مدى عظم منزلة علي عليه السلام بالنسبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد كان صنوه في كلّ شيء سوى النبوّة، وهذه هي الحقيقة التي وردت في حديث المنزلة الذي ورد مفصلاً في كتب الفريقين، حيث إنّ النّبي صلى الله عليه وآله اسـتخلف عـليّاً عليه السلام عـلى المدينة في غزوة تبوك فلما سأله الإمام أخبره صلى الله عليه وآله بحديث المنزلة.

والحديث حسبما رواه ابن عباس ونقلته مصادر العامّة المعتبرة كحديث صحيح السند أنّ عليّاً عليه السلام بكى لما استخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة حين انطلق إلىٰ تبوك فقال له صلى الله عليه وآله : «أما تَرْضى أنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدي نَبِيّ». ثم قال: «إِنَّهُ لا يَنْبَغي أنْ أَذْهَبَ إِلَّا وأَنْتَ خَليفَتي».

---

١. سورة الحجر، الآيتان ٣٩ و ٤٠.

رواه الحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح السند، كما رواه الذهبي في تلخيص المستدرك وصرح بصحته؛ كما ورد في سائر المصادر مثل: مسند أحمد، ذخائرالعقبى، مناقب الخوارزمي، الإصابة لابن حجر عسقلاني وسائر المصادر التي يضيق المقام عن ذكرها[1].

تأمّلات

١. العلاقة الحميمة بين علي عليه السلام والنّبي صلى الله عليه وآله

لقد كانت هذه العلاقة منذ كان علي عليه السلام في طفولته حين تعرضت مكة لتلك الأزمة الاقتصادية والقحط الشديد الذي أصابها، وكان لأبي طالب أولاد كثيرون فشق عليه ذلك فطلب النّبي صلى الله عليه وآله ـ وذلك قبل نبوته ـ من العباس الذهاب معه إلىٰ بيت أبي طالب على أن يكفل أحد أبنائه، ويكفل النّبي آخر فأتيا أبا طالب فقال لهما: اتركا لي عقيلاً واحملا من تريدان، فاختار النّبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام والعباس جعفراً، ومنذ ذلك الحين لازم علي عليه السلام النّبي صلى الله عليه وآله حتى بعث فآمن به وصدقه[2].

وكانت اليد الغيبيّة وراء تلك الحادثة ليكون علي عليه السلام منذ نعومة أظفاره إلىٰ جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فيتربى على يديه وقد تتلمذ على يد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رآى نور الوحي وشم رائحته وسمع صوت جبرئيل، بل سمع حتى رنة الشيطان حين المبعث وبالتالي كانت له علاقة تامة بعالم الغيب حتى خاطبه النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِنَّكَ تَسْمَعُ ما أَسْمَعُ وتَرَى ما أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ»[3].

---

١. أشار المرحوم السيّد شرف الدين في كتابه «المراجعات» إلى هذه الحديث وكذلك ومحققو كتاب المراجعات في هوامشهم إلى مصادر عديدة لهذا الحديث. (المراجعات، ص ٢٦١، مراجعة ٢٦). وذكر في كتاب إحقاق الحق أكثر من مئة صفحة حول هذا الحديث ومصادره من كتب السنة (إحقاق الحق، ج ٥، ص ١٣٢-٢٣٨).

٢. انظر: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٧و٥٨.

٣. أشار إلى أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان أول الناس إسلاماً بصورة مفصلة في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

٢. غار حراء

يقع غار حراء على سفح جبل يعرف اليوم بجبل النور، وكان هذا الجبل خارج مكة أمّا اليوم وبسبب اتساع مكة فإنّ جبل النور وغار حرا أصبحا داخلها، ويستغرق صعود هذا الجبل ما يقارب الساعة.

والغار المذكور غار صغير يستوعب شخصين في حال الوقوف للعبادة واثنان أو ثلاثة عند الجلوس، ولكن إلىٰ جانبه موضع واسع يستوعب الكثير، والجدير بالذكر أنّ جانبي الغار مفتوحان ليدخله هواء لطيف، بحيث لا يشعر الإنسان بالحرارة الشديد في فصل الصيف، وبغض النظر عمّا سبق فهو موضع للاختلاء والمليىء بالمعنويات.

وكان ﷺ قبل البعثة وأحياناً حتى بعد البعثة يذهب إلىٰ غار حراء بعيداً عن ضوضاء الجاهلية وعبادة الأصنام والخرافات السائدة في ذلك العصر، فيناجي الله ساعات وأيّاماً في ذلك الغار، ويفكر في خلق السماوات والأرض؛ والغريب أنّ من يدخل الغار ويتجه إلىٰ الشمال فإنّه يستقبل الكعبة وبيت المقدس.

ويستفاد من بعض الروايات أنّه ﷺ كان يذهب إلىٰ غار حراء حتى بعد النبوّة ليبتعد عن أذى المشركين ويخوض في عبادة الله ومناجاته وكان معه أحياناً علي عليه السلام وخديجة عليها السلام، ونعلم أنّ الوحي كان أوّل نزوله عليه هناك.

قال ابن أبي الحديد في شرحه: وأمّا حديث مجاورته ﷺ بحراء فمشهور وقد ورد في كتب الصحاح أنّه كان يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة فيطوف سبعاً ثم يرجع إلىٰ بيته، حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة، فجاور في حراء ومعه أهله خديجة وعلي ابن أبي وطالب وخادم له. فجاءه جبرئيل بالرسالة.

(إنّ هذا الحديث يبدو إشارة إلىٰ النزول الدفعي للقرآن على النّبي الأكرم ﷺ في شهر رمضان؛ ولا ينافي النزول التدريجي في ٢٧ من رجب)[١].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢٠٨.

٣. النّبي الأكرمﷺ قبل البعثة

كثيراً ما يتساءل الناس عن الدين الذي كان يعتنقه النّبي الأكرمﷺ قبل البعثة؛ ولم ينزل آنذاك الدين الإسلامي الحنيف؟

يقال أحياناً إنّه كان على دين شيخ الأنبياء، إبراهيم الخليلعليه السلام، وهذا الكلام صائب من جانب حيث كانﷺ موحداً عابداً لله، والتوحيد من أبرز خصائص دين إبراهيمعليه السلام، ورغم أنّ جميع الأنبياء كانوا موحدين، إلّا أنّ ذلك ليس دليلاً على أنّ النّبيﷺ كان متعبداً بشريعة إبراهيم في فروع الدين كافّة.

ويفهم من كتاب المرحوم ابن زهرة (غنية) أنّ هذا السؤال كان مطروحاً منذ ذلك الوقت، وقد أفرد فصلاً في كتابه لهذا الموضوع؛ وهو: هل كان النّبيﷺ متعبداً بشريعة سالف الأنبياء، ورغم أنّه ذكر كلاماً مختصراً بهذا الخصوص، لكنه اكتفى بأنّ النّبيﷺ ربّما عمل بدينه دون أن يذكر أي دليل على ذلك.

وورد في حاشية الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب أنّ هذا السؤال كان مطروحاً منذ عهد السيد المرتضى والشيخ الطوسي، حيث صرح البعض بصورة كليّة: أنّهﷺ كان يتبع ما سبقه من أديان، ونفى البعض الآخر ذلك، وأمسك آخرون عن الكلام، وروي عن الشيخ الطوسي أنّه قال: إنّهﷺ كان على شرعة خاصة قبل النبوّة نزلت عليه عن طريق الوحي دون أن يتبع الأنبياء السابقين.

ويعتقد العلّامة المجلسي أنّه كان للنبي هذا المقام قبل البعثة، فكانت تحدّثه الملائكة فيسمع كلامهم وكان أحياناً أخرىٰ يلهم في الرؤيا الصادقة، وبلغ مقام النبوّة في الأربعين من عمره حيث نزل عليه القرآن والشريعة الإسلاميّة؛ ثم استدل على ذلك بستة أدلة[1].

وما أجدر علمائنا الأعلام أن يلتفتوا إلىٰ الخطبة القاصعة وكلام أمير المؤمنينعليه السلام بشأن ما كان عليه النّبي الأكرمﷺ من خلال أعظم ملائكته حيث قال:

---

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧٧ فما فوق.

«ولَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ ونَهَارَهُ».

فهذا الكلام يشير صراحة إلىٰ أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن متبعاً لما سبقه من أديان، بل كانت له منهجيته الخاصّة التي بلغته عن طريق الإلهام من ذلك الملك العظيم وكان صلى الله عليه وآله ملتزماً بها.

فكيف يعلّمه هذا الملك العظيم سبل مكارم الأخلاق، ولا يلهمه الواجبات، وهكذا يتّضح الجواب عن السؤال بشأن تعبد النّبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة بما سبقه من أديان، من عدمه[1].

١. للمرحوم العلّامة المجلسي بحث بهذا الخصوص في كتاب بحار الأنوار حيث يعتقد أنّه صلى الله عليه وآله كان نبياً قبل البعثة لكنه لم يكن رسولاً. (ج ١٧، ص ٢٧٧-٢٨١) وللفخر الرازي بحث بهذا الشأن في كتاب المحصول (ج ١، ص ٤٢٦، طبعة دار الكتب العلميّة).

القسم الثاني والعشرون

ولَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْش، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، ونَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ومَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُولَنَا هذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. «فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللهُ لَكُمْ ذلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لاَ تَفِيئُونَ إِلَى خَيْر، وإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ، ومَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «يَاأَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللهِ». فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لاَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وجَاءَتْ ولَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مُرَفْرِفَةً، وأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ، وبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ ـ فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ويَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَال وأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ ـ فَقَالُوا ـ كُفْراً وعُتُوّاً ـ فَمُرْ هذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لاَ إِلهَ إِلَّا اللهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِن بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وأَوَّلُ مَنْ

أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وإِجْلالاً لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هذَا! يَعْنُونَنِي.

الشرح والتفسير

معجزة حركة الشجرة

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة الذي يعدّ من أهم جوانبها إلىٰ إحدى معجزات النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مكة وقد شهدها الإمام عليه السلام ليؤكّد علاقته الحميمة به صلى الله عليه وآله وسبقه إلىٰ الإيمان، وهي المعجزة التي قل من رآها من المسلمين آنذاك فقال عليه السلام: «ولَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ[1] مِنْ قُرَيْش، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، ونَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

العبارة: «الْمَلأُ مِنْ قُرَيْش» تشير إلىٰ أنّ هذه المعجزة حدثت في مكة وحين جهر النّبي صلى الله عليه وآله بدعوته وسمعها الكثير من الناس، ولكن لم يكن يتمتع المسلمون بقوّة وقدرة، وإلّا لما تجرّأ خصوم الدعوة بالتحدّث معه بهذه الطريقة الفظّة.

على كلّ حال ظن أولئك أنّهم يختبرون النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد سنحت الفرصة لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأن يثبت لهم حقانيّة دعوته من خلال المعجزة التي طلبوها (لا التي يريدها هو) ولذلك جاء في هذه الخطبة: «فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ومَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُولَنَا هذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ».

فما كان منه صلى الله عليه وآله: «فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيء قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللهُ لَكُمْ ذلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ».

جدير ذكره أنّه صلى الله عليه وآله قال: «فَإِنْ فَعَلَ اللهُ» ولم يقل: «فَإِنْ فَعَلْتُ» إشارة إلىٰ أنّ

---

[1] «ملأ» يقال لما يملأ العين ويثير التعجب، ولذلك قيل «ملأ» لرؤساء وكبار القوم.

المعجزة بيد الله وإن ظهرت على يد النّبي الأكرمﷺ.

والعبارة: «أَتُؤْمِنُونَ» و«تَشْهَدُونَ» إشارة إلىٰ الإيمان القلبي بالإضافة إلىٰ الشهادة بالحقّ ظاهرياً.

على كلّ حال فلم يقرّوا بالأمرين فما كان منهﷺ إلّا أن: «قَالَ: «فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لاَ تَفِيئُونَ إِلَى خَيْر، وإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ[1]، ومَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ».

والعبارة: «وإِنَّ فِيكُمْ...» إشارة إلىٰ أبي جهل وعتبة وشيبة وأميّة بن خلف الذين قتلوا يوم بدر ورمي بأجسادهم في بئر كانت هناك.

والعبارة: «مَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ» إشارة إلىٰ أبي سفيان. فالواقع أنّ النّبي الأكرمﷺ أكمل طلبهم المعجزة بثلاثة أخبار غيبية يعدّ كلّ منها معجزة، عدم إيمانهم وطرح بعضهم في البئر ومعركة الأحزاب التي حدثت بعد سنوات عديدة لاحقاً.

ثم إلتفت النّبي الأكرمﷺ إلىٰ أصل سؤالهم وإلتفت إلىٰ الشجرة «ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ياأَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ والْيَوْمِ الأخِرِ، وتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللهِ».

وخطاب النّبيﷺ لتلك الشجرة يفيد أنّ للنباتات والجمادات نوعاً من الإدراك والشعور الذي أفاضه عليها الله، كما تفيد العبارة القادمة أنّها مؤمنة أيضاً بالله واليوم الآخر ولكن ما حقيقة هذا الإيمان وكيفية ذلك الشعور والإدراك، وهل لها بعد اختياري أم إجباري، فذلك من الأمور التي ليست واضحة لدينا على وجه الدقّة.

ولدينا العديد من الآيات القرآنيّة التي تشير إلىٰ ذلك الإيمان والشعور والإدراك لدى جميع الأشياء بما فيها الجمادات وتفيد أنّها تسبح الله وتقدسه، وقد أسهب المفسرون بهذا الشان[2].

---

١. «قليب» من مادة «قلب» تعني التغيير كما وردت بمعنى البئر.

٢. للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ج ١٢، ذيل الآية ٤٤ سورة الاسراء ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيء إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾.

فاستطرد أميرالمؤمنين علي عليه السلام وقال: «فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لاَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وجَاءَتْ ولَهَا دَوِيٌّ[1] شَدِيدٌ، وقَصْفٌ[2] كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مُرَفْرِفَةً[3]، وأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ، وبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ».

فالذي يستفاد من هذه العبارة أنّ تلك الشجرة كانت ضخمة بحيث صاحبت حركتها أصوات عالية كانت مدوية، فألقت ببعض أغصانها على النّبي صلى الله عليه وآله وبالبعض الآخر على علي عليه السلام . فكانت تلك معجزة كبيرة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بإذن الله في إقتلاع تلك الشجرة ووقوفها بين يديه صلى الله عليه وآله.

ولكن هل أدّت تلك المعجزة الباهرة إلىٰ إيمان المشركين المتعصبين؟ كلا! بل كعادة المتعصبين المعاندين أخذوا يفتشون عن الذرائع وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام «فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ويَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَال وأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ».

والذي يستفاد من العبارة أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراهم معجزتين أُخريين؛ الأُولىٰ أنّه أمر الشجرة بالرجوع إلىٰ مكانها، والثانية أنّه أمرها بأن يأتيه نصفها بإذن الله.

وهل اقتنع القوم المشركون المتعصبون بذلك ؟ للأسف كلا ! كما ورد في كلام الإمام عليه السلام : «فَقَالُوا كُفْراً وعُتُوّاً: فَمُرْ هذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ

---

١. «دويّ» بمعنى الصوت القوي والصدى.

٢. «قصف» تعني في الأصل الكسر، ويقال «قاصف» للرياح العاتية وكذلك تعني الصوت الشديد بسبب الأصوات التي تسمع في العواصف و.....

٣. «مرفرف» من مادة «رفرف» تعني في الأصل أوراق الأشجار العريضة وكذلك يقال «رفرف» للأقمشة الجميلة والملونة و«مرفرفة» هو الطائر الذي يحرك أجنحته، وكان مراد الإمام في العبارة أنّ الشجرة عندما اقتربت للرسول صلى الله عليه وآله كانت أغصانها تتحرك كأنّها أجنحة الطائر.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وإِجْلالاً لِكَلِمَتِكَ».

وهل آمن أولئك بعد مشاهدتهم لهذه المعجزات الأربع العجيبة والخارقة للعادة والتي حصلت جميعاً استجابة لاقتراحهم وليس لاقتراح رسول الله ﷺ ؟، كلا ! وليتهم اقتصروا على عدم الإيمان بل رموه ﷺ بكلمات كافرة وطائشة وبعيدة عن المنطق كما أشار إلىٰ ذلك الإمام: «**فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ**[١] **فِيهِ، وهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هذَا! يَعْنُونَنِي**».

إشارة إلىٰ أننا شهدنا العديد من السحرة طيلة أعمارنا ونعلم أنّ فعلك كفعلهم، بل أمهر منهم ولا يصدقك في ذلك سوى أمثال هذا الصبي السريع التصديق !

والعجيب أنّ صدر كلامهم يناقض تماماً عجزه ! فقد اقترحوا المعجزة وصرحوا باقتناعهم وإيمانهم بمجرد حصولها، ولكن حين تكررت المعجزة أربع مرات رموه بالسحر وهنا يرد هذا السؤال: إنّ هؤلاء لولم يكونوا يعرفون السحر من المعجزة ويحتملون السحر على النّبي، فما بالهم اقترحوا عليه المعجزة منذ البداية ؟ فقد كان لهم أن يرموه منذ البداية بالسحر.

نعم، فالأفراد المتعصبون إنّما يفتقرون على الدوام إلىٰ المنطق والوجدان والانصاف .

تأمّلان:

١. معجزة الشجرة في الروايات الإسلاميّة

كان للنبي ﷺ عدة معجزات، والمعجزة المذكورة كانت أبرزها ولم تختصر الإشارة إليها في هذه الخطبة فحسب، بل وردت هذه المعجزة في أغلب التواريخ

---

١. «خفيف» يعني في الأصل القليل (كمية أو وزناً أو ...) وكذلك يقال خفيف لمن يجري حركات سريعة بمهارة.

والروايات الإسلاميّة.

ويكفي هنا الإلتفات إلىٰ ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة فقد قال: وأمّا أمر الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض قد ذكره المحدّثون في كتبهم والمتكلمون في معجزات النّبي، وقد وردت في أغلب الروايات كما جاء في الخطبة القاصعة (التي نحن بصددها) وإن اختصرها البعض وقال: «إِنَّهُ دَعا شَجَرَةً فَأَقْبَلَتْ تَخِدُّ إِلَيْهِ الأَرْضَ خَدّاً».

ثم أضاف: وقد ذكر البيهقي في كتاب دلائل النبوّة حديث الشجرة ورواه أيضاً محمد بن اسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي[1].

وقال المرحوم العلاّمة التستري في شرح نهج البلاغة: رواها ابن أثير في كتاب الكامل وفي أسد الغابة والبلاذري في أنساب الأشراف والكراجكى في كنزالفوائد[2].

طبعاً يعلم من له معرفة بمعجزات الأنبياء بصورة عامة ومعجزات رسول الله خاصة أنّ مثل هذه المعجزات ليست عجيبة في إثبات حقانيّة دعوة النّبي، كما أنّ اصرار الأفراد الجهّال والمتعصبين على إنكار الدعوة ليست بالشيء الجديد.

٢. الفارق بين السحر والمعجزة

كما ورد سابقاً فممّا لا شك فيه فقد كانت لأنبياء الله والأئمة المعصومين عليهم السلام أفعال خارقة للعادة تتعذر على الإنسان العادي، أي الأمور التي تجري خلافاً للقوانين الطبيعية السائدة ولا تتمّ إلّا من خلال الاستمداد من قوّة تفوق القوّة الطبيعية من قبيل إحياء الموتى وشفاء المرضى الذي لا علاج لهم والإخبار عن الغيب الذي ورد في القرآن الكريم بشأن المسيح عليه السلام ومعجزة العصا واليد البيضاء لموسى عليه السلام وناقة صالح عليه السلام واطفاء نار نمرود على إبراهيم لتصبح عليه برداً وسلاماً

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢١٤.
٢. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٢، ص ٤٦٩.

ومعجزة شق القمر والأهم من كل ذلك معجزة القرآن الكريم التي خُصَّ بها النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن الواضح أنّ المعجزات لا تعني تحقق معلول دون علّة لينكر ذلك بعض الأفراد، بل بمعنى الاستبداد من العلل غير الطبيعية المجهولة، والزعم بأننا عارفون بجميع العلل الطبيعية والتي تفوق الطبيعة هو زعم لا يقرّه أحد.

ومن جانب آخر فإنّ السحر حقيقة وإن امتزجت بالعديد من الخرافات، والسحرة عادة ما يستفيدون من العلل الطبيعية، لكنها علل وأسباب لم يلمّ بها الناس العاديون فمثلاً قيل بشأن سحر السحرة على عهد موسى عليه السلام أنّهم صنعوا شيئاً شبيه الحيّة وسكبوا داخله «الزئبق» الذي جعل ذلك الشيء الذي يشبه الحيّة يتحرك حين واجه أشعة الشمس بفعل «تطايره»، وعليه ففعلهم لم يكن خارقاً للعادة؛ لكنهم استغلوا بعض الأسباب التي لم تكن معروفة لدى عوام الناس.

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يتسنى للناس التمييز بين السحر والمعجزة ليتعرفوا على الأنبياء ويكتشفوا كذب السحرة ؟

ويبدو الفرق بينهما واضح؛ ومن ذلك؛ أولاً: إنّ سحر السحرة محدود لأنّه يستند العلوم البشريّة المحدودة، ولذلك يقوم السحرة بما يريدون من خرق العادة لا تلك التي يقترحها عليهم الآخرون، ذلك لأنّ عملهم ينطلق من تجاربهم وتمريناتهم ورياضاتهم السابقة.

أمّا بشأن الإعجاز فإنّ الأنبياء يتجهون صوب الأمور التي يقترحها عليهم الناس كالمعجزة آنفة الذكر ومعجزة شق القمر وسائر المعجزات التي طلبها قوم موسى من نبيّهم عليه السلام رغم ما كان عليه الأنبياء من معجزات منذ انطلاقتهم مثل معجزة القرآن والعصا واليد البيضاء.

ثانياً: تقترن معجزات الأنبياء بادعاء النبوّة والحال ليس للسحرة مثل هذا الادعاء في خرقهم للعادة، فالحكمة الإلهيّة لم تسمح بحصول ما يخرق العادة بيد

الكذابين والمفترين ليدعي النبوّة فيقود الناس إلىٰ الضلال والغواية، بل تقتضي الحكمة الإلهيّة فضح هؤلاء السحرة، ومن هنا فقد افتضح كلّ ساحر همّ بهذا الادعاء.

ثالثاً: لما كان السحر أمر منحرف، فلا يتجه إليه إلّا الأفراد المنحرفون، أي الأفراد الذين تشهد أقوالهم وأولادهم على انحرافهم. وعلى هذا الأساس إن بدرت من شخص قضية خارقة للعادة فلابدّ من تأمّل سيرته، فإنّ كانت سيرته حسنة صالحة كان ذلك علامة على كون تلك القضية الخارقة للعادة معجزة، وإن كانت سيرته طالحة وأعماله مشينة كان ما بدر منه سحراً، ذلك لأنّ السحرة من المصاديق البارزة للكذابين من الأفراد والغشاشين.

٭٭٭

القسم الثالث والعشرون

وإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وكَلَامُهُمْ كَلَامُ الأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ ومَنَارُ النَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللهِ وسُنَنَ رَسُولِهِ؛ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْلُونَ، وَلَا يَغُلُّونَ ولَا يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ، وأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

الشرح والتفسير

أولياء الله

خاض الإمام عليه السلام في ختام الخطبة في التعريف بنفسه ليكمل ما ذكره في السابق من التعريف بمنزلته وموقعه ليمنح ما ورد في هذه الخطبة قوّة وعمقاً واتقاناً أكثر، من جهة، لأنّ الإيمان بالمتكلم والوقوف على مدى علمه وتقواه يدفع بالمخاطب لأنّ يحمل خطابه محمل الجد، ومن جهة أخرىٰ وليتعرف عليه أولئك الشباب وسط أصحابه الذين لم يعلموا بمواقفه، إلىٰ جانب ضرورة أن يعرف الجميع أنّ هذه الكلمات لم يكن هدفها الدنيا ولا ترسيخ دعائم الحكومة بل الهدف منها هداية الأمة إلىٰ الصراط المستقيم، فقد أشار عليه السلام إلىٰ تسع عشرة صفة من صفاته والتي تعدّ كلّ واحدة منها فضيلة ومنقبة عظيمة فقال: «وإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ».

فالقيام بالوظيفة أحياناً يكون مخالفاً للأفكار ورغبات طوائف معينة في المجتمع وهنا يتخلى بعض الأفراد الانتهازيين وأصحاب الدعة والراحة أو الجبناء عن أداء وظائفهم خشية التعرف لملامة الآخرين وتقريعهم، وولي الله من يواصل

طريقه إن رآه صحيحاً ولو انتهج عامّة الناس طريق الخطأ دون أن يشعر بأدنى خشية أو خوف ويقدّم رضا الله على رضا الخلق، وقد كان الإمام علي عليه السلام رائد هذا الطريق بعد النّبي صلى الله عليه وآله وهي الصفة التي امتاز بها جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام وأبرز مصداق على ذلك الإمام الحسين عليه السلام وشهادته في كربلاء.

وقد أثنى الله في كتابه الكريم على المجاهدين الذين يتسمون بهذه الصفة فقال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

وقال في الصفة الثانية والثالثة: «سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الأَبْرَارِ».

و«الصدّيقين»: هم الصادقون والمصدقون بأنبياء الله الذين كانوا يصدقونهم في أقوالهم وأفعالهم وقد جعلهم الله تعالى في الآية ٦٩ من سورة النساء في مصاف أنبيائه فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ...﴾.

و«الأبرار»: من ذكر لهم القرآن ثماني عشرة صفة في سورة الدهر، وهي الصفات التي ترفع صاحبها إلى أسمى مقام في القرب من الله، ونعلم أنّ هذه الصفات نعت بها (علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام).

ثم قال في الصفتين الرابعة والخامسة: «عُمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ».

والعبارة: «عُمّار» جمع (عامر) إشارة إلى التهجد وإحياء الليل وعبادات اليوم والنهار التي تعمر روح الإنسان وقلبه وتضفي عليه معاني الصفاء والجمال وتحيي القلوب الميتة وتغسل الذنوب بماء حياة التوبة. والعبارة «منار» إشارة إلى الأبراج العالية التي كانت توضع سابقاً في مسير الطرق الصحراوية وتنصب عليها المصابيح حتى لا يضل المسافر الطريق (تشبه العلامات المرورية التي تنصب اليوم في الشوارع). فهؤلاء الأفراد كتلك المصابيح في هداية الناس إلى الله والسعادة والخير والنجاة من الضلال والغواية.

ثم قال في الصفتين السادسة والسابعة: «مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ؛ يُحْيُونَ سُنَنَ

---

١. سورة المائدة، الآية ٥٤.

اللهِ وسُنَنَ رَسُولِهِ».

المراد من التمسك بحبل القرآن التوسل به ليخرج الإنسان من مستنقع الطـبيعة وهوى النفس ويعرج إلىٰ ساحة القرب الإلهي، أو خروج ماء الحياة من باطن أرض الوجود الإنساني بواسطته أو التمسك بحبل القرآن في المعابر الخطيرة بغية عـدم السقوط في أودية الضلال.

قال النّبي الأكرمﷺ في أهميّة القرآن الكريم الوارد في حديث الثقلين: «كِتابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ»[1].

وإحياء سنّة الله وسنّة النّبي العمل بالفرائض الواردة في القرآن والواجبات التي فرضها النّبيﷺ، لا العمل لوحده فحسب بل لابدّ من دعوة الآخرين إلىٰ ذلك.

ثم قال في الصفات الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة: «لَا يَسْتَكْبِرُونَ ولَا يَعْلُونَ، وَلَا يَغُلُّونَ[2] وَلَا يُفْسِدُونَ».

وهذه الصفات في الواقع مرتبطة مع بعضها، فالتكبّر والشعور بالعُلو وحمل الغلّ والإفساد من صفات الطغاة المستكبرين بغية تحقيق أهدافـهم اللامشـروعة. قـال القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[3]، وقـال أيـضاً: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾[4].

وبالنظر إلىٰ أنّ كلمتي الفساد والخيانة وردت هنا بصورة مطلقة فإنّهما تشملان في العقائد والأخلاق والأموال وجميع شؤون الحياة.

وأخيراً قال في الصفة الثانية عشرة التي تمتاز بشموليتها: «قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ، وأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ».

---

١. مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٣ من سورة آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾.
٢. «يغلّون» من «غلل» على وزن «أجل» أو «غلول» على وزن «غروب» بمعنى الخيانة، وتعني في العبارة أنّهم لا يخونون.
٣. سورة النمل، الآية ٣٤.
٤. سورة القصص، الآية ٨٣.

إشارة إلىٰ أنّ هدفهم نبيل للغاية فهم لا يفكرون سوى برضا الله وجنانه الخالدة، ومن هنا فأبدانهم تعيش على الدوام طاعة الحقّ والعمل بالواجبات الإلهيّة والواجبات الإنسانيّة، جدير بالذكر أنّ الخطبة ابتدأت بنفي الكبر والاستكبار واختتمت به وهذه إحدى شؤون الفصاحة والبلاغة في إرتباط النهاية بالبداية.

حقّاً إنّ الذين يتصفون بهذه الصفات الإثنتي عشرة هم المؤمنون المخلصون الذين ينتظرهم الجنّة بشوق، وهم القدوة الحسنة لعباد الله في الحياة الدنيا.

٨٠٠٣

اللّهم اجعلنا من السائرين على دربهم، ووفقنا لاتباع تعاليمهم ولا تفرق بيننا وبينهم في الدنيا والآخرة طرفة عين أبداً !

٨٠٠٣

١٩٣

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَصِفُ فِيهَا الْمُتَّقِينَ[١]

رُوي أنّ صاحِباً لأميرالمُؤمنِينَ عليه السلام يُقالَ لَهُ هَمّامُ كانَ رَجُلاً عابِداً، فَقالَ لَهُ: يا أَميرالمُؤمنينَ، صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتّى كَأَني أَنظُرُ إِلَيْهِمْ. فَتَثاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوابِهِ ثُمَّ قالَ: يا همَّام! اِتَّقِ اللهَ وأَحْسِنْ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾. فَلَمْ يَقْنَعْ هَمّامُ بِهذَا الْقَولُ حَتّى عَزَمَ عَلَيْه، فَحَمِدَاللهَ وأَثنى عَلَيهِ، وصلّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ثُمَّ قالَ عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

تتابع الخطبة مطلباً معيناً وهو صفات المتّقين حيث ذكر الإمام عليه السلام مائة وعشر

---

١. سند الخطبة:

هذه الخطبة من الخطب المعروفة والمعتبرة وردت بأسانيد مختلفة عن غير نهج البلاغة، عاش طائفة من رواتها قبل السيد الرضي وطائفة بعده.

قال صاحب مصادر نهج البلاغة: فمن رواها قبل الشريف الرضي المرحوم الشيخ الصدوق في «الأمالي»، وابن شعبة المعاصر للشيخ الصدوق في «تحف العقول»، وسليم بن قيس في كتابه، ونقل ابن قتيبة (المتوفي في القرن الثالث) قسماً من هذه الخطبة في كتابه «الزهد» وكتابه «عيون الأخبار» وغيرهم.

هذا قبل السيد الرضي، فقد رواها جماعة من العلماء باسانيد وصور يعرف منها على أنّهم لم يأخذوها عن نهجالبلاغة، منهم سبط ابن الجوزي «في تذكرة الخواص»، وابن طلحة الشافعي في «مطالب السؤول»، والكراجكي في «كنز الفوائد» مع اختلاف يسير في نقلهم. (مصادر نهجالبلاغة، ج ٣، ص ٦٥).

صفات للمتّقين، لكننا إن تأمّلنا تفاصيل الخطبة لرأينا أنّ هذه الصفات تعالج أبعاداً مختلفة من حياة المتّقين.

فبعضها يتحدّث عن سجاياهم الأخلاقيّة الفرديّة، بينما يبحث البعض الآخر في أخلاقهم الاجتماعيّة.

ويكشف جانب آخر من الخطبة علو شأنهم في القضايا العقائديّة والمعارف الدينيّة بينما يشير جانب آخر منها إلىٰ منزلة تقواهم وورعهم من حيث الأقوال والأفعال.

كما تطرق جانب آخر من الخطبة إلىٰ سيماهم وعلاماتهم التي ترشدنا إلىٰ التعرف على المتّقين الورعين في جماعة معينة من خلال هذه الصفات.

واختتمت الخطبة بحادثة عجيبة لهمام ـ السائل الذي أصر على بيان صفات المتّقين ـ حيث صعق صعقة فارق على أثرها الحياة الدنيا؛ فقال الإمام عليه السلام: هكذا تفعل المواعظ البالغة بأهلها، فقام إليه رجل فقال: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه الإمام بجواب مقنع.

ويستفاد من بعض الطرق الروائية أنّ الإمام خطب بهذه الخطبة بعنوان صفات الشيعة[1].

إجابة عن سؤال

طبق لما ورد في صدر الخطبة فإنّه يرد هذا السؤال: لم تحفّظ الإمام عليه السلام عن بيان صفات المتّقين بادئ الأمر ثم شرحها أثر إصرار السائل ؟

وردت عدّة وجوه في سبب تأمّل الإمام عليه السلام بشأن الجواب منها:

١. إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ ذلك الرجل من أهل الموعظة والنصح ويخشى عليه من شعوره المرهف وحساسيته المتزايدة، ومن هنا اكتفى الإمام عليه السلام بجواب

١. راجع مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٦٥.

إجمالي يدل عليه ذيل الخطبة.

٢. شهد المجلس آنذاك بعض الأفراد الغرباء الذين لم ير الإمامعليه السلام من مصلحة في سماعهم لتلك الكنوز والجواهر الثمينة، ولعل ذيل الخطبة شاهد على ذلك، فسؤال السائل وجواب الإمامعليه السلام يدلّ على وجود غير المؤهلين في ذلك الوسط.

٣. أثار الإمامعليه السلام اهتمام همام بصورة أعمق لسماع الجواب بذلك التأمّل والسكوت لتأخذ تلك الموعظة مأخذها المطلوب منه.

٤. إنّ أدب السؤال والجواب يقتضي ألا يتعجل المجيب بجوابه، بل يتأمّل في بداية الحديث ليعرف السائل بأهميّة المطلب، الأمر هل الذي ذكر بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه كان يتريث في الجواب حتى يسئل عن ذلك التريث هو تفكير في الجواب ؟ فيرد صلى الله عليه وآله : لا، بل إكرام للعلم والعمل[١].

∞

١. مستدرك سفينة البحار، باب التدبير، ج ٣، ص ٤٢١.

القسم الأوّل

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، ومَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. ولَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

الشرح والتفسير

صفات المتّقين

قبل أن نخوض في شرح هذا القسم من الخطبة علينا أن نبيّن هذه النقطة وهي ما كيفية العلاقة بين جواب الإمام عليه السلام المقتضب بداية الأمر وسؤال همام ؟ فقد طلب السائل بيان صفات المتّقين، فأمر الإمام عليه السلام بالتقوى والإحسان بدلاً من بيان

الصفات، ثم تطرق إلىٰ فوائد التقوى ويبدو للوهلة الأُولىٰ أنّ الأمر بالتقوى ليس جواباً عن سؤال همام ولا ذكر الفوائد.

الظاهر أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام أن يفهمه بأنّ التقوى مفهوم واضح بالإجمال وعليك بالعمل، ثم تطرق عليه السلام لنتائج التقوى لحثه عليها، على كلّ حال فقد خاض الإمام عليه السلام في بداية الخطبة في بيان هذه النقطة المهمّة حيث بيّن أنّ الله تعالى غني عن الجميع فإنّ وردت بعض الوصايا الثقيلة والعديدة بشأن التقوى في هذه الخطبة فهي لا تضيف لله شيئاً من الجلال والجاه، بل ليطوي الإنسان مسيرة التكامل فقال عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ».

ودليل ذلك واضح، فأوّلاً: الله تعالى وجود لامتناهٍ من جميع الجهات وكمال مطلق وليس للنقص من سبيل إلىٰ هذا الوجود ليرقى به إلىٰ كمال عن طريق الطاعة والعبودية ولو كفر من في الأرض كلّهم جميعاً لما نال ذلك من كبرياء الله شيئاً، إذ إنّ المخلوقات أعجز من أن يلحقوا ضرراً بذاته القدسيّة.

وثانياً: كلّ ما لدى المخلوقات من الله وفيوضاته ولا معنى لإعادة الفيض عليه، كلّ خلق يتغذى على مائدته،بل حياتهم بلطفه ورحمته ولو أوكلهم الله إلى أنفسهم طرفة عين لهلكوا.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ أوضاع الناس الدنيوية كمقدمة في الواقع لبيان الجوانب المعنويّة التي ذكرت لاحقاً. فبيّن بعبارتين الأمور كافّة في جوانب حياتهم الماديّة وقال: «فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ».

إشارة إلىٰ أنّ الله بيده جميع حوائج الخلق الماديّة وهو يُفيض عليهم من لطفه بقدر كلٌّ حسب موقعه. وهذا ما ورد في القرآن الكريم في الآية ٣٢ من سورة الزخرف: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَات﴾.

طبعاً تقسيم المعيشة لا يعني وصول كلّ شيء للإنسان في داره دون سعي ومثابرة، ولكن الرزق يأتي بالسعي والجهد فقد خلق الله جميع الموارد ودعى الجميع للسعي والعمل، وهكذا المقامات الظاهريّة التي افاضها الله على العباد لا تتحصل هي الأخرىٰ دون السعي والجد والاجتهاد.

جدير ذكره أننا أن شاهدنا موت البعض في العصر الراهن بسبب الجوع، فذلك ليس معلولاً لشحة المواد وقلتها، بل يعزى ذلك إلىٰ ظلم وجور الطبقة الأنانيّة النفعيّة المستغلة، فلو كان هنالك تقسيم عادل في الأرزاق لما جاع أحد حتى في ظلّ أصعب السنين قحطاً.

ولم يوفّر الله تعالى الرزق للإنسان فحسب دون الكائنات، بل وفر ذلك بصورة مذهلة لجميع الأحياء والحيوانات، فلم يغفل عن نطفة في جنين ولا يرقة في بيضة طائر أو بذرة نبات ووفّر للجميع ما يحتاجون إليه، وتبدو قصّة تقسيم الأرزاق في مختلف أساليبها وطرقها لمن القصص العجيبة التي ينبغي أن تؤلف فيها الكتب.

ثم خاض عليه السلام في بيان السجايا البارزة للمتّقين فاستهلها بثلاث صفات بارزة وقال: «**فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ**».

العبارة: «**مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ**» إشارة إلىٰ الخطوة الأُولىٰ في تهذيب الإنسان وتربيته والتي تتمثل في صون لسانه ومنطقه؛ اللسان الذي تصدر بواسطته الكبائر، كما تحقق بواسطته أفضل العبادات، فإنّ صلح صلح كلّ ما في الإنسان وإن فسد فسد كلّ شيء فيه.

ولمفردة «صواب»، هنا مفهوم غاية في السعة يشمل كلّ كلمة حقّ وحكمة، نعم فالمتقون ينبرون قبل كلّ شيء لصون ألسنتهم ومنطقهم، ومن هنا يعتقد أصحاب السير والسلوك أنّ صون اللسان يعد الخطوة الأُولىٰ في إصلاح الذات، ذلك لأنّ صلاحه يعني صلاح سائر الأعضاء، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1].

وإصلاح الأعمال وغفران الذنوب أثر التقوى والقول السديد، قرينة حسنة على إرتباطهما ببعضهما.

والتعبير بالملبس في العبارة «ومَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصَادُ»[2] والتي ذكرت ثاني صفة وفضيلة للمتّقين إن وردت بمعناها الحقيقي فهي إشارة إلىٰ اللباس الظاهري الذي ينبغي أن يكون بعيداً عن الاسراف والتبذير وكذلك التقتير والبخل كما روى ذلك بعض الشرّاح.

أمّا إن كان اللباس بالمعنى الكنائي الواسع بقرينة بعض الآيات مثل ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ»[3] و﴿وَهُوالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاساً﴾[4] و﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[5] فلا ينبغي الاقتصار به على معنى الارتداء الظاهري بل يكون معناه واسع يشمل جميع حياة الإنسان، أي إعتدال الحياة برمتها فيكون بمثابة اللباس على أجسادهم، كما عبّر في الجملة الثالثة: «مَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ» فهي لا تقتصر على المشي الظاهري، ذلك لأنّ المشي المتواضع وإن كان حسناً لكنه لا يصلح في مصاف أولى الصفات البارزة للمتّقين، ولكن إن كان إشارة لمعنى المشي الواسع فمعناه أنّ سلوكياتهم كافّة مقرونة بالتواضع.

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع بداية الخطبة إلىٰ ثلاثة مبادئ أساسيّة: الصواب والاعتدال والتوضع التي تسود حياة المتّقين في جميع جوانبها.

وقد وردت عدّة تأكيدات على هذه المبادئ الثلاث في الأخبار والروايات، فقد ورد في الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنَّ هذَا اللِّسانَ مِفْتاحُ كُلِّ خَيْرٍ وشَرٍّ

---

١. سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١.

٢. «اقتصاد» من مادة «قصد» بمعنى الاعتدال وتشمل الاعتدال في كلّ شيء.

٣. سورة الأعراف، الآية ٢٦.

٤. سورة الفرقان، الآية ٤٧.

٥. سورة البقرة، الآية ١٨٧.

فَيَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخْتِمَ عَلى لِسانِهِ كَما يَخْتِمُ عَلى ذَهَبِهِ وفِضَّتِهِ»[١].

وقال أميرالمؤمنينعليه السلام: «ما عالَ مَنِ اقْتَصَدَ»[٢].

وقال الإمام الصادقعليه السلام: «فيما أوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى داوُدَعليه السلام: يا داوُدُ كَما أنَّ أقْرَبَ النّاسِ مِنَ اللهِ الْمُتَواضِعُونَ كَذلِكَ أبْعَدُ النّاسِ مِنَ اللهِ الْمُتَكَبِّرُونَ»[٣].

ثم بينعليه السلام هاتين الصفتين فقال: «غَضُّوا[٤] أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ».

«غَضُّوا»: من مادة «غضّ» تعني فيالأصل (التقليل) وحين تستعمل في العين تعني الخفض أي خفض الرأس إلىٰ الأسفل أو إسدال الجفنين على العينين.

«وَقَفُوا»: من مادة «وقف» تعني لغوياً التوقف بينما تعني في الاصطلاح الفقهي وقف شيء لآخر أو تستعمل بمعنى أوسع بمعنى خص الشيء بآخر. وعليه فإنّ أخذنا المعنى الحقيقي للكلمة في العبارتين المذكورتين كان المفهوم أنّهم لا ينظرون إلىٰ الحرام ولا يسمعون سوى العلم النافع، وإن أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الكنائي الواسع فمفهوم العبارة الأُولىٰ أنّهم يخفضون بصرهم عن جميع المحرمات ويوقفون سمعهم على العلم النافع فقط.

والمراد من «الْعِلْمِ النَّافِعِ» في الدرجه الأُولىٰ، العلوم الدينيّة المفيدة والقيم المعنويّة والحياة السعيدة في العالم الآخر، وبالدرجة الثانية كلّ العلوم الضروريّة للعزّة والمجد والاستقرار والرفعة للبشريّة في هذه الدنيا، بما فيها العلوم المرتبطة بصحة الإنسان وسلامته أو الصناعة والزراعة أو العلوم السياسيّة وما شابه ذلك.

لا شك في أنّ علاقة الإنسان بالعالم الخارجي والعالم المعاصر والسابق بصورة

١. تحف العقول، قسم كلام الإمام الباقرعليه السلام، ص ٢١٨.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٠.

٣. وسائل الشيعة، كتاب الجهاد، الباب ٢٨ أبواب جهاد النفس، ح ٢.

٤. «غضّوا» من ماده «غضّ» على وزن «خزّ» كما ورد في الخطبة تعني التقليل، وإن استعملت في العين عنت الخفض أي خفض الرأس بغية عدم النظر. «غمض» تعني غلق العين.

رئيسيّة عن طريق هاتين النعمتين أي العين والأذن، فالإنسان يرى الحقائق بعينه وبها يقرأ التاريخ، ويسمع بأذنه رسالة السماء وأئمّة الدين وتفاصيل تجارب العظماء السابقين. فهو يرتبط بجميع الأشياء من حوله بهاتين الوسيلتين بحيث لو سلبتا منه لما بقي لديه شيءٌ ولكان عقله وشعوره كعقل وشعور الصبي غير المميز، بل حتى لسانه وسائر حواسه إنّما تنشط في ظلّ سلامة هذين العضوين ومن هنا فإنّ الفرد الأصم والأعمى أخرس على الدوام وإن كان لسانه سالماً.

ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**كُلُّ عَيْنٍ باكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ غَيْرُ ثَلاث؛ عَيْنٌ سَهِرَتْ في سَبيلِ اللهِ، وعَيْنٌ فاضَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحارِمِ اللهِ**»[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الحسن عليه السلام قال: «**إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصارِ ما نَفَذَ فِي الْخَيْرِ مَذْهَبُهُ وأَسْمَعُ الأَسْماعِ ما وَعَى التَّذْكيرَ وانْتَفَعَ بِهِ**»[2].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ صفة أخرىٰ من صفات المتّقين والتي تتمثّل بالرضا والتسليم فقال: «**نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ**[3]».

فالنعمة لا تسكرهم ولا تبطرهم، والمصائب والخطوب لا تحزنهم ولا تجزعهم؛ فهم راضون برضا الله مسلّمون لإرادته في جميع الأحوال. طبعاً أنّهم لا يتوانون في السعي لمواجهة المحن والخطوب وتوفير أسباب النعم والعيش الكريم لكنهم لا يعيشون سوى الرضا والتسليم بالنسبة لما كان خارجاً عن إرادتهم؛ ذلك لأنّهم يعلمون من جانب أنّ الله حكيم ورحيم وأرحم من الأُم بولدها ولا يقدرّ سوى ما فيه مصلحة عبده المؤمن.

ويعلمون من جانب آخر أنّ الجزع إزاء الحوادث الأليمة ليس فقط لا يحلّ

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٨٠، باب اجتناب المحارم، ح ٢.

٢. ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٥١ نقلاً عن بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٠٩.

٣. «رخاء» و«رخوه» تعني في الأصل اللين والضعف وإن استعملت بشأن الحياة فإنّها تعني الحياة الهانئة.

الأزمة بل يحبط الأجر والثواب وأحياناً يضاعف من شدة الخطب ويوجب بالتالي اليأس والقنوط إزاء كلّ حادثة.

وقد وردت عدّة روايات عن المعصومينعليهم السلام بشأن مقام الرضا والتسليم ومنها ما روي عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «رَأْسُ طاعَةِ اللهِ الصبرُ والرِّضا عَنِ الله فيما أَحَبَّ الْعَبْدُ أَوكَرِهَ، ولا يَرْضى عَبْدٌ عَنِ اللهِ فيما أَحَبَّ أوكَرِهَ إِلَّا كانَ خَيْراً لَهُ فيما أَحَبَّ أوكَرِهَ»[1].

وقد روى المرحوم الكليني بعد نقله لهذه الرواية اثنتي عشرة رواية في الرضا والتسليم ومقامات المؤمن الراضي والمسلم لإرادة الله تبارك وتعالى.

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ صفة بارزة أخرىٰ للمتّقين والتي تدل على الإيمان القوي والثقة بوعد الله فقال: «وَلَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ».

فأرواحهم أشبه بالطير المسجون في القفص فهو يرى نفسه من جهة إزاء الحدائق النضرة المفعمة بأنواع الزهور والنباتات والفواكه والثمار، ومن جانب آخر يرفرف بأجنحته إزاء النار المحرقة داخل القفص فيحنو إلىٰ الحرية ليحلق إلىٰ تلك الحدائق ويتخلص من تلك النار المحرقة.

والمتقون على هذه الشاكلة، فعشقهم للثواب من جانب وخوفهم من العقاب (أثر سوء العاقبة) من جانب آخر يشد أرواحهم المرهفة إلىٰ العالم الآخر، بينما يحول عنهم دون ذلك الأجل الذي ضربه الله لهم.

ويكشف هذا التعبير ضمنياً سيادة الخوف والرجاء في وجودهم، فهم راجون من جانب لثواب الله ولطفه، ويخشون من جانب آخر أن تزل أقدامهم في هذه الدنيا فيقعون في فخ الشيطان وهوى النفس فيغادرون الدنيا وقد ساءت عاقبتهم.

جاء في الحديث أنّ لقمان الحكيم خاطب ولده فقال له: «يا بُنَيَّ خَفِ اللهِ خَوْفاً

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح ١.

لَوأَتَيْتَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ خِفْتَ أَنْ يُعذِّبَكَ وارْجُ اللهَ رَجاءً لَوْوافَيْتَ الْقِيامَةَ بِإثْمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أَنْ يَغْفِرَاللهُ لَكَ»[١].

وذكر الإمام عليه السلام صفة بارزة جدّاً في المتّقين فقال: «**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**».

فكلّ شخص يبدو له النهر الكبير ضئيلاً حين يكون إلىٰ جانب المحيط المتلاطم الأمواج، وحين ينظر الإنسان إلىٰ الشمس التي تضيئ العالم لا يرى من وجود لضوء أكبر وأكبر مصابيح العالم ضياءً، نعم، فقد تعرّف المتقون على القدرة المطلقة والعلم اللامتناهي لخالق عالم الوجود فأدركوا بقدر استعدادهم عظمة ذاته المقدّسة، فكان من الطبيعي أن يصغر كلّ ما سواها في أعينهم، وهذه هي إحدى العوامل التي تقف وراء تقوى المتّقين وورعهم وأعظم من ذلك عصمتهم من الذنب والمعصية، فكلّما عظمت معرفة الإنسان بالله صغر ما سواه في نظره فلم يعد يتعلق بهذه الأشياء الحقيرة والتافهة ولذلك لا يقارف الذنب.

ومن هنا نفهم ما قاله الإمام علي عليه السلام: «**وَاللهِ لَو أُعْطِيتُ الأَقاليمَ السَّبْعَةَ بِما تَحْتَ أَفْلاكِها عَلى أَنْ أعصِيَ اللهَ في نَمْلَةَ أَسْلُبُها جُلْبَ شَعيرَة ما فَعَلْتُهُ**»[٢].

وقال في مواصلته لكلامه: «**وإنَّ دُنْياكُمْ عِنْدي لأَهْوَنَ مِنْ وَرَقَة في فَمِ جَرادَة تَقْضِمُها**».

فإنّ ذلك يُعزىٰ ذلك إلىٰ عرفانه عليه السلام بالله تبارك وتعالى. نعم، كلّما إزدادت معرفة الله لدى الإنسان صغرت الدنيا في عينيه وضعفت لديه أسباب الذنب واستشعر المزيد من الطمأنينة والسكينة، وبالطبع فإنّ أحد آثارها حضور القلب في العبادة والصلاة، بحيث لا يلتفت إلىٰ الألم حين تُسَل السهام من جسده.

ثم اتّجه عليه السلام إلىٰ صفة بارزة أخرىٰ تتمثل في مقام المتّقين الشهودي فقال: «**فَهُمْ**

١. بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤١٢.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

للإيمان واليقين مراحل، فإيمان البعض تفرزه الأدلة العقلية وسائر الأدلة الكافية والشافية عليه، وقد عبّر العرفاء وأساتذة الأخلاق وبالاستناد إلىٰ الآيات القرآنيّة عن هذه المرحلة بمرحلة (العلم اليقيني)، والمرحلة الأسمى هي (مرحلة الشهود) حيث يتجاوز الإنسان في هذه المرحلة الأدلة العقليّة ليبلغ مقام الشهود فيرى الله ويشاهد عظمته ببصيرته وتزول عنه جميع الشكوك والوساوس التي تترتب أحياناً على الأدلة العقلية وهذا ما يصطلح عليه بمقام (عين اليقين).

والمرحلة الثالثة وهي مرحلة (حق اليقين) المختصة بخواص الله ومقرّبيه حيث يصل الإنسان في ظلها إلىٰ مرتبة تذوب فيها ذاته فلا يرى سوى الله ويغيب عن ناظريه كل ما سواه.

فالواقع أنّ المرحلة الأُولىٰ عامة وتشمل جميع المؤمنين الصادقين، بينما تختص المرحلة الثانية بالمتقين المخلصين والمجاهدين، وتختصر المرحلة الثالثة على صفوة معينة من أولياء الله كالمعصومينعليهم السلام، ولكلّ مرحلة آثارها ومعطياتها وأحد آثار مرحلة الشهود التي أشير إليها في هذه الخطبة بشأن المتّقين أنّهم يرون أنفسهم حاضرين على الدوام أمام الحقّ ولا ينفكون عن طاعته وإمتثال أوامره، وبالطبع فإنّ قدسيّة حياتهم خير شاهد على إيمانهم الشهودي فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادقعليه السلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شابٍ في المسجد وهو يخفق ويهوي[1] برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا فُلانَ؟» قال: «أَصْبَحْتُ يـا رَسُولَ اللهِ مُوقِناً». فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله، وقال صلى الله عليه وآله: «إنَّ لِكُلِّ يَقين حَقيقَةً فَما حَقيقَةُ يَقينِكَ؟».

---

١. يقال خفق برأسه إذا أخذته سنة من النعاس فمال رأسه دون سائر جسده.

فقال: «إِنّ يَقِيني يـا رَسُول اللهِ هُو الَّذي أَحزَنني وَأَسهَرَ لَيلي وَأَظمَأَ هَواجِـري فَعزَفتْ نَفسِي عَنِ الدُّنيا وَما فِيها حَتّىٰ كَأنّي إِلىٰ أنـظُر عَـرشَ رَبِّـي وَقَـد نُـصبَ للحِسابِ وَحُشرَ الخَلائقُ لِذلكَ وَأَنا فِيهم، وَكَأنّي أنظر إلى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ ويَتعارَفُونَ، عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِئُونَ، وكَأنّي أَنْظُرُ إلى أهْلِ النّـارِ وهُـمْ فـيها مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ وكَأنّي الآنَ أَسمَعُ زَفيرَ النّارِ يَدُورُ في مَسامِعي».

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هذا عَبْدٌ نَوَّر اللهُ قَلْبَه بِالإيمانِ». ثم قال ﷺ له: «إلزم مـا أنتَ عَليهِ».

فقال: يا رسول الله ادع لي أن أُرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله ﷺ فـلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ فاستشهد بـعد تـسعة نـفر وكـان هـو العاشر[1].

وقد وردت العديد من الأخبار التي تشبه ما ورد سـابقاً بشأن المـتّقين طـيلة التاريخ والذين بلغوا مقام الشهود والتي تؤكد كلام الإمام عليه السلام.

ثم واصل كلامه عليه السلام فذكر خمس صفات أخـرىٰ مـن صـفات المـتّقين فـقال: «قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وشُرُورُهُمْ مَأمُـونَةٌ، وأَجْسَـادُهُمْ نَـحِيفَةٌ، وحَـاجَاتُهُمْ خَـفِيفَةٌ، وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

فهذه الصفات سلسلة من صفات المتّقين، ذلك لأنّ حزنهم الذي ورد في صفتهم الأُولىٰ يشير إلىٰ خوفهم من الله والتـقصير فـي الإتـيان بـالوظائف، قـال الإمـام الصادق عليه السلام: «اَلْحُزْنُ مِنْ شِعارِ الْعارِفينَ». وواصل كلامه قائلاً: «ولَو حَجَبَ الْحُزْنُ عَنْ قُلُوبِ الْعارِفينَ ساعةً لاسْتَغاثُوا»[2].

نعم، فهم وجلون دائماً إزاء وظائفهم، ومن هنا خيم الحزن على قلوبهم خشية

---

١. نقل المرحوم الكليني هذا الحديث في باب حقيقة الإيمان (الكافي، ج ٢، ص ٥٣) وكـذلك نـقله المـرحـوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٧٤ عن كتاب المحاسن.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٧٠.

التقصير في حقّ مظلوم أو صدور ظلم منهم أو أنّهم فكروا في ما سوى الله، أضف إلىٰ ذلك لا يفارقهم غم العشق وحزن الإبتعاد عمّا يرجونه من قرب الله، على كلّ حال فهم لا يعيشون هم الدنيا أبداً، لانّهم لا يعشقون الدنيا.

وعليه فإن قال القرآن: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]. فهذا لا ينافي ما ورد في هذه الخطبة، لأنّ الخطبة متعلقة بالخوف عمّا سوى الله والحزن على الدنيا الماديّة وقوله في الصفة الثانية أنّ الناس منهم في أمان إشارة إلىٰ أنّ وجودهم لا يختزن سوى الخير والبركة للجميع ولا يفرز أي عناء وعذاب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ شَرَّ النّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَاللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَنْ يَخافُ النّاسُ شَرَّهُ»[٢].

وقال عليه السلام في الصفة الثالثة إنّ أجسامهم نحيفة ولا يراد به النحافة المتعارفة اليوم في المجتمع، بل تعني الضعف الذي يفيد الزهد من جانب والتقوى والصوم ويدل من جانب آخر على الخفة والاستعداد في إتيان الوظائف الشرعيّة، على كلّ حال فإنّ هذه الصفة كبعض الصفات الأخرىٰ لها استثناءات حيث إنّ البعض من الأفراد ليس بنحيف بحسب بنيته الجسميّة لكنه في صف المتّقين.

وأشير في الصفة الرابعة إلىٰ حاجاتهم المحدودة لا على غرار أصحاب الدنيا كانزي الذهب والفضة الذين يشبهون جهنم كلّما أُعطوا شيئاً نادوا «هل من مزيد»، والحقّ أنّ القناعة والحاجات الخفيفة لتصون الإنسان من العديد من الذنوب وتريح فكره لسلوك سبيل الحقّ، كما ذكر الإمام عليه السلام في إحدى كلماته القصار حيث قال: «تَخَفَّفُوا تَلحَقُوا»[٣].

وجاء في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام دخل حماماً فقال له صاحب الحمّام: نخلّيه لك؟ فقال عليه السلام: «لا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خَفيفُ الْمَؤُونَةِ»[٤].

---

١. سورة يونس، الآية ٦٢.

٢. كنزالعمال، ج ٣، ص ٥٠٢، ح ٧٦١٣.

٣. نهج البلاغة، خطبة ٢١.

٤. وسائل الشيعة، ج ١، الباب ٢٢، أبواب آداب دخول الحمام، ح ٣.

وأشار في الصفة الخامسة إلىٰ مقام العفة في أنّ أرواحهم عفيفة، تلك العفة التي تسوق الإنسان إلىٰ غض الطرف عن الهوى والمعصية، وبعبارة أخرىٰ لم يعد للأهواء والمعاصي من سبيل إليهم بحيث ينفرون من رؤية المناظر القبيحة والفاحشة.

قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «مَا الْمُجاهِدُ الشَّهِيدُ في سَبيلِ اللهِ بِأَعْظَمَ اَجْراً مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ؛ لَكادُ الْعَفيفُ أنْ يَكُونَ مَلَكاً مِنَ الْمَلائِكَةِ»[١].

وكيف لا يكونون كذلك وقد انتصروا في ميدان الجهاد الأكبر على عدوٍ خطر هو هوى النفس والشيطان.

ثم قال في ذكر صفة أخرىٰ من صفاتهم: «صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ». فالصبر سواء على الطاعة أو إزاء وساوس المعصية أو على المصيبة لمن الصفات البارزة للمتّقين.

ولا يسع أحد الظفر بأي هدف معنوياً كان أم مادياً ما لم يتحل بالصبر والاستقامة ولوفقد الإنسان هذه الصفة فإنّه يخاطر بدينه وإيمانه وعزته وشرفه ومن هنا جاء في حديث عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «وعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الأيمانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»[٢].

ونقل المرحوم الكليني في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكارِهِ والصَّبرِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكارِهِ فِي الدُّنْيا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وجَهَنَّمُ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذاتِ والشَّهَواتِ فَمَن أَعْطى نَفْسَه لَذَّتَها وشَهْوَتَها دَخَلَ النّارَ»[٣].

واعتبر الإمام عليه السلام كما ورد في العبارة أنّ هذا العمل؛ أي الصبر مدّة قليلة إزاء نيل تلك السعادة الخالدة تجارة مربحة يسرها الله لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلوةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً

---

١. نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ص ٥٧٤.

٢. المصدر السابق، الكلمة ٨٢.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٨٩، باب الصبر، ح ٧.

وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[١].

وقال في موضع آخر إنّ الملائكة تتلقى الصالحين من المؤمنين حين يرومون دخول الجنّة بالسلام: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ﴾[٢].

ثم تطرقعليه السلام إلىٰ صفتين من صفات المتّقين فقال: «أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا».

إشارة إلىٰ اقبال الدنيا بجميع متعها ولذائذها إلى الجميع لتستقطب إليها النفوس البشريّة، ولكن لا يقع في شباكها سوى أولئك الجهّال أو أصحاب الأهواء، بينما لا يغتر بها المتقون الذين يعلمون أنّ حقيقتها سراب، وهنالك البعض الذي يغتر بالدنيا عن طريق المال والثروة والجاه والمقام والشهرة، بينما لا يخفى هذا المعنى علـى المتّقين.

والحقّ أننا لنرى الكثير من الناس الذين يصبحون اسارى المقام بحيث يدفعهم الحفاظ عليها إلىٰ عدم التورع عن ارتكاب كلّ موبقة وجناية، وهناك البعض الذي يأسره المال والشهوات بحيث يضحي من أجل ذلك بكرامته الإنسانيّة، أمّا المتقون السائرون على خطى المعصومين يتجاوزون ذواتهم وشعارهم في ذلك «هَيْهاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ».

تأمّل

محاور هذا الجانب من الخطبة

تدور محاور هذا الجانب من الخطبة الذي تضمن عشرين صـفة مـن صـفات المتّقين حول عدّة أمور، إيمان المتّقين الراسخ وهو الإيمان الذي بلغ حد الشـهود ومشاهدة عالم ما وراء الطبيعة، مسألة التولي عن متع الدنيا ولذاتها وعدم الانخداع

---

١. سورة فاطر، الآية ٢٩.

٢. سورة رعد، الآية ٢٤.

بالأهواء والشهوات وتحري العلم والمعرفة واجتناب الذنوب والمعاصي سيما معاصي اللسان والتواضع وكفّ الشر عن الخلق تمثّل معظم تلك الأمور.

وإن لم يكن للمتّقين سوى هذا الجانب المذكور في الخطبة لكفاه أن يصنع منهم أُناساً كمل فضلاً عن الجوانب القادمة من الخطبة التي تشير إلى هذه الصفات.

والصفات السابقة ليست منفصلة عن بعضها البعض الآخر، بل هي سلسلة متصلة ومشروع جامع للسالكين إلىٰ الله والذين ينشدون القرب منه تعالى.

فذلك الشخص الذي بلغ به الأيمان درجة كأنّه يرى حجب النور وينظر من خلف حجب الطبيعة الضخمة إلىٰ الجنّة والنار من الطبيعي أن يصغر في عينه كلّ ما سوى الله ولا تخدعه مفاتن الدنيا وزخارفها ويعيش الواقع إزاء خلق الله ويكف عنهم أذاه.

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف يتحصل هذا الإيمان الشهودي ولمن سيكون نصيب هذه السعادة ؟

وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال بعض التشبيهات، فالصورة الحقيقية لا تنعكس في مرآة القلب مادام ملطخاً بقذارة الأهواء، ولا يسع الإنسان التحليق إلىٰ سماء الحقيقة مادام مسجوناً في زنزانة الطبيعة.

القسم الثاني

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ. فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ. يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

الشرح والتفسير

ليل المتّقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في حال المتّقين في الليل ليركز على التفاصيل ويمهد السبيل أمام الجميع فقال: «أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ[1] بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلىٰ تلاوة القرآن في صلاة الليل، ذلك لأنّهم يرتلون القرآن حين القيام بعد سورة الحمد في الصلاة؛ كما يمكن أن يكون الأمران منفصلين، أي أنّهم ينهضون في الليل للصلاة وتلاوة القرآن أيضاً.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام بيّن أسلوب قراءة المتّقين للقرآن بعبارة قصيرة عميقة

---

١. «يستثيرون» من مادة «ثور» على وزن «غور» و«ثوران» على وزن «فوران» بمعنى الهياج و«استثارة» بمعنى التهييج ويعني في العبارة المذكورة البحث في الآيات القرآنيّة لشفاء الأمراض الأخلاقيّة والمعنويّة.

المعنى فهم يقرأون القرآن بصيغة الترتيل الذي يعني التأمّل والتدبر في مفاهيم القرآن أضف إلى ذلك قال: إنّهم يرون أنفسهم مخاطبين بالقرآن فإن مرّوا بآية فيها تشويق تطلعوا إليها طمعاً وإن مرّوا بآية فيها تخويف، استشعروا منها الحزن، كما أنّهم يبحثون عن دواء دائهم الأخلاقي والمعنوي في زوايا الآيات القرآنيّة فهوالطبيب وهو الدواء.

ثم قال في شرحه لهذا المعنى: «فَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ[1] نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وظَنُّوا أَنَّها نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ».

نعم! فهؤلاء لا يطالعون القرآن بصورة سطحيّة بل يرون أنفسهم مخاطبين به فتتأجج في قلوبهم نيران الشوق حيث البشارة الإلهيّة ويرون ببصائرهم ما وهم فيه في هذه الحياة الدنيا، وهذا ما يدفعهم إلىٰ السير والسلوك إلىٰ الله تعالى.

«وإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ[2] جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ».

فقد بلغ إيمانهم مرحلة الشهود فأخذوا يرون حقائق عالم الغيب وكأنّها تعيش معهم، وبالطبع إن كانت قراءة القرآن بهذه الصيغة كانت أفضل وسيلة في التهذيب والتربية.

ورد في إحدى كلمات الإمام عليه السلام أنّه قال: «ألا لا خَيْرَ في قِراءَة لَيْسَ فيها تَدَبُّرٌ ألا لا خَيْرَ في عِبادَة لَيْسَ فِيها تَفَقُّهٌ»[3].

وروي عن الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال: «آياتُ الْقُرْآنِ خَزائِنٌ فَكُلَّما فُتِحَتْ خَزِينَةٌ يَنْبَغى لَكَ اَنْ تَنْظُرَ ما فيها»[4].

---

١. «تطلعت» من طلوع «تطلع» بمعنى البحث عن شيء.

٢. «زفير» و«شهيق» «زفير» في الأصل إخراج الهواء من الرئة و «شهيق» بمعنى إدخال الهواء إلى داخل الرئة؛ لكن صرح البعض أنّ «زفير» هو إخراج الهواء مع صراخ و «شهيق» هو إدخال الهواء مع وأنين.

٣. بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢١١.

٤. الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، باب في قراءته، ح ٢.

ولما فرغ الإمام عليه السلام في العبارات السابقة من بيان كيفية صلاة المتّقين المقرونة بتلاوة الآيات القرآنيّة والمتزامنة مع الخضوع والخشوع والتدبّر وحضور القلب أردفها في العبارة التالية ببيان ركنين آخرين هما الركوع والسجود فقال: «فَهُمْ حَانُونَ[1] عَلَى أَوْسَاطِهِمْ[2]، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ[3] وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ، وأَطْرَافِ[4] أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ[5] رِقَابِهِمْ».

فالعبارات التي ذكرها الإمام عليه السلام بشأن الركوع والسجود تعبيرات بمنتهى الروعة والجمال والتي تُطلع الإنسان على عمق هذه العبادات، فالإنحناء أمام الله وافتراش الجبين وبسط الأرجل على الأرض إزاء عظمة الله بالتوجه وحضور القلب ينطوي على عالم من المعنويات، والطريف أنّ الهدف النهائي لذلك تحرير رقبة الإنسان من قيد الأسر، ولكن هل المراد تحريرها من مخالب نار جهنم أم من كلّ قيد من قيود هوى النفس والشيطان والأشرار من الناس؟ يبدو أنّ عبارة الإمام عليه السلام مطلقة تشمل الجميع رغم تظافر الروايات التي وردت فيها العبارة «مِنَ النَّارِ» بعد «فَكَاكَ الرَّقَبَة».

نعم ! فحرية الإنسان مرهونة بعبوديّته لله في الدنيا وفي الآخرة وسوى المتّقين أسرى الأهواء والرغبات والأموال والثروات والمقامات والشياطين.

وما بيّنه الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بشأن المتّقين إقتباس في الواقع من الصفات التي ذكرها القرآن الكريم للمتّقين في آواخر سورة الفرقان عن «عِبادُ الرّحمن» فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[6].

---

١. «حانون» من مادة «حنو» بمعنى الانعطاف، اذن «حانون» جمع «حاني» بمعنى الشخص الذي ينحني.

٢. «أوساط» جمع «وسط» بمعنى الظهر.

٣. «جباه» جمع «جبهة» بمعنى الجبين.

٤. «أطراف» جمع «طرف» بمعنى رأس كلّ شيء وتعني هنا رأس البنان الذي يوضع على الأرض في السجود.

٥. «فكاك» و«فك» بمعنى التحرير والتفريق.

٦. سورة الفرقان، الآيتان ٦٤ و٦٥.

تأمل

١. خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لصفات المتّقين في مستهل الخطبة في انشطتهم في الليل والنهار والتي تغص بدروس السعادة.

فشرح باديء الأمر نشاطهم بالليل حيث يسيرون فيه بصورة كاملة باتجاه التربية والتهذيب والقرب الإلهي.

ويستند أساس هذا النشاط إلىٰ أمرين: ١. الصلاة بحضور قلب تام، وهي الصلاة الموصلة لكلّ سمو «قُرْبانُ كُلِّ تَقِيٍّ» وهي الطريق المتّقين للقرب من الله والناهية عن كل فحشاء ومنكر.

٢. تلاوة القرآن في الصلاة وخارجها في غسق الليل حيث الصمت المطلق والشرائط التي تنفي الموانع كافّة من الحضور بين يدي القرآن والمقرونة بالتدبّر في الآيات بحيث يرى المؤمن نفسه مخاطباً بآيات الثواب والعقاب فيرى بأُم عينيه مصير أصحاب الجنّة وأصحاب النار في خضم الآيات وينفتح على معارفها ويتعظ بمواعظها ويمتثل في حياته لأحكامها.

حقّاً إنّ مثل هذه الصلاة والتلاوة القرآنيّة في جوف الليل إنّما تربيهم بحيث يستطيعون في النهار القيام بوظائفهم بأحسن نحو، وسيرد الحديث عن نشاطهم في النهار في القسم القادم من الخطبة.

القسم الثالث

وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض؛ ويَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا!

ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِما يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!

الشرح والتفسير

نهار المتّقين

خاض الإمامعليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في نشاط المتّقين في النهار (على غرار القسم السابق الذي شرح فيه نشاطهم في الليل) فأشار باديء الأمر إلىٰ خمس صفات من صفاتهم فقال: «وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ[1] الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ[2] يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض؛ ويَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا![3] ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!».

والصفات الخمس التي ذكرها الإمامعليه السلام بشأن نشاط المتّقين في النهار دلالة

---

١. «براهم» من مادة «برى» على وزن «سعى» بمعنى نحت القلم أو الخشب وتعني هنا التصغيير.

٢. «قداح» جمع «قدح» على وزن «قشر» بمعنى السهم قبل أن يراش.

٣. «خولطوا» من «خلط» أي مزجوا وتعني هنا الأمر الذي خالط عقولهم، وكما يقال إلتبس عليه الأمر.

واضحة على هذه الحقيقة وهي أنّ تقوى هؤلاء المتّقين ليست منفصلة عن المجتمع قط، بل تقواهم مقرونة بالعلم والمعرفة والإدارة وتحمل المسؤوليّة والإحسان والعيش في وسط المجتمع.

«حُلَمَاءُ»: من ماده «حلم» التي تعني حسب (الراغب) ضبط النفس حين الغضب، ولما كانت هذه الحالة نابعة من العقل فإنّ مفردة الحلم تستعمل أحياناً بمعنى العقل ومن هنا تُطلق كلمة الحليم على من يتمالك نفسه عند الغضب وعلى العالم أيضاً.

وقال علماء الأخلاق أنّ صفة الحلم تمثّل حالة الإعتدال بين الصفتين الرذيلتين؛ إحداهما الذلّة والأخرىٰ المفرطة وهي الغضب.

على كلّ حال فإنّ هذه الصفة غالباً ما تظهر حين التعامل مع الجهّال فيضطر الحليم إلىٰ مداراتهم بحيث لا يُستغل علهم يفيقون إلىٰ أنفسهم ويكفون عن جهلهم.

والتعبير بالعلماء لا يقتصر على أولئك الذين انفتحوا على العلوم المعروفة بل يشمل الأفراد ممن لهم اطلاع ومعرفة واسعة وقدرة على إدراك الحقيقة.

والعبارة: «قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ» ليس المراد منها أنّ المتّقين ضعيفو البنية خشية المسؤوليّة، بل المراد أنّ تلك الخشية جعلتهم أكثر فاعلية وحسماً في القيام بوظائفهم، ذلك لأنّ السهم حين يبرىٰ ليصيب الهدف يكون انطلاقه أفضل وحدته أعظم.

والتعبير «يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى» إشارة إلىٰ أنّ العلماء الحلماء والمتّقين الأبرار يبدون في أعين السذج من الناس كأفراد ضعيفي الإرادة وغير جادين في قراراتهم.

ومن هنا نرى رمي الأنبياء من قبل أممهم بتهمة الجهل والجنون، سيما أنّهم لا يشابهون سائر قومهم، فمن لم يكن مثلهم يرونه مجنوناً لأنّه يخالف عاداتهم وعقائدهم بينما الواقع هم المجانين.

قال القرآن بشأن السابقين في الخيرات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[١].

جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد في ذيل الآية الشريفة أنّه سئل النّبي الأكرمﷺ: هل المراد من الآية من يذنب ويخشى الذنب؟ فقالﷺ: «لا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ ويَتَصَدَّقُ ويَخافُ أنْ لا يَقْبَلَ مِنْهُ»[٢].

ثم خاض الإمامعليه السلام في بيان علوّ همّة المتّقين فقال: «لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ[٣]».

فعلوّ همّتهم وسمّو معرفتهم لا تدعهم يرضون بالأعمال القليلة أو يستكثرون تلك الأعمال على خلاف المغرورين ضيقي النظر الذين يرضون من أنفسهم بالقليل من العمل وكأنّهم أشرف خلق الله، وبغض النظر عن ذلك فهؤلاء يتمتعون بصفة بارزة هي نقد الذات التي يفر منها أغلب الأفراد والذين لا يقبلون النقد من الآخرين وبطريق أولى لا ينتقدون أنفسهم وبذلك يهجرون الأمر الذي يؤدّي إلىٰ سموهم وتكاملهم.

فهؤلاء يشعرون بالخشية دائماً وكأنّهم لم يؤدّوا حقّ نعمة الله وهجروا طريقة عبودية الله وأنّهم مسؤولون أمام خلق الله.

وقد فسّر بعض شرّاح نهج البلاغة الأعمال الواردة هنا بالعبادات فقط واستشهدوا بالروايات الواردة في كثرة عبادات النّبيﷺ وأمير المؤمنينعليه السلام والإمام السجادعليه السلام. صحيح أنّ العبادات تعدّ إحدى الوظائف المهمّة للعباد، ولكن ليس لدينا أي دليل على حصر الأعمال الواردة في العبارة المذكورة بالعبادة وعدم شمولها

---

١. سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٤٦.

٣. «مشفقون» من «اشفاق» بمعنى الرغبة المقرونة بالخوف؛ يعني خائفون من التقصير في اعمالهم، كما تعني من يخشى على آخر يحبّه تعرضه لبعض الحوادث.

للمسؤوليات الاجتماعيّة.

وقد كان أئمّتنا عليهم السلام يقرون بذلك لله تعالى مع ما كانت لديهم من أعمال ضخمة واسعة ورغم قدسيتهم وطهارتهم، فقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي تضرعه قائلاً: «وما قَدْرُ أعْمالِنا في جَنْبِ نِعَمِكَ وكَيْفَ نَسْتَكْثِرُ أعْمالاً نُقابِلُ بِها».

وجاء في كتاب الغارات عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أحدهم تعجب من كثرة ما ينفق ويتصدق في سبيل الله فقال له عليه السلام: «لَو أعْلَمُ أنَّ اللهَ قَبِلَ مِنّي فَرْضاً واحِداً لأمْسَكْتُ، ولكنّي وَاللهِ ما أدْري أقَبِلَ اللهُ مِنّي شَيْئاً أمْ لا؟»[1].

وهذا في الواقع درس لعامة الناس في عدم الاغترار بأعمالهم العباديّة والخيريّة مهما كانت كثيرة ذلك لأنّ مسألة الإخلاص صعبة ومعقدة.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ثَلاثٌ قاصِماتُ الظَّهْرِ؛ رَجُلٌ اسْتَكْثَرَ عَمَلَهُ، ونَسِيَ ذُنُوبَهُ، وأُعْجِبَ بِرَأْيِهِ»[2].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ نقطة أخرىٰ في إطار حديثه عن مسألة نقد الذات فقال: «إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِما يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!».

وإننا لنعلم أنّ من موانع الرقي والتقدم نحو الله وفي المجتمع البشري هو مدح المداحين وتملق المتملقين الذي قذف بأغلب زعماء العالم في أودية الخطأ والضلال، والمتقون يشعرون بالخوف دائماً من مدح الآخرين حذراً من أن يسوقهم إلىٰ الغرور والعجب فيتعرضون لسخط الله، فهم يسألون الله أن يكونوا أعظم من ذلك المديح وإن كانت لديهم معصية خفيّة سألوه غفرانها.

---

١. الغارات، ج ١، ص ٩٠.

٢. وسائل الشيعة، ج ١، ص ٧٣، الباب ٢٢ من أبواب مقدمات العبادات، ح ٦.

تأمّل

إشفاق المتّقين من أعمالهم

يتصف نشاط المتّقين نهاراً بالصبغة الشعبيّة والاجتماعيّة المحضة رغم نشاطهم الليلي في تهذيب النفس في ظلّ المناجاة والعبادة والتضرع إلىٰ الله، والاستناد إلىٰ العلم والحلم والإحسان والخوف في تحمل المسؤوليّة لأفضل دليل على هذا المعنى.

فهم علماء يوضفون العلم لهداية وإرشاد المجتمع.

وحلماء يتحمّلون الصبر إزاء تعصب ولجاجة الجهّال من الأفراد، ومحسنون يمدون يد الخدمة بقدر استطاعتهم إلىٰ المحتاجين.

خائفون ووجلون من القيام بالمسؤوليات الكبيرة، فخوفهم خوف إيجابي ليكون الدافع للعمل أسمى وأعظم لا خوف سلبي يدعو إلىٰ التقوقع وترك النشاط، ولذلك قال عليه السلام: إنّ الخوف لم يضعفهم بل جعلهم أكثر عملاً على غرار السهم الذي يبرى ليعد لإصابة الهدف.

ومن صفاتهم أنّهم ليسوا كأصحاب الدنيا الذين ينتهزون الفرص والنفعيين الذين يتأقلمون مع كلّ شخص ومع جميع الظروف بغية تحقيق أهدافهم الماديّة، ومن هنا يتهمهم مثل هؤلاء الأفراد بخفة العقل والسذاجة، وزبدة الكلام فإنّهم مشفقون من أعمالهم سباقون للنظر فيها قبل أن يتعرض لها الآخرون.

حقّاً مثل هؤلاء الأفراد يستطيعون انقاذ المجتمع البشري من الظلم والجور وإيصال الحقوق إلىٰ أصحابها.

٨٠٠٣

القسم الرابع

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وحَزْماً فِي لِين، وإيماناً فِي يَقِين، وحِرْصاً فِي عِلْم، وعِلْماً فِي حِلْم، وقَصْداً فِي غِنىً، وخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وتَجَمُّلاً فِي فَاقَة، وصَبْراً فِي شِدَّة، وطَلَباً فِي حَلاَل، ونَشَاطاً فِي هُدًى، وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُوَ عَلَى وَجَل. يُمْسِي وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيما تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيما لاَ يَزُولُ، وزَهَادَتُهُ فِيما لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، والْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

شرح وتفسير

اثنتا عشرة صفة أخرىٰ

أشار الإمامعليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلىٰ اثنتي عشرة صفة أخرىٰ من صفات المتّقين بعبارات قصيرة عميقة المعاني ليستهلها بقوتهم في الدين وبعدهم عن الطمع فقال عليه السلام: «فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وحَزْماً[1] فِي لِين، وإِيماناً فِي يَقِين، وحِرْصاً فِي عِلْم، وعِلْماً فِي حِلْم، وقَصْداً فِي غِنًى، وخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وتَجَمُّلاً[2] فِي فَاقَة، وصَبْراً فِي شِدَّة، وطَلَباً فِي حَلاَل، ونَشَاطاً[3] فِي هُدًى،

---

1. «حزم» الإحكام والاتقان ومادته الأصلية «حزام»، رباط الحيوان (رباط محكم يربط به سرج الحيوان إلىٰ بطنه وورد بمعنى مطلق الربط المحكم).
2. «تجمّل» من «جمال» التظاهر بالجمال و«تجمل» التظاهر باليسر عند الفقر والفاقة.
3. «نشاط» العمل الصادق و«نشاطات» علمية بمعنى الأعمال العلميّة.

وتَحَرُّجاً[1] عَنْ طَمَع».

والعبارة: «قُوَّةً فِي دِينٍ» تشير إلىٰ عدم استطاعة المشككين والمنافقين النفوذ إليهم وليس بإمكان خطوب الدنيا ومصاعب الحياة زعزعة إيمانهم.

وتشير العبارة «وحَزْماً فِي لِينٍ» إلى أنّهم رغم إشراقتهم الفكرية التي تستلزم عادة الحزم ـ خلاف العادات اليوميّة التي تسهل العمل ـ لا ينسون الليونة والمرونة ويعاملون من يرافقهم في تحقيق الأهداف الاجتماعيّة بالرفق والمحبّة على ضوء المثل القائل: «لا تَكُنْ حُلْواً فَتُسْتَرَطُ ولا مُرّاً فَتُلْفَظُ».

والعبارة: «وإِيماناً فِي يَقِينٍ» تشير إلىٰ أنّ للإيمان درجات أعلاها درجة علم اليقين وحق اليقين التي تحصل أحياناً عن طريق الاستدلالات القوية والمتينة، وأخرىٰ عن طريق الشهود من خلال ذلك السمّو.

قال الإمام الصادقعليه السلام : «إنَّ الأيمانَ أفْضَلُ مِنَ الإسْلامِ وإنَّ الْيَقينَ أفْضَلُ مِنَ الأيمانِ وما مِنْ شَيء أعزُّ مِنَ الْيَقين»[2]. نعم فقد بلغ المتقون هذه المرتبة الساميّة والنادرة.

والعبارة: «حِرْصاً فِي عِلْم» رغم أنّ مفردة الحرص تحمل الجانب السلبي عادة لكنّها هنا تشير إلىٰ أنّهم بمنتهى الجدية في كسب العلم، ذلك لأنّه لا أصالة للتقوى ولا عمق دون العلم.

والعبارة: «وعِلْماً فِي حِلْم» تشير إلىٰ أنّ العالم لا ينبغي أن يغضب وينفعل إزاء جهل الجاهلين بل ينفذ إليه بحلمه بصورة تدريجية فيزيل جهله.

ونقرأ مانقله المرحوم العلّامة المجلسي في حديث مفصّل حوار الإمام الصادقعليه السلام مع البصري الذي جاء إلى الإمام الصادقعليه السلام لتحصل العلم، فقال له في شأن الحلم: «فَمَنْ قالَ لَكَ إنْ قُلْتَ واحِدَةً سَمِعْتَ عَشْراً فَقُلْ إنْ قُلْتَ عَشْراً لَمْ تَسْمَعْ واحِدَةً».

---

١. «تحرج» من مادة «حرج» المشقّة. وعندما تتعدى هذه المفردة بالحرف «عن» تعني الابعاد.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٥١، باب فضل الايمان على الإسلام، ح ١.

وقال بشأن العلم: «فَاسْأَلِ الْعُلَمَاء ما جَهِلْتَ وإيّاكَ أنْ تَسْأَلَهُمْ تَعَنُّتاً وتَجْرِبَةً وإيّاكَ أنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ شَيْئاً»[١].

العبارة: «قَصْداً في غِنىً» إشارة إلىٰ أنّهم إن أصبحوا أغنياء وأثرياء لا يتخلون عن الإعتدال ويجتنبون الإسراف والتبذير ويُعينون الفقراء بما لديهم من أموال فائضة عن الحاجة.

والعبارة: «وخُشُوعاً فِي عِبَادَة» إشارة إلىٰ أنّ عبادتهم ليست سطحيّة جوفاء خالية من الروح، بل تصدح عباداتهم بالخضوع والخشوع وحضور القلب الذي يمثّل روح العبادة في أعمالهم العبادية وكل صلاة من صلواتهم معراج للقرب الإلهي، ومن هنا قال القرآن الكريم في وصفه للمؤمنين المفلحين: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢].

والعبارة: «تَجَمُّلاً فِي فَاقَة» التي تقابل في الواقع «قَصْداً في غِنىً» إشارة إلىٰ أنّ المتّقين ولا يشكون حين الفقر والفاقة.

وتفيد مفردة «تجمّل» أنّهم رغم فقرهم وعوزهم يحافظون على ظاهرهم، كما يصفهم القرآن: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[٣].

والعبارة: «صَبْراً فِي شِدَّة» تشير إلىٰ استقامتهم وصبرهم إزاء مكاره الدهر والحوادث الأليمة وكمصداق لقوله تعالى: ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٤].

حيث يرون أنفسهم راجعين إلىٰ الله ودار الأمن والأمان والروح والريحان دون الإكتراث لهذه الدنيا فقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الإيمانِ»[٥]. وقال:

---

١. بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.
٢. سورة المؤمنون، الآية ٢.
٣. سورة البقرة، الآية ٢٧٣.
٤. سورة البقرة، الآية ١٥٦.
٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٣١٩؛ بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٣٧، ح ٢٢.

«الإيمانُ نِصْفانِ؛ نِصْفٌ فِي الصَّبْرِ ونِصْفٌ فِي الشُّكْرِ»[١].

والعبارة: «طَلَباً فِي حَلاَلٍ» تشير إلىٰ أنّ المتّقين ليسوا أفراداً متقوقعين ومعتزلين للأنشطة الحيوية، بل يسعون ويجدون من أجل المعاش والنهوض بالمجتمع الإسلامي الذي يشكل أحد أهدافهم الأساسيّة، مع هذا الفارق وهو أنّ أصحاب الدنيا لا يهتمون للحلال والحرام بينما يعيش هؤلاء هم الكسب الحلال ويهربون من العمل مهما كان دخله كثيراً إن شمّوا منه رائحة الحرمة. قال النّبي ﷺ: «اَلْعِبادَةُ سَبْعُونَ جُزْءاً أَفْضَلُها طَلَبُ الْحَلالِ»[٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾[٣]. ويمكن أن تكون العبارة دلالة على أنّ العمل الصالح وليد الغنى الحلال والطيب.

والعبارة: «نَشَاطاً فِي هُدىً» تفيد أنّ طي طريق الهدى بالنسبة لهؤلاء وخلافاً لما يعتقده الأفراد ضيقي الفكر وقليلي المعرفة منطلقاً للنشاط والحيوية، فهم لا يكلّون قط من السير على هذا الدرب وسلوك هذا الطريق يضاعف من نشاطهم وفاعليتهم.

المراد من العبارة «وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ» أنّ المتّقين بعيدون كلّ البعد عن الطمع، الطمع نتيجة التعلق الشديد بالدنيا بسبب التوجه لغير الله والذي يؤدّي إلىٰ العديد من المفاسد ومنها أنّه أحد عناصر الذلّة والبغض والعداوة والحقد والحسد؛ فالطماع لا يشبع قط من مال الدنيا ويسعى للحصول عليه بالطرق والوسائل كافّة فهو في الواقع يعيش أسر هذا القيد على الدوام كما قال الإمام عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ»[٤].

أضف إلىٰ ذلك فالطمع يعطل الفكر والعقل ويعرض الإنسان للتذبذب والحيرة،

---

١. بحارالأنوار، ج ٧٤، ص ١٥١.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٧٨.

٣. سورة المؤمنون، الآية ٥١.

٤. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٨٠.

كما قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «أَكْثَرُ مَصارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطامِعِ»[١].

ثم تطرق عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفات المتّقين فقال: «يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُو عَلَى وَجَل[٢]. يُمْسِي وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ».

نعم ! فلو أتى أولياء الله بكلّ الأعمال الصالحة لظلوا يخشون عدم أدائهم حقّ العبودية لله والتقصير في إمتثال التكليف، كما ورد في الحديث الشريف عن الحارث بن المغيرة أو أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصيّة لقمان؟ قال عليه السلام: «كَانَ فِيها الأعاجِيب وَكانَ أَعجَبُ مَا كَانَ فِيها أنْ قَالَ لابِنِهِ: خِفِ اللهَ عَزّ وَجَلَّ خِيفَةً لَو جِئتَهُ بِبرّ الثَّقَلَين لَعَذَّبَكَ، وَارجُ اللهَ رجَاءً لَو جِئتَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَينِ لَرَحِمَكَ...»[٣].

وللقرآن الكريم تعابير مختلفة ورائعة بهذا الخصوص في وصفه للسابقين في الخيرات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[٤].

والعبارة: «يُمْسِي وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ» إشارة إلى أنّ هؤلاء يبتدئون يومهم الذي يستانفون فيه العمل والنشاط باسم الله وفي آخر اليوم حيث انفتحوا على تلك النعم الإلهيّة واستغلوها في مرضات الله فيندفعون في الحمد والشكر، بالضبط كالجلوس على مائدة الطعام، فهم يشرعون بتناول الطعام باسم الله وينتهون بشكره حين يرفعون أيديهم عن الطعام، رغم ما ذهب إليه بعض الشرّاح[٥] أنّ الاختلاف في التعبير من باب التنوع في العبارة والمراد أنّهم ذاكرون وشاكرون في الصباح والمساء وفي جميع الأحوال، إلّا أنّ الأنسب ما ذكرناه.

وقد وردت عبارات عميقة المعنى في الآيات والروايات بشأن أهميّة ذكر الله.

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢١٩.

٢. «وجل» بمعنى الخوف و«وَجِل» على وزن «خجل» بمعنى الشخص الخائف.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٦٧، كتاب الايمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ١.

٤. سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

٥. في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٦٩.

فقد ورد في الحديث عن النّبي الأكرمﷺ: «ثَلاثَةٌ مَعْصُومُونَ مِنْ إبْليسَ وجُنُودِهِ: الذّاكِرُونَ للهِ، والْباكُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، والْمُسْتَغْفِرُونَ بِالأسْحارِ»[1].

كما وردت عدّة آيات وروايات في الشكر منها: ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنّه قال: «شُكْرُ النِّعْمَةِ أَمانٌ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ»[2].

ثم أشار إلىٰ صفتين مهمتين من صفات هؤلاء الأولياء فقال: «يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ».

طبعاً ليس مفهوم العبارة تقسيم الوقت في الخوف والرجا، فالخوف والرجاء راسخ في قلوب المتّقين في كلّ زمان، وعلى كلّ حال ولكن لما كان المتّقون يخلون إلىٰ أنفسهم بعد نهاية يومهم للحساب يشعرون بالقلق إن كان بدر منهم زلة أو خطأ ومن هنا ورد الحث على الاستغفار عند الليل قبل النوم فقد روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «... مَنِ اسْتَغْفَرَاللهَ حينَ يَأْوِي إلى فِراشِهِ مِائَةَ مَرَّة تَحاتَتْ ذُنُوبُهُ كَما يَسْقُطُ وَرَقُ الشَّجَرِ»[3].

ولما كان النهار انطلاقة فعالية وأعمال صالحة جديدة، الفعالية التي ينبغي أن تستهل بالأمل والرجاء فقد أصبح تجلياً لصفة الرجاء والأمل.

وللمفسرين عدّة أقوال بشأن الفارق بين الفضل والرحمة ذيل الآية الشريفة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾[4] فقد ذهب البعض إلىٰ أنّ الفضل الإلهي هو النعم الظاهريّة والماديّة والرحمة النعم الباطنيّة والمعنويّة، بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ أنّ الفضل بداية النعمة والرحمة دوامها، كما احتُمِلَ أن يكون الفضل إشارة إلىٰ نعم الله العامّة على جميع الناس والرحمة إشارة إلىٰ رحمته الخاصّة بالمؤمنين. وبالطبع ليس هنالك من تناقض في هذه التفاسير ويمكن الجمع بينها جميعاً.

---

١. مستدرك الوسائل، ج ١٢، الباب ٩٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ح ٥.

٢. غرر الحكم، ٥٦٦٤.

٣. وسائل الشيعة، ج ٤، الباب ١٢ من أبواب التعقيب، ح ٧.

٤. سورة يونس، الآية ٥٨.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلىٰ بيان صفة أخرىٰ من صفات المتّقين ذات الصلة بالتربية وتهذيب النفس فقال: «**إِنِ اسْتَصْعَبَتْ**[1] **عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ**».

هذا في الواقع أحد مراحل السلوك إلىٰ الله والذي يصطلح عليه بمرحلة «المعاقبة» التي تأتي بعد مراحل «المشارطة» و«المراقبة» و«المحاسبة» أي يشترط على نفسه منذ الصباح حين ينطلق في يومه الجديد على عدم مقارفة أي ذنب، ثم يعيش المراقبة طيلة يومه ومن ثم يتفرغ ليلاً لحساب ما أتى به من عمل في النهار، فإنّ ظفر بمخالفة هب لمعاقبة نفسه كأن يمنع نفسه ما ترغب فيه، مثلاً يحرم نفسه من الطعام اللذيذ والفراش المريح والنوم الكافي وما شاكل ذلك ليؤدب نفسه الجامحة فتعيش طاعة الله في الأيّام القادمة. وهذا البرنامج مؤثر وعملي لتهذيب النفس وبالطبع أنّ كلّ من داوم عليه سيلمس آثاره وبركاته بعد مدّة ليست طويلة.

ثم أشار إلىٰ أربع صفات مهمّة أخرىٰ فقال: «**قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ**».

والعبارة «**قُرَّةُ عَيْنِهِ**» بالنظر إلىٰ أنّ «قرّة» من مادة «قرّ» (على وزن حرّ) تعني في الأصل البرودة والعرب تعتقد أنّ دموع الشوق باردة دائماً ودموع الحزن حارة ومحرقة، فإنّ هذه العبارة تقال حيث السرور والفرح، وعليه فمفهوم العبارة المذكورة أنّ عين المتّقين مسرورة بعالم الآخرة، ذلك لأنّه عالم خالد ودائم، كما قال القرآن عن أصحاب الجنّة: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾[2] وقال أيضاً: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.[3] وبالنظر إلىٰ أنّه وحسب ما ورد في الأقسام السابقة من الخطبة فإنّ هؤلاء يرون بأعينهم في هذه

---

١. «استصعب» من «صعوبة» مأخوذة من «استصعاب» بمعنى التصعيب وعدم الخضوع.

٢. سورة هود، الآية ١٠٧.

٣. سورة السجدة، الآية ١٧.

الدنيا الجنّة ونعمها، وتحصل لهم حالة السرور وقرة العيون، وبالعكس حيث ايقنوا أنّ الدنيا متقلبة فلم يتعلقوا بها قط، ومزجهم الحلم بالعلم والقول بالعمل كان من أهم نقاط قوّتهم، ذلك لأنّ العالم إن لم يكن حليما إزاء جهل الجهّال تعذر عليه هدايتهم وإرشادهم وإن لم يقترن قوله بفعله لم يعد لكلامه من تأثير، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ الْعالِمَ إذا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَما يَزِلُّ الْمَطَرُ عَنِ الصَّفا»[1].

---

١. بحارالأنوار، ج ٢، ص ٣٩، ح ٦٨.

القسم الخامس

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. اَلْخَيرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وقُورٌ، وفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لاَ يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. والنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ.

الشرح والتفسير

تسع صفات أخرى

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى تسع من صفات المتّقين فقال:

«تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً[١] أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً[٢] دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً[٣] غَيْظُهُ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلىٰ قصر الأمل ،لأنّ طول الأمل ـ كما ورد في الروايات ـ ينسي الآخرة ونسيان الآخرة طامة كبرى تفرز مختلف المعاصي والذنوب.

صحيح أنّ وجود الأمل لدى الإنسان مدعاة للحركة والنشاط، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «الأَمَلُ رَحْمَةٌ لِأُمَّتي ولَوْلا الأَمَلُ ما رَضَعَتْ والِدَةٌ وَلَدَها ولا غَرَسَ غارِسٌ شَجَراً»[٤]. ولكن إن تجاوز هذا الأمل الحد وتبدل إلىٰ أمل طويل فإنّه يدفع جميع قوى الإنسان وأفكاره نحوالدنيا وينسيه كلّ شيء، بل يتعذر حتى على الإنسان في ظلّ هذه الحالة أن يستثمر دنياه.

وإننا لنرى أنّ قلّة زلات المتّقين كونهم يبعدون أنفسهم عن مطبات الذنب وذكرهم الدائم لله تبارك وتعالى. وخشوع قلوبهم نتيجة لعرفانهم بالله، لأنّ الإنسان كلّما إزداد إدراكه لعظمة المعبود ازداد خضوعه له، وقناعة المتّقين معلولة لسعة أُفقهم إزاء النعم الماديّة للدنيا ومتاعها وزخرفها، وبما أنّهم يؤمنون بفنائها وزوالها فهم لا يجازفون في السعي للحصول عليها فيقتنعون منها بذلك المقدار اللازم، وقلّة طعامهم لعلمهم بأنّ كثرة الأكل ـ وبغض النظر عمّا تفرزه من أنواع الأمراض ـ فإنّها تسلبهم حيوية العبادة ومناجاة الله، أضف إلىٰ ذلك فإنّها تجعلهم يغفلون عن ذكر المعوزين من أهل الفاقة.

وجاء في الحديث عن الإمام عليه السلام في غرر الحكم: «مَنِ اقْتَصَدَ في أَكْلِهِ كَثُرَتْ صِحَّتُهُ وصَلُحَتْ فِكْرَتُهُ».

---

١. «منزور» من مادة «نزر» على وزن «نذر» قليل.

٢. «حريز» من مادة «حرز» على وزن «قرض» الحفظ و«حريز» الشيء المحفوظ.

٣. «مكظوم» من مادة «كظم» على وزن «هضم»، ويقال «مكظوم» للشخص الغاضب والذي يتمالك نفسه.

٤. سفينة البحار، ج ١، ص ٣٠، مادة «أمل»؛ بحارالأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٣.

العبارة: «سَهْلاً أَمْرُهُ» إشارة إلىٰ أنّه سهل لين في أعماله الشخصية، كما أنّه سهل المؤونة إزاء الناس، وأننا لنرى بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التكلف القصوى بشأن سفر أو ضيافة ويزجون بأنفسهم في أتون عذاب أليم، أو يخوضون صراعاً قد يستغرق أشهراً وربّما سنوات تجاه الناس لانتزاع حقّ بسيط، والحال يعيش المتساهلون حياة وادعة مريحة على المستوى الشخصي إلىٰ جانب الراحة في علاقاتهم مع الآخرين.

العبارة: «حَرِيزاً دِينُهُ» إشارة إلىٰ أنّه يهتم قبل كلّ شيء بحفظ إيمانه وعقيدته ومبادئ دينه، ولا يضحي بها من أجل المال والمقام والشهوة.

والعبارة: «مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ» لا تعني أنّهم يفتقرون إلىٰ الشهوات، بل يسيطرون بعقولهم وإيمانهم على تهذيب هذه الشهوة، وهوذات التعبير الرائع الذي ساقه القرآن الكريم بشأن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[1].

وأمّا العبارة: «مَكْظُوماً غَيْظُهُ» بعد الصفات السابقة إشارة إلىٰ أنّ حفظ الدين وأداء الوظائف قد يؤدّي أحياناً إلىٰ ردود فعل طائشة من قبل بعض الجهّال والذي يثير الغضب لدى المتّقين، لكنهم مسلّطون على أنفسهم ويكظمون غيظهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلىٰ أربع صفات من صفات المتّقين البارزة فقال: «اَلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كانَ في الذّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

ورد في الحديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «ألا أُنَبِّئُكُم لِمَ سُمِّيَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِناً؟ لإيمانِهِ النّاسَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وأَمْوالِهِمْ، ألا أُنَبِّئُكُمْ مَنِ الْمُسْلِمُ؟ اَلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النّاسُ مِنْ يَدِهِ ولِسانِهِ»[2].

فإنّ كان هذا هو حال العاديين من المسلمين والمؤمنين، فمن الأولىٰ أن يكون

---

١. سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢. بحارالأنوار، ج ٦٤، ص ٦٠، ح ٣.

كذلك الوضع بالنسبة للمتّقين الذين يمثلون نخبة المؤمنين والمسلمين، فهؤلاء مصدر الخيرات والبركات ولا يتلقى الناس منهم أي شرّ.

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «**إِنَّ مَثَلَ الْمُؤمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلَةِ إنْ صاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وإنْ شاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وإنْ جالَسْتَهُ نَفَعَكَ وكُلّ شَأْنِهِ مَنافِعُ وكَذلِكَ النَّحْلَة كُلّ شَأْنِها مَنافِع**»[1].

قال بعض الأعلام: إنّ وجه المشابهة بين المؤمن والنحل حذق النحل وفطنته وقلّة أذاه ومنفعته وقناعته وسعيه في النهار وتنزهه عن الاقذار وطيب أكله، وأنّه لا يأكل من كسب غيره[2]، أضف إلىٰ ذلك فإنّ النحلة تنتج الشهد العظيم الفائدة، بالإضافة إلىٰ أنّ دورانها حول الأزهار يؤدّي إلىٰ تلقيح مختلف أنواع النباتات، ناهيك عن لسعتها التي تعدّ وسيلة للدفاع عن نفسها من العدو ذات فائدة عظيمة في علاج بعض الأمراض ومفردة الخير والشر مفهوم غاية في السعة تشمل الخيرات الماديّة والمعنويّة وجميع الشرور الماديّة والمعنويّة كذلك.

والعبارة: «**إِنْ كانَ فِي الْغافِلِينَ كُتِبَ فِي الذّاكِرِينَ**» إشارة إلىٰ أنّه لا يتأثر حين يكون وسط بعض الغافلين من الأفراد فهو لا ينفك عن ذكر الله واليوم الآخر، كما لا يعيش حالة الغفلة حين يكون وسط الذاكرين.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ ثلاث صفات مهمّة أخرىٰ والتي تعدّ من كرامات المتّقين فقال: «**يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ**».

يردّ الإنسان بالمثل أحياناً على ما يواجهه من إساءات من الآخرين والتي غالباً ما تفرزها حالة الثأر والانتقام؛ ولكن لا تمارس أحياناً مثل هذه المعاملة وهذا بالطبع الأسلوب الذي يطبع سيرة أولياء الله والمتّقين، فهم يتجاوزون ويعفون عن ظلم الظلمة في الوقت الذي يتمكنون فيه من الانتقام والرد بالمثل، وهذا بحد ذاته

---

١. بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٣٨.

٢. المصدر السابق.

شجاعة لأنّه ينبع من موقع القوّة وليس من قبيل الاستسلام تجاه الظلم، ويعتمد البذل والعطاء تجاه من حرمه ومنعه، وهذا دليل على جوده وكرمه.

وبالتالي فهو يمد يد المصالحة والسلام لمن يقاطعه ويشمله بعونه ونجدته وهذا شجاعة وكرم.

جاء في الخبر المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إِذا كَانَ يَومَ القِيامَةِ نادىٰ مُنادٍ أَينَ أَهلُ الفَضلَ؟ فَيَخرُجُ عُنقٌ مِنَ النّاسِ. فَتسأَلُهُم المَلائِكَةُ: وَما كَانَ فَضلُكُم؟ فَيَقُولُونَ: «كُنّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنا ونُعْطى مَنْ حَرَمَنا ونَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنا». فَيَقَولُونَ لَهُم: «صَدَقْتُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ»[1].

وقد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم بصورة عامة وشاملة بهذا الخلق، حيث خاطب النّبي صلى الله عليه وآله قائلاً: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[2].

ثم أشار الإمام عليه السلام في عبارات قصيرة وعميقة المعنى إلىٰ ست صفات بارزة أخرىٰ في المتّقين فقال: «بَعِيداً فُحْشُهُ[3]، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ».

والصفات الست التي يقابل كلّ زوج فيها الآخر وتفسر بعضها البعض الآخر تشير إلى سلوكيات وتصرفات المتّقين الاجتماعيّة.

والعبارة: «بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ» إشارة إلىٰ أنّ معاملتهم لجميع الناس تنطلق من اللسان الجميل والكلمات المفعمة بالخير والمحبّة وليس في أقوالهم وأعمالهم أي نوع من العنف والغلظة، فهم ليسوا بعيدين غاية البعد عن الفاحش من القول فحسب بل هم أبعد ما يكونون عن الفاحشين.

وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن حد حسن الخلق أنّه

---

١. الكافي، ج ٣، ص ١٤٩.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٩٦.

٣. «فحشه» يقال لكلّ مَن تجاوز حد الاعتداء وبلغ الحد الفاحش. ولذا يقال فحشاء للأعمال والأقوال القبيحة والمنكرة، وأخذت المفردتان فاحشة وفحشاء من هذا أيضاً.

قال: «أَنْ تُلِينَ جَناحَكَ، وتُطيبَ كَلامَكَ، وتَلقى أخاكَ بِبِشرٍ حَسَنٍ»[١].

والعبارة: «غَائِباً مُنْكَرُهُ» تشير إلىٰ انعدامه؛ أي لا يبدر منه أي منكر إزاء الآخرين.

ويحتمل أن يكون المراد أنّه لو بدرت منهم زلّة، فهي ليست بزلّة علنيّة على الأقل لتلوث المجتمع.

والعبارة: «حَاضِراً مَعْرُوفُهُ» إشارة إلىٰ جميع المحاسن التي يقرّها العقل والوجدان والشرع وليست غريبة عليها (من مادة عرفان بمعنى المعرفة).

والمراد من «مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ» أنّهم مندفعون على الدوام في الإتيان بأفعال الخير، وإن كانت لهم من أعمال سيئة في الماضي فهم يسعون إلىٰ هجرانها والإبتعاد عنها.

ثم أشار إلىٰ ثلاث من صفاتهم الحميدة فقال: «فِي الزَّلاَزِلِ[٢] وَقُورٌ[٣]، وفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ».

والمراد من «زلازل» الحوادث الأليمة والفتن العظيمة التي تهز القلوب. فالمتقون يربطون جأشهم إزاء هذه الخطوب ولا يفقدون معنوياتهم ويقفون إزاءَها كالجبل الأصم الذي لا تحركه الرياح العاتية، «اَلْمُؤْمنُ أَصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ»[٤] فهم صامدون وهذا يدل على أنّ التقوى لا تعني الإعتزال عن المجتمع والخلود إلىٰ الدعة والراحة، بل المتقون الحقيقيون هم أولئك الذين يتصدون للأحداث الصعبة ويسعون جاهدين وبكل شجاعة لإنقاذ أنفسهم ومجتمعاتهم ممّا يعصف بها من خطوب.

والصبر على المكاره يمثل أحد فروع الصبر الذي يشمل كلّ مصيبة وحادثة أليمة. فالمتقون ثابتون وصامدون في هذا الميدان، ذلك لأنّ الجزع إزاء المصائب

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٠٣.

٢. «زلازل» جمع «زلزلة» و«زلزال» بمعنى الحركة الشديدة والصعبة. ويقال الزلازل للشدائد من الأحداث.

٣. «وقور» من «وقر» على وزن «فقر» تعني في الأصل الثقل ويقال الوقور للشخص الذي لا يضطرب.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٢٤١.

يقود الإنسان إلىٰ المعصية والسيىء من القول من جهة، ومن جهة أخرىٰ يغلق على الإنسان السبيل لمعالجة الموقف.

وشكرهم عند النعمة ناشيء من تواضعهم لله والخلق، فهم ليسوا على غرار المتكبرين الذين تنسيهم النعمة والمال والمقام والثروة كلّ شيء فيتمردون على الخالق والمخلوق.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ ثلاث صفات أخرىٰ للمتّقين فقال: «لَا يَحِيفُ[1] عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، ولَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ».

فهذه الصفات الثلاث تنطلق من روح المتّقين الداعية إلىٰ الحقّ والساعية للعدالة، والعادل من ينصف حتى عدوه في إيصال حقّه، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾[2].

ولا يهب صحبه أكثر من حقهم بما يؤدّي لتضييع حقوق الآخرين، كما قال القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْكَانَ ذَاقُرْبَى﴾[3].

وهذا هو سرّ اعترافهم بالحقّ قبل إقامة الشهود عليه، ذلك لأنّ الذين يسلمون إزاء الشهود لا يعتبرون ممن يسلم للحقّ، وإقامة الشهود هي التي اضطرتهم للتسليم؛ أمّا من ينشد الحقّ والعدل فهوذلك الفرد الذي ينطلق إلىٰ صاحب الحقّ ليعثر عليه ويؤدّي حقّه ويفك رقبته من ظلامة الآخرين، وعلى هذا الضوء لابدّ أن ينطلق المدين إلىٰ الدائن ويفتش المؤتمن عن صاحب الأمانة، على العكس ممّا تشهده المجتمعات المجانبة للتقوى.

نعم، فالمتقون من لا يقصرون في أداء الحقوق وليسوا بحاجة للقضاء والمحاكم كما أنّ العداوة والصداقة لا تخرجهم من حدود الحقّ والعدل.

---

١. «يحيف» من مادة «حيف»، تعني الظلم في الأصل و«لا يحيف» أي لا يظلم.

٢. سورة المائدة، الآية ٨.

٣. سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

قال النّبي صلى الله عليه وآله: «أَتْقَى النّاسِ مَنْ قالَ الْحَقَّ فيما لَهُ وعَلَيْهِ»[1].

ثم واصل عليه السلام كلامه ليشير إلىٰ سبع صفات بارزات أخرىٰ من صفات المتّقين بعبارات منسجمة فقال: «لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ[2] بِالأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ[3] بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ».

للعبارة: «لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ» معنى واسع يشمل جميع الأمانات الإلهيّة والاجتماعيّة، من الصلاة التي قال فيها القرآن: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4]. حيث يحافظون عليها من خلال أدائها بإخلاص بعيداً عن السمعة والرياء، وكذلك سائر الأمانات، كالقرآن الكريم وأحكام الشريعة والأولاد الذين وهبهم إيّاهم الله تعالى ومختلف الأمانات التي يأتمنهم عليها الآخرون، فهم يسعون حثيثاً للحفاظ عليها ولا يفرطون بها بسبب التساهل والغفلة والتقصير.

العبارة: «لَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ» إشارة إلىٰ جميع ما يذكر به من الأمور المفيدة من جانب الله تعالى وأولياء الله والمخلصين من الأساتذة والمعلمين والأصحاب والأصدقاء، فهؤلاء ليسوا من أهل النسيان الذين يتغاضون عن دروس الهدى والحقّ ولا يلتزمون بها، وإذا ما اعتراهم شيء من وساوس الشيطان تذكروا الله وإرشادات أوليائه فيعودون إلىٰ رشدهم وهداهم، قال الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[5].

والعبارة: «وَلَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ» إشارة لما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا

---

١. بحارالأنوار، ج ٧٤، ص ١١٢.

٢. «ينابز» من مادة «نبز» على وزن «نبض» نعت الآخرين بلقب سيىء و«التنابز بالألقاب» أن يدعو الآخرين ويذكرهم بألقاب سيئة.

٣. «يشمت» من «شماتة» بمعنى التقريع والفرح لحزن الآخرين.

٤. سورة المؤمنون، الآية ٩.

٥. سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

بِالأَلْقَابِ﴾[1]. لأنّ ذكر هذه الألقاب يؤجج في القلوب نيران العداوة والبغضاء فيضطر الطرف المقابل إلىٰ ممارسة ردود الأفعال الطائشة، الأمر الذي يلوث أجواء المجتمع ويحطم شخصية الأفراد.

وعدم أذى الجار والشماتة بالمصائب التي وردت بعد مسألة التنابز بـالألقاب تشير إلىٰ رعايتهم للحقوق الاجتماعيّة واحترام الآخرين في الجوانب كافّة. وقـد ورد الحث على رعاية حقوق الجار في القرآن الكريم وأحاديث النّبي صلى الله عليه وآله وروايات الأئمّة المعصومين عليهم السلام فقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «اللهَ اللهَ فـي جيرانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ما زالَ يُوصي بِهِمْ حَتّى ظَنَّنا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ»[2].

من جانب آخر فإننا نعلم أنّ من أصابته مصيبة فهو كالإنسان المجروح المحتاج إلىٰ مَن يخفف عنه ويطبب جرحه، والشماتة هنا كذر الملح على جروحه، وليس هنالك من إنسان حي يسمح لنفسه أن يقوم بهذا العمل. قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ شَمَتَ بِمُصيبَةٍ نَزَلَتْ بِأَخيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيا حَتّى يُفْتَتَنَ»[3].

وآخر الصفات التي وردت في العبارة المذكورة عدم دخول المتّقين في الباطل وخروجهم من دائرة الحقّ والتي تنطوي على معانٍ عميقة جدّاً، يأبى المتقي ـ على ضوء ما ذكر ـ الدخول في الأفكار الباطلة والتصرفات الباطلة والخوض في الأقوال الباطلة ولا يتبع سوى الحقّ المطلق ولا يحيد عنه في مطلقاً وأينما كان وتجاه كلّ شخص وازاء كلّ عمل.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ ثلاث صفات أخرىٰ من صفاتهم فقال: «إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتّى يَكُونَ اللهُ هُوَالَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ».

فالمتقي لا يغتم في سكوته، مع أنّ السكوت في أغلب الأحيان يؤدّي إلىٰ حالة

---

١. سورة الحجرات، الآية ١١.

٢. نهج البلاغة، الرسائل، ٤٧.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٥٩.

من الكآبة والحزن، ذلك لأنّ السكوت أساس نجاة اللسان من أغلب الآفات، بالإضافة إلى كونه يدعو إلى التفكر في أمور الدين والدنيا، جاء في الحديث النبوي الشريف: «طُوبى لِمَنْ... أنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مالِهِ وأمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ»[١].

كما أنّ المتقي لا يضحك بصوت عال ويقهقه في ضحكه، لأنّ القهقهة من عادات الأثرياء المغرورين والأفراد الفارغين، قال أميرالمؤمنين عليه السلام في غرر الحكم: «خَيْرُ الضَّحِكِ التَّبَسُّمُ».

والعبارة: «وإنْ بُغِيَ عَلَيْهِ...» إشارة إلىٰ أنّه أحياناً قد يمارس بعض الأصدقاء والقرابة وربّما حتى الاخوة ظلماً بحقّ الإنسان بحيث لوهب للإنتقام لنشبت نزاعات مستمرة قد تنتهي إلىٰ ما لا يحمد عقباه، فإنّ إعتمد الإنسان في ظلّ هذه الظروف التحمل واستيعاب الآخر وسلم الطرف المقابل لله يكون قد أنقذ نفسه من الوساوس الشيطانيّة الخطيرة، كما يكون قد حافظ على حالة الهدوء والاستقرار في المجتمع، طبعاً ليس المراد من هذا الكلام العدوالغادر والقاسي، ذلك لأنّ مثل هذا التحمل والسكوت يدعوه لمزيد من الظلم والطغيان.

ثم أشارالإمام عليه السلام إلىٰ أربع صفات أخرىٰ تكمل كلّ واحدة منها الأخرىٰ فقال: «نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء. والنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة». أي أنّه يتحمل المزيد من العناء بغية استقرار المجتمع، مثلاً لو ظهرت بعض المشاكل في المجتمع جهد نفسه وتحمل بعض المشاق لحل تلك المشكلات بغية إراحة المجتمع فالواقع أنّ هذا نوع من الإيثار والتضحية يعمد بموجبه الإنسان إلىٰ تحمل بعض المشاكل الاجتماعيّة من أجل راحة خلق الله.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ العبارة الثالثة والرابعة «أَتْعَبَ نَفْسَهُ...» بمثابة الدليل على العبارتين السابقتين؛ أي إن كانت نفسه في عناء من جانبه فذلك لأنّه يسعى دائماً للاستعداد والتزود للدار الآخرة، وإن كان الناس منه في راحة

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٤٤.

فذلك لأنّه قرر ذلك.

كما يحتمل أن تكون العبارتان واردتين بشأن مسألة أخرىٰ، فالعبارتان السابقتان إشارة إلىٰ الأمور الماديّة، وهاتان العبارتان إشارة للأمور المعنويّة.

قال الإمام عليه السلام: «مَنْ عَمَّرَ دارَ إقامَتِهِ فَهُوَ العاقِلُ»[1]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[2].

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بأربع صفات أخرىٰ من الصفات البارزة للمتّقين الاختتام الذي ربّما لم يكن آخر الخطبة لولا تلك الحادثة التي وقعت لهمام ولعله أشار لمطالب مهمّة أخرىٰ بهذا الشأن) فقال: «أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ؛ ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وعَظَمَة، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وخَدِيعَة».

فقد أشار الإمام عليه السلام في ذكره لهذه الصفات إلىٰ نقطة مهمّة وهي: أنّ المتّقين في صِلاتهم الاجتماعيّة وتعاملهم مع الأصدقاء والأعداء واقامتهم للعلاقات أو قطعها مع هذا أو ذاك وبالتالي التعامل مع جميع الأمور إنّما ينشدون أهدافاً مقدّسة؛ فإن يعدوا عن شخص فإنّما ذلك بسبب تلوثه بالمعاصي أو أنّ الاقتراب منه يجعلهم عرضة للافتتان بزخارف الدنيا التي ابتلي بها هذا الفرد، وبالطبع فإنّ اقترابهم من الأفراد يستند إلىٰ دورهم في هداية الجهّال وتنبيه الغافل ومساعدة الضعيف والفقير، أمّا أصحاب الدنيا فإنّما يبتعدون عن هذا الفرد أو ذاك بسبب كبرهم وغرورهم ويقتربون من هذا أو ذاك بغية تحقيق مصالحهم الماديّة والخداع والتضليل.

مصير همام بعد سماع الخطبة

صرّح الراوي بعد نهاية الخطبة التي ذكرها الإمام عليه السلام حين بلغ هذا الموضع من

---

١. غررالحكم.

٢. سورة غافر، الآية ٣٩.

الخطبة «قَالَ: فَصَعِقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً كانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا».

«فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَمَا واللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهكَذَا[1] تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا».

«فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!».

«فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَل وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ، وسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ».

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «فَمَهْلاً! لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!».

وهنا يرد هذا السؤال: لم كانت عاقبة همام تلك الصعقة بينما لم تحدّث للإمام عليه السلام الذي ساق هذا الكلام؟

لابدّ من الإلتفات في الجواب عن هذا السؤال إلىٰ نقطة مهمّة وهي أنّ همام وإن كان رجلاً عابداً وزاهداً كما ورد في مستهل الخطبة «كانَ رَجُلا عابِداً» وقلبه يفيض حكمة ومعرفة وروحه مفعمة بالصفاء والنقاء (كما يتجلى ذلك من سؤاله) ولكن مهما كانت روحه ساميّة لا يمكن مقارنتها بروح أمير المؤمنين عليه السلام التي تمثّل بحراً من السمّو والكمال، ومن هنا لم يسع قلب همام تحمل كلّ تلك المفاهيم والمعارف، وهل يمكن سكب البحر في جدول صغير؟ وعليه فليس من العجب أن يصعق همام صعقة تكون نفسه فيها ويفارق الدنيا.

فقد ورد في القرآن الكريم بشأن قصة موسى وبني اسرائيل وتجلي النور الإلهي للجبل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[2].

فلم يقتصر الأمر على عدم تحمل موسى، بل إنهار ذلك الجبل بعظمته.

نعم! فالمواعظ التي تنطلق من القلب تستقر هكذا في القلب، والمهم أن يكون الإنسان من ذوي «الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ» وإلّا فالعتاة من الأفراد من ذوي القلوب

---

١. جاءت في النسخة علامة الاستفهام على رأس «هكذا»؛ لكنها لم تذكر في الكثير من النسخ القديمة وشرح نهج البلاغة وهو الأنسب.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

القاسية والملوثة والواقعة في شباك الشيطان لا تمتلك الآذان الصاغية لسماع المواعظ ولا القلب الوادع لاستيعابها.

بعبارة أخرىٰ أنّ همام وإن كان متّقياً عالي الهمّة، لكنه لم ير في نفسه ذلك السمّو الذي بيّنه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، فاشتعلت في أعماقه نيران الحسرة وصعقت نفسه كمداً.

ويشهد التاريخ الإسلامي على وجود العديد من هذه النماذج من الآثمين أحياناً الذين عادوا إلىٰ رشدهم وعدد من المتّقين الذين سمعوا مثل هذه المواعظ فلم يتحملوها وفارقوا الحياة[1].

وهنالك احتمال ثالث وهو أنّ همام لما سمع البشائر التي ذكرها أميرالمؤمنين عليه السلام للمتّقين حلقت روحه شوقاً إلىٰ ديار المعبود لتعانق الجنان.

وجاء في الخبر أنّ «ربيع بن الخُثَيم» كان في ذلك المجلس فلما صعق همام جرت دموعه على خديه وقال لأمير المؤمنين عليه السلام ما أسرع أثر وعظك في ابن أخي ليتني كنت مكانه، فقال عليه السلام: «هكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!»[2].

والجواب عن السؤال الثاني هو ما ذكره الإمام عليه السلام أنّ لكلّ إنسان أجلاً فلا يفارق الدنيا حتى يحلّ أجله، ولكن حين حلول الأجل يمكن أن يكون العامل النهائي بعض الأمور المختلفة، والعامل النهائي هنا العبارات العميقة لأمير المؤمنين عليه السلام، أضف إلىٰ ذلك لا يمكن مقارنة روح الإمام عليه السلام بروح همام، فروح الإمام بحر متلاطم من الأمواج وليس من قبيل البركة التي تتغير أوضاعها بفعل التلاطم الشديد للمياه.

ويتّضح ممّا تقدم جواب السؤال الثالث وهو لِمَ قبل الإمام عليه السلام طلب همام وبين له تلك المواعظ الشافية والكافية والساميّة، بينما قال عليه السلام كنت أخشى عليه هذه

---

١. ذكر المرحوم العلّامة التستري في شرحه نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٤٥٩ نماذج منها.

٢. شرح نهج البلاغة للتستري، ج ١٢، ص ٤٦٢.

الحادثة؟! لأنّ العامل النهائي حين حلّ أجله يمكن أن يكون تغييراً لمختلف أجهزة البدن أو الأمواج المعنويّة العاتية داخل الروح.

أمّا قول الإمام عليه السلام للمعترض: (لا تعدّ لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك) فذلك لأنّه لم يطرح السؤال بغية التحقيق لفهم الموضوع بل كان هدفه نقض كلام الإمام عليه السلام وبعبارة أخرىٰ إبطاله حسبما يظن، والحقّ أنّ سؤالاً بهذا الشكل ولأجل هذا الهدف لهو سؤال شيطاني.

تأمّل

نظرة أخرىٰ لخطبة همام

هذه الخطبة في الواقع دورة متكاملة في الأخلاق الإسلاميّة التي تسلط الضوء على جميع زوايا الحياة الفرديّة والاجتماعيّة والماديّة والمعنويّة للإنسان، كما أنّها نظام متكامل لأولئك الذين يرومون السير والسلوك إلىٰ الله.

فقد بيّنت صفات المتّقين بأسلوب بديع خلال أكثر من مائة وعشر صفات (وكأنّه عليه السلام اختار العدد الذي يمثل اسمه المبارك) فانطلق بها من إصلاح اللسان واختتمها بالتدين الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين، فهنالك بعض الأفراد الذين ينسحبون من الميدان منذ الخطوة الأُولىٰ أثر ضعف إيمانهم وخواء إرادتهم، لكن غيرهم من الأفراد مثل همام وباجتيازه لهذه الخصال يحث الخطى للقاء المعبود.

ومن المزايا التي تتصف بها هذه الخطبة أنّها تنتشل التقوى من صيغتها السلبيّة التي تراود أذهان البعض وتعرضها بصيغتها الإيجابيّة كما وردت في الآيات القرآنيّة والروايات الإسلاميّة.

وهذه الخطبة لا تقول لك عليك باعتزال عن المجتمع والانقطاع عن كلّ شيء في الدنيا لتبقىٰ محافظاً على طهرك، بل ترشد إلىٰ الإندكاك في وسط المجتمع ووسط الأمواج العاتية لحياة أصحاب الدنيا بحيث لا يترك ذلك بصماته السيئة عليك، على

غرار الإنسان القوي البنية الذي يبقى محافظاً على سلامته وسط المرضى ويقاوم كافّة الميكروبات والجراثيم.

وقد صنف المرحوم العلّامة الشهيد المطهري التقوى إلىٰ قسمين في كتابه (عشر مقالات): تقوى الضعف وتقوى القوّة، وقال عن تقوى الضعف: إنّ الإنسان وبغية صون نفسه من المعاصي يهرب من أسبابها، وتقوة القوّة: أن يخلق في روحه قوّة وقدرة بحيث تمنحه حصانة روحية وأخلاقيّة.

ويضيف: يشاهد في أدابنا الشعريّة والنثريّة بعض التعليمات التي تعكس التقوى بصورتها الأُولىٰ والتي ينبغي التعامل معها بحذر، ثم يتطرق إلىٰ شرح تقوى القوّة ويقول: «إنّ التقوى في النصوص الدينيّة سيما نهج البلاغة تعني تلك الملكة المقدّسة التي تمد الروح بالقوّة والإقتدار وتلجم النفس الأمّارة وتكبح جماح العواطف الجامحة»[1].

نعم فالتقوقع والإعتزال لا يعدّ فخراً، والفخر إنّما يحقّ ليوسف عليه السلام الذي صان نفسه عن تلك الرغبات الجنسية الشديدة وحفظ نفسه من الفحشاء ببرهان ربّه وذلك مثّل التقوى في أعلى مستوياتها.

طبعاً لا ننكر أنّ البعض لم يبلغ هذه المرحلة من التقوى (تقوىٰ القوّة)، وما أكثر من يضطر لانتخاب الصنف الأوّل (تقوىٰ الضعف).

---

١. راجع الأقوال العشرة، ص ٧ـ١١.

١٩٤

ومن خطبة له عليه السلام

يَصِفُ فيهَا الْمُنافِقِينَ[1]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما يبدو من عنوانها في المنافقين حيث تتحدث عن صفاتهم وتتكون من قسمين:

القسم الأوّل: يبتدئ بحمد الله والثناء عليه والشهادة بالرسالة للنبي ﷺ وتركزت خاتمته على المحن العظيمة للنبي الأكرم ﷺ وما حاكه المنافقون وخصوم الدعوة الإسلاميّة ضده من مؤامرات خطيرة، وحيث تواصل خط النفاق واشتد بعد النّبي ﷺ على عهد الإمام عليه السلام فقد حذر عليه السلام في القسم الثاني من الخطبة من خطورة المنافقين وذكر بالأدلة والبراهين للمجتمع الإسلامي خصائصهم الواحدة تلو الأخرى ليتعرف عليهم جميع المسلمين ويقبروا مؤامراتهم في مهدها.

---

١. سند الخطبة:
أشار صاحب مصادر نهج البلاغة إلى مصدرين لإثبات نقل الخطبة من أشخاص غير السيد الرضي؛ الأوّل: ما رواه المير يحيى العلوي في كتاب الطراز الذي ذكر جوانب من الخطبة مع بعض الاختلافات ما يدل على أنه أخذها من غير نهج البلاغة. والثاني: ما ذكره الآمدي في غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٦٩).

القسم الأوّل

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَة، وتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّة. وقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ، وتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وضَرَبَتْ إِلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَها، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وأَسْحَقِ الْمَزَارِ.

الشرح والتفسير

محن الرسالة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، وقرن الحمد والثناء هنا بالتضرع والدعاء فقال: «**نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ[1] عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، ونَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً**».

ولما كان أعظم فخر للإنسان هو التوفيق للطاعة وترك المعصية، فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على هاتين النقطتين، والمراد من التوفيق هنا توفير أسباب الطاعة وترك المعصية، ذلك لأنّ الله أفاض علينا العقل والفطنة والضمير الحي وبعث الأنبياء والرسل وأنزل الكتب السماوية التي تقرّبنا جميعاً من الطاعة وتبعدنا عن المعصية، ولولا هذه الأسباب لغرقنا في مستنقع المعصية، وعليه يجدر بنا حمد الله وشكره على الدوام على هذه النعم العظيمة.

أمّا الدعاء الذي ذكره الإمام عليه السلام في عبارتين عقب هذا الحمد والثناء؛ فهو يتعلق

---

١. «ذاد» من مادة «ذود» على وزن «ذوق» الدفع والطرد.

بطلب إكمال هذه النعم والتوفيق للاعتصام بحبل الله، والمراد منه دين الله كما يفهم من الآية الشريفة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[١].

أو المراد القرآن الكريم كما يستفاد من حديث الثقلين حيث قوله: «كِتابَ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ»[٢] أو المراد كلاهما حيث ليس هنالك من فارق بينهما.

الحقّ سنصبح أسعد الناس إن شملنا هذا التوفيق الإلهي بحيث تتمّ نعمه علينا ويقوىٰ تمسكنا بحبل الله.

وقد طرح بعض شرّاح نهج البلاغة إشكالاً مفاده: كيف يطلب الإمام عليه السلام إتمام النعمة، بينما صرّح القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٣] في إشارة إلىٰ أنّ نعم الله خارجة عن حدود العد والإحصاء؟

ولكن ما ينبغي الإلتفات إليه هو أنّ لإتمام النعم مراحل ودرجات؛ فإن تعذر على الإنسان بلوغ المرحلة النهائيّة فإنّه يستطيع الوصول إلىٰ سائر مراحلها الأخرىٰ وهذا ما سأله الإمام عليه السلام الله تبارك وتعالى.

ثم شهد عليه السلام بنبوّة النّبي صلى الله عليه وآله بذكر بعض الصفات البارزة من صفاته فقال: «ونَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَة[٤]، وتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّة[٥]».

وهاتان الصفتان التي بينهما الإمام عليه السلام بشأن النّبي صلى الله عليه وآله جامعتان لكلّ صفات الخير؛ فالوقوف بوجه المحن والجلد على المصائب مالم يقترن بتلك المقاومة والتحمل فإنّه لن يتمخض عن تبلور الأعمال ذات الأهميّة.

وتشير العبارة: «تَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّة» إلىٰ أنّ المحن والخطوب التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن واحدة أو اثنتين بل كان يتجرعها الواحدة تلو الأخرىٰ.

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢. مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٣، سورة آل عمران، رواه أبوسعيد الخدري عن النّبي صلى الله عليه وآله.

٣. سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

٤. «غمرة» من «غمر» على وزن «خمر» إزالة أثر الشيء ثم اطلقت الغمرة والغامر على ما ازدحم وكثر من الماء.

٥. «غصّة» تعني في الأصل الماء والغذاء وكل ما يحشر في الحلقوم وحيث يشعر الإنسان بأنّ شيئاً يحشر في حلقه عند الغم فقد عبّر عن ذلك بالغصّة.

فقد تحمل من أعداء الإسلام أشد المصاعب، صابراً حيث زرعوا طريقه بالأشواك والعقبات، لكنه تخطاها جميعاً، وهذا بحد ذاته درس لجميع الأفراد الذين يرومون مواجهة الطاغوت وإصلاح مجتمعهم.

ثم بين الإمامعليه السلام جانباً من بعض المصائب العظيمة التي واجهها النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله إبان الدعوة إلى الله بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال: «وقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ[1]، وتَأَلَّبَ[2] عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا[3]، وضَرَبَتْ إِلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا[4]، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَها، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وأَسْحَقِ[5] الْمَزَارِ».

والعبارة: «تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ» إشارة إلىٰ أنّ البعض من قرابة النّبيصلى الله عليه وآله كالعباس الذي كان يرغب في دعمه وإسناده لم يكن جاداً بهذا الخصوص.

والعبارة: «تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ» إشارة إلىٰ سائر القبائل البعيدة عن قريش والتي اتّحدت مع بعضها وألّبت سائر القبائل للوقوف بوجه النّبيصلى الله عليه وآله ودعوته بحيث لم يكن يجرأ أحد من قرابته للدفاع عنه بشجاعة في ظلّ تلك الظروف كما كانت وتيرة العداء تتصاعد بالشكل الذي يصعب معه مواجهتها.

والعبارة: «خَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وضَرَبَتْ إِلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا» إشارة إلى سرعة وجدّية الخصوم في معاداتهصلى الله عليه وآله، ذلك لأنّهم حين يريدون للراحلة أن تسير بسرعة يسلسون قيادها ويضربون بطنها واضلاعها. والتاريخ الإسلامي بكلّ فصوله وصفحاته ليشهد على هذه الحقيقة، حيث إنّ الأعداء لم يتورعوا عن القيام بأي فعل كانوا يعتقدون أنّ من شأنه القضاء على الإسلام والنّبيصلى الله عليه وآله والدعوة؛ لكن الله أراد لهذا النور أن يتمّ ولا يطفأ وأن يزداد إشراقاً يوماً بعد آخر، وفقد أفشل

---

١. «أدنون» جمع «أدنى» بمعنى القريب، وعليه «أدنون» يعنى الأقرباء في مقابل «أقصون» الأباعد.

٢. «تألّب» من مادة «ألب» على وزن «أمر» بمعنى التجمع من كلّ حدب وصوب كما تستعمل بمعنى تعبئة الآخرين وحشدهم ضد شخص معين أو جماعة.

٣. «أعنة» جمع «عنان» وهوحبل اللجام.

٤. «رواحل» جمع «راحلة» بمعنى المركب وغالباً ما تعني الناقة.

٥. «أسحق» من مادة «سحق» على وزن «قفل» بمعنى أقصى كما تعني اسحق أقصى نقطة.

خططهم واطفأ بمطر لطفه ورحمته نيران فتنهم ومؤامراتهم فخرج النّبيﷺ من هذه الأحداث الخطيرة منتصراً مرفوع الرأس وبسط نفوذ الإسلام ونشر راياته في غرب العالم وشرقه.

ولكن حيث كان للمنافقين في الداخل ـ أولئك الذين أظهروا إسلامهم وإلتحقوا ظاهرياً بركب المسلمين بينما كانت قلوبهم مع الأعداء وتختزن البغض والعداء ـ دور مهم وخطير تواصل حتى عهد الإمامعليه السلام وتغلغل بين صفوف المسلمين، فقد حذّر المسلمين تحذيرات جدّية بشأن خط النفاق وشرح ـ كما سياتي ـ في القسم القادم خصائص المنافقين وأخطارهم وسلط ابن أبي الحديد الضوء هنا على المخاطر والصعوبات التي تخطاها رسول الله إبان الدعوة وقال:

«من قرأ وكتب السيرة علم ما لاقى رسول اللهﷺ في ذات الله من المشقّة واستهزاء قريش به في أول الدعوة ورميهم إيّاه بالحجارة حتى أدموا عقبيه وصياح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وفتل الثوب في عنقه وحصره وحصر أهله في شعب بني هاشم سنين عدّة محرمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يموتون جوعاً لولا أنّ بعضاً ممن كان يحنو لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق في الشمس وطردهم إيّاهم عن شعاب مكة حتى خرج من خرج منهم إلىٰ الحبشة وخرجعليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف وتارة ببني عامر وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم، ثم اجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج تاركاً أهله وأولاده حتى وصل المدينة فناصبوه الحرب ولم يزل منهم في عناء شديد وحروب متصلة حتى أكرمه الله تعالى ونصره وادّىٰ دينه، ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه»[1]. (هذه هي الأمور التي أشار إليها الإمامعليه السلام في هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى).

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٦٥.

القسم الثاني

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، والزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، ويَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، ويَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَاد، ويَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَاد. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، ويَدِبُّونَ الضَّرَاءَ. وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ. حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، ومُؤَكِّدُو الْبَلاَءِ، ومُقْنِطُو الرَّجَاءِ. لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيق صَرِيعٌ، وإِلَى كُلِّ قَلْب شَفِيعٌ، ولِكُلِّ شَجْو دُمُوعٌ. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، ويَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

الشرح والتفسير

خطر المنافقين

كما ذكرنا في آخر القسم السابق فإنّ الإمام عليه السلام أشار هنا إلىٰ صفات المنافقين ليحذر المسلمين من خطرهم فذكر أوصافهم بمنتهى الدقّة بحيث يعجز غيره بالخوض في صفات المنافقين بهذا العمق والدقّة.

واستهل كلامه بست من صفاتهم فقال: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، والزَّالُّونَ[1] الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، ويَفْتَنُّونَ[2] افْتِنَاناً».

---

١. «الزالّون المزلّون» من مادة «زلّة» بمعنى الخطأ والزلل.

٢. «يفتنون» من «افتنان» من مادة «فنّ» بمعنى التزيين «يفتنّون افتناناً» بمعنى تزيينهم لأعمالهم بأشكال مختلفة لخداع الآخرين.

فالصفة الأُولىٰ التي ذكرها الإمام عليه السلام للمنافقين تتمثل في ضلالهم؛ ليس ضلالهم فحسب بل إصرارهم على إضلال وإغواء الآخرين، أضف إلىٰ ذلك فهم خاطئون يسعون إلىٰ قذف الآخرين في لهوات الخطأ والزلل.

ويبدو الفارق بين الضالّين والزالّين واضحاً، فالأولىٰ: إشارة إلىٰ السير عن عمد وعلم في طريق الضلال والغواية، وتشير الثانية إلىٰ كثرة زلاتهم وأخطائهم. نعم! فزلاتهم جمة كثيرة وكيف لا تكون كذلك ولم يستضيئوا بنور العلم والإيمان.

وبغض النظر عن هذه الخصال الذميمة الأربع فهم أفراد متلونون يخرجون كلّ يوم بلون معين ويلبسون شكلاً آخر في كلّ زمان ليحققوا أغراضهم الدنيئة من خلال ذلك فإذا كانوا بين المصلّين وقفوا للصلاة، وإن خالطوا أهل الخمور والفجور انغمسوا في تعاطيها، بالضبط كما وصفهم القرآن: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

وربّما يكون الفارق بين «يتلّونون» و«يفتنون» أنّ الأُولىٰ تشير إلىٰ جوانبهم وأبعادهم الظاهريّة حيث يكتسبون كلّ يوم لوناً، والثانية إشارة إلىٰ خططهم الخفيّة بحيث يعمدون كلّ يوم لخطة مشبوهة، فطبيعة النفاق تتمثل في أقوالهم وأفعالهم وخططهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في هذا الإطار فأشار إلىٰ ست صفات أخرىٰ من الصفات الخطيرة التي يتصف بها المنافقون بعبارة قصيرة عميقة المعنى فقال: «وَيَعْمِدُونَكُمْ[2] بِكُلِّ عِمَاد، ويَرْصُدُونَكُمْ[3] بِكُلِّ مِرْصَاد. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ[4]،

---

١. سورة البقرة، الآية ١٤.

٢. «يعمدونكم» من مادة «عمد» المراد أنّهم يعتمدون كلّ وسيلة للقدح بكم.

٣. «يرصدونكم» من «رصد» على وزن «صدف» بمعنى الاستعداد للمراقبة وبمعنى التربص والارتقاب.

٤. «دوية» من مادة «دوّي» من «دواً» بمعنى المرض ودوّى (صفة مشبهه على وزن فعيل) بمعنة المريض ومؤنثه دوّية ولكن «دواء» على وزن دمار من هذه المادة بمعنى ما يعالج به المرض.

وَصِفَاحُهُمْ[١] نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدِبُّونَ[٢] الضَّرَاءَ[٣]، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ[٤]».

والعبارة: «وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَاد» إشارة إلىٰ أنّهم لا يتورعون عن التشبث بكلّ وسيلة للقضاء عليكم، من قبيل بثّ الشائعات وإثارة الشكوك في صفوف المؤمنين وبث الفرقة والعداوة والبغضاء والفساد و....

والعبارة: «وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَاد» إشارة إلىٰ أنّهم لا يغضون الطرف عن أدنى فرصة بغية تسديد الضربات إلىٰ السلمين والانقضاض عليهم. فهم متربصون فإذا ما سنحت أدنى فرصة وثبوا عليكم.

وجميع العبارات القادمة تعكس إزدواج شخصيّة المنافقين واختلاف ظاهرهم عن باطنهم فقال إنّ قلوبهم مريضة وظاهرهم سليم، أقوالهم تبدو شافية، غير أنّ تصرفاتهم سقيمة لا علاج لها، فجميع أعمالهم مقرونة بالمؤامرات السرية والخطط الشيطانيّة الخفيّة.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين ثلاث صفات أخرىٰ فقال: «حَسَدَةُ[٥] الرَّخَاءِ، وَمُؤَكِّدُ الْبَلاَءِ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ».

قال تعالى في القرآن المجيد: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[٦] وهذه هي طبيعة المنافقين في كلّ عصر ومصر.

---

١. «صفاح» جمع «صفح» بمعنى صفحة الوجه أو الورقة وأمثال ذلك وتشير هنا إلىٰ أنّ ظاهر المنافقين طاهر وباطنهم سيىء.

٢. «يدبّون» من «دبيب» أي يمشون على هيئة الدبيب ببطء وتأني وشمل كلّ متحرك من حيث المفهوم اللغوي سواء كان يمشي سريعاً أم بطيئاً.

٣. «ضرّاء» يعني الأرض الواسعة التي تلتف فيها الأشجار وتلجأ إليها الحيوانات الصحراوية للاختفاء.

٤. «عياء» من «عيّ» بمعنى العجز و«داء العياء» يراد بها هنا المرض الذي أعجز الأطباء علاجه (العياء هنا مصدر له معنى الصفة).

٥. «حسدة» جمع «حاسد» مثل «قتلة» جمع «قاتل» بمعنى الشخص الذي يحسد.

٦. سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

إن بثّ اليأس والتشاؤم بغية إضعاف الإرادة والقضاء على قوّة الجهاد والمقاومة، هي إحدى الحيل الخطيرة للمنافقين بحيث لو نجحت لانطوت على آثار غاية في الخطورة، ويبدو هذا الموضوع أعظم خطورة في العصر الراهن حيث تخيم فيه وسائل الإعلام على جميع أرجاء المعمورة، وقد وضّف المنافقون هذه الوسيلة في داخل وخارج البلدان الإسلاميّة لإدخال اليأس في قلوب المسلمين وصدهم عن الرقي والتقدم والتطور وتمهيد السبيل للقضاء عليهم. ولابدّ هنا من الصمود لمواجهة هؤلاء الشياطين بكلّ ما أوتي المسلمون من قوّة والتذكير بالألطاف الإلهيّة والعنايات الخفيّة وخلق الأمل هنا وهناك والجهر بهذا المبدأ: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾[2].

ثم أشار عليه السلام إلىٰ ثلاث صفات من صفاتهم فقال: «لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيق صَرِيعٌ[3]، وإِلَى كُلِّ قَلْب شَفِيعٌ، ولِكُلِّ شَجْو[4] دُمُوعٌ».

العبارة الأُولىٰ كناية عن كثرة الأفراد الذين يذهبون ضحية مؤامراتهم وخططهم أو يتعرضون للأذى والضرر.

وتشير العبارة الثانية إلىٰ أنّ المنافقين يسعون بمختلف الحيل وأساليب الخداع والتملق للنفوذ إلىٰ القلوب والإيحاء إلىٰ الآخرين بأنّهم من أصدقائهم.

وتشير العبارة الثالثة إلىٰ أساليبهم المضللة في الخداع وذرف دموع التماسيح على مصائب المؤمنين ليغطوا من خلال ذلك على بغضهم الباطني وعداوتهم المتأصلة في قلوبهم فيخدعون الناس ويستقطبونهم إلىٰ أودية الضلال فيجعلونهم يعيشون ذلك البؤس والشقاء.

---

١. سورة محمد، الآية ٧.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

٣. «صريع» من «صرع» على وزن «فرع» بمعنى المطروح على الأرض وله معنى اسم المفعول بمعنى المطروح.

٤. «شجو» بمعنى الحزن.

والعبارة الرابعة إشارة إلىٰ كثرة الأفراد الذين خدعوا بهم وهلكوا بفعل ضرباتهم الموجعة، وإشارة إلىٰ أنّ ضحاياهم ليسوا قلائل بحيث يمكن تجاوزهم بسهولة، فهم على درجة من الكثرة وكان كلّ زقاق وشارع فقد ضحية لمؤامراتهم ومخططاتهم، وبناءً على ما تقدم فلولم يتصد المسلمون لإفشال خططهم فسوف لن يسلم أحد من ضرباتهم المهلكة.

والعبارة الخامسة تخبر عن ألاعيبهم بغية اختراق القلوب، فهم على الدوام شركاء مع اللصوص ورفاق قطاع الطرق والذين يزودون السراق بكلّ المعلومات عن القوافل ويتعاونون معهم جنباً إلىٰ جنب، ولذلك فهم يسعون ليوحوا لكلّ من يصادفونه أنّهم من خلص أصدقائه.

والعبارة السادسة هي إكمال وتأكيد لما ورد في العبارة السابقة؛ فهؤلاء يصوّرون للآخرين أنّهم يشاطرونهم أحزانهم ويذرفون دموع التماسيح على مصائبهم بينما يضحكون في باطنهم ويشعرون بالسرور والفرح، نعم هذا هوديدن النفاق.

وأشار عليه السلام في مواصلته لكلامه إلىٰ صفتين قبيحتين وذميمتين من صفات المنافقين فقال: «يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، ويَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ».

نعم فكلّ واحد منهم يخوض في المجلس في مدح الآخر والاشادة به وينسب له بعض الصفات الحميدة التي ليس لها من صلة بشخصيته، على أساس أنّه يطالبه أن يعامله بالمثل فيمدحه ويثني عليه في مجلس آخر، فمدحهم وثنائهم لا ينطلق من الحقّ قط وتقدير المحسنين والأخيار، بل الهدف سماع المزيد من الكذب المشابه لما يورد بحقّه.

والعبارة: «يَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ» هي الأخرىٰ تأكيد على هذا الموضوع وتعبير آخر عن هذه الصفة الذميمة والمريضة، أي أنّهم لا يقدمون خدمة مجانيّة بعيدة عن الرياء لكائن من كان، بل يتوقعون مقابلها خدمة لهم، ولا يقتصر ذلك على الثناء فحسب بل في كلّ أمر وحيثما ما كان.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم ببيان ثلاث رذائل أخلاقيّة ذميمة للمنافقين فقال: «إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا[1]، وإِنْ عَذَلُوا[2] كَشَفُوا، وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا».

إنّ حاجة الناس لبعضها البعض ممّا لا يمكن إنكاره وقد توجب هذه الحاجة أحياناً أن يلجأ أحد للآخر لمساعدته في حلّ مشكلته، إلّا أنّ الإلحاح عمل قبيح، فذلك الطرف المقابل ربّما لا يريد أو يتعذر عليه القيام بذلك العمل أو قبول ذلك الطلب فيشعر بحالة من الخجل والانزعاج من ذلك الإلحاح.

قال القرآن الكريم في بيان صفة المؤمن حين الحاجة: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾[3] إلّا أنّ المنافقين يريدون نيل أهدافهم وإن أخذ الطرف المقابل حياءً واضطر للعمل خلاف رغبته وميله؛ وكذلك إن إرادوا نصح شخص وأمره بالمعروف كما يزعمون ذهبوا بماء وجهه وسط الآخرين، بينما صرحت التعاليم الإسلاميّة بأنّ هذا العمل ينبغي أن يتمّ بمنتهى الدقّة واللطافة؛ بما يحفظ ماء وجه المسلم ولا يكدره ويجعله يعيش حالة من الحزن والغم.

وتشير العبارة: «وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا» إلىٰ أنّ المنافقين إن بلغوا منصباً فإنّهم ليس فقط لا يؤدّون حقّ ذلك المنصب، بل يسلكون طريق الاسراف فيغضبون الله والناس لضمان مصالحهم اللامشروعة، قال القرآن الكريم بشأن بعض المنافقين: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[4].

ويحتمل أن يكون المراد من قوله «إِنْ حَكَمُوا» أنّهم إن تصدّوا للحكم في مسألة معينة فإنّ حكمهم لا يستند إلىٰ العدل قط وأنّهم ينتهكون حدود العدل والقسط، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين.

---

١. «ألحفوا» من «الحاف» بمعنى الإصرار والإلحاح في الطلب.

٢. «عذلوا» من «عذل» على وزن «هزل» بمعنى لاموا.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٠٥. والتفسير فوق أحد تفاسير هذه الآية.

القسم الثالث

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، ولِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، ولِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، ولِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، ولِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، ويُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ. يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، ويَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ، وحُمَةُ النِّيرَانِ: (أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

الشرح والتفسير

التخطيط الدقيق للمنافقين

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة الذي يمثل ختامها إلىٰ أنّ المنافقين يندفعون نحو تنفيذ مآربهم وفق خطط جهنميّة متكاملة، واستنفروا أفكارهم لحل كلّ معضلة تعرض عليهم وأعدوا البرامج اللازمة للقضاء على معارضيهم فقال عليه السلام: «قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، ولِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، ولِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، ولِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، ولِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً».

فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقة في هذه العبارات الخمس واستناداً لمفردة «أَعَدُّوا» أنّ المنافقين يلمّون بجميع الشؤون الإيجابية للمجتمع ويخططون لمواجهتها والقضاء عليها، وقد انطلقوا من بعض الحلول حتى في المواقف الصعبة التي تواجههم ليتمكنوا من خلال ذلك من فتح ما أغلق عليهم من أبواب وإزالة ما يعترض طريقهم من عقبات، فهم يحملون سراجاً في الليالي الظلماء لتحقيق مآربهم.

وكثيراً ما تلاحظ الشواهد الحيّة لهذه العبارات العميقة المعنى في كلام الإمام عليه السلام طيلة التاريخ ولا سيما القرون الإسلاميّة الأُولىٰ؛ ومن ذلك الحجج والذرائع لتنحية الإمام عليه السلام عن الخلافة (كونه شاباً أو فيه دعابة) وإحراق بيت الوحي بعد النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بذريعة المخالفة لإجماع المسلمين (الإجماع الذي ليس له من وجود خارجي) والمطالبة بدم عثمان ومن جانب أولئك الذين تلطخت أيديهم بدمه، ورفع القرآن على أسنة الرماح حين الأشراف على الهزيمة وما شابه ذلك.

والطريف أنّهم يتشبثون أحياناً ببعض الأمور التي تثير الدهشة لدى كلّ إنسان مطلع؛ مثلاً حين قيل لجيش معاوية إنّكم أنتم «الفئه الباغيه» التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله في حديثه المعروف بشأن عمار حين خاطبه قبل ثلاثين سنة وقال له: «يـا عَمّارُ تَقتُلُكَ الفِئةُ البـاغيةِ» فردّوا على ذلك: إنّ قاتل عمار هو علي، لأنّه هو الذي أتى به ! ونحن لم نقتله[1].

ثم أشار عليه السلام إلىٰ حيلة أخرىٰ من حيلهم في النفوذ إلىٰ القلوب فقال: «يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأَسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، ويُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ[2]».

فهم نفعيون مشبوهون رأس مالهم الكفر والنفاق والضلال وزبائنهم السذج من الأفراد وثمن هذه المعاملة فقدان الدين والإيمان، على غرار بعض التجار الذين لا يهتمون للمشتري حين الشراء بغية استقطاب الآخرين لشراء بضائعهم على أساس أن: «الإنْسانُ حَريصٌ عَلى ما مُنِعَ» فيثيروا الرغبة لدى الطرف المقابل ليقبل على متاعهم الفاسد والتالف فيشتريه بأغلىٰ الأثمان.

ثم قال عليه السلام: «يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، ويَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ[3]».

نعم ! فهؤلاء دائماً ما يبدون النفاق والضلال بصيغة الحقّ ليقبله منهم النـاس

---

١. صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٨٥ وسفينة البحار، مادّة «عمر» وسائر مصادر الفريقين.

٢. «إعلاق» جمع «عِلق» على وزن «حزب» الأشياء المحببة أو الشيء النفيس.

٣. «يمّوهون» من «تمويه» بمعنى تزيين الشيء للاضلال ومزج الحق بالباطل.

الذين ينشدون الحقّ بفعل فطرتهم وطبيعتهم فيغوصوا في مستنقع من الضلال.

وقال في صفة أخرىٰ: «**قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وأَضْلَعُوا**[1] **الْمَضِيقَ**».

ونحن نجد هذا الأسلوب عند منافقي عصرنا الذين يستقطبون العديد من الناس بسهولة ويلحقونهم بهم، ثم يقطعون العديد من التعهدات والمواثيق التي يبدو من الصعوبة بمكان الخروج منها كما يقوم الاستكبار العالمي الناهب وبغية توريط الأمم والشعوب بمنحها بعض القروض وبشروط غاية في السهولة بادئ الأمر، فإذا ما وقعت في شباكهم وخدعت بألاعيبهم مارسوا معها مختلف الضغوط وبشتى الوسائل ليفرضوا عليها رغباتهم وأغراضهم في حين تكون هذه الشعوب قد غاصت في مأزق يصعب عليها الخروج منه.

وأخيراً اختتم الإمامعليه السلام خطبته بهذا التحذير قائلاً: «**فَهُمْ لُمَةُ**[2] **الشَّيْطَانِ، وحُمَةُ**[3] **النِّيْرَانِ: ﴿أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[4]».

تأمّل

النفاق والمنافقون طيلة التاريخ

لا يسع أحد تحديد الانطلاقة التاريخية للنفاق والمنافقين. فهنالك العديد من الأفراد الفاسدين والمفسدين في المجتمعات البشريّة الذين ينبرون للمواجهة حين يمتلكون القوّة والقدرة اللازمة لها؛ ولكنهم حين يتجرّعون الهزيمة، يعمدون إلىٰ إرتداء ثوب النفاق ليتحولوا إلىٰ خلايا سرية ويواصلوا من خلال ذلك العمل لتحقيق أهدافهم المشبوهة، ويبدو أنّهم يستسلمون في الظاهر ويعربون عن إخلاصهم وإلتحاقهم بالجماهير لكنهم يعتمدون سرياً مختلف الخطط والمشاريع لتحقيق

١. «أضلعوا» في الأصل من مادة «ضلع» وبسبب عوج الاضلاع فإنّ «اضلاع» يعني يجعلونها معوجة.
٢. «لمة» تعني الجماعة من النساء والرجال من ثلاثة إلىٰ العشرة وتشير هنا إلىٰ قلة عددهم وكثرة خطرهم.
٣. «حمة» تعني السم ويقال «حمة» لكل ما يلسع ، مثل حمة وحرارة الشمس.
٤. سورة المجادلة، الآية ١٩.

مآربهم وأهدافهم المُغرضة.

ولعل من أبرز خصائص المنافقين الإزدواج في الشخصية، الإزدواج في الظاهر والباطن والقول والفعل والمجالس الخاصّة والعامّة وبالتالي الإزدواج في كلّ شيء والذي شرحه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعبارات بمنتهى العمق والدقّة، فهؤلاء يزعمون أنّهم مصلحون بينما في الواقع هم مفسدون حقيقيون، ويحسبون أنفسهم أذكياء وعقلاء والآخرين حمقى وأغبياء، والحال هم الحمقى والبلهاء.

وهؤلاء شركاء اللصوص وأصحاب القوافل ورفاق الناس وعملاء الأجانب الذين يعتاشون على البلد ويعيشون التبعية للاستعمار.

وإذا ما برزت عاصفة وجدّ الجدّ وحان وقت التضحية والفداء التمسوا الذرائع الواهية وصرحوا ﴿إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ﴾[1] وانسحبوا من الميدان، وهنا بالضبط تتكشف أوجه النفاق ويماط اللثام عنها أثر بروز الأحداث والصعوبات.

وخلافاً لما يعتقده بعض السذج من أبناء العامّة من أنّ كلّ من رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع كلامه أو وقعت عيناه عليه اكتسب هالة من القدسيّة واصطلح عليه بالصحابي وأحرزت عدالته وصدقه، فإنّ هنالك العديد من المنافقين الخطرين بين معاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله والذين أشارت إليهم سورة المنافقين وكما أشارت بصورة أوضح وأعمق سورة التوبة وسورة الأحزاب وسائر السور القرآنيّة، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله موقفه الشديد منهم، ومن يتأمّل هذه السور القرآنيّة ويتمعن فيها يدرك شدّة موجة النفاق حتى في أواخر عمر النّبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّ نفوذ النّبي وقدرته والانتصارات الباهرة للمؤمنين سلبتهم زمام المبادرة.

فقد نشطوا عقب رحيل النّبي صلى الله عليه وآله وأعدوا مختلف الخطط المشبوهة وبلغ سعيهم درجة بحيث اعتلوا على عهد بني أميّة منبر رسول الله صلى الله عليه وآله بعنوان خلفاء النّبي صلى الله عليه وآله حيث شغله من اعتنق الإسلام أواخر عهد النّبي صلى الله عليه وآله وابن أعدى أعداء النبي ألا وهو

---

١. سورة الأحزاب، الآية ١٣.

معاوية «خال المؤمنين» وهذه قصة لا مجال لبحثها.

وكثيراً ما يشاهد اليوم النفاق في عالمنا المعاصر أكثر من أي وقت مضى، حيث ينشط فيها المنافقون بإعداد مختلف الخطط التآمرية وبوسائل وأدوات وإمكانات هائلة والكثير من العملاء في مختلف بقاع العالم والاستفادة من جميع الوسائل الحديثة والمتطورة والمشاريع الشيطانيّة.

كما تمارس البلدان الاستعمارية التي تتوقف حياتها على إمتصاص دماء الآخرين مختلف الجرائم والجنايات تحت غطاء بعض العناوين البراقة من قبيل حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، سيما في البلدان التي لا تتماشى مع سياستهم، حيث تتعالى أصواتهم لممارسة أدنى عنف بحقّ سجين بينما تخرس ألسنتهم حيال ما يجري في سائر السجون كسجن «أبو غريب» في العراق و«غوانتانامو» حيث ترتكب أبشع الجرائم التي قل نظيرها في التاريخ والتي دوت فضائحها في مختلف أرجاء العالم.

فهم يسعون في ظلّ هذه الحرية لسلب حرية العمل والعقيدة جميع معارضيهم ويسعون لترسيخ وتأسيس الحكومات العميلة لهم، بل لا يتورعون أحياناً من التصريح علناً بأنّ أفضل خيار لنا هي الحكومات التي ترعى مصالحنا.

وبالتالي يتحدّث هؤلاء عن الحكومات الشعبية، بينما يسعون جاهدين لإسقاط أي حكومة يقف ورائها الشعب لكنها لا تضمن مصالحهم.

ولعل إحدى طرقهم الخبيثة ما يقدمونه أحياناً كمساعدات أو قروض دون مقابل وأخرى مع مقابل وفائدة، والهدف غير المعلن بالطبع هوخلق التبعية في تلك الدول والبلدان، ذلك لأنّها إن أصبحت تابعة كان عليها أن تقبل مكرهة كلّ ما يملى عليها؛ وهذه قصة عميقة الفصول كثيرة التشعب يتطلب شرحها العديد من الكتب والمجلات وليس هنالك من سبيل للخلاص من مخالب هؤلاء المنافقين المتغطرسين والمتسلطين والمتلونين سوى وحدة الشعوب المظلومة والمقهورة

فتقوم بالدرجة الأولى بكشف النقاب عنها وكشف حقيقتها ليعرفها الجميع، ثم تهب وفق خطة مدروسة لمقاومتها، والحقّ بما أنّ المنافقين يقتصرون على تحقيق أهدافهم الماديّة فإنّهم يفتقرون إلى روح الفداء والتضحية وبالتالي فهم محكومون بالهزيمة والفشل.

৪০০৪

١٩٥

ومن خطبة له عليه السلام

يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلىٰ نَبِيِّهِ وَيَعِض[1]

نظرة إلىٰ الخطبة

يمكن تصنيف الأبحاث التي بينها الإمامعليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: حمد الله والثناء عليه مع ذكر بعض آثار الذات القدسيّة والتي تعدّ من عجائب عالم الوجود، ثم الشهادة للنبي الأكرمصلى الله عليه وآله بالرسالة والإشارة إلىٰ بعض الصفات البارزة من صفاته.

والقسم الثاني: إشارة إلىٰ الهدف من خلق الإنسان ومراقبة الله له وشرحها بعبارات غاية في الروعة والجمال.

والقسم الثالث: الوعظ بالتقوى والاستعداد لحساب الآخرة وحضور محكمة العدل الإلهيّة.

---

١. **سند الخطبة:**

هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة المحدودة التي لا مصدر لها سوى نهج البلاغة.

القسم الأوّل

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، ورَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.

وأَشْهَدُ أَنْ لَا إلٰهَ إِلَّا اللهُ، شَهَادَةَ إِيمان وإِيقَان، وإِخْلَاص وإِذْعَان. وأَشْهَدُ أَنَّ محَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ، ومَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ؛ ونَصَحَ لِلْخَلْقِ، وهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ.

الشرح والتفسير

البعثة النبوية والظروف الصعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة ـ كسائر الخطب ـ بحمد الله والثناء عليه، ولكن بعبارات جديدة وتشبيهات مربية للنفوس ومهذبة لها.

فقال: «اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ[1] الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، ورَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ[2] النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ».

حقّاً لو أمعن الإنسان النظر في عالم الخلق من الذرة حتى المنظومات السماوية والمجرات وأنواع النباتات والأزهار والثمار مروراً بالأصناف العجيبة للحيوانات

---

١. «مقل» جمع «مقلة» على وزن «غرفة» الجانب المحيط بالعين الذي يشمل السواد والبياض وقد شبه الإمام عليه السلام العقل هنا بالإنسان الذي له عين باصرة تطلع إلى الأشياء العجيبة فتندهش لها.

٢. «هماهم» جمع «همهمة» بمعنى الصوت الخفي الذي يطرق الأذن ولكن لا تدرك معناه.

والطيور والسباع وحيتان البحار ووحوش الصحارىٰ والأنواع المذهلة للحشرات والأحياء الدقيقة لتعرف كلّ يوم على عجائب جديدة وغرائب شتى فيها؛ والتي يكشف عنها كلّ يوم تطور العلم البشري ويعكس عجائب خلقتها بما يجعل الإنسان يعيش حالة من الذهول إزاء قدرة الخالق الحكيم، وهذه هي الحقيقة التي تتضح يوماً بعد آخر في أنّه أسمى من الخيال والقياس والوهم، بل أسمى من كلّ ما رأينا وقرأنا وكتبنا.

ثم اتّجه عليه السلام صوب الاقرار بالشهادتين ليبيّن كلّ واحدة منهما بعبارات جديدة فقال: «**وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ، شَهَادَةَ إِيمان وإِيقَان، وإِخْلَاص وإِذْعَان**[1]».

فهذه العبارات الأربع (إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان) تشير إلىٰ أربع مراحل من العقائد الدينيّة، فالإيمان هو المرحلة الأُولىٰ حيث يقرّ الانسان بشيء ثم يؤمن به رغم ما يثار حوله من شكوك وشبهات جزئية؛ ولكن مرحلة الإيقان هي المرحلة التي يزول فيها تلك الشبهات والشكوك ويضحىٰ فيها الإيمان القلبي شفافاً ومشرقاً.

ومرحلة الإخلاص مرحلة نفي كلّ ما سوى الله فلا يرى المؤمن سواه فيعشقه ويناجيه ويطلب منه ولا يلتفت إلىٰ أحد غيره، وأخيراً ترد مرحلة الإذعان التي تعني حسب أرباب اللغة الإقرار المقرون بالخضوع، أي يظهر إيمانه في جميع أعماله وأقواله وتصرفاته، فتصطبغ حياته بالصبغة الربّانيّة فيصبح مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾[2].

ومن الطبيعي أنّ الإيمان واليقين والإخلاص كلّما تجذر في الإنسان كانت ثمرته النهائية تلك الأعمال.

ولما فرغ عليه السلام من الشهادة لله بالوحدانيّة خاض في الشهادة بالرسالة مع ذكر بعض

---

١. «إذعان» من «ذعن» على وزن «وطن» بمعنى الخضوع والإنقياد والطاعة، ومن هنا كان في المرحلة الرابعة التي ذكرها الإمام عليه السلام في العبارة، الإيمان واليقين والإخلاص ونتيجة ذلك الطاعة والإنقياد.

٢. سورة البقرة، الآية ١٣٨.

الصفات البارزة للنبي ﷺ وأهدافه؛ فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ[١]، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ[٢]، فَصَدَعَ[٣] بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

والعبارة: «أَعْلَامُ الْهُدَى» تعني العلامات التي توضع في طريق المسافرين حتى لا يضلوا الطريق (كالإشارات الضوئيّة التي تنصبها إدارة المرور في الطرق والشوارع ليتعرف الناس على تلك الطرق) وتشير هنا إلىٰ تعاليم أئمّة الدين وإرشادات الكتب السماوية.

والعبارة: «وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ» إشارة إلىٰ قوانين السماء التي اعتراها النسيان على عهد الجاهليّة.

نعم فقد نهض رسول الله ﷺ بالأمر وحمل لواء الدعوة في ظلّ هذه الظروف وذلك الوسط الذي خيمت فيه ظلمات الكفر على كلّ مكان فقام بأربعة أمور: الأوّل أنّه بين الحقّ في المعارف الدينيّة بصورة جلية، ثم هب لابتغاء الخير للناس ودعاهم بإرشاداته ومواعظه إلىٰ ترك الذنوب والفساد والآثام وإمتثال الأوامر والطاعة لله ورسوله، وهداهم في المرحلة الثالثة إلىٰ كلّ ما فيه سموهم وتكاملهم، وأخيراً أوصاهم بالعدل والقسط والاعتدال في جميع الأمور (صلوات الله وسلامه عليه)، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلىٰ أركان الدعوة الإسلاميّة إلىٰ جانب رسمه صورة واضحة للاوضاع في عصر الجاهليّة.

---

١. «دارسة» من مادة «دراسة» تعني تكرار الشيء وبما أنّ الاستاذ يكرر المطلب حين التعلم لذلك يقال درس كما ترد هذه المفردة بمعنى التآكل والاندفاع وهذا هو المعنى المراد في الخطبة حيث إنّ الحوادث المتتالية والرياح والأمطار تؤدّي إلىٰ إندثار المباني فقد استعملت بهذا المعنى.

٢. «طامسة» من «طمس» على وزن «شمس» بمعنى محووزوال آثار الشيء، كما وردت بمعنى الازالة.

٣. «صدع» من مادة «صدع» على وزن «صبر» مطلق الشق أو شق الأجسام القوية كما وردت بمعنى الاتضاح حيث يتّضح باطن الشيء بشقّه وهذا هو المعنى الذي أريد بها في الخطبة.

القسم الثاني

واعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ، واسْتَنْجِحُوهُ، واطْلُبُوا إِلَيْهِ واسْتَمْنِحُوهُ، فما قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وفِي كُلِّ حِينٍ وأَوَانٍ، ومَعَ كُلِّ إِنْسٍ وجَانٍّ؛ لَا يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَى، وعَلَا فَدَنَا، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ ولَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَءِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

الشرح والتفسير

الموائد الإلهيّة المطلقة

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث مسائل رئيسيّة: الأُولى هدف الخليقة، ثم النعم الجمة التي تفاض على جميع العباد، وأخيراً التأكيد على المراقبة الدائمية والحضور الإلهي في كلّ مكان وعلى كلّ حال. فقال في الأمر الأوّل: «واعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً[1]».

وهذا هو اقتباس من الآية الشريفة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

1. «همل» من مادة «همل» على وزن «حمل» تعني في الأصل ترك الجمال دون راعٍ، ثم اطلقت على كلّ شخص أو عمل دون مشرف.

لَاتُرْجَعُونَ﴾[١].

ومن المفروغ منه أنّ الله عليم وحكيم لا يفعل العبث قط، رغم أنّ منافع الأفعال وفوائدها لا تعود عليه بشيء؛ لأنّه غني مطلق، ولكن بالطبع لأفعاله آثار وبركات تعود على عباده.

وبما أنّ الشرط الأوّل لبلوغ الهدف يتمثل في وجود الهادي والمرشد فقد وردت العبارة: «لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً» عقب العبارة «لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً»، لأنّ الإرسال في مثل هذه الحالات بمعنى الترك والهمل تقال في الأصل للقطيع دون راعٍ، وعلى هذا الضوء تتّضح مسؤولية الإنسان إزاء أهداف الخليقة وهداية الأولياء.

وقال عليه السلام في المسألة الثانية: «عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ».

والنعمة والإحسان تشمل جميع النعم الماديّة والمعنويّة بالإضافة إلىٰ مختلف القابليات والاستعدادات الباطنيّة، وهذا يعني أنّ الناس يتمتعون بنعمه فلا يسلكون طريق الجحود ولا يهدرون نعم الله ويجتنبون الكسل والتقاعس في الانتفاع بهذه النعم وليعلموا أنّ جميع الأسباب والوسائل متوفرة للوصول إلىٰ الهدف المنشود والكمال المطلوب.

ثم انتقل إلىٰ المسألة الثالثة فقال عليه السلام: «فَاسْتَفْتِحُوهُ[٢]، واسْتَنْجِحُوهُ[٣]، واطْلُبُوا إِلَيْهِ واسْتَمْنِحُوهُ[٤]، فَما قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ».

إشارة إلىٰ أنّ الفيض جاهز من المبدىء الفياض، وقد جاء الآن دوركم لتمدوا إلىٰ خزائن لطفه يد العوز والحاجة وتفتحوا أبواب رحمته وتسألوه التوفيق والفلاح، وأننا لنعلم بالطبع أنّ النتيجة ستكون قطعيّة وحتميّة حين تقترن قابلية

١. سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

٢. «استفتحوا» من مادة «فتح» تعني في الأصل الفتح، وعليه فالاستفتاح طلب الفتح والعون.

٣. «استنجحوا» من «نجاح» السهولة والوصول إلىٰ المطلوب.

٤. «استمنحوا» من مادة «منح» على وزن «منع» تعني في الأصل اعطاء لبن الحيوان للحيوان ثم اطلقت على مطلق البذل والعطاء، وعليه استمناح تعني التماس العطاء.

القابل بفاعلية الفاعل.

وخلافاً لما يظنه الوثنيون وعبدة الأصنام والمشركون وأتباعهم في عصرنا الراهن من أنّه لا ينبغي التوجه مباشرة إلىٰ الله ولابدّ من عبادة غيره ليفتح لهم الطريق إليه تعالىٰ، فقد صرح الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من مانع ولا رادع في الطريق ولكلّ العباد طرق بابه وإن استعانوا أحياناً بوجاهة الشفعاء فهذا تأكيد آخر على الاتصال المباشر بالذات القدسيّة وإمتثال أوامره.

ثم خاض في توضيح هذا الكلام من خلال الإشارة إلىٰ ثلاث نقاط أخرىٰ ليوضح من خلالها الفارق بين عطاء الله وبذل الآخرين فقال: «وإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَان، وفِي كُلِّ حِين وأَوَان، ومَعَ كُلِّ إِنْس وجَانّ؛ لَا يَثْلِمُهُ[1] الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ[2]، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ».

حيث إنّ الله الرحيم حاضر في كلّ مكان وتمد إلىٰ ساحة كبريائه أعناق وأيدي جميع المحتاجين، بل هو مع كلّ شخص أينما كان، ومن جانب آخر فإنّه ليس لعطائه من حدود، وهو دائم لا ينضب ولا ينفد ولا يخشى عليه التقتير على الآخرين إن منح البعض الآخر، لأنّه وجود لامتناهٍ من جميع الجهات ومن هنا فإنّ جوده وكرمه لا متناهٍ ونعمته وعطاءه لامتناهيان أيضاً، بل كما ورد في دعاء الافتتاح: «ولا تَزيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطاءِ إِلَّا جُوداً وكَرَماً»، إشارة إلىٰ أنّه كلّما أفاض أكثر كلّما ازداد أمل الناس بجوده وكرمه.

ثم خاض في المسألة الثالثة: «وَلَا يَلْوِيهِ[3] شَخْصٌ عَنْ شَخْص، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْت، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْب، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَة، وَلَا تُولِهُهُ[4]

---

١. «يثلم» من مادة «ثلم» على وزن «صبر» و«ثلمة» على وزن «ضربة» تعني في الأصل كسر جانب الشيء، ثم أطلق على كلّ ما يسبب كسراً لشخص أو شيء.

٢. «حباء» من مادة «حبو» على وزن «ختم» تعني في الأصل العطاء دون مكافأة وهذا هو المعنى المراد.

٣. «يلوى» من مادة «لي» على وزن «حي» بمعنى الاعراض والانحراف والميل.

٤. «توله» من «وله» على وزن «فرح» بمعنى الذهول من شدّة الهم والغم ولذلك يقال الواله للعاشق المغموم.

رَحْمَةٌ عَنْ عِقَاب، وَلَا يُجِنُّهُ[١] الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ».

فهذه العبارات السبع تشجيع من جانب للعباد في أن يسألوه كلّ ما يريدون، ويعلموا أنّه لو تزامنت مع طلبات طلبات الخليقة كافّة فإنّه عليم بكلّ هذه الطلبات خبير بها، الأمر الذي لا يدركه اطلاقاً سوى الله تبارك وتعالى وكل ما سواه قد يشغله سؤال شخص عن الإلتفات إلىٰ سؤال آخر.

ومن جانب آخر تحذير لجميع العباد في مراقبة حضور الله تبارك وتعالى في جميع الأحوال وليدركوا كما أنّ نعمه وعطاياه لامتناهيّة وأنّه لا يخيب أحداً في سؤاله وطلبه وأنّ رحمته سبقت ومنعت غضبه وأنّ نعمه لا تحول دون مؤاخذة الظلمة والطغاة وأنّه عالم بكلّ ما يفعلونه في خلوتهم وعلانيتهم، والحقّ ليس هنالك من معنى للغيب والشهادة والبعيد والقريب على الذات القدسيّة ولا تجري هذه الأمور سوى على مخلوقاته المحدودة التي تشعر بالقرب والبعد والخفاء والعلانيّة.

ثم شرح وأكّد ما ذكره في العبارات السابقة بسبع عبارات أخرىٰ تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى فقال: «قَرُبَ فَنَأَى، وعَلاَ فَدَنَا، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فَعَلَنَ، ودَانَ[٢] وَلَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَءِ[٣] الْخَلْقَ بِاحْتِيَال، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَال[٤]».

والواقع أنّ جميع هذه الصفات السبع تستند إلىٰ حقيقة واحدة وهي: أنّه وجود لامتناهٍ من جميع الجهات، ولذلك فهو حاضر في كلّ مكان وفي نفس الوقت فإنّ كنه هذه الذات اللامتناهية خارج عن متناول الأفكار، والظاهر والباطن والقريب والبعيد لديه على حد سواء، واستناداً إلىٰ علمه اللامتناهي فهوغني عن الحاجة

---

١. «يجن» من مادة «جنّ» على وزن «فنّ» أي يستره ولذا يقال لمن ستر عقله مجنون وكذلك يقال لطائفة الجن بسبب سترهم؛ ويقال كذلك للجنين في رحم أمّه، ويقال «جنّة» للبساتين التي سترت أرضها بالأشجار والنباتات.

٢. «دان» من مادة «دين» على وزن «غير» تعني أحياناً القرض وأحياناً الجزاء والحساب وهو المعنى المطلوب.

٣. «لم يذرأ» من «ذرأ» على وزن زرع؛ بمعنى الخلق.

٤. «كلال» له معنى المصدر واسم المصدر ويعني التعب.

للتفكير حين الخلق ولهذا السبب فليس للتعب والكلل والملل من سبيل إلىٰ ذاته القدسيّة، لأنّ هذه صفات المخلوقات ذات القدرة المحدودة، فيشعرون بالتعب حين تنفد طاقتهم وقدرتهم والحقّ أنّ الإمام عليه السلام قد اعتمد منتهى الفصاحة والبلاغة في هذه الخطبة ليصور حقيقة واحدة بأوجه مختلفة وبعبارات متنوعة غاية في الجمال والروعة.

القسم الثالث

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ والْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، واعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ وأَوْطَانِ السَّعَةِ، ومَعَاقِلِ الْحِرْزِ ومَنَازِلِ الْعِزِّ، (يَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)، وتُظْلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ، وتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ. ويُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَة، وتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَة، وتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً، ومَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ.

الشرح والتفسير

أهوال القيامة

أوصى الإمامعليه السلام الجميع هنا بالورع والتقوى وعدد آثار التقوى المهمّة فقال: «أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّها الزِّمامُ والْقِوَامُ».

والتعبير «بزمام» إشارة إلىٰ قوّة التقوى المانعة والتي تحول دون الإنسان وإرتكاب المعصية وتصده عن السقوط في مستنقع الفساد والذنب والانحدار في فخ الشيطان وهوى النفس، و«قِوَام» إشارة إلىٰ أسس الحياة الطيبة والمقرونة بالسعادة، وبعبارة أخرىٰ: أنّ للتقوى بعد الحيلولة من جانب والبناء من جانب آخر، فإنّ امتزج الجانبان كملت سعادة الإنسان ونجاته، وبكلمة موجزة فإنّ سعادة الإنسان تتكامل مادياً ومعنوياً بوجود التقوى.

واعتبر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ «الزِّمامُ والْقِوَامُ» يتعلقان بالعبادات، والحال أنّ العبارة من قبيل حذف المتعلق الذي يهب المفهوم شمولية، والآيات القرآنيّة

شاهد على ذلك أنّ التقوى سبب النجاة في الآخرة ومصدر البركة في الحياة الماديّة الدنيويّة حيث صرح تعالىٰ من جانبٍ: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[1].

ومن جانب آخر: ﴿وَلَو أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2].

ثم قال في مواصلة كلامه كتوضيح وتأكيد: «فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِها[3]، واعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا[4]، تَؤُلْ[5] بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ[6] الدَّعَةِ[7] وأَوْطَانِ السَّعَةِ، ومَعَاقِلِ[8] الْحِرْزِ ومَنَازِلِ الْعِزِّ».

والتعبير «بوثائق» جمع وثيقة بمعنى العروة المحكمة إشارة إلىٰ الأبعاد الظاهريّة للتقوى، والتعبير «بالحقائق» جمع حقيقة إشارة إلىٰ جوانبها الواقعيّة.

والعبارات الأربع التي ذكرت في العبارة المذكورة كنتيجة (وجزاء الشرط مقدر) تشير إلىٰ أنّ التمسك بالتقوى سبب الهدوء والسكينة وكذلك الفتح والحفظ من الأخطار والتمتع بالعزة والكرامة.

نعم ! حين تسود التقوى في المجتمع بصفتها شعور بالمسؤوليّة الربّانيّة فإنّه قلّ من يتجاوز على حقوق الآخرين ويمارس الظلم والجور ونتيجة ذلك الاستقرار والسكينة، وإن سادت التقوى بصفتها وظيفة فإنّ المجتمع يأخذ بالرقي والاتساع

---

١. سورة مريم، الآية ٦٣.

٢. سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٣. «وثائق» جمع «وثيقة» ما يعتمد عليه.

٤. «حقائق» جمع حقيقة، معناه معروف، ولكن أخذه بعض شرّاح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) بمعنى الراية الذي لم يعثر عليه في أي قاموس لغوي.

٥. «تؤل» التي كانت في الأصل «تؤول» وجزمت لأنّها وقعت جزاء لشرط مقدر، فأصبحت تؤلْ) من مادة «أول» على وزن «قول» بمعنى العودة، وعلى هذا الأساس فإنّ العبارة «تؤل بكم» تعني أنّها تعيدكم.

٦. «أكنان» جمع «كنّ» على وزن «جنّ» بمعنى الستر والحاجز.

٧. «دعة» بمعنى الاستراحة والهدوء.

٨. «معاقل» جمع «معقل» على وزن «مسجد» بمعنى الملجأ والحصن ويقال أحياناً للجبال العالية التي تحمي الناس من الفيضانات وغيرها.

شيئاً فشيئاً، وإن برزت التقوى بصفتها سداً منيعاً أمام العدو فإنّ المجتمع سيصان من شره ومجموع هذه الأمور هي أساس العزّة والرفعة والسمّو.

ثم قال عليه السلام: إنّ هذه الآثار الأربعة إنّما تتحقق بصورة كاملة في الآخرة؛ ليس بمعنى إنعدام هذه الآثار في الحياة الدنيا بل المعنى: أنّ الهدف الأصلي والنهائي هناك: «﴿يَوْم تَشْخَصُ[1] فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ وتُظْلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ، وتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ[2] الْعِشَارِ[3]».

فهذه الصفات الثلاث تتعلق بالصيحة الأُولىٰ وزلزلة نهاية العالم، لأنّها على درجة من الرعب والهول وإثارة الدهشة بحيث تنسي الإنسان كلّ شيء سوى نفسه، كما رسم هذه الصورة القرآن الكريم فقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[4].

ثم تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه ليشرح جوانب أخرىٰ من بداية القيامة والتي تهزّ القلوب وتذهل الأفكار فقال: «ويُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَزْهَقُ[5] كُلُّ مُهْجَة[6]، وتَبْكَمُ[7] كُلُّ لَهْجَة، وتَذِلُّ الشُّمُّ[8] الشَّوَامِخُ[9]، وَالصُّمُّ[10] الرَّوَاسِخُ[11]، فَيَصِيرُ

١. «تشخص» من مادة «شخوص» بمعنى تركيز العين على نقطة معينة وإمتناعها عن الحركة، وهذه العبارة في الغالب كناية عن الرعب والخوف.

٢. «صروم» جمع «صرم» على وزن «فعل» وهو القاطع من الناقة وقيل فيما بعد لمجموعة الناس أو غيرهم أيضاً.

٣. «عشار» جمع «عشراء» على وزن «وكلا» وهي الناقة مضى لحملها عشرة أشهر وهي نفيسة من حيثها وابنها الكامل في بطنها وهذه المفردة كناية عن الشيء الغالي والنفيس.

٤. سورة الحج، الآية ٢.

٥. «تزهق» من «زهوق» على وزن «غروب» بمعنى الهلاك.

٦. «مهجة» تعني في الأصل الدم الموجود في القلب والذي ترتبط بحياة الإنسان، ثم اطلقت هذه المفردة على القلب.

٧. «تبكم» من «بكم» على وزن «قلم» بمعنى الخرس وعدم تحرك اللسان و«بكم» على وزن «قفل» جمع «أبكم» تعني الفرد الأصم والأبكم.

٨. «شمّ» جمع «أشمّ» أي الرفيع.

٩. «شوامخ» جمع «شامخ» بمعنى العالي. وعلى هذا الأساس «الشمّ الشوامخ» على سبيل التأكيد على علو الجبال.

١٠. «صمّ» جمع «أصم» تأتي بمعنى الأصم وكذلك الصخور الثقيلة وهو المراد في العبارة.

١١. «رواسخ» جمع «راسخ» بمعنى الثابت والصلد.

صَلْدُهَا[١] سَرَاباً رَقْرَقاً[٢]، ومَعْهَدُهَا[٣] قَاعاً[٤] سَمْلَقاً[٥]».

والذي يستفاد من الآيات القرآنيّة أنّ تغيرين شديدين وعظيمين يحدثان في نهاية العالم وعلى أعتاب القيامة والتي عبّر عنها بالنفخ في الصور، ذلك لأنّهم في الماضي كانوا يعمدون إلىٰ النفخ في بوق الحركة أو بوق الحرب وبعدة أصوات مختلفة لتبلغ مسامع الآخرين حين يراد تحريك الجيش أو إعلان الحرب أو إيقاظه من النوم، وعليه فالنفخ في الصور هذا يعني بداية تغيير عظيم.

كما يستفاد من الآيات القرآنيّة حدوث زلزلة عظيمة تتزامن مع النفخة الأُولىٰ وبموجبها تذهل الكائنات الحيّة كافّة من شدّتها وهذه نفخة الموت، وإلى ذلك أشارت الآية الشريفة: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا...﴾[٦]. وكذلك الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّموات وَمَنْ فِي الأَرْضِ...﴾[٧].

وفي النفخة الثانية أي إعادة الحياة يحدث تغيير آخر يظهر فيه عالم جديد على إنقاض العالم السابق فينطلق الأموات من القبور للحساب، وقد وردت الإشارة في سورة الزلزلة إلىٰ النفخة الثانية: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾. كما ورد في الآية ٦٨ من سورة الزمر إشارة لذلك: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾. وما ذكره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إشارة إلىٰ النفخة الأُولىٰ التي تؤدّي إلىٰ خراب

---

١. «صلد» يقال للصخر الصلب الأملس الذي لا يثبت عليه شي، وتأتي أيضاً بمعنى الصعب البخيل أيضاً والمراد هنا هو المعنى الأوّل.

٢. «رقرق» بمعنى الدمع الذي يحيط بالعين ويلمع ولا يخرج منها، ثم أطلق على كلّ قليل وخفيف وكذلك تعني اللمعان والبريق.

٣. «معهد» المكان الذي يرجع إليه وتطلق هذه المفردة اليوم على المدارس. و«معهدها» تعني محل الجبال.

٤. «قاع» تعني الأرض المستوية.

٥. «سملق» الأرض المستوية التي لا يوجد فيها مكان أعلى من الآخر.

٦. سورة الحج، الآيتان ١ و٢.

٧. سورة الزمر، الآية ٦٨.

العالم ونسف الجبال ومحو آثارها وذهول الإنسان وبالتالي موته.

وما ورد في ذيل هذه الخطبة إشارة للأحداث التي تعقب النفخة الثانية حيث قال: «فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ». وهذا الكلام اقتباس من الآية القرآنيّة الشريفة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]. والآية: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[2].

ومن الطبيعي أنّ عدم قبول المعذرة كما يفهم من الآيات المذكورة يختص بأولئك الذين حطموا الجسور الموصلة للشفاعة بأعمالهم وأفعالهم؛ وإلّا فإنّ أولئك الذين أبقوا السبل الموصلة إليها فسيشملون بتلك الشفاعة، قال تعالى في القرآن الكريم بهذا الخصوص: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[3].

---

١. سورة غافر، الآية ١٨.

٢. سورة الروم، الآية ٥٧.

٣. سورة الأنبياء، الآية ٢٨.

١٩٦

ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلىٰ الخطبة[1]

يفيد ترتيب هذه الخطبة أنّها جزء من خطبة مفصلة وقد اختار المرحوم السيد الرضي هذا القسم حسب منهجه في الاقتطاف، وقد اقتطع هذا القسم من سائر الأقسام وذكره بصورة مستقلة. على كلّ حال تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام:

تضمن القسم الأوّل إشارات قصيرة وعميقة المعنى إلىٰ بعثة النّبيﷺ وبالنتيجة فضله العظيم على البشريّة برمتها سيما المجتمع العربي.

وحذر في القسم الثاني من الخداع والاغترار بزخارف الدنيا بعد الوصية بالورع والتقوى، ثم أوضح تفاهة الدنيا بعبارات غاية في الروعة والمعنى وبتشبيهات رائعة.

وكشف في القسم الثالث عن سبيل النجاة وأكّد على ضرورة المبادرة إلىٰ استغلال الفرص ما دامت سانحة قبل فوات الأوان وحلول الموت.

---

١. سند الخطبة:

روى الآمدي بعضها (في غرر الحكم في حرف الالف) كما روى بعض ممّا في الخطبة ١٩٢ مع جوانب من هذه الخطبة والخطبة ١٩١ وهذا يدل على أنّ الخطبتين خطبة واحدة (وأنّ الآمدي أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٧٤).

القسم الأوّل

بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَاللهِ، بِتَقْوَى اللهِ، وأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوص، ومَحَلَّةُ تَنْغِيص، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، ومِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَك، ومَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَك!

الشرح والتفسير

أهوال الدنيا

قال الإمامعليه السلام في المقطع الأوّل من هذه الخطبة حيث أراد كشف النقاب عن العصر الذي انطلقت فيه الدعوة النبويّة والمراد به العصر الجاهلي ومن خلال ثلاث عبارات قصيرة: «بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ[1]، وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ».

فالطرق الصحراويّة والجبليّة لم تكن واضحة في الأزمنة السابقة كما هي عليه اليوم، طبعاً الطرق الرئيسيّة كانت معروفة بفعل كثرة التردد عليها والعبور والمرور، غير أنّ الطرق الفرعيّة لم تكن كذلك، وبغية إرشاد المسافرين كي لا يضلوا الطرق كانوا ينصبون في النهار بعض العلامات بصيغة أعمدة وما شابه ذلك في أغلب الطريق منذ بدايتها حتى نهايتها والتي يصطلح عليها بـ«العلم» وكانوا يشعلون السراج على سطوحها والتي يصطلح عليها بـ«المنار»، وعليه لولا أعلام النهار

---

١. «سطوع» بمعنى الصعود والاتساع والنور الساطع الذي يضيء ما حوله.

وأسرجة الليل ووضوح الطرق الرئيسيّة لتزايد احتمال ضلال سالكي الطريق.

فقد شبه الإمامعليه السلام حياة الناس في الجاهليّة بالطرق العشوائيّة التي لم تنصب عليها أية علامة وسراج يضيىء الدرب، وليس لذلك من نتيجة سوى الضلال المبين للناس والذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١]. ثم واصلعليه السلام كلامه فخاطب الجميع قائلاً: «أُوصِيكُمْ، عِبَادَاللهِ، بِتَقْوَى اللهِ، وأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوص،[٢] ومَحَلَّةُ تَنْغِيص، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وقَاطِنُهَا بَائِنٌ».

وتشير هذه العبارات الأربع جميعاً إلىٰ تقلب أحوال الدنيا وعدم استقرارها، مع إقترانها بالألم والمعاناة، والعجيب مع إتضاح دلالات تقلبها وتصرم أحوالها وكثرة خطوبها ومحنها في جميع مواضعها إلّا أنّ هنالك طائفة من الناس تراها خالدة من الناحية العمليّة وتسعى إليها بكلّ ما أوتيت من قوّة.

وعلى هذا الأساس تطرق الإمامعليه السلام إلىٰ بيان مثال بليغ ومثير بشأن هذه الدنيا الغرور بحيث لا يمكن الإتيان بصورة أفضل منه فقال: «تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا[٣] الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ[٤] الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ[٥]، ومِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ[٦] الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَما غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَك، ومَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَك!».

وتشبيه الدنيا بالبحر وسكنتها بركاب السفينة وإبان العواصف الشديدة التي لا تفضي سوى إلىٰ الغرق قد ورد قبيل هذه الخطبة للإمامعليه السلام في مواعظ لقمان الحكيم، فقد ورد عن الإمام الكاظمعليه السلام في ما روي عن لقمان الحكيم أنّه وعظ ابنه

١. سورة الجمعة، الآية ٢.

٢. «شخوص» بمعنى الظهور والطلوع أو الانتقال من محل إلىٰ آخر وهذا هو المعنى المراد بهذه العبارة.

٣. «تقصفها» من مادة «قصف» على وزن «حذف» بمعنى الكسر.

٤. «لجج» جمع «لجّه» البحر العميق.

٥. «وبق» من مادة «وبق» على وزن «فقر» بمعنى الهالك صيغة «وبق» على وزن «خشن» له معنى الصفة.

٦. «تحفزه» من مادة «حفز» على وزن «لفظ» بمعنى الدفع قدماً والطرد.

قائلاً: «يا بُنَيَّ إنَّ الدُّنيا بَحْرٌ عَميقٌ قَدْ غَرِقَ فيها عالَمٌ كَثيرٌ فَلْتَكُنْ سَفينَتُكَ فيها تَقْوَى اللهِ وحَشْوُهَا الإيمانُ وشَراعُهَا التَّوَكُّلُ وقَيِّمُهَا الْعَقْلُ ودَليلُهَا الْعِلْمُ وسُكّانُهَا[1] الصَّبْرُ»[2].

وقد أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لهذه الخطبة إلىٰ سبيل النجاة من هذا البحر المرعب.

على كلّ حال فما بيّنه الإمام عليه السلام في هذا التشبيه البليغ والرائع هو أنّه رسم صورة لأهل الدنيا كيف يتبدل أمنهم إلىٰ خوف وصحتهم إلىٰ مرض وغناهم إلىٰ فقر وتجمعهم إلىٰ فرقة حين يتعرضون لمختلف أنواع المصائب والمحن والخطوب، وكيف تقضي عليهم هذه الدنيا من خلال أحداثها وعلى هذا الأساس يبدو من العجيب كيف يتعلق الناس بها ويطمأنون إليها.

٨٠٣

---

١. «سكّان» ما يشبه مقود المركبة الذي يقود السفينة إلىٰ اليمين واليسار.

٢. الكافي، ج ١، ص ١٦.

القسم الثاني

عِبَادَ اللهِ، الأنَ فَاعْلَمُوا، والأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، والأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، والأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ، والْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، والْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ، وحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

الشرح والتفسير

اغتنام الفرصة

كشف الإمام عليه السلام بوضوح في شرحه لهذا الجانب من الخطبة ـ كما أشرنا سابقاً ـ النقاب عن سبيل النجاة من تلك المحن الخطيرة التي أشار إليها في القسم السابق، حيث تبدو النجاة من الخطوب الخطيرة لهذه الدنيا المزخرفة والغرور حتمية إذا ما طبقت هذه الوصايا والتعاليم فقال: «عِبَادَ اللهِ، الأنَ فَاعْلَمُوا، والأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، والأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، والأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ[1]، والْمُنْقَلَبُ[2] فَسِيحٌ[3]، والْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ[4] الْفَوْتِ، وحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ».

فقد حذّر الإمام عليه السلام في هذه العبارات العميقة المعنى الجميع، ولاسيما الشباب والكهول من ضرورة اغتنام الفرصة والمبادرة إلىٰ العمل كونه أفضل وسيلة للنجاة قبل فوات الأوان وحلول عهد الشيخوخة والعجز حيث تتباطئ فيه الألسن ويضعف

---

١. «لَدْنَة» من مادة «لدانة» على وزن «شبانة» يعني اللين قبل حلول الشيخوخة والذبول وقلّة الحركة.

٢. «منقلب» محل الرجوع وهو إشارة هنا إلىٰ ميدان العمل.

٣. «فسيح» من مادة «فسح» على وزن «مسح» بمعنى الواسع.

٤. «ارهاق» من «رهق» على وزن «شفق» بمعنى الضغط على شخص، كما وردت بمعنى الإقتراب، وعليه «ارهاق الفوت» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ الضغط من حيث الموت أو إقترابه.

فيه البدن ويمرض وتذبل الأعضاء ويضيق الميدان وتسلب الفرصة، نعم لابدّ من المبادرة للعمل الصالح قبل حلول هذه العقبات.

كما أكّد على عدم الظن ببعد الأجل مهما كان عمر الإنسان، فلا ينبغي الغفلة حتى لمن كان في سني الشباب والفتوة والشعور بالقوّة والنشاط والصحة والسلامة، والإبتعاد عن الغرور بحيث لو قيل له: كفاك ذنباً ومعصية فعد إلىٰ الله وتب إليه، قال مازالت الفرصة سانحة، وسيأتي يوماً وقت التوبة والعمل الصالح فيما بعد، فهل هنالك من يعلم ماذا سيحصل غداً، وهل هناك من يضمن ماذا سيحل بعد ساعة، ومن منّا سيبقى حياً ومن منّا سيموت ؟ وقد ورد مثل هذا المعنى في مستهل الخطبة ٢٣٧ حيث قال عليه السلام : «فَاعْلَمُوا وأَنْتُمْ في نَفَسِ الْبَقاءِ والصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ والتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

جدير ذكره أنّ أغلب نسخ نهج البلاغة ذكرت في مستهل هذه الخطبة العبارة «الآنَ فَاعْلَمُوا» بدلاً من (فاعلموا) وتشهد القرائن، على صحة هذه النسخة، أضف إلىٰ ذلك فإنّ انسجام المطالب وتناسب المواعظ تفيد ضرورة العمل، والخطبة ٢٣٧ شاهد على ذلك.

ﮧﮨ

١٩٧

ومن كلام له عليه السلام

يُنَبِّهُ فيهِ عَلى فَضيلَتِهِ لِقَبُولِ قَوْلِهِ وأَمْرِهِ ونَهْيِهِ[١]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأوّل إلىٰ طاعته الخالصة ودفاعه المطلق عن النّبي واستدل على ذلك بعلم صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشهادتهم.

وتطرق في القسم الثاني إلىٰ الأحداث المهمّة منذ احتضار النّبي ووفاته حتى غسله ودفنه والصلاة عليه والتي تفيد أنّه عليه السلام أقرب من غيره للنبي صلى الله عليه وآله.

وخلص في القسم الثالث إلىٰ نتيجة واضحة تتمثل في وجوب طاعته من قبل الجميع بدليل كلّ سوابقه وفضائله ومناقبه، ثم دعا مخاطبيه لمواكبته في حفظ بيضة الدين وإرث النّبي صلى الله عليه وآله وإمتثال أوامره في جهاد العدو (معاوية وجند الشام) وأن لا يشعروا بأدنى شكّ في أنّهم على الحقّ وأنّ أعداءهم على الباطل.

---

١. سند الخطبة:

رواها المرحوم الشيخ المفيد قبل السيد الرضي مع اختلاف طفيف في كتاب المجالس، كما ذكر أغلبها الآمدي في غرر الحكم في حرف الواو. وفي رواية الآمدي إضافات تفيد أنّه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٧٥ و ٧٦).

القسم الأوّل

ولَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. ولَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ، وتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا.

الشرح والتفسير

طاعتي المطلقة

استهل الإمامعليه السلام هذه الخطبة بالإشارة إلىٰ أمرين مهمين؛ الأوّل أنّه كان دائماً وفي جميع المواطن مطيعاً مطلقاً لله ولرسوله، بينما كان هنالك بعض الأفراد من هذه الأُمّة وبعض الصحابة ممن ينبري بين حين وآخر للرد على النّبي الأكرمصلى الله عليه وآله فقال: «ولَقَدْ[1] عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ».

«مستحفظون»: (بفتح الفاء صيغه اسم مفعول) إشارة إلىٰ تلك الطائفة التي استودعها رسول الله أمانة سرّه والتاريخ الإسلامي الصحيح، وهذا يدلّ على وجود

---

١. ورد في هذه الخطبة الكلمة «ولقد» خمس مرات حيث تؤكّد كل واحدة منها موضوعاً معيناً، ويرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الواو هنا هي واو القسم، بينما ذهب بعض اساتذة العربية إلىٰ أنّ الواو استئنافية واللام جواب القسم، ويعتقدون أنّ القسم محذوف تقديره «وأقسم بالله لقد...». وجاء في كتاب مغنى اللبيب المشهور أنّ اللام في هذه الموارد هي لام القسم؛ لكن قال أبوحيان: إنّ اللام في الآية (ولقد علمتم...) لام الابتداء للتأكيد، وربّما سبقت بقسم محذوف، (مغني اللبيب، حرف «لام») ويحتمل أن لا يكون قسم في العبارة، بل «لام» و«قد» كلاهما للتأكيد، ولذلك لم يذكر أغلب المترجمين معنى القسم هنا في الترجمة.

ثلّة من صحبه الذين حفظت سره بدقّة بعيدة عن أي غرض وسوء نيّة، فهم حفظة الأسرار الإسلاميّة والحوادث التاريخيّة والذين كان يعرفهم الناس بالإخلاص والأمانة.

في مقابل تلك الزمرة على عهد معاوية التي باعت دينها بالدنيا ووضعت الأحاديث والروايات وانبرت للقضاء على فضائل علي عليه السلام ونسبت النقص والكذب له عليه السلام لتعمر دنياها بهذه المعاصي.

وهذه العبارة تمثّل في الوقت ذاته إشارة إلىٰ أولئك الذين تنطلق ألسنتهم أحياناً بالردّ والإعتراض على رسول الله صلى الله عليه وآله، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[1].

وإشارة إلىٰ بعض الأفراد المعروفين مثل عمر والذي ورد بشأنه في روايات العامّة أنّه اعترض يوم الحديبية ـ طبق نقل المصنّف عبدالرزّاق الصنعاني، العالم المعروف لدى العامّة على النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال له: ألست رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وآله: بلى. قال عمر: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ قال صلى الله عليه وآله: بلى. فقال عمر: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا (ونمضي صلحاً مع العدو أشبه بالاستسلام ؟) فردّ عليه النّبي صلى الله عليه وآله بأنّه رسول الله ويتبع أمر الله وأنّه سينصره، فواصل عمر إعتراضه وقال: أو لم تقل إننا سنحج البيت ؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم سنحج البيت ولم أقل سنحجه هذا العام[2].

ويفهم من الرواية أنّه لم يكن الخليفة الثاني فقط من يعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله بل كانت معه طائفة ممن تعترض أيضاً.

إلّا أننا لا نلمس في أي من صفحات التاريخ أنّ علياً عليه السلام اعترض على فعل من

---

١. سورة التوبة، الآية ٥٨.

٢. انظر: المصنّف عبدالرزاق الصنعاني، ج ٥، ص ٣٣٩. وكذلك نقل هذا الحديث السيوطي في الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٧٧ ذيل الآية ٢٦ سورة الفتح، والطبري في تاريخه المعروف في ج ٢، ص ٢٨٠ حوادث سنة ٦ للهجرة.

أفعال النّبي ﷺ بل كان يتبعه في الأمور كافّة ويمتثل لأوامره دون نقاش.

ثم واصل عليه السلام كلامه مشيراً إلىٰ تضحياته في سبيل الإسلام والنّبي ﷺ فقال: «ولَقَدْ وَاسَيْتُهُ[1] بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ[2] فِيهَا الأَبْطَالُ، وتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا».

هذه العبارات القصيرة إشارة إلىٰ تضحياته عليه السلام في الغزوات الإسلاميّة كأحد وخيبر والأحزاب وحنين.

وإننا لنعلم حسب تصريح المؤرخين بشأن معركة أُحد أنّ خصوم الدعوة لما بثّوا شائعة قتل النّبي ﷺ في المعركة وقتل العديد من المسلمين انفرج سائر المسلمين عن المعركة ولم يبقَ حول النبي سوى علي عليه السلام الذي دافع بكلّ صبر وثبات[3].

كما نعلم أنّ أحداً لم ينبر في يوم الأحزاب لـ «عمرو بن عبدود» ويبارزه سوى أميرالمؤمنين علي عليه السلام حين تخلف جميع المسلمين[4].

وفي معركة خيبر كان رسول الله ﷺ يسلم الراية كلّ يوم لمن يزعم القتال لكنهم لم يحققوا شيئاً حتى كان آخر يوم فسلم الراية لعلي عليه السلام ففتح حصون خيبر الواحدة تلو الأخرى[5].

ولقد فرّ أغلب المسلمين يوم حنين حين تعرضوا لهجوم العدو المباغت لما شعروا بالخوف والرعب وكان على رأس مَن ثبت وصمد في الدفاع عن النّبي ﷺ هو علي عليه السلام[6].

---

١. «واسيت» و«آسيت» كلاهما من مادة واحدة ولهما معنى واحد؛ كلاهما من «أسى» على وزن «سعى» بمعنى الاشراك في الشيء و«مواساة» بمعنى إشراك الآخرين في المال والإمكانات الدنيوية.

٢. «تنكص» من مادة «نكص» على وزن «عكس» يعني العودة إلىٰ الوراء وتطلق على انسحاب الجيش من المعركة و«نجدة» بمعنى الشجاعة والصمود مقابل العدو.

٣. انظر: تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٩ (حوادث السنة الثالثة).

٤. المصدر السابق، ص ٢٣٩ (حوادث السنة الخامسة).

٥. المصدر السابق، ص ٣٠٠ (حوادث السنة السابعة).

٦. المصدر السابق، ص ٣٤٧ (حوادث السنة الثامنة).

وبالطبع فإنّ تضحيات علي عليه السلام لا تقتصر على ميادين القتال، بل اقتحم عليه السلام سائر الميادين بكلّ شجاعة سيما تلك التي يتخاذل فيها الأبطال، فقد بات عليه السلام على فراش رسول الله حين همَّ الكفّار والمشركون بالقضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله ففداه بنفسه.

෴

القسم الثاني

ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. ولَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ. مَلأٌ يَهْبِطُ، ومَلأٌ يَعْرُجُ، ومَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا ومَيِّتاً؟ فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لَا إِلهَ إِلَّا هُوَإِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ!

الشرح والتفسير

أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان رابطته الحميمة والقائمة على أساس الإخلاص والطاعة مع النّبي صلى الله عليه وآله في حياته ذكر علاقته به بعد وفاته والتي تفيد أنّه لم يكن لأحد من المسلمين غيره مثل هذه العلاقة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي».

والعبارة: «إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي» يمكن أن تشير إلىٰ أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام رفع رأس النّبي صلى الله عليه وآله وضمه إلىٰ صدره في تلك اللحظة والتي كانت سكينة للنّبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام بالإضافة إلىٰ أنّ هذه الوضعية تسهل من التقاط الأنفاس، كما يحتمل أن

يكون رأس النبي كان في حجر الإمامعليه السلام وقد انحنى فمسّ صدرهعليه السلام رأس النّبيصلى الله عليه وآله ، إلّا أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع قوله «عَلَى صَدْرِي». وقد اختلف الشرّاح في المراد من النفس في العبارة «سَالَتْ نَفْسُهُ» حيث دارت أقوالهم حول محورين:

الأوّل: أنّ المراد من النفس الدم الذي ورد في أغلب عبارات الفقهاء والأدباء والتي أشارت إلىٰ هذا المعنى، ومن ذلك «النفس السائلة» في الكتب الفقهية كما ورد مثل هذا الاستعمال في الأشعار العربية حيث قيل: ثم سيلان نفسه في كفّه، وإمرارها على وجهه، وأراد بنفسه دمه يقال: إنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قاء وقت موته دماً يسير، وأنّ عليّاًعليه السلام مسح بذلك الدمه وجهه[1].

والتفسير الآخر هو أنّ النفس تلك الروح البشريّة القدسيّة التي وردت الإشارة إليها كراراً في القرآن الكريم ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2]. وعليه فمفهوم العبارة أنّ روح النّبي الطاهرة فاضت على يد علي حين فارقت بدنه الطاهر فمسح بها وجهه[3].

إلّا أنّ العبارة التي بقيت مبهمة على أغلب الشرّاح والمترجمين هي قولهعليه السلام: «أَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي» فقالوا: وهل الروح شيء يمكن مسح الوجه بها؟!

ولحل هذا الإشكال يمكن أن يقال إنّ «الكفّ» مؤنثة لأنّ الأعضاء الثنائية في البدن مؤنثة بينما الأعضاء المفردة مذكرة، قال الشاعر العربي: «وكَفٍّ خَضيب زُيِّنَتْ بِبَناني»، وعليه فمعنى العبارة أنّ كفّي لامست الروح القدسيّة للنّبيصلى الله عليه وآله ثم مسحت وجهي بتلك الكفّ للبركة، وهكذا يحلّ إشكال تفسير العبارة المذكورة.

ثم خاضعليه السلام في سائر مراسم وفاة النّبيصلى الله عليه وآله كالغسل والدفن فقال: «ولَقَدْ وُلِّيتُ

---

١. انظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم وابن أبي الحديد؛ وفي ظلال القرآن للشيخ محمّد جواد مغنية، (ذيل الخطبة).

٢. سورة زمر، الآية ٤٢.

٣. منهاج البراعة، للمحقّق الخوئي ونهج الصباغة للمحقق التستري (ذيل خطبة).

غُسْلَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ[1]. مَلأٌ يَهْبِطُ، ومَلأٌ يَعْرُجُ، ومَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ[2] مِنهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ[3] فِي ضَرِيحِهِ».

والعبارة: «وُلّيت غسله» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ أنّ النّبي ﷺ كلّفني بالقيام بهذا العمل، ومعونة الملائكة بهدف إكرام النّبي ﷺ وتعظيمه وإجلاله، وضجيج الدار والأفنية الوارد في العبارة يمكن أن يراد به المعنى الحقيقي، من قبيل ما ذكروه بشأن تسبيح الجمادات في تفسير آيات التسبيح الواردة في القرآن الكريم، كما يمكن أن يكون المراد به المعنى المجازي ليشير إلىٰ الحزن والأسى العظيم الذي خيم على بيت رسول الله ﷺ وهنالك احتمال أن تكون الملائكة محذوفة والعبارة تدل على ذلك، وعليه فمعنى العبارة «ضجت...» هو ضجيج الملائكة الذين كانوا في بيته ﷺ، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً.

والاحتمال الرابع هو أنّ هذا الضجيج كان من قبل الناس الحاضرين حول البيت.

والعبارة هبوط وعروج الملائكة إشارة إلىٰ أنّ الملائكة كانت تأتي جماعات جماعات تصلّي على النّبي وتعرج، وكان الإمام عليه السلام يسمع بأذنه الشريفة أصواتهم حين الصلاة والسلام على النّبي ﷺ وقد تواصلت هذه الصلوات والتحيات على النّبي ﷺ حتى دفنه.

والتعبير بالضريح إشارة إلىٰ الحفرة التي أعدت لدفن النّبي الأكرم ﷺ؛ لأنّ هذا هو المعنى اللغوي للضريح، وإن كان الضريح اليوم يطلق على ما يوضع على القبر.

وقد تواترت روايات الفريقين على أنّ علياً عليه السلام تولى لوحده غسل النّبي ودفنه فقد روى المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار عن كتاب الوصية للشيخ

---

١. «أفنية» جمع «فناء» على وزن «غناء» ما اتسع أمام الدار وجوانبه.

٢. «هينمة» تعني الصوت الخفي.

٣. «وارينا» من مادة «مواراة» ومن مادة «ورى» على وزن «نفى» بمعنى الكتمان والتغطية وتعني هنا الدفن.

«عيسى الضرير» عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «قالَ رَسُولُ اللهِ يا عَلي! أَضَمِنْتَ دَيْني تَقْضيهِ عَنِّي! قالَ نَعَمْ. قالَ اللّهُمَّ فَاشْهَدْ. ثُمَّ قالَ يا عَلي تَغْسِلْني ولا يَغْسِلْني غَيْرُكَ فَيَعْمي بَصَرُهُ... قالَ عَلي عليه السلام فَكَيْفَ أَقْوى عَلَيْكَ وَحْدي؟ قالَ يُعْينُكَ جِبْرَئيلُ وميكائيلُ وإسْرافيلُ»[١].

ثم خاض الإمام عليه السلام في استنتاج من مجموع الأبحاث السابقة ليعتبر قربه من النّبي صلى الله عليه وآله في حياته ووفاته دليلاً واضحاً على أولويته بأمر الخلافة، فقال: «فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً ومَيِّتاً؟» وأثر ذلك عُبىء الجميع للجهاد ضد العدو.

لعل هنالك من يتساءل وما علاقة هذه الأمور بقضية الخلافة؟ وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة؛ ومراد الإمام علي عليه السلام لوكانت خلافة النّبي ـ على فرض ـ أنّه غير منصوص عليها فلابدّ أن تسند إلىٰ أقرب الأفراد منه وأولاهم به صلى الله عليه وآله، أوَليس ذلك الشخص الذي عاش التسليم المطلق لأوامر النّبي وأعظمهم تضحية وجهاداً في الغزوات الإسلاميّة ومن كان يرى هبوط الملائكة وعروجها ولا تفارق سمعه هينمة من أصواتها ومن تولى غسل النّبي وتكفينه ودفنه كما عهد إليه أولى من غيره بهذا الأمر ؟ فعلمه ومعارفه من جانب وتضحياته الجسام من جانب آخر وقربه من رسول الله من جانب ثالث والوصية له بغسل النّبي ودفنه وتكفينه من الجانب الرابع فكلّ هذه الامتيازات لو وضعت في كفّة ميزان لرجحت على الكفّة الأخرىٰ مهما كانت ثم خلص عليه السلام إلىٰ نتيجة فقال: «فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لَا إِلهَ إِلَّا هُوإِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ[٢] الْبَاطِلِ».

فقد اعتمد الإمام عليه السلام في الواقع منطقاً منظماً بصيغة علّة ومعاليل متسلسلة في هذه الخطبة، فقد أثبت بادئ الأمر قربه من النّبي وتضحياته في حياته ثم قربه منه

---

١. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٩٢.

٢. «مزلّة» من مادة «زلل» على وزن «ضرر» مكان الزلل الموجب للسقوط في الهلكة.

بعد وفاته، وأثر ذلك خلص إلىٰ أولويته في إحراز مقام الخلافة. ثم تطرق إلىٰ نتيجة كليّة فدعى الجميع إلىٰ جهاد العدو[١].

والعبارة: «جادَةِ الْحَقِّ ومَزَلَّةِ الْباطِلِ» هي عبارة رائعة ودقيقة، ذلك لأنّ الحـق كالجادة المستقيمة والواضحة التي توصل الإنسان إلىٰ مـقصده المـطلوب، إلّا أنّ الباطل ليس بطريق بل مزلة وهاوية.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارتين فقال: «أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ!».

فقد أتمّ الإمام عليه السلام على الناس الحجّة بهذه العبارة وأكّد ضرورة العمل بتعاليمه ووصاياه ثم سأل الله كحسن ختام للخطبة المغفرة للجميع ليشمل الله صحبه بلطفه ورحمته إن إرتكبوا بعض الأخطاء.

الحوادث الأليمة إبان وفاة النّبي صلى الله عليه وآله وبعدها

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ الفاجعة الأليمة لرحـيل النّـبي الأكـرم صلى الله عليه وآله وضجيج الملائكة التي تكشف عن عظم هذا المصاب الجلل.

وتبدو هذه الحادثة أعظم خطورة حين تتزامن مع سائر الرزايا والأحداث والتي تكشف دراستها عن مدى عمق تلك الفاجعة.

وقد خاض جمع من شرّاح نهج البلاغة هنا في ذكر بعض هذه الأحداث؛ لكننا رأينا من الأفضل أن نترك العنان لقلم «الشهرستاني» أحد علماء القـرن السـادس صاحب كتاب الملل والنحل والمعروف بتعصبه للعامّة لنرى ما ذكره بهذا الخصوص فقد أشار إلىٰ عشرة اختلافات مهمّة كلّ واحدة منها تعدّ مصيبة للعالم، وإن سعى لتبريرها تحت ذريعة اجتهاد الصحابة، ولكن تلك الأعمال كانت على درجة مـن

---

١. كتب المرحوم العلّامة التستري في شرحه نهج البلاغة: ج ٤، ص ٨٨. هذه الخطبة من الخطب التي ألقـاها أمير المؤمنين عليه السلام في صفين حسب نقل نصر بن مزاحم في كتاب صفين.

الوضوح في شناعتها بحيث تأبى التبرير بالاجتهاد أو الخطأ.

الاختلاف الأوّل في النزاع الذي حدث عند النبي الأكرمﷺ في مرضه حيث روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنّ النّبيﷺ قال حين اعتل: «إيتُوني بِدَواةٍ وقِرْطاس أكْتُبُ لَكُمْ كِتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدي».

قال عمر: «إنّ رسول الله غلب عليه الوجع (وما يقوله خارج عن الوعي) حسبنا كتاب الله».

فاشتد نزاع الصحابة فقالﷺ: «قُومُوا عَنّي لا يَنْبَغي عِنْدي التّنازُعُ».

قال ابن عباس بعد نقله لهذا الحديث: «الرَّزِيَّةُ كُلُّ الرَّزِيَّةِ ما حالَ بَيْنَنا وبَيْنَ كِتابِ رَسُولِ اللهِ»[1].

ثم تطرق إلى الاختلاف الثاني في مرض رسول الله أيضاً حين قالﷺ: «جَهِّزُوا جيشَ أُسامَةَ لَعَنَ اللهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ». فقال البعض علينا إمتثال أمر النبي، وكان أسامة خارج المدينة يتأهب للحركة نحوالشام للقضاء على فتنتهم، وقال البعض الآخر غلب الوجع على النّبي ولا نطيق مفارقته.

والاختلاف الثالث حين وفاة النّبيﷺ حيث قال عمر: «مَنْ قالَ أَنَّ مُحَمّداً قَدْ ماتَ قَتَلْتُهُ بِسَيْفي هذا وإنَّما رُفِعَ إلَى السَّماءِ كَما رُفِعَ عيسىعليه السلام».

وقال أبوبكر: من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد ربّ محمد فانّه حي لا يموت ثم تلى هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ...﴾[2].

فقبل الناس منه وقال عمر: كأنّي لم أسمع هذه الآية إلّا الآن[3].

---

١. صحيح البخاري، كتاب العلم، ح ١١٤ وكتاب المرضى، ح ٥٦٦٩.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

٣. جاء في تاريخ الطبري أنّه لما حضرت رسول اللهﷺ الوفاة، كان أبوبكر في موضع «سخ» في أحد أطراف المدينة، وحين توفيﷺ نهض عمر وقال: يظن بعض المنافقين أنّ رسول اللهﷺ قد مات، والله إنّه لم يمت وإنّما رفعه الله إليه، كما غاب موسى عن قومه أربعين ليلة ثم عاد (وسوف يعود رسول اللهﷺ) فلمّا علم ☜

والاختلاف الرابع في موضع دفن النّبي حيث أراد المهاجرون دفنه في مكة، بينما أراد الأنصار دفنه في المدينة لأنّها دار الهجرة، ورغبت فئة ثالثة بدفنه في بيت المقدس حيث الأنبياء ثم اتفقوا جميعاً على دفنه في المدينة، ويعتقد البعض أنّ هدف عمر من هذا الكلام هو اشغال الناس حتى يحضر أبوبكر وتتمّ له الخلافة.

حيث روي عنهصلى الله عليه وآله أنّه قال: «الأَنبِياءُ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ»[1].

وبرز الاختلاف الخامس في الخلافة والذي عدّه الشهرستاني من أهم الخلافات حيث قال: «إِذْ ما سُلَّ سيفٌ فِي الإِسْلامِ عَلى قاعِدَة دِينيّة مِثْلَ ما سُلَّ عَلَى الإِمامَةِ في كُلِّ زَمان».

ثم نقل قصّة سقيفة بني ساعدة وماحدث فيها من اختلافات وبالتالي بيعة أبي بكر.

واعتبر الخلاف السادس قضية فدك وأشار فيه إلىٰ خطبة فاطمة الزهراءعليها السلام حيث طالبت بها كهبة من النّبي أو ميراث، فاحتج عليها أبوبكر بالحديث (الموضوع) «نَحْنُ مَعاشِرَ الأَنْبِياءِ لا نُوَرِّثْ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ».

ثم أشار إلىٰ الاختلاف السابع بشأن مانعي الزكاة الذي اعتبرهم البعض كفرة بينما لم يكفرهم البعض الآخر والاختلاف الثامن نص أبوبكر على خلافة عمر حين وفاته فقال له الناس: «وَلَّيْتَ عَلَيْنا فظّاً غَليظاً»؛ بينما استجاب له سائر الناس.

والاختلاف التاسع في الشورى التي نصبها عمر لتعيين الخليفة من بعده، والاختلاف العاشر الذي حدث على عهد أمير المؤمنين عليعليه السلام بعد أن بايعته الأُمة على الخلافة، فأثار طلحة والزبير وعائشة، فتنة الجمل، ومعاوية، صفين، والخوارج، النهروان[2].

☜ أبوبكر ذهب إلىٰ بيت النّبي فعلم بوفاة النّبيصلى الله عليه وآله ورجع إلىٰ المسجد وكان عمر ما زال يحدث الناس فقاطعه أبوبكر وقال ما ورد سابقاً. (تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٢ حوادث سنة ١١).

١. ورد في المصادر الروائية لأهل البيتعليهم السلام أنّ علياًعليه السلام قال: إنّ أشرف موضع هو الموضع الذي قبض فيه الله نبيّهصلى الله عليه وآله ؛ ومن هنا دفن في بيته. (الكامل البهائي، ج ١، ص ٢٨٥، تأليف عماد الدين الطبري).

٢. الملل والنحل للشهرستاني، ص ١٦ ـ ١٩، طبعة دار الفكر بيروت، (بتلخيص).

١٩٨

ومن خطبة له عليه السلام

يُنَبِّهُ عَلى إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ بِالْجُزْئِيّاتِ، ثُمَّ يَحُثُّ عَلَى التَّقْوى، ويُبَيِّنُ فَضْلَ الْإسْلامِ والْقُرْآنِ[١]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدّة أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم الأوّل بعبارات رائعة عن العلم الإلهي المطلق وشهد للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، ليكمل في الواقع الشهادتين بعبارات جديدة.

وأوصى عليه السلام في القسم الثاني بالتقوى وأنّها دواء كلّ داء والشفاء من جميع الأمراض والوسيلة لإصلاح المفاسد كافّة وطهارة الروح وقرة العين، وقد تضمنت إشارات إلى التقوى من خلال ذكر بعض النقاط التي قلّما ذكرت في سائر الخطب.

---

١. **سند الخطبة:**

قال صاحب مصادر نهج البلاغة: ما ذكره السيد الرضي هنا في الخطبة ١٠٤ (الخطبة ١٠٦ حسب التسلسل في هذا الكتاب) واحد كما يتّضح من التأمّل في العبارات (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٢)؛ لكنه لم يذكر لذلك مصدراً آخر غير نهج البلاغة، وتفيد سائر الدراسات والتحقيقات عدم وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة. وللأسف فقد ذكرت في بعض الكتب (مثل نهج البلاغة نسخة المعجم المفهرس للنشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين) ستة مصادر غير نهج البلاغة لهذه الخطبة وليس فيها حتى مصدر صحيح واحد؛ إلّا أنّ مضمون الخطبة ورفعتها لا يمكن أن تصدر من غير الإمام، وهذا دليل على قوّة سندها.

وتطرق في القسم الثالث إلىٰ أهميّة الإسلام ومزاياه بعبارات مشوقة تستقطب القلوب.

وتحدّث في القسم الرابع عن النّبيﷺ وخدماته الجليلة في ذلك العصر المظلم الجاهلي وزعامته للنهضة الإسلاميّة.

واختتم الخطبة بالحديث عن القرآن الكريم من خلال ذكره لأربعين صفة من صفاته التي يمكن القول إنّها أشمل إشادة وتمجيد للقرآن، عليه آلاف التحية والثناء.

***

القسم الأوّل

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، ومَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، واخْتِلاَفَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وتَلاَطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ. وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ، وسَفِيرُ وَحْيِهِ، ورَسُولُ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير

احاطة الله العلميّة

بما أنّ هذه الخطبة تتحدّث حول الإسلام والقرآن، فقد استهلها الإمام عليه السلام بالحديث عن الايمان بالمبدأ والمعاد؛ الإيمان الذي يشكل الدافع لجميع الخيرات والوسيلة لجميع البركات، حين يريد التحدث عن معرفة الله فإنّه يركز على العلم الإلهي المطلق الذي يعد من أهم صفات الحقّ تعالى فقال: «يَعْلَمُ عَجِيجَ[1] الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ[2]، ومَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، واخْتِلاَفَ النِّينَانِ[3] فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ[4]، وتَلاَطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ[5]».

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة على أربع ظواهر مختلفة عن بعضها البعض الآخر في هذا العالم ولا تحضى بالاهتمام، ليشير إلىٰ علم الله تعالى بها:

---

١. «عجيج» من مادة «عجّ» على وزن «حج» بمعنى الصراخ وتستعمل غالباً للحيوانات.

٢. «فلوات» جمع «فلاة» بمعنى الأرض الواسعة والقاحلة ويقال أحياناً للصحراء.

٣. «نينان» جمع «نون» تعني السمكة الكبيرة ويقال أيضاً للحوت.

٤. «غامرات» من مادة «غمر» على وزن «عمد» بمعنى محو شيء. ثم اطلقت على المياه التي تغطي الأرض أو موجوداته، والبحر الغامر هو البحر العميق.

٥. «عاصفات» جمع «عاصفه» من مادة «عصف» على وزن «حذف» تعني القشّة و«عاصف» الرياح الشديدة التي تفرق القش والأوراق اليابسة أو تفرق الأشياء كالقشّة.

الأُولىٰ: وكما نعلم فإنّ الصحارىٰ المتراميّة الأطراف في العالم تضم العديد من الحيوانات الوحشية التي لا يطرق سمعنا ضجيجها وعجيجها، لكن الله تعالى عالم بها ويعلم كلّ حيوان فيها ومتى يضج بصوته وما طبيعة ذلك الضجيج.

والظاهرة الثانية: كثرة الذنوب التي تمارس في الخلوات والبعيدة عن أنظار الناس والتي تخفىٰ علينا جميعاً، لكن الله يعلم بكلّ إنسان في كلّ مكان وكل زمان والذنب الذي يرتكبه.

والظاهرة الثالثة: أنّه يعلم بحركات وسكنات الحيتان في أعماق البحار والغائبة عن عيون الناس.

وأخيراً يعلم الأمواج في المحيطات والبحار وحركاتها في الليل والنهار والتي لا ندرك سوى جزء يسير منها، فهو العالم متى تتحرك واين تتحرك وكيف تتوقف.

ولو أضفنا لكلّ هذه الأمور أنّ علم الله تعالى بهذه الأمور لا يقتصر على اليوم والأمس، بل منذ الأزل الذي شهد وقوع هذه الحوادث ليل نهار (ما عدا الذنوب البشريّة المحددة بزمان معين) فالله يعلم كيف تحققت كلّ واحدة من هذه الظواهر وأين وكيف.

وكذلك لو أضفنا أنّ الأمور المذكورة لا تقتصر على الكرة الأرضيّة، التي تعدّ مركز مختلف الحوادث، بل ملياردات الكواكب في مجرّاتنا والتي تعتبر مركزاً للعديد من الحوادث الدائمية بالإضافة إلىٰ سائر المجرّات الأخرىٰ والتي يتجاوز عددها المليارات.

نعم! كلّ هذه الأمور حاضرة في علم الله وهنا نوقن بما ذكره القرآن الكريم في الآية ٢٧ من سورة لقمان اذ قالت: ﴿وَلَوأَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. في أنّه عين الواقع وهي ليست من قبيل الاستغراب فحسب، بل لا تعدّ بشيء بالنسبة لدائرة علم الله المطلق.

ثم واصل كلامه عليه السلام بعد بيان علم الله تعالى بعالم الخلق بالشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة واثنى عليه بثلاث صفات مهمّة من صفاته فقال: «وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ[1] اللهِ، وسَفِيرُ وَحْيِهِ، ورَسُولُ رَحْمَتِهِ».

نعم! فهو إنسان غاية في النجابة والسمو انتجبه الله للنبوّة وأنزل عليه وحيه وجعله موضع رحمته.

وقد تجلت هذه الرحمة بعدة صور ووجوه، فتارة عن طريق بيان المعارف الدينيّة الساميّة، وتارة أخرىٰ بواسطة شرح التعاليم وثالثة بطلب الرخصة من الله للأمّة، وبالتالي ستظهر هذه الرحمة بصيغة الشفاعة يوم القيامة؛ نسأل الله أن نشمل بها جميعاً

جاء في الحديث النبوي الشريف أنّه لما نزلت الآية الشريفة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] أنّه صلى الله عليه وآله قال لجبرئيل عليه السلام لما نزلت هذه الآية: «هَلْ أَصابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحمَة شَيءٌ؟ قال: نَعم إنّي كُنتُ أخشىٰ عَاقبةَ الأمر، فآمَنتُ بِكَ لَمّا أثنىٰ اللهُ عَليَّ بقَولِهِ: ﴿ذِي قُوَّة عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[3] وَقَدْ قَالَ: إنّما أنا رَحمَةٌ مُهداةٌ»[4].

١. «نجيب» من «نجابة» تعني المختار المصطفى وكل غال ونفيس.

٢. سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

٣. سورة التكوير، الآية ٢٠.

٤. مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

القسم الثاني

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، ونَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وجَلاَءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، ودَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، ولَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، ومَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، ومَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، ونَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، ومَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، واحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِها، وانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، ووَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا.

فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، ووَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح والتفسير

التقوى مصدر الخيرات

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلىٰ علم الله المطلق والشهادة بالنبوّة في القسم السابق

والذي كان يمثل في الواقع مقدمة، خاض في هذا القسم في ذي المقدمة والذي تمثّل في الدرجة الأُولىٰ في الوصية بالتقوى وقرنها ببعض صفات الله ليؤجج في قلوبهم نيران عشق التقوى والورع فقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، ونَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ[1]».

كما قال القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[3].

ثم خاض عليه السلام إثر الوصية بالتقوى إلىٰ ذكر آثارها بثمان عبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال: «فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وجَلاَءُ عَشَا[4] أَبْصَارِكُمْ، وأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ[5]، وضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ».

العبارة الأُولىٰ إشارة إلىٰ الأمراض الفكرية والروحية في الغواية والضلال، والعبارة الثانية إشارة إلىٰ إزالة الموانع وحجب المعرفة في ظلّ التّقوى، وتشير العبارة الثانية إلىٰ قلّة الطعام ورعاية الاعتدال في تناول الأغذية في ظلّ التّقوى؛ ذلك لأننا نعلم وكما ورد في الحديث النبوي الشريف: «الْمِعْدَةُ رَأْسُ كُلِّ داء والْحِمْيَةُ رَأْسُ كُلِّ دَواء»[6].

والذي أيده الأطباء المعاصرون قاطبة أنّ قسماً مهماً من الأمراض معلول لكثرة

---

١. «مفزع» من مادة «فزع» بمعنى الخوف وتعني مفردة (مفزع) الملجأ، لأنّ الإنسان يلجأ إليها في خوفه.

٢. سورة يونس، الآية ١٠٧.

٣. سورة النحل، الآية ٥٣.

٤. «عشا» من «عشو» على وزن «نشر» بمعنى ضعف العين أو البحث عن شيء بعين ضعيفة و«عشا» اسم مصدر تعني ضعف البصر.

٥. «جأش» بمعنى ما يضطرب في القلب عند الفزع ومن حيث إنّ القلب (الروح) هومركز هذه الأُمور فيقال أحياناً جأش للقلب أيضاً ويمكن للاثنان أن يكونا المعنى المراد.

٦. بحارالأنوار، ج ٥٩، ص ٢٩١.

الطعام، والصحة وطول العمر في قلّة الطعام، والعبارتان الرابعة والخامسة كلاهما إشارة إلىٰ تطهير الباطن من الرذائل الأخلاقيّة كالكبر والحسد والبغض والعداء وما شابه ذلك، غير أنّ العبارة الرابعة واردة بشأن الصفات القبيحة التي تترسخ في باطن الإنسان بحيث تقوده إلىٰ الفساد، بينما تشير العبارة الخامسة إلىٰ الانحراف السطحي والبسيط والذي يغسل بماء التقوى.

والعبارة السادسة إشارة إلىٰ أنّ التقوى تجعل رؤية الإنسان الباطنيّة أعظم حدة وعينه أشد بصيرة، ويبدو أنّ الفارق بينها وبين العبارة «وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ» أنّ الكلام في تلك العبارة عن العمى المطلق بالتقوى وهنا إشارة إلىٰ قلّة نور البصيرة الذي يزداد في ظلّ التّقوى.

والعبارة السابعة إشارة إلىٰ الاضطرابات التي يعيشها الإنسان أثر مقارفة الذنب والمعصية؛ فالخوف من عذاب الله في الدنيا والآخرة وتأنيب الضمير الموجود في طبيعة الذنب كلّها تزال بالتقوى.

قال القرآن الكريم ﴿مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[١].

والعبارة الأخيرة تشير إلىٰ تأثير التقوى في القضاء على ظلمات الجهل وإنهيار العدالة والظلم والجور. وعلى هذا الضوء فإنّ التقوى تجلب للإنسان خير وسعادة الدنيا والآخرة.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد ذكره للتقوى وآثارها المهمّة في الحياة الماديّة والمعنويّة البشريّة إلىٰ طاعة الله والتي تعدّ من المعطيات الهامة للتقوى ليوضح بعشر عبارات قصيرة وعميقة المعنى أهميّة الطاعة في حياة الأفراد المؤمنين فقال: «فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ

١. سورة النمل، الآية ٨٩.

أُمُورِكُمْ، ومَنْهَلاً[١] لِحِينِ وُرُودِكُمْ[٢]، وشَفِيعاً لِدَرَكِ[٣] طَلِبَتِكُمْ، وجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، ومَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، ونَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ».

فقد شخص الإمام عليه السلام في العبارات الثلاث الأُولىٰ منزلة طاعة الله في وجود الإنسان، فشبهها بادىء الأمر بالشعار الذي يعني مايلي البدن من الثياب لا الدثار الذي يعني الثياب الخارجية التي تقتصر على الرياء والاهتمام بالظاهر، ثم غاص أبعد من ذلك ليسحبها إلىٰ باطن الجسم على أنّها اعمق من الشعار، ثم تعمق أكثر ليرى موضعها في القلب.

وهنا لابدّ من الإلتفات إلىٰ أنّ العبارة «بين اضلاع» إشارة لطيفة إلىٰ القلب، ذلك لأنّ القلب داخل الصدر وقد احيط من جميع جوانبه بالاضلاع.

جدير ذكره أنّ القلب ليس مركز الإدراكات، إلّا أنّه على صلة وثيقة بدماغ الإنسان وروحه، وكل ظاهرة تطرأ على الروح إنّما تظهر آثارها بادئ الأمر في القلب.

العبارة: «أَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ» إشارة إلىٰ ضرورة سيادة أوامر الله في جميع شؤون الحياة الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

والعبارة: «ومَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ...» تشير إلىٰ أنّ المعطيات الإيجابيّة والبركات الجمة لطاعة الله على الحياة الماديّة والمعنويّة للإنسان إنّما تغذي روحه، وتوصله إلىٰ أهدافه الساميّة وتحميه ممّا يتعرض له من مشاكل، وتعد مصدر السكينة والطمأنينة في عالم البرزخ والقبر ويوم القيامة.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتطرق إلىٰ علّة لزوم الطاعة فقال: «فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَة، ومَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَة، وأُوَارِ[٤] نِيرَانٍ مُوقَدَة».

---

١. «منهل» بمعنى المكان الذي يصلون منه إلى الماء ومن مادة «نهل» على وزن «محل» بمعنى ابتداء شرب الماء.

٢. «ورود» تعني في الأصل الذهاب قرب الماء، ثم اتسع معناها ليشمل الدخول في كلّ شيء.

٣. «درك» على وزن «سَمك» بمعنى اللحاق والوصول والتعويض عن شيء.

٤. «أوار» على وزن «غبار» بمعنى حرارة الشمس ولهيبها وتطلق أحياناً على العطش الناتج منه.

فالعبارتان الأولى والثانية في الواقع إشارة إلىٰ معطيات الطاعة في الحياة الدنيا، والعبارة الثالثة ترمز إلىٰ آثارها في الآخرة؛ فهي تحفظه في الدنيا من المخاطر الحاضرة والمستقبليّة، وفي الآخرة من العذاب الأليم لنار جهنم.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بهذه الأخطار، المفاسد الأخلاقيّة والباطنيّة والتي تؤدّي إلىٰ البعد عن هدى الله، والحال من شأن هذه الأخطار أن تشمل المخاطر الماديّة، ذلك لأنّ الطاعة الإلهيّة تفيض الأمن الاستقرار على المجتمع البشري وتنزل عليه بركات السماء والأرض وتحد من نسبة الوفيات، كما أشير إلىٰ ذلك في الآيات الشريفة من سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّات وَيَجْعَلْ لكُمْ أَنْهَاراً﴾[1].

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية إلىٰ مسألة التقوى والورع ومعطياتها وآثارها، على أنّ الطاعة والتقوى من قبيل اللازم والملزوم، فالتقوى تؤدّي إلىٰ الطاعة، كما أنّ الطاعة عنصر بلورة التقوى في باطن الإنسان؛ حيث أشار عليه السلام إلىٰ ثمانية من آثار التقوى بعبارات مقتضبة عميقة المعنى فقال: «فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ[2] عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، واحْلَوْلَتْ[3] لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِها، وانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا[4]، وهَطَلَتْ[5] عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا[6]،

---

١. سورة نوح، الآيات ١٠ ـ ١٢.

٢. «عزبت» من مادة «عزوب» على وزن «غروب» تعني في الأصل الغياب والبعد عن العائلة لايجاد مرتع للبهائم ثم اطلقت على كلّ غياب وابتعاد. ويقال كذلك للرجال والنساء البعيدين عن أزواجهم، أو يقال «عزب» على وزن «غرَب» لمن لم يختر زوجة بعد.

٣. «احلولت» في الأصل من «حلو» على وزن «حكم»، معروف و«احلولت» التي من باب المزيد فيه أخذت معنى الكثرة؛ وعلى هذا الأساس فإنّ «احلول» يعني الكثير الحلاة، مثل «اعشوشب» بمعنى الكثير العشب.

٤. «انصاب» مصدر باب الأفعال بمعنى الاتعاب من مادة «نصب» على وزن «نَسَب» بمعنى التعب.

٥. «هطل» بمعنى نزول المطر المتواصل.

٦. «قحوط» بمعنى المجاعة.

وتَحَدَّبَتْ[١] عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا[٢]، ووَبَلَتْ[٣] عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا[٤]».

فتتضح قيمة التقوى على صعيد الحياة الماديّة والمعنويّة للإنسان من خلال هذه الآثار التي بينها الإمام عليه السلام للتقوى.

نعم! فالشدائد تزول في ظلّ التّقوى وتفاض أمطار الرحمة الإلهيّة على التقاة والمجتمعات التقية، ويغيب الفساد والانحراف. قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: ﴿وَلَوأَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾[٥]. وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٦].

ولا تختصر علاقة التقوى بهذه الأمور على الجانب المعنوي، بل هي كذلك حتى من وجهة نظر التحليلات العقلية والمنطقية، فإننا نرى المجتمعات التي استطاعت من خلال انطلاقها من التقوى والثقة بين أبنائها وتعاونهم مع بعضهم من التغلب على العديد من المحن والمخاطر وحدّت من حجم الاختلافات والنزاعات والقضايا الجزائيّة والعقابية إلىٰ أدنى ما يمكن. والطريف في الأمر أنّ شهر رمضان المبارك الذي يتمتع فيه الصائمون بمزيد من التقوى بمقتضى الآية الشريفة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٧] شهد هبوطاً ملحوظاً للجرائم والجنايات، كما أنّ العديد من المشاكل الاجتماعيّة التي تفرزها المشاكل الأخلاقيّة تزول بأقصىٰ ما يمكن من السرعة أبان مزاولة

---

١. «تحدبت» من مادة «حدب» على وزن «أدب» تعني في الأصل الأراضي العالية بين الأراضي الواطئة، وكذلك يقال «حدب» للبروز فوق الجسم وكذلك يقال للشيء الذي يحيط بآخر وهو المعنى المقصود في العبارة.

٢. «نضوب» تعني في الأصل ذهاب الماء في الأرض، ثم اطلقت على القضاء على كلّ شيء.

٣. «وبلت» من مادة «وبل» على وزن «جبل» بمعنى المطر الشديد ذي القطرات الكبيرة وهنا تعني سقوط البركات الإلهيّة بكثرة.

٤. «إرذاذ» بمعنى سقوط المطر الخفيف.

٥. سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٦. سورة الطلاق، الآيتان ٢ و٣.

٧. سورة البقرة، الآية ١٨٣.

الناس للأسفار المعنويّة كالسفر لحج بيت الله الحرام، ذلك لأنّ التقوى ملكة مانعة إزاء كلّ هذه المشاكل، والأفراد الذين يشعرون بثقل حقوق الآخرين التي تثقل رقابهم إنّما يبحثون عمّا ينجيهم من هذا الثقل، وعلى هذا الضوء هنالك تفسير مادي إلىٰ جانب التفسير المعنوي للعلاقة بين التقوى وغياب المشاكل ومضاعفة البركات.

ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبة بالعودة إلىٰ مسألة التقوى ليؤكد ثانية على ما استهل به هذا الجانب من الخطبة فقال: «**فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسالَتِهِ، وامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ**».

وهذه الصفات الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام لله تبارك وتعالى تمثّل جميعاً دوافع لسلوك سبيل التقوى، لأنّها تشمل جميع النعم الماديّة والمعنويّة والمواعظ الإلهيّة وهي المواعظ التي تفاض على جميع أهل الإيمان عن طريق رسالات الأنبياء سيّما النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر أنواع النعم الماديّة والمعنويّة التي تمنح للإنسان والتي يمكن من خلالها بلوغ ذروة العبودية والورع والتقوى والكمال المعنوي والمادي تثير لدى الإنسان الشعور بالشكر والحمد لواهب هذه النعم وتنتهي به إلىٰ تقوى الله وطاعته وإمتثال أوامره.

وقال في العبارة الأخيرة: «**فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ**».

«عبّدوا» وإن أخذت من مادة عبادة إلّا أنّها تعني في هذه الموارد الاعداد والتسليم ومن ذلك قولهم «عبّد الطريق».

ومن الواضح أنّ إعداد النفس لعبودية الله مقدمة لأداء حقّ الطاعة، ولا يتيسر هذا الإعداد إلّا عن طريق الإيمان والمعارف الإلهيّة وتزكية النفس وتهذيبها والانفتاح على أسرار العبادات.

القسم الثالث

ثُمَّ إِنَّ هذَا الْإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، واصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، ووَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ. وسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وأَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ. ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلاَانْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلاَ انْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلاَ انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ،وَلاَ جَذَّ لِفُرُوعِهِ، وَلاَ ضَنْكَ لِطُرُقِهِ، وَلاَ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَلاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ، وَلاَ عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ، وَلاَ عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلاَ وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلاَ انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلاَ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ. فَهُودَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا، ويَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، ومَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ ومَنَارُ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا، وأَعْلاَمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، ومَنَاهِلُ رُوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا. جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وسَنَامَ طَاعَتِهِ؛ فَهُوعِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ. فَشَرِّفُوهُ واتَّبِعُوهُ، وأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح والتفسير

فضل الإسلام

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة في بيان أهميّة الإسلام وعظمة هذا الدين الحنيف، حيث أكمل بهذا القسم ما أورده في القسم السابق بشأن التقوى

والطاعة، ذلك لأنّ الطاعة والتقوى إنّما تتحصل في ظلّ التبعية لهذا الدين. فتحدث بادئ الأمر عن إحدى عشرة صفة من صفات الإسلام العظيم فقال: «ثُمَّ إِنَّ هذَا الْإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، واصْطَنَعَهُ[1] عَلَى عَيْنِهِ، وأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ».

فقد بيّن في هذه الصفات الخمس الأُولىٰ الأركان الأصلية لهذا الدين المقدّس والذي انفرد الله تعالى بتشريعه بمنتهى الدقّة، وتولى إبلاغه أفضل خلق الله النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله واستندت دعائمه على أساس حبّ الله.

العبارة: «اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ» إشارة إلىٰ أنّ الطريق الذي يؤدّي إلىٰ القرب الإلهي يقتصر على الدين الإسلامي الحنيف: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2].

والعبارة: «واصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ» تقال في الأمور التي يكون الشخص حاضراً وناظراً حين الإتيان بها وبعبارة أخرىٰ تتم أمام عينيه. وأمّا بشأن الله فهي كناية عن نهاية عنايته ومراقبته له، قال القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[3].

والعبارة: «أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ» (بالنظر إلىٰ عودة الضمير في محبته إلىٰ الله) إشارة إلىٰ أنّ الإسلام بني على المحبّة وهذه إحدى افتخاراتنا في أنّ ديننا بني على أساس الحبّ، ولذلك جاء في الرواية: «هَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾»[4].

وعلى هذا الضوء فإنّ أساس هذا الدين محبّة العباد لله من جانب، وحبّ الله للعباد من جانب آخر، ثمّ واصل كلامه بالإشارة إلىٰ ست صفات أخرىٰ فقال: «أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، ووَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وخَذَلَ مُحَادِّيهِ[5] بِنَصْرِهِ،

---

١. «اصطنع» من مادة «اصطناع» على وزن افتعال بمعنى التحضير والتنمية والتكبير لشيء.

٢. سورة آل عمران، الآية ٨٥.

٣. سورة طه، الآية ٣٩.

٤. بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٣٧، ح ٥. والآية الواردة في النص هي، الآية ٣١ سورة آل عمران.

٥. «محادّي» من «محادّة» بمعنى المخالفة والعداوة ومادته الأصلية «حدّ» التي تعني نهاية وطرف كلّ شيء ☜

وهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ. وسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وأَتْأَقَ[١] الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ[٢]».

والعبارتان: «أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، ووَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ...» (بالنظر إلىٰ أنّ الضمير في العبارات يعود إلىٰ الإسلام) إشارة إلىٰ ما ورد في القرآن الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْكَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٣].

وجاء في الآية التي سبقتها: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْكَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٤].

وقد انتصر الإسلام على سائر الأديان في جبهتين؛ إحداهما الجبهة الظاهريّة من الناحية السياسيّة والعسكريّة، والأخرى الجبهة الباطنيّة من حيث المنطق والدليل والبرهان، فقد أقام القرآن الكريم أقوى الأدلة لإثبات المعارف الدينيّة الحقّة التي تسوق كلّ منصف إلىٰ تقبلها، وكما قال الإمام عليه السلام في العبارة المذكورة فقد سقى كلّ من عطش من معين فيضه وملأ حقول العلم والمعرفة بأدلته وبراهينه.

ثم تطرق عليه السلام إلىٰ سائر الامتيازات المهمّة التي اتّصف بها الإسلام ليركز بادئ ذي بدئ على خلود هذا الدين المقدّس، فأماط اللثام عن حقيقة هذا الخلود بثمان عبارات عميقة المعنى وبرسم صورة غاية في الوضوح والروعة فقال: «ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلاَ انْهِدَامَ لأَسَاسِهِ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلاَ انْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، ولاَ انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلاَ عَفَاءَ[٥] لِشَرَائِعِهِ، وَلاَ جَذَّ لِفُرُوعِهِ».

☜ وذلك لأنّ العدو يكون في الطرف الآخر. «محادّة» بمعنى المخالفة (جدير ذكره أنّ «محادّي» في الأصل «محادّين» اسم فاعل صيغته الجمع وحذفت النون للإضافة).

١. «أتأق» من مادة «تأق» بمعنى الامتلاء وإن وردت في باب الأفعال عنت الملء.

٢. «مواتح» جمع «ماتح» بمعنى من يسحب الماء من البئر.

٣. سورة الصف، الآية ٩.

٤. سورة الصف، الآية ٨.

٥. «عفاء» بمعنى القدم والاندراس وهي في الأصل من عفوية معنى صرف النظر عن شيء ولأنّ صرف النظر يؤدّي إلى قدم واندراس الشيء استخدمت هذه المفردة في العبارة الفوق.

وهو ذات الأمر الذي قال فيه القرآن بشأن النّبي: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلكِنْ رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..﴾[1].

وقد نظمت أصول الإسلام وأركانه من جانب الحكيم بما يبعدها عن التزلزل مهما تقادم الزمان وقد تكهن بمتطلبات كلّ زمان ومكان في ظلّ أحكامه الثابتة والمتغيرة (بتغير الموضوعات) وهذه الشمولية هي التي جعلته خالداً.

ثم خاض الإمامعليه السلام بعد فراغه من إثبات خلود الإسلام في بيان سائر صفاته من قبيل سهولته ووضوحه واستقامته ووضوح قوانين الدين من خلال ثمان عبارات فقال: «وَلَا ضَنْكَ[2] لِطُرُقِهِ، وَلَا وُعُوثَةَ[3] لِسُهُولَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لِوَضَحِهِ[4]، وَلَا عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ[5]، وَلَا عَصَلَ[6] فِي عُودِهِ، وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ[7]، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ».

والعبارة الأُولىٰ: «وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ» إشارة إلىٰ ما ورد في الحديث النبوي الشريف «بُعِثْتُ بِالْحَنَفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ»[8]. الشريعة التي لا تختزن أي صعوبة أمام السالكين إلى الله وقوانينها سهلة مستساغة، ولما كان الإفراط في السهولة قد يؤدّي إلىٰ الضعف فقد قال في العبارة اللاحقة: «وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ» أي أنّ هذه السهولة واليسر والسماحة للشريعة لا تسير نحو الإفراط قط، بل ضمن إطار الاعتدال، وتشير العبارة الثالثة إلىٰ هذه الحقيقة في أنّ وضوح جادة الإسلام دائمي

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

٢. «ضنك» بمعنى الضيق وهي تستخدم دائماً مفردة.

٣. «وعوثة» بمعنى المشقّة والعسر.

٤. «وضح» من مادة «وضوح» بمعنى الظهور والتبيان.

٥. «انتصاب» من مادة «نصب» يعنى الوقوف.

٦. «عصل» بمعنى الاعوجاج.

٧. «فجّ» تعني في الأصل الوادي؛ أي الطريق الواسع بين جبلين. ثم اطلقت على الطرق العامّة بصورة عامّة.

٨. ورد هذا الحديث في العديد من كتب الشيعة والسنّة منها في المحصول للفخر الرازي ج ٥، ص ١٧٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٤٤؛ الكافي، ج ٥، ص ٤٩٤.

وليس ممّا يتخلله الظلام أحياناً والفارق بين العبارتين الرابعة والخامسة أنّ كليهما إشارة إلىٰ استقامة الشريعة الإسلاميّة وخلوها من الاعوجاج، في حين أنّ العبارة الرابعة أشارت إلىٰ استقامة المسيرة، بينما أشارت العبارة الخامسة إلىٰ استقامة أعمدة وأُسس بناء هذا الصرح العظيم.

وتشير العبارة السادسة: «وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ» إلىٰ أنّ سطح هذه الجادة محكم وراسخ والسير عليه سهل يسير، وليس من قبيل الطرق المليئة بالتراب والرمل والتي تغوص فيها أرجل السالك وبالتالي يصعب المشي والسير عليها.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ المراد بالعبارة السابعة «وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ» هو وجود العلماء في كلّ عصر وزمان حيث تلطف الله بهؤلاء الأدلاء في كل زمان والذين يضيئون الطريق لجميع السالكين، بينما ذهب البعض الآخر إلىٰ أنّ المراد بهم الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين لا تخلو الأرض منهم. كما يمكن أن تكون إشارة إلىٰ مفهوم عام يشمل الأدلة الواضحة وعلامات الحقّ وآثار العظمة في كلّ عصر ومصر.

والعبارة الأخيرة: «وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ» إشارة إلىٰ المرارة التي تشوب العديد من حلوات الدنيا، أوالتي تختتم بها، من قبيل المال والثروة والمقام والانتفاع باللذات التي عادة ماتستبطن القلق والإرباك؛ غير أنّ حلاوة الإسلام ممّا لا تشوبها مرارة قط.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خلود الإسلام وسهولة أحكامه أشار إلىٰ قوّته وإقتداره ليؤدي حقّ الكلام بسبع عبارات قصيرة من خلال هذا الاستنتاج فقال: «فَهُو دَعَائِمُ أَسَاخَ[١] فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا[٢]، وَثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا[٣]، وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ[٤]

---

١. «أساخ» من مادة «سوخ» على وزن «صوت» بمعنى الغوص في شيء ما وإن وردت في باب الأفعال عنت الغوص والخوض.

٢. «أسناخ» جمع «سنخ» على وزن «صبر» بمعنى الأصل.

٣. «آساس» جمع «أساس» بمعنى عمود البناء.

٤. «غزرت» من مادة «غزارة» بمعنى الكثرة.

عُيُونُهَا، ومَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ ومَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا[١]، وأَعْلاَمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، ومَنَاهِلُ رُوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا».

وعلى هذا الأساس فقد شبّه الإسلام بقصر عظيم الأسس والدعائم وراسخ القوائم وإلى جانبه الحقول والبساتين والعيون المليئة بالمياه وقد يسر الوصول إليه من خلال ملء طريقه بالمصابيح في الليالي المظلمة والعلامات الواضحة في النهار، بحيث لا يعيش سالك هذا الطريق أي ضلال في ليل أو نهار، كما شقت العيون في ذلك الطريق لتروي ضما العطاشى المسافرين.

ويمكن أن تكون هذه الأسس والدعائم إشارة إلىٰ ما ورد في الحديث الشريف: «بُنِيَ الأسْلامُ عَلى خَمْسَة؛ عَلَى الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّوْمِ وَالْحَجِّ والْوِلايَةِ ولَمْ يُنادَ بِشَيء كَما نُودِيَ بِالْوِلايَةِ»[٢].

أمّا العيون التي أُشير إليها في العبارة الثالثة فيمكن أن تكون إشارة إلىٰ القرآن الكريم والسنة النبوية وائمّة العصمة عليهم السلام والمصابيح والمنائر إشارة إلىٰ ما ظهرت منهم عليهم السلام من إعجازات وكرامات، ومناهل الري إشارة إلىٰ علوم المعصومين عليهم السلام والتي تسقي الجميع.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلىٰ ثلاث خصائص من خصائص الإسلام فقال: «جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وسَنَامَ طَاعَتِهِ».

فالعبارة الأُولىٰ إشارة إلىٰ ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِيناً﴾[٣].

كما يمكن أن تكون العبارة الثانية إشارة إلىٰ الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الأِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٤].

---

١. «سفّار» جمع «سافر» بمعنى المسافر.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام، ح ١.

٣. سورة المائدة، الآية ٣.

٤. سورة آل عمران، الآية ٨٥.

والعبارة الثالثة إشارة إلىٰ الجهاد طبق بعض الروايات، فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أُخْبِرُكَ بِأَصْلِ الإسْلامِ وفَرْعَهُ وذُرْوَةِ سَنامِهِ». قال: بلى! جعلت فداك. فقال عليه السلام: «أمّا أصْلُهُ الصَّلاةُ وفَرْعُهُ الزَّكاةُ وذُرْوَةُ سَنامِهِ الْجِهادُ»[1].

ثم أشار عليه السلام في ختام هذا القسم إلىٰ سبع صفات أخرىٰ من صفات الإسلام بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال: «فَهُو عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ[2] الْمَثَارِ».

وتشير العبارة الأُولىٰ «فَهُو عِنْدَ اللهِ...» إلىٰ أنّ الإسلام بني على أسس محكمة من الأدلة العقلية والمنطقية والمعجزات الواضحة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

كما تشير العبارة: «رَفِيعُ الْبُنْيانِ» إلىٰ سعة وعظمة الخطط الإسلاميّة التي تشمل جميع أصول وفروع حياة الناس الماديّة والمعنويّة.

والعبارة الثالثة: «مُنِيرُ الْبُرهان» يمكن أن تكون إشارة إلىٰ الأدلة والبراهين التي تثبت حقانيّة الدين الإسلامي الحنيف.

والعبارة الرابعة: «مُضِيُ النِّيرَانِ» بشأن العلوم والمعارف الحقّة التي تنبع من الإسلام، كما جاء في التاريخ: من أنّ الإسلام خلق حركة في القرون الوسطى المظلمة ليحقق إنجازات وتطوراً هائلاً في جميع العلوم البشريّة والتجريبيّة وقد صدّر المسلمون من خلالها نتاجاتهم العلميّة إلىٰ جميع أكناف العالم وكان كما صرّح بعض علماء الغرب بمنزلة الشمعة التي أضاءت ظلمات القرون الوسطى لأوربا.

ويمكن أن تكون العبارة الخامسة: «عَزِيزُ السُّلْطانِ» إشارة إلىٰ منعة وإقتدار حاكمية الإسلام الذي لا يقهر، أو منعة أدلته وبراهينه القوية والمتقنه وحصانتها من الإنهيار.

---

١. منهاج البراعة، ج ١٢، ص ٢٩٤.

٢. «معوز» من مادة «اعوزاز» بمعنى الازمة والقلة.

والعبارة السادسة: «مُشْرِفُ الْمَنَارِ» واستناداً إلىٰ أنّ «منار» أعمدة مرتفعة كانوا يضعون عليها المصابيح المضيئة لكي لا يضلّ المسافرون طريقهم في الصحارى والفلوات، وكلّما كان هذا المنار أرفع وأعلى كان أعظم هداية وإرشاداً للآخرين ـ إشارة إلىٰ أنّ هدى القرآن والإسلام على درجة من القوّة بحيث يدعو إليه جميع النائين من مختلف البقاع.

والعبارة السابعة: «مُعْوِذُ الْمَثَارِ» بالنظر إلىٰ أنّ «مثار» مصدر ميمي وبمعنى الحمل على الحركة والإثارة والطرد ـ فهي إشارة إلىٰ أنّ أي قدرة وقوّة لا يسعها مواجهة الإسلام الأصيل.

ثم أصدر عليه السلام أثر ذكره لهذه الصفات أربع وصايا تمثّل في الواقع لوازم تلك الصفات فقال: «فَشَرِّفُوهُ واتَّبِعُوهُ، وأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ».

ومن البديهي أن يكون عظيماً من يتصف بهذه الصفات وعلى العاقل أن يعزه ويكرمه ولابدّ من اتباع هذا الدين الذي يمتاز بهذه الأدلة القوية والواضحة والائتمار بأوامره ويعطيه ما يستحقه من منزلة بأن يجعله أسوة لحياته في جميع شؤونه.

❧

القسم الرابع

ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطِّلاَعُ، وأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاق، وقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاق، وخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاع مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَاب مِنْ أَشْرَاطِهَا، وتَصَرُّم مِنْ أَهْلِهَا، وانْفِصَام مِنْ حَلْقَتِهَا، وانْتِشَار مِنْ سَبَبِهَا، وعَفَاء مِنْ أَعْلاَمِهَا، وتَكَشُّف مِنْ عَوْرَاتِهَا، وقِصَر مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ اللهُ بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، ورَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ، ورِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ.

الشرح والتفسير

ربيع الإسلام

بين الإمام عليه السلام في الفصل السابق ببحث رائع عظمة الإسلام وبعض خصائصه وامتيازاته من خلال عبارات عميقة وبليغة. ثم تطرق هنا بشأن من بعث بذلك الدين أي النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولاسيما تلك الظروف المعقدة التي انبثقت في ظلها دعوته الشريفة. وسيتطرق في الفصل القادم إلىٰ أهميّة القرآن الكريم بصفته أهم معجزة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودستور الشريعة الإسلاميّة.

وركز في هذا الفصل ـ كما ورد انفاً ـ إلىٰ الظروف المعقدة للعصر الجاهلي والفترة التي انطلقت فيها الدعوة الإسلاميّة من خلال أربع عشرة عبارة قصيرة وعميقة المعنى في كشف ملابسات ذلك الزمان فقال: «ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ

مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الإنْقِطَاعُ، وأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاَعُ[١]، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاق، وقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاق[٢]».

وأضاف: «وخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ[٣]، وَأَزِفَ[٤] مِنْهَا قِيَادٌ[٥]، فِي انْقِطَاع مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَاب مِنْ أَشْرَاطِهَا[٦]».

ثم قال: «وتَصَرُّم[٧] مِنْ أَهْلِهَا، وانْفِصَام مِنْ حَلْقَتِهَا، وانْتِشَار مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاء[٨] مِنْ أَعْلاَمِهَا، وتَكَشُّف مِنْ عَوْرَاتِهَا، وقِصَر مِنْ طُولِهَا».

وهذه العبارات الأربع عشرة تشير جميعاً إلىٰ أنّ العالم آيل إلىٰ الزوال، وأننا لنعيش أواخره. فالنعم والإمكانات والمواهب والاستعدادات في جميع الجوانب تسير نحو الفناء.

ثم قال عليه السلام: «جَعَلَهُ اللهُ بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وكَرَامَةً لأُمَّتِهِ، ورَبِيعاً لأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لأَعْوَانِهِ، وشَرَفاً لأَنْصَارِهِ».

نعم ! فهذا النّبي العظيم صلى الله عليه وآله قد خلق ربيعاً مفعماً بالنضارة والحيوية آخر الدنيا وبلغ باتباعه قمة الفخر وذروة الانتصار وأغنى الجميع ببركة وجوده وأشرقت بطلعته تلك الشمس الساطعة في ذلك الوسط المعتم.

---

١. «اطّلاع» من مادة «طلوع» بمعنى الظهور والإتيان والاشراف والعلم بشيء.

٢. «ساق» تعني في الأصل ساق الإنسان ولأنّ الإنسان يقف على ساقه في الأعمال الصعبة والمعقدة، لذا أصبحت هذه المفردة كناية عن الشدّة والمشقّة.

٣. «مهاد» تعني في الأصل الفراش، ثم اطلقت على الأراضي المستوية بصورة عامة.

٤. «أزف» من مادة «ازوف» على وزن «وقوف» بمعنى التقرب.

٥. «قياد» من «قيد» تعني القبض و«قياد» هو الحبل الذي يوضع حول رقبة الحيوانات والعبارة «ازف منها قياداً» تعني كأنّهم وضعوا حبلاً حول رقبة الدنيا وسحبوها إليهم.

٦. «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامة.

٧. «تصرّم» من مادة «صرم» على وزن «سرو» بمعنى القطع و«تصرّم» بمعنى الانتهاء.

٨. «عفاء» تستعمل بالمعنى المصدري والاسم المصدري؛ يعني الزوال والاضمحلال، واقتبس العفو من هذا المعنى؛ لأنّ الذنوب تضمحل على أثر العفو.

اجابة عن سؤال

بالنظر إلىٰ ما ورد سابقاً فإنّ القسم الأعظم من هذه الدنيا قد مضى ولم يبق من عمرها سوى القليل، وهذا ما يستفاد بصورة جلية من الآيات القرآنيّة. فقد جاء في الآية الشريفة الأُولىٰ من سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

كما جاء في الآية الأُولىٰ من سورة القمر: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وفي الآيتين السادسة والسابعة من سورة المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ وسائر الآيات.

وهنا يرد هذا السؤال: وكم هو عمر الدنيا ليقال ولّىٰ شطرها الأعظم؟ لقد مضى ١٤ قرناً على الدعوة الإسلاميّة ويمكن أن تمضي قرون طويلة أخرىٰ، والحال لا نشعر بأثر على زوال الدنيا وبداية القيامة.

وردت عدّة أقوال لشرّاح نهج البلاغة بهذا الشان وكأنّهم بلغوا طريقاً مسدوداً وأخذ كلٌّ يبحث عن سبيل للخروج منه، وأعرب البعض الآخر بعد كثرة الكلام عن عجزه ورأى من الأنسب الصمت والسكوت.

والطريف في الأمر أنّ كلّ شارح ذكر شيئاً بشأن عمر الدنيا؛ فقيل ٥ آلاف سنة وقيل ٧ آلاف سنة وقيل ١٢ ألف سنة، بينما عدّها البعض الآخر أكثر من ذلك، والأعجب من ذلك أنّ البعض أضاف مقداراً من الشهور والأيّام إلىٰ ما ذكره من سنوات، ويبدو أنّ أحداً منهم لم يعزز كلامه بدليل معتبر بل مجرّد استناد الكلام إلىٰ الحدس والظن؛ أو كإطلاق السهم في الليل كما يقولون. ونرى من الأفضل قبل أن نخوض في تعيين عمر الدنيا بالسنوات والأشهر والأيّام؛ أن نتجه صوب الإجابة عن السؤال المذكور لنرى كيف أنّ ما تبقى من عمر الدنيا أقلّ ممّا تصرم منها.

ذكرت هنا عدّة أجوبة والجواب الآتي يعدّ أفضلها.

فالعلم المعاصر وكذلك الروايات الإسلاميّة ترى للحياة البشريّة تاريخاً طويلاً

على الكرة الأرضيّة وبمقارنته بما بقى من عمر الإنسان على وجه الأرض يمكن أن يكون قصيراً.

فقد جاء في بعض الروايات: «**أوتظنون أنّ الله لم يخلق خلقاً غيركم، إنّ الله خلق ألف ألف آدم قبل آدمكم هذا**»[١].

وعليه فليس هنالك من مشكلة في ما ورد في هذه الخطبة وكذلك الإشارات التي تضمنتها مختلف الآيات القرآنيّة إلىٰ هذه المسألة والتي تشير إلىٰ قصر عمر ما تبقى من الدنيا.

والتفسير الآخر للعبارات المذكورة أنّ المراد من انقطاع الدنيا واقبال الآخرة هو نهاية حياة الناس أو الأمم، لأنّ مدّة عمر الإنسان قصيرة ولا يكاد يعيش فترة حتى يحل أجله.

ولو أمعنا النظر في العبارات الأربع عشرة المذكورة لرأينا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع تلك العبارات.

تأمّل

ربيع النبوّة

أشار الإمام عليه السلام في ختام هذا القسم إلىٰ الافتخار بخلق النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لاتباعه، ليعتبره بمنزلة فصل الربيع لأهل زمانه وشرف ورفعة وعزّة أعوانه وأنصاره.

وإننا لندرك حقيقة هذه العبارات التي وردت في الخطبة كلّما تأمّلنا تاريخ العصر الجاهلي ثم تلك النهضة والثورة العظيمة التي احدثتها البعثة النبويّة الشريفة، فقد كان أعراب الجاهلية يعتبرون الإنسان فاقداً لأية منزلة اجتماعيّة وتاريخيّة تذكر، بينما حظى بمكانة قل نظيرها أو انعدم في التاريخ البشري في ظلّ البعثة النبويّة،

---

١. بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣٣٦. وذكر المرحوم العلّامة الطباطبائي في الجزء الرابع من الميزان في ذيل الآية الأولى من سورة النساء بحث جامع.

فلم يكتف أتباع نبي الإسلامﷺ من العرب والعجم بتشكيل تلك الحكومة الواسعة الأطراف آنذاك في معظم مناطق العالم، بل بلغوا ذروة العلم والمعرفة والمدنيّة ممّا جعل العلوم الإسلاميّة في خاتمة المطاف تعدّ بؤرة وانطلاقة لتلك الثورة العلميّة التي شهدتها أوربا في العصر الحديث، ولو عاد المسلمون اليوم لأمجادهم السابقة وأحيوا تلك القيم الإسلاميّة والمثل الدينيّة لاحتلوا الصدارة ثانية في المجالات العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة.

القسم الخامس

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وسِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ومِنْهَاجاً لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وشُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وفُرْقَاناً لَا يَخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وتِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وعِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وحَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وبُحْبُوحَتُهُ، ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ، ورِيَاضُ الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ، وأَثَافِيُّ الْإِسْلَامِ وبُنْيَانُهُ، وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وغِيطَانُهُ. وبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ومَنَاهِلُ لَا يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، ومَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وآكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، ومَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، ونُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وعِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، ومَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ. وعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وحُكْماً لِمَنْ قَضَى.

الشرح والتفسير

خصائص القرآن الكريم

كما قيل سابقاً فقد استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة البليغة بالحديث عن أهمّيّة

التقوى، ثم شرح سبيل التقوى الذي يتمثّل في تبعية هذا الدين الحنيف، وخاض في المرحلة التالية في أهميّة الدعوة النبويّة وحامل الرسالة الإسلاميّة، وتعرض في القسم الأخير من الخطبة إلىٰ خصائص وإمتيازات القرآن معجزة النّبي الخالدة ودستور الشريعة الإسلاميّة السمحاء، والذي يجدر ذكره أنّ الإمام عليه السلام أشار بـ ٤٢ عبارة قصيرة وعميقة المعنى إلىٰ ٤٢ إمتيازاً مهمّاً من امتيازات القرآن وشرح خصائصه باسهاب بحيث لا يمكن تصور ما هو أفضل منه.

فتطرق في البداية إلىٰ عشر فضائل وامتيازات فقال: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وسِرَاجاً لَا يَخْبُو[1] تَوَقُّدُهُ، وبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ومِنْهَاجاً[2] لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وشُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وفُرْقَاناً لَا يَخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وتِبْيَاناً لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وعِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وحَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ».

والعبارتان الأُولىٰ والثانية في الواقع اقتباس من الآيات القرآنيّة التي شبهت القرآن بالنور ومن ذلك الآية ١٥ من سورة المائدة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾. فالقرآن الكريم أضاء بنوره طرق الحياة المظلمة وكشف السبيل القويم من بين سبل الضلالة والحيرة، وأرشد قوافل المجتمعات الإنسانيّة في صحارى وفلوات هذا العالم إلىٰ هدفها المنشود ألا وهو سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

وتشير العبارة الثالثة: «وبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ» إلىٰ الأسرار الخفية ودقائق العلوم المودعة في القرآن الكريم والتي تسمو على الأفكار ولا يبلغها سوى خاصة أولياء الله، وقد أشارت بعض الروايات الإسلاميّة إلىٰ بطون القرآن المتعددة.

والتعبير بالمنهاج الوارد في العبارة الرابعة بشأن القرآن الذي يعني الطريق الواضح والمستقيم الذي لا يضلّ فيه السالكون إشارة إلىٰ الأفراد الذين انتفعوا بهذا الطريق الواضح والصراط الإلهي المستقيم ولا يعتريهم الضلال قط.

---

١. «يخبو» من مادّه «خبو» على وزن «سرو» بمعنى الانطفاء.

٢. «منهاج» تعني الطريق الواسع الواضح و«نهج» تعني السير في مثل هذا الطريق.

كما تصمنت العبارة الخامسة: إشارة أخرىٰ إلىٰ نور القرآن حيث إنّ ضياءَه خالد لا يزول أبداً كما وصف القرآن نفسه فقال: ﴿لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

وأشارت العبارة السادسة إلىٰ نقطة مهمّة أخرىٰ وهي أنّ القرآن فرقان؛ أي حين يمتزج الحقّ بالباطل أحياناً، فما كان مطابقاً للقرآن فهو حقّ وما خالفه فهو باطل، وعليه فهو يفرق الحقّ عن الباطل، وقد ورد التعبير عن القرآن بالفرقان في الآية الأُولىٰ من سورة الفرقان إذ قالت: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ والأهم من كلّ ذلك أنّ هذه الصفة للقرآن لا تؤول إلىٰ الخمود والانطفاء والاختفاء أبداً.

وفي العبارة السابعة شبه القرآن بالبناء الراسخ الأركان والأسس بحيث لا يهدم أبداً، وهذه إشارة إلىٰ خلود التعاليم القرآنيّة[2].

ويطالعنا تشبيه آخر في العبارة الثامنة؛ حيث شبه القرآن بالدواء الشافي الذي ليس بعده سقم، ذلك لأننا نعلم «لَيْسَ مِنْ دَواء إلّا ويُهَيِّجُ داء»[3] فإنّ هنالك آثاراً مختلفة سلبيّة للدواء أحياناً، غير أنّ القرآن لا ينطوي سوى على المنافع والآثار الإيجابيّة.

وقد ورد التعبير بالشفاء عن القرآن في ذات القرآن في الآية ٥٧ من سورة يونس: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

وفي الآية ٨٢ من سورة الاسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

حتى أنّه ليستفاد من أغلب روايات المعصومين أنّ القرآن الكريم شفاء

---

١. سورة فصّلت، الآية ٤٢.

٢. جاء في نسخه نهج البلاغة «لصبحي الصالح» «تبيان» بدل «بنيان»؛ ولكن ذكر مجموعة من الشرّاح كلمة «بنيان» وهي المتناسبة مع «لا تهدم أركانه».

٣. الكافي، ج ٨، ص ٢٧٣، ح ٤٠٩.

للأمراض البدنيّة بالإضافة إلىٰ الأمراض العقائديّة والأخلاقيّة، ومن تلك الروايات ما أكّدت على فائدة سورة الحمد في علاج الأمراض البدنيّة.

وقد جاء تفسير سورة الحمد في العديد من الروايات، وكذلك في سائر التفاسير، ومنها تفسير كنز الدقائق، كما ذكر المرحوم الكليني في الجزء الثاني من كتابه أصول الكافي في باب فضل القرآن العديد من هذه الروايات الواردة بهذا الخصوص.

كما ورد الكلام في العبارتين التاسعة والعاشرة من عبارات الخطبة في أنصار القرآن وأعوانه الذين كتبت لهم الغلبة على الأعداء دائماً فلا يعيشون الفشل والهزيمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلىٰ احدى عشرة فضيلة أخرىٰ بعبارات قصيرة ومتتابعة، حيث شبه القرآن بالبحر والعين الصافية والبناء المتقن والمعدن الثمين والمنهج الواضح فقال: «فَهُو مَعْدِنُ الأِيمانِ وبُحْبُوحَتُهُ[1]، ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ، ورِيَاضُ[2] الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ[3]، وأَثَافِيُّ[4] الإِسْلامِ وبُنْيَانُهُ، وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وغِيطَانُهُ[5]. وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ[6] الْمُسْتَنْزِفُونَ، وعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا[7] الْمَاتِحُونَ[8]، ومَنَاهِلُ لَا يُغِيضُهَا[9] الْوَارِدُونَ، ومَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا

---

١. «بحبوحة» بمعنى مركز ووسط كلّ شيء.

٢. «رياض» جمع «روضه» بمعنى البستان.

٣. «غدران» جمع «غدير» بمعنى البركة والنهر وهي في الأصل حفرة تتجمع فيها المياه من السيول.

٤. «أثافي» جمع «أثفية» على وزن «أضحيّة» من ماده «أثف» على وزن «أنف» بمعنى الثبات والاستقرار ويقال «أثفية» للصخور الثابتة التي يوضع عليها الإناء.

٥. «غيطان» جمع «غيط» على وزن «زيد» بمعنى الشدّة والأرض الوسيعة.

٦. «ينزف» من مادة «نزف» على وزن «نظم» بمعنى اخراج الماء من شيء (وكذلك بمعنى أخذ الدم) ويقال «مستنزفون» لمن يخرجوا الماء من الحفرة أو البئر بحيث ينفد.

٧. «ينضب» في الأصل من مادة «نضوب» بمعنى غوص الماء في الأرض وعبارة «لا ينضبها» أنّ الماء لا ينفذ تلك العيون.

٨. «ماتحون» جمع «ماتحة» من مادة «متح» على وزن «مدح» بمعنى سحب الماء من البئر أو العين.

٩. «يغيض» من مادّه «غيض» على وزن «غيب» تعني في الأصل الغوص أو السحب (اللازم والمتعدي) وتعني في هذه العبارة التقليل.

السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ[1] لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ».

العبارة: «مَعْدَنِ الأيمانِ» إشارة إلىٰ أنّ أدلة المعارف الإسلاميّة من التوحيد واثبات وجود الله حتى مسألة المعاد وإعجاز القرآن والولاية؛ إنّما ذكرت جميعاً وبصورة واسعة في القرآن الكريم وهي الأدلة التي تشكل مصادر الأدلة الأخرىٰ، ذلك لأنّ المعدن يطلق على المصدر والمنبع والمركز الأصلي للأشياء الثمينة.

كما ذكر هذا المطلب بتعبير آخر في العبارة الثانية، اعتبر فيها القرآن عيناً فياضة وبحراً من العلم، بل عيون متدفقة وبحار يستطيع أهل الإيمان انتهال مختلف العلوم منها، وإننا لنعلم اليوم أنّ مصدر علم الكلام والفقه والأخلاق وتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام والعلوم الأخرىٰ هو القرآن الكريم.

وأشار في العبارة الثالثة إلىٰ مسألة مهمّة أخرىٰ ليصف فيها القرآن على أنّه حدائق ورياض العدل وغدرانه ومنابعه، فقد خاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[2]؛ أي أنّه لا يرى القيام بالعدل كافياً ويرى ضرورة القيام بالقسط حيث القوام صيغة مبالغة وتأكيد، حتى أنّه ليصرح بأنّ العداوة والبغضاء والقرب والصداقة لا ينبغي أن تحول دون إجراء العدالة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَأَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[3].

كما أوصى في ذيل الآية الأُولىٰ: بعدم التواني في إجراء العدالة حتى تحت طائلة إسناد الأب والأُم والأقرباء.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام شبه العدالة بالروضة والغدير الذي يسقي الروضة، وبالطبع فإنّ المجتمع الذي تطبق فيه العدالة بمثابة جمال الحديقة والروضة والحركة والحيوية الناشئة من السقي الكافي، في حين أنّ المجتمع الذي يسوده الظلم

١. «آكام» جمع «أكمة» على وزن «طلبة» بمعنى المرتفع الذي صنع من الصخر أو الرمل.
٢. سورة النساء، الآية ١٣٥.
٣. سورة المائدة، الآية ٨.

والتمييز الطبقي أشبه بالصحراء القاحلة والمحرقة الخالية من الماء والزرع.

والكلام في العبارة الرابعة عن أساس وبنيان الإسلام الذي ورد في القرآن الكريم، لأنّ «أثافي» و«بنيان» تعني الأسس والجذور، وحسب رواية الإمام الباقر عليه السلام: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلى خَمْسَةِ أَشْياء: عَلَى الصَّلاةِ والزَّكاةِ والْحَجِّ والصَّوْمِ والْوِلايَةِ»[1] ونعلم أنّ أصول هذه الفرائض وردت بصورة موسعة في القرآن الكريم.

وجرى الكلام في العبارة الخامسة عن الحقّ (الحقّ بمعناه الجامع الواسع الذي يشمل جميع الحقوق الإلهيّة والإنسانيّة والاجتماعيّة) حيث قال الإمام عليه السلام: «وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وغِيطَانُهُ».

وجرى الكلام في العبارات السادسة والسابعة والثامنة عن عدم نفاد المعارف والعلوم القرآنيّة التي لا تتناقص مهما اغترف منها، وتمد العلماء والباحثين والسالكين بالجديد من الحقائق حتى يوم القيامة، والدليل على ذلك واضح، فالقرآن كلام الله وكلام الله كذاته لا متناهٍ، على غرار ما ورد عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا تُحْصى عَجائِبُهُ ولا تُبْلى غَرائِبُهُ»[2].

ويحمل هذا الكلام رسالة واضحة لجميع مفسري القرآن وهي أن لا يتصوروا أنّ ما قالوه بشأن القرآن هو آخر الكلام وليس هنالك ما هو جديد غيره.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام بشأن مَن سأله عن القرآن الكريم، قائلاً: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضةً؟ فقال عليه السلام: «لأَنَّ اللهَ لَم يَجْعَلْهُ لِزَمانٍ دُونَ زَمانٍ وَلا لِناسٍ دُون نَاس، فَهُو فِي كُلِّ زَمانٍ جَديدٌ وعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»[3].

والعبارات التاسعة والعاشرة والحادية عشرة إشارة إلى وضوح منهج القرآن

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام.

٢. المصدر السابق، ص ٥٩٩.

٣. بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣، ح ١٨.

وضمانه الهدى لسالكي هذا الطريق، فلا يضل من سلك ولا تخفى علاماته على من سار عليه كما لا تغيب عنهم منازله الآمنة.

ثم أشار عليه السلام في مواصلته لذكر هذه الصفات الرفيعة للقرآن إلىٰ خمس صفات أخرىٰ فقال: «جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً[1] لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، ومَحَاجَّ[2] لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، ونُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ».

والعبارة الأُولىٰ: «جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ» إشارة إلىٰ أنّ كلّ عالم أكثر تعطشاً للعلم، ذلك لأنّه ذاق طعم العلم والمعرفة، وبما أنّ علوم القرآن الكريم ومعارفه غاية في السعة وليست محدودة فإنّ العلماء يستطيعون ري عطشهم العلمي بالقرآن.

جاء في الكلمات القصار للإمام عليه السلام في نهج البلاغة: «مَنْهُومانِ لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْم وطالِبُ دُنْيا»[3].

والعبارة الثانية: «ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ» إشارة إلىٰ أنّ عالم الطبيعة يستأنف حياته في فصل الربيع، فتظهر النباتات والأزهار والثمار، وللقرآن مثل هذا الأثر في القلوب الواعية، فأزهار الفضيلة وثمار الإيمان اللذيذة والأخلاق والمعرفة وبالتالي القرب الإلهي إنّما يتيسر في ظلّ القرآن الكريم.

واعتبر القرآن في العبارة الثالثة جادة واسعة وواضحة لسالكي الحق، لأنّ الصلحاء هم أولئك الذين يحثون الخطى في السير والسلوك إلىٰ الله وأنّ أفضل جادة وطريق يُمكّنهم من بلوغ المقصد هي جادة القرآن الكريم.

وأشار في العبارة الرابعة إلىٰ نقطة جديدة وهي أنّ الأدوية قد يكون لها أحياناً تأثير في التسكين فقط، كما تكون أحياناً أخرىٰ علاجاً مؤقتاً وثالثة علاجاً تاماً،

---

١. «ري» (بكسر الراء وفتحه) بمعنى الارتواء.

٢. «محاج» جمع «محجة» بمعنى الطريق الواسع والواضح.

٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٤٥٧.

لكنها تستبطن عوارض سلبيّة وأمراضاً عرضيّة، أمّا القرآن فهو الدواء المنزه عن هذه الأمور فهو العلاج التام الخالي من العوارض السلبيّة، كما أشار في العبارة الخامسة إلىٰ أمر جديد وهو أنّ أنوار عالم المادة تمتزج أحياناً بالظلمة (كالنور بين الطلوعين وبين الغروبين) وإن لم تخالطه ظلمة فإنّ له خسوفاً وكسوفاً أو غروباً وافولاً أمّا نور القرآن فلا غروب ولا أفول فيه ولا خسوف ولا كسوف، لأنّه ينبعث من نور علم الحقّ وليس هناك من سبيل إلىٰ الظلمة: ﴿اَللّٰهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[1].

ثم أشار عليه السلام إلىٰ أربعة امتيازات أخرىٰ من امتيازات القرآن فقال: «وحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلاً[2] مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وعِزًّا لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ».

فالإمام عليه السلام ببيانه لهذه الصفات الأربع إنّما شبه في الواقع سعادة الإنسان بالقلعة الحصينة الواقعة على سفح الجبل، وعلى سالكي هذا الطريق ـ على غرار متسلقي الجبال ـ أن يتمسكوا بحبال قوية مربوطة اعلى الجبل ويتمسكوا بعدّة عروات وثيقة ليتمكنوا من الوصول إلىٰ تلك القلعة وتلك القلعة في موضع لا يبلغها العدو وكل من دخلها كانت له قدرة لا تقهر وعاش فيها سليماً معافىٰ.

ومن هنا يفرز العدو الأصلي للإنسان هوى النفس والشيطان وعدم الاستقرار، ومن يستظل بالقرآن سيبلغ ذروة السلامة والسعادة والكرامة والأمن.

ثم أشار عليه السلام إلىٰ خمس صفات منسجمات أُخر من صفات القرآن فقال: «وهُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ[3]، وبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وفَلْجاً[4] لِمَنْ حَاجَّ بِهِ».

المراد من الهدى في العبارة الأُولىٰ واضح، والمراد من العذر في العبارة الثانية

---

١. سورة النور، الآية ٣٥.

٢. «معقل» بمعنى الملجأ والموضع من مادة «عقل» بمعنى المنع، لأنّ الملاجىء تقي الإنسان من الحوادث.

٣. «انتحل» تعني قبول مذهب ودين من مادة «نحلة» على وزن «خرقة» تعني الإيمان.

٤. «فلج» بمعنى الظفر والفوز.

يمكن أن يكون إتمام الحجّة، حيث أتمّ القرآن الحجّة على جميع الأفراد بشأن الإيمان والإتيان بالواجبات الإلهيّة، كما يمكن أن يكون إشارة إلىٰ أنّ القرآن سيكون معذوراً أمام الله تعالى في القيامة، بمعنى كلّ من كان عمله وفق تعاليم القرآن سيكون معذوراً عند الله، ويبدو المعنى الثاني أصوب من الأوّل.

والعبارة: «بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ» إشارة إلىٰ أنّ الإنسان لا يستطيع الاستدلال بالقرآن في عقائده وأعماله فحسب، بل البراهين القرآنيّة أفضل برهان في دحر حجّة المخالفين سواء في المبدأ والمعاد أو في الإرشادات الدنيويّة.

والعبارة: «شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ» تأكيد أكثر على هذا المعنى إذ إنّ كلّ من جعل القرآن شاهده على خصمه كان أعظم شاهد له ونتيجة ذلك ما ورد في العبارة الخامسة من أنّ الاستدلال والاستشهاد بالقرآن سبب التغلب والانتصار على الخصم.

ثم قال الإمامعليه السلام في آخر سبع صفات اختتم بها هذه الخطبة: «وحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ[1]، وجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلأَمَ[2]، وعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وحُكْماً لِمَنْ قَضَى».

فقد شبه المؤمن بالقرآن في العبارة الأُولىٰ والثانية بالشخص الذي ركب مركباً يحلق به إلىٰ سماء السعادة.

واعنبر القرآن في العبارة الثالثة وسام شرف لجميع الأفراد الذين جعلوه دلالة حياتهم، فآيات القرآن أفضل شعار وعلاماته ودلالاته أفضل العلامات والدلالات.

وعدّه في العبارة الرابعة كدرع يقي الإنسان مكاره الحوادث في مواجهته للأعداء، العدوالظاهري المخالف للإسلام والعدو الباطني، أي هوى النفس والعدو

---

١. «توسّم» من «وسم» على وزن «وصل» بمعنى نصب العلامة وتعني أحياناً الجمال.

٢. «استلأم» من مادة «لئم» على وزن «لعن» بمعنى التجميع والالتيام وتناسب شيئين و«استلام» تعني لبس الآلات الحربية والدروع، أي كما أنّهم قد ناسبوا بين أجسامهم ولبس هذه الأشياء.

الخفي أي الشيطان.

وأشار في العبارات الخامسة والسادسة والسابعة إلىٰ العلوم الحاصلة من القرآن، ويمكن أن تكون العبارة «وعِلْماً لِمَنْ وَعى» إشارة إلىٰ استدلالات القرآن المنطقية والعبارة «حَديثاً لِمَنْ رَوى» إشارة إلىٰ الأحاديث النقلية والأحاديث التي بلغتنا من جانب الوحي.

وأشار عليه السلام في العبارة الأخيرة إلىٰ تطبيقه العملي في مسألة القضاء واصدار الأحكام، بناءً على أنّ القضاء في العبارة بمعنى الأحكام في الخصومات، وإن كان القضاء يشمل الأحكام كافّة، فهوإشارة إلىٰ جميع الأحكام الفقهية والعقائدية.

تأمّلان

١. عظمة القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام

ورد البحث بشأن عظمة القرآن في عدّة خطب من نهج البلاغة، ولكن لم يرد أي بحث بهذه السعة والشموليّة، وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبة (إثنا وأربعين امتيازاً للقرآن) من مطالب يمكن أن تجعل المراقب غير الواعي يظنها من قبيل الادعاء الذي يفتقر إلىٰ الدليل، إلّا أنّ الدقّة في الآيات القرآنيّة تفيد وجودِ العديد من الشواهد والأدلة الكافية على هذا الأمر.

فمثلاً حين عد الإمام عليه السلام القرآن معدن الإيمان ومصدر العلم فذلك لأنّ القرآن ذكر عدّة أدلة بشأن أهم المسائل العقائديّة أي المبدأ والمعاد بحيث فتح أبواب الإيمان بالله والمعاد بوجه كلّ إنسان منصف.

وبشأن مسألة معرفة الله، فهو يأخذ بيد الإنسان في أعالي السماء وأعماق الأرض ليريه الحركة المنظمة لتعاقب الليل والنهار وحركة الرياح[١]، وخلق أنواع

---

١. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ☜

الحيونات والنباتات والثمار،[١] وتحليق الطيور في السماء[٢]، وحركة الغيوم وامتلاء الأرض العطشى بالمياه أثر نزول الأمطار[٣] والتي تعكس كلّ واحدة منها نظام عالم الخليقة ليوقن أنّ وراء ذلك مبدأ علم وقدرة صاغه بهذا الشكل. وبشأن مسألة المعاد فقد أخذ بيد الإنسان الطالب للحقيقة إلىٰ بداية الخليقة[٤] وليريه مشاهد المعاد في عالم النباتات[٥] وقدرة الله على إحياء العظام البالية للموتى[٦].

وأمّا بشأن العدالة فقد أولاها أهميّة بحيث اعتبرها من وظائف المؤمنين القطعية[٧] وتطبيقها حتى بشأن العدو[٨] وعدّ الانحراف عنها كبيرة من الكبائر.

وإن عدّ أميرالمؤمنين عليه السلام القرآن كعين فياضة لري قلوب العلماء وربيع قلوب الفقهاء فدليل ذلك في ذات القرآن، ذلك لأنّه وإن كتبت آلاف التفاسير للقرآن فما زال العلماء يكتشفون كلّ يوم ما هو جديد فيه.

النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَآء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّة وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَات لِّقَوْم يَعْقِلُونَ﴾. (سورة البقرة، الآية ١٦٤).

١. ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَان يُسْقَى بِمَآء وَاحِد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْض فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِّقَوْم يَعْقِلُونَ﴾. (سورة الرعد، الآية ٤).

٢. ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَات فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِّقَوْم يُؤْمِنُونَ﴾. (سورة النحل، الآية ٧٩).

٣. ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾، ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. (سورة الروم، الآيتان ٤٨ و ٥٠).

٤. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. (سورة الأعراف، الآية ٢٩).

٥. ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾. (سورة الكهف، الآية ٤٥)

٦. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ﴾. (سورة يس، الآيتان ٧٨ و ٧٩).

٧. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوعَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِالْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾. (سورة النساء، الآية ١٣٥).

٨. ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْم عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَأَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (سورة المائدة، الآية ٨).

وإن قال الإمام عليه السلام: إنّ القرآن سبب عزّة المسلمين واقتدارهم فدليل ذلك وقد ورد في عدّة آيات قرآنيّة في أنّه يدعو إلى وحدة الكلمة وعدم التفرقة ويرى الإخوة هي رابطة المؤمنين ونتيجة ذلك عزّة المؤمنين في ظلّ عزّة الله[١].

كما أنّ جذور جميع المواضيع التي ذكرها الإمام عليه السلام بصفتها ٤٢ إمتيازاً للقرآن في هذا الجانب من الخطبة موجودة في القرآن الكريم، ولو جمعت لأصبحت كتاباً ضخماً، ولو عمل بهذه الأوامر والتعاليم لحصلت منها كلّ هذه الآثار.

٢. العلماء الأجانب والقرآن

إنّ عظمة القرآن لم تقتصر على الإشادة به بهذه الصفات العظيمة من قبل المسلمين وكبار العلماء الأعلام، بل أذعن لهذه العظمة حتى أولئك الأباعد الذين غاصوا في تأمّل آيات هذا الكتاب السماوي فذكروا بعض العبارات الجديرة بالتأمّل والاهتمام.

كتب «آلبرماله» المورّخ والعالم الفرنسي المعروف في كتابه «التاريخ العام» حول القرآن:

«إنّ القرآن ممتاز بمعنى الكلمة، البديل عن سائر الكتب القيمة والذي يضم جميع العلوم (الإنسانيّة) وهو الكتاب الذي يحتوي على التعاليم الدينيّة والقوانين المدنيّة المعاصرة، ونسخة مرشدة للقاضي وكمال تام للزعيم الروحاني»[٢].

وكتب «ويل ديورانت» العالم والفيلسوف المعروف المعاصر في كتابه تاريخ الحضارة:

«إنّ القرآن يخلق عقائد سهلة وبعيدة عن الغموض في القلوب المتواضعة، منزّهة

---

١. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٠٣).
﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (المنافقون، الآية ٨).

٢. ثقافة المستشرقين المسلمين، تأليف حسين عبداللهي خروش، ج ١، ص ١٥.

من طقوس العادات الهجينة ومن سنن الوثنية والكهنة، وببركته بلغ المسلمون ذلك الرقي الأخلاقي والثقافي ورسخ بينهم النظم الاجتماعيّة وأسس الوحدة.

وأضاف: إنّه حرّر عقولهم من العديد من الأوهام والخرافات والظلم والعنف وأكسبهم عزّة وكرامة، وقد غرس في المجتمع الإسلامي حالة من الاعتدال والتقوى ليس لها مثيل في أيٍّ من مناطق العالم التي قطنها الإنسان الأبيض...»[1].

وكتب «رولف لين تون» صاحب (سير الحضارة):

«لقد مهدت المدرسة القرآنيّة سبيل الرقي والتطور لكلّ فرد مهما كان انتماؤه، بحيث أمكن حتى لابن العبد أن يبلغ المقامات الرفيعة والعالية في المجتمع الإسلامي»[2].

وقال البروفسور «درابرز اروب»:

«القرآن سلسلة من الوصايا والتعاليم الأخلاقيّة والذي يتكون من مفاهيم يقبلها الجميع. وهذه الوصايا والتعاليم بليغة وكاملة وهي ضرورية ولازمة لتنظيم شؤون الناس»[3].

وقال «جان ديون بورت» مؤلّف كتاب «الاعتذار إلىٰ القرآن ومحمد من التقصير»:

«إنّ القرآن منزّه عن كلّ عيب ونقص بحيث لا يتطلب أدنى إصلاح، ولا يشعر الإنسان بأي ملل إذا ما تصفحه من أوله إلىٰ آخره»[4].

وقال الشاعر الألماني المعروف والعالم «جيته»:

«لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النبي محمّد، ولكن كلما خطونا علىٰ طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب

---

١. عصر الإيمان، القسم الثاني، الحضارة الإسلاميّة، ص ٥٢.

٢. ثقافة المستشرقين المسلمين، ج ١، ص ١٥.

٣. المصدر السابق، ص ١٤.

٤. من مقدمة منظمات المدنيّة للامبراطورية الإسلاميّة، ص ١١١.

الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشرية»[1].

١. التفسير الأمثل، ج ١، ذيل تفسير الآية ٢٣ و ٢٤ من سورة البقرة.

١٩٩

ومن كلام له عليه السلام

كانَ يُوصي بِهِ أصْحابَهُ[1]

نظرة إلى الخطبة

أوصى الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بأربعة أمور مهمّة من التكاليف الإسلاميّة والتي تشكل جانباً من الخطبة.

فقد تطرق في القسم الأوّل إلى الصلاة وأهميتها وأشار إلى الإكثار منها والمحافظة على كيفيتها ليعتبرها وسيلة النجاة في الآخرة وسبب التطهر من المعاصي في الدنيا وغسل الروح والقلب من الرذائل الأخلاقيّة، ثم ذكّر باهتمام النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنين بالصلاة.

وخاض في القسم الثاني في مسألة الزكاة التي تعدّ من أهم أركان الإيمان بعد الصلاة وعدّها من كفّارات الذنوب وحجاباً من نار جهنم، وأنّ أدائها مفخرة عظيمة، وعرض بالذم لمن يغفل عنها.

---

١. سند الخطبة:

روى المرحوم الكليني قبل السيد الرضي قسما رئيسياً من هذا الكلام في الكافي، كتاب الجهاد (الكافي، ج ٥، ص ٣٦). ولم يرد أكثر من هذه في مصادر نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٥).

وانتقل في القسم الثالث إلىٰ موضوع غاية في الأهميّة والذي يتمثل بأداء الأمانة ليعتبر المؤتمن سعيداً وخائن الأمانة مهزوماً وآيساً من رحمة الله وخاض في تفسير مختصر للآية الشريفة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...﴾[1].

وتحدّث في القسم الرابع عن موضوع مهم يضمن إجراء جميع التكاليف والأحكام الإلهيّة وهو مراقبة الله واحاطته العلميّة بجميع أعمال الإنسان، وكذلك أعضاء الإنسان وجوارحه وضميره هي الأخرىٰ مراقبة ومحيطه بأعماله.

وتفيد العبارة «كانَ يُوصي بِهِ أصْحابَهُ» أنّ الإمامعليه‌السلام كان يكرر هذا الكلام كلّما سنحت الفرصة ليحذر صحبه من خطورة هذه الأصول الأربعة المهمّة، ويجدر بالسالكين لخط الإمامعليه‌السلام أن يواصلوا وينفذوا هذه الوصايا ويتواصوا بعضهم البعض بهذه المبادئ الأربعة المنجية.

۞۞

١. سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

القسم الأوّل

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وحَافِظُوا عَلَيْهَا، واسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّها (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً). أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). وإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ، وشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّات، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَد وَلَا مَال. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: (رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإِقَامِ الصَّلاَةِ وإِيتَآءِ الزَّكَاةِ). وكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: (وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا)، فَكَانَ يَأْمُرُ بِها أَهْلَهُ ويَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ.

الشرح والتفسير

الأهميّة القصوى للصلاة

أشار الإمام عليه السلام كما ذكرنا في مبحث «نظرة إلىٰ الخطبة» إلىٰ أربعة أمور مهمّة وأكّد علىٰ أنّها من الأركان، تتعلق ثلاث منها بفروع الدين (الصلاة والزكاة وحفظ وأداء الأمانة) والرابع من آثار أصول الدين وهو الإيمان بحضور الله في كلّ مكان وعلمه بمضمرات القلوب وأعمال الجوارح، وأشار في القسم الأوّل المتعلق بالصلاة إلىٰ آثار الصلاة المعنويّة والتربويّة والعاقبة السيئة لتاركي الصلاة والمستخفين بها

وقد عرَّف من خلال ذلك بالمصلّي الحقيقي فقال بادئ الأمر: «تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وحَافِظُوا عَلَيْهَا، واسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّها ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾[1]».

فقد تضمنت العبارة القصيرة أربعة أوامر بشأن الصلاة هي: تعاهدها، والمحافظة عليها، والإكثار منها، والتقرب بها إلى الله.

والمراد من التعاهد المراقبة والإصلاح، ويطلق هذا التعبير على الشخص الذي يتفقد أملاكه ومزارعه ويجد ويجتهد في إصلاحها، وعليه فالعبارة المذكورة إشارة إلى مواصلة المذاكرة بشأن واجبات الصلاة ومستحباتها ومكروهاتها، بحيث يكون كلّ يوم أفضل من سابقه في الصلاة.

والمراد من المحافظة ما أشير إليه في الآية ٢٣٨ من سورة البقرة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلوةِ الْوُسْطَى﴾ والمتمثل بحفظها من الموانع والرياء والسمعة وامثال ذلك.

كما ذهب البعض إلى أنّ المراد حفظ أوقات كلّ صلاة وأدائها في وقت الفضيلة.

ويشير التعبير «استكثروا» لما ورد في الحديث النبوي الشريف: «الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ فَمَنْ شاءَ اسْتَقَلَّ ومَنْ شاءَ اسْتَكْثَرَ»[2].

كما ورد في الرواية: «إنَّ أَحَبَّ الأَعْمالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ الصَّلاةُ والْبِرُّ والْجِهادُ»[3].

وقال في العبارة الرابعة التي تمثّل في الواقع نتيجة للعبارات الثلاث السابقة: «وَتَقَرَّبُوا بِهَا».

جاء في الحديث المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «اَلصَّلاةُ

---

١. سورة النساء، الآية ١٠٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٣٠٨، ح ٩.

٣. وسائل الشيعة، ج ٣، باب ١٠، أبواب اعداد الفرائض، ح ٧.

قُربانُ كُلِّ تَقِيٍّ»[1].

ثم تطرقعليه‌السلام إلىٰ الدليل على الوصايا الأربع بشأن الصلاة، فأشار إلىٰ سبعة واستشهد ببعض الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة فقال في البداية: ﴿إِنَّ الصَّلوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾[2].

وقد ذكر المفسرون تفسيرين لهذه الآية فقالوا: إنّ المراد من «موقوت» الوجوب حيث يستعمل هذا التعبير بدل الوجوب؛ والثاني إنّه إشارة إلىٰ أوقات الصلاة التي ينبغي مراقبتها بدقّة من قبل المؤمنين فيأتون بكلّ صلاة في وقتها.

ثم خاض في الدليل الثاني فقالعليه‌السلام: «أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[3] * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[4]».

طبعاً أشير في مواصلة الآية الشريفة المذكورة إلىٰ سائر الذنوب التي أدّت إلىٰ دخولهم النار من قبيل: عدم إطعام المسكين ومسايرة أهل الباطل والتكذيب بيوم القيامة: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[5]؛ إلّا أنّ المهم هو أنّ القرآن أشار إلىٰ تقديم ترك الصلاة على كلّ تلك الأمور، وهذه دلالة واضحة على أهميّة الصلاة ودورها في سعادة الإنسان.

وهذه الآيات هي أدلّة واضحة على عقاب الكفّار على ترك فروع الدين كتركهم لأصول الدين .

وقال الإمامعليه‌السلام في بيان الدليلين الثالث والرابع لإثبات أهميّة الصلاة: «وإِنَّها

---

١. الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥، ح ٦.

٢. سورة النساء، الآية ١٠٣.

٣. «سقر» في الأصل من «سقر» على وزن «فقر» بمعنى التغيير والتذوب وتغير اللون والأذىٰ من أشعة الشمس ولأنها من آثار جهنم اطلق عليها «سقر». ويستفاد من بعض الروايات أنّ «سقر» يطلق على قسم خاص من جهنم هو مكان المتكبرين.

٤. سورة المدثر، الآيتان ٤٢ و٤٣.

٥. سورة المدثر، الآيات ٤٤ ـ ٤٦.

لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ[١] الْوَرَقِ، وتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ[٢]».

نعم؛ فكما أنّ الصلاة تحول دون الذنوب في المستقبل بمضمون الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الصَّلوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[٣]، فإنّها تؤثر مثل ذلك في الذنوب السابقة عن طريق التوبة والإنابة إلىٰ الله والتي تعدّ الصلاة مصدره فتقضي على المعاصي التي هي كالقيد على رقبة الإنسان وتصده عن الرقي والكمال؛ وتحرره من تلك القيود.

روي عن سلمان الفارسي قال: كنت مع رسول الله إذ جلسنا عند شجرة فهزها رسول الله فتساقطت أوراقها، ثم قال صلى الله عليه وآله: «أَلا تَسْأَلُونني عَمّا صَنَعْتُ؟» قالوا: فأخبرنا يا رسول الله قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إذا قامَ إِلَى الصَّلاةِ تَحاتَتْ خَطاياهُ كَما تَحاتَتْ وَرَقَ هذِهِ»[٤].

ثم استشهد الإمام عليه السلام في استدلاله الخامس بكلام رسول الله بشأن أهميّة الصلاة فقال: «وشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّم بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُو يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّات، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ[٥]؟»[٦].

ويتّضح من خلال ما ورد في متن الخطبة من كلمة «الحمّة» (عين المياه الحارة التي يستفاد منها في علاج المرضى) أنّ الصلاة ليست كعين الماء العادية، بل عين خاصة لها آثار عجيبة في القضاء على الأدناس، ولكن لابدّ من الإلتفات إلىٰ أنّ هذا

---

١. «حتّ» تعني في الأصل فصل الورقة عن الشجرة، واطلقت فيما بعد على فصل الأشياء عن بعضها.

٢. «ربق» على وزن «عنب» جمع «ربق» على وزن «فعل» تعني الحبل الذي يتضمن عقد عديدة وعندما يريد الشخص أن يضعها في صف يشدّ كلّ واحدة بإحدىٰ العقد.

٣. سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٤. وسائل الشيعة، ج ٣، الباب ٣٢ من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣.

٥. «درن» على وزن «لجن» بمعنى الوسخ والقذارة.

٦. نقل هذا الحديث المرحوم الشيخ الحرّ العاملي في وسائل الشيعة، ج ٣، الباب الثاني من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣، مع هذا الفارق أنّه نقل بدل «حمّة» «نهر» و«النهر الجاري». وهذا المتن ورد في مسند أحمد، ج ١، ص ٧٢، طباعة دار الصادر بيروت وصحيح مسلم، ج ٢، ص ١٣٢ طبعة دار الفكر أيضاً.

التعبير حسب تحقيقنا وبحثنا إنّما جاء فقط في كلام الإمام عليه السلام وفي هذه الخطبة.

ويمكن أن يكون هذا التأثير نابع من كون الصلاة تحيي في الإنسان روح التقوى وبمقتضى الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فهي تصده عن الفحشاء والمنكرات في المستقبل وتدعوه بالطبع إلىٰ التوبة بالنسبة لما سلف منه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليستدل في دليله السادس بآية قرآنيّة أخرىٰ تكشف عن عظم منزلة المصلين فقال: «وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[1]».

جدير ذكره أنّ الآية المذكورة وردت بعد آية من تلك التي أعقبت آية النور في القرآن وجرى الحديث في الآية التي سبقتها عن تلك البيوت الرفيعة التي أشرق فيها نور الله وانشغلت بتسبيح الله ليل نهار والرجال الذين أشير إليهم في الآية التي نحن بصددها هم أُمناء نور الله الذين لم تستهوهم زخارف الحياة الدنيا أو تصدهم عن ذكر الله والإحسان إلىٰ خلقه ومعونتهم.

وأخيراً أشار عليه السلام في آخر دليل على أهميّة الصلاة إلىٰ سيرة النّبي المقتبسة من القرآن الكريم فقال: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِباً[2] بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[3]، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ[4] عَلَيْهَا نَفْسَهُ».

وتشير هذه الأدلة السبعة التي ذكرها أمير المؤمنين علي عليه السلام بشأن أهميّة الصلاة والتي استلهمها من القرآن والسنة وعشرات الأدلة الأخرىٰ التي لم يكن عليه السلام في مقام

---

١. سورة النور، الآية ٣٧.

٢. «نصب» على وزن «خجل» بمعنى التعب (بكسر العين) والصفة المشبّهة «نَصَب» على وزن «حسب» التعب.

٣. سورة طه، الآية ١٣٢.

٤. «يصبر» من «صبر» معروفة وهو غالباً ما يكون فعلاً لازماً؛ ولكن يمكن أن يكون متعدياً أحياناً؛ أي اجبارهم على الصبر وهو المعنى المراد في العبارة.

التطرق إليها، تشير إلىٰ مدى أهميّة الصلاة وكونها جوهرة ثمينة ومدى تأثيرها ودورها في تهذيب الإنسان وسعادته إلىٰ جانب المخاطر التي يستبطنها الإبتعاد عن الصلاة والحرمان من بركاتها.

تأمّل

دور الصلاة في تربية الإنسان

الإنسان موجود رصيده النسيان؛ فهولا ينسى الآخرين فحسب، بل غالباً ما يعاني من نسيان ذاته، وهذا النسيان الذاتي من أعدى أعداء سعادة الإنسان.

وهنالك عنصران مهمّان يسهمان في هذا النسيان الذاتي؛ الأوّل: المتطلبات الواقعية لحياته اليوميّة سيما في العصر الذي تعقدت فيه الحياة وكثرت مشاكلها، والثاني: الحاجات الكماليّة والخياليّة والظاهريّة والمقرونة بالهوى وحبّ المال والجاه والشهوة، فهي أشبه بالمسافر الذي تطالعه على جانبي الطريق القصور الفخمة والشواهد الجميلة التي تصده فجأة عن مساره الرئيسي وتقذف به إلىٰ الهاوية.

ولعل أهم آثار الصلاة إيقاظ الإنسان من سباته ووضعها حدّاً لنسيانه، ذلك لأنّه إن ذكر الله انقلب الوضع رأساً على عقب، فلسفة الصلاة حسب الآية الشريفة: ﴿أَقِمِ الصَّلوٰةَ لِذِكْرِي﴾[1] هي ذكر الله والتي جاءت بعد الآية الشريفة: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[2] والتي أعقبت هذه الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الصَّلوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ تشير إلىٰ أنّ الجذور الأصلية لفلسفة الصلاة إنّما تكمن في ذكر الله، لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وحبّ الدنيا هو الذي يصد الإنسان عن ذكر الله، كما ورد في الآية ٢٩ من سورة النجم: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

---

١. سورة طه، الآية ١٤.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

وتفيد سائر الآيات القرآنيّة أنّ الشيطان إنّما يطوف حول قلب الإنسان فإذا ما ذكر الله هرب منه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

وهذا هودليل ما صرحت به الروايات الإسلاميّة من أنّ الصلاة عمود الدين وعين ماء صافية، سيما إن أوتي بهذه الصلاة في جماعة وأقبل فيها المؤمنون زمراً على الله تبارك وتعالى، جاء في الحديث عن نبيّ الإسلامﷺ: «مَنْ صَلّى الصَّلاة في جَماعَة فَظُنُّوا بِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَاقْبَلُوا شَهادَتَهُ»[2].

ولو تأمّلنا مقدمات الصلاة (الطهارة والوضوء والغسل) التي تدعوالإنسان إلىٰ طهارة الروح والبدن وسائر شرائطها من قبيل حلية لباس المصلي والتوجه إلىٰ المسجد، أقدم مركز للتوحيد، وسائر الأركان ومضامين الآيات والأذكار والتعقيبات، فإنّها تعمق فهم الإنسان لمدى أهميّة هذه العبادة العظيمة والاستثنائيّة، والذي يشير إلىٰ مدى الدور الذي تلعبه الصلاة في تربية الإنسان وإيصاله إلىٰ القرب الإلهي والسير والسلوك المعنوي والعرفاني.

۞

١. سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

٢. بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ١٦.

القسم الثاني

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ الْإِسْلاَمِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فإِنَّها تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، ومِنَ النَّارِ حِجَازاً ووِقَايَةً. فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُوبِهَا مَا هُوأَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوجَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ.

الشرح والتفسير

بركات الزكاة

كما أشير في مستهل الخطبة أنّ الإمامعليه السلام أشار فيها إلىٰ أربعة أمور غاية في الأهميّة كان أولها الصلاة وقد مر بحثها بصورة وافيّة، والأمر الثاني الزكاة حيث قالعليه السلام : «ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ الْإِسْلاَمِ».

و«القربان»: هنا يعني ما يوجب التقرب إلىٰ الله تعالى ونعلم أنّ الصلاة هي رابطة الخالق بالخلق والزكاة رابطة الخلق بسائر عباد الله والتي تعدّ نوعاً من الإرتباط بالله. جدير ذكره أنّ الصلاة والزكاة ذكرتا مع بعضهما في سبع وثلاثين آية من الآيات القرآنيّة، وهذا يدل علىٰ أنّهما لازم وملزوم في تحقيق سعادة الفرد والمجتمع.

ثم عدد الإمامعليه السلام بعض الآثار المهمّة للزكاة وشرائطها فقال: «فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فإِنَّها تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، ومِنَ النَّارِ حِجَازاً ووِقَايَةً».

فالشرط الأوّل لقبول الزكاة حسب ما ذكر الإمامعليه السلام في هذه العبارة أن تؤدّىٰ

عن طيب نفس ورغبة وبصفتها إمتثال لأمر الله ونيل رضاه لتنطوي في ظلّ هذه الحالة على أثرين مهمّين؛ أحدهما أنّها كفّارة للذنوب السابقة، والآخر حجاب من نار جهنم.

طبعاً، من يؤدّي الزكاة مكرهاً ولا يسعه طرح حبّ المال من قلبه يكون قد أدّىٰ التكليف، ولكن لا حظ له من بركاتها المعنويّة والروحيّة والأخلاقيّة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَرْضُ الْقِيامَةِ نارٌ ما خَلا ظِلَّ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ تُظِلُّهُ**»[١].

وقد صرّح القرآن بأنّ إحدى صفات المنافق أنّه إن انفق شيئاً إنّما ينفقه كراهة ولذلك فهو لا يحظى بقبول الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ... وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾[٢].

ثم خلص الإمام عليه السلام إلىٰ هذه النتيجة فقال: «**فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا أَحَدُ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ**[٣]».

نعم! فالناس صنفان؛ صنف يؤدّي زكاته وسائر صدقاته في سبيل الله بمنتهى الرضا، وليس له هم سوى الفوز برضا الله دون توقع أدنى شكر أو جزاء ممن يأخذ الزكاة والصدقة ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً**﴾[٤]؛ أمّا الصنف التالي فذلك الذي يكون أداء الزكاة عنده كحالة الاحتضار، وهولا ينفك يعيش حالة من القلق، ليقول على الدوام: كم كان ثمين ذلك المال الذي زكيته وكم جهدت من أجل الحصول عليه، ولوكان عندي اليوم لفعلت به كذا وكذا، فهذا الصنف مصداق لما ذكره الإمام عليه السلام في العبارة المذكورة، ولابدّ أن نرى هنا كيف يبيّن الإمام عليه السلام الآثار السلبيّة لذلك، فقال: «**فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ**».

---

١. الكافي، ج ٤، ص ٣، ح ٦.

٢. سورة التوبة، الآية ٥٤.

٣. «لهف» بمعنى التأسف والندم والحزن.

٤. سورة الدهر، الآية ٩.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة «يَرْجُوبِهَا مَا هُوأَفْضَلُ مِنْهَا»: إلىٰ أنّ المراد أنّ الإنسان المؤمن لا يتوقع حتى بركة المال والحصول على المزيد من النعم في أدائه للزكاة وسائر القربات، بل هدفه رضا الله. إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو منسجماً مع العبارة «جاهِلٌ بِالسُنَّةِ» و«ضَالٌّ الْعَمَلِ»، ذلك لأنّ المستفاد من الروايات الإسلاميّة أنّ انتظار الفضل الالهي والعناية ليس ممنوعاً في هذه الموارد، بل مرغوب فيه.

فقد جاء في الرواية أنّه يستحب التوجه لله وطلب سعة الرزق حين الحاجة عن طريق التصدق[1] وقد قال القرآن بهذا الخصوص: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[2].

إلّا أنّ التفسير الثاني الذي يمكن قوله بشأن هذه العبارة والذي ينسجم مع سائر العبارات، الأوّل أنّ هذه العبارة استمرار للعبارة «غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا»؛ أي أنّه لا يُعطي الزكاة عن نفس طيّبة ولا يأمل بما هو أفضل منها، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الشخص قد عمل خلاف السنة وانحدر إلىٰ الضلال. والآخر أنّ المراد الشخص الذي لا يعيش الرضا الباطني حين أداء الزكاة ويطلب من الله ما هو أفضل منها، فهو شخص خاطئ وجاهل بالسنة.

تأمّل

الزكاة؛ ركن مهم في المجتمع الإسلامي

الزكاة من أهم الفرائض بعد الصلاة؛ فالكلام في الصلاة عن الرابطة بالخالق، وفي الزكاة عن الرابطة بخلق الله. والواقع أن صدق الإنسان وجديته في موضوع الإرتباط بالخالق إنّما يثبت حين تكون رابطته قوية بالخلق، فيحيط بمشاكلهم

---

١. «إذا أَمْلَقْتُمْ فَتاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ» (نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٨).

٢. سورة البقرة، الآية ٢٧٦.

ويسعى لحلها ويعبّر عن مواساته للمحتاجين والمساكين والمحرومين ويسعى بكلّ ما أوتي من قوّة لمساعدتهم، وبالطبع فإنّ أهم مظاهر ذلك هو أداء الزكاة، ومن هنا وكما أشير سابقاً فقد ذكرت الزكاة إلىٰ جنب الصلاة في ٣٧ آية من الآيات القرآنيّة.

من جانب آخر فإنّ التمايز الطبقي يعدّ من أخطر الظواهر الاجتماعيّة في أن تكون هناك طبقة مرفهة مهيمنة على كلّ شيء وأخرىٰ محرومة تفتقر إلىٰ أبسط المقومات الأساسيّة للحياة، الأمر الذي يترك آثاره السلبيّة على هذه الطبقة المعدمة، كما تعاني الطبقة المرفهة من بعض الضغوط بفعل ردود الفعل التي تمارسها تلك الطبقة وهذا ما يؤدّي بالتالي إلىٰ سلب الأمن عن المجتمع.

قال القرآن الكريم في الآية ١٩٥ من سورة البقرة: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ والمراد إذا أردتم النجاة من الهلكة فلا تنسوا الانفاق في سبيل الله.

وهي الحقيقة التي وردت إشارة لطيفة إليها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيثُ قال بعد تصنيفه أبناء المجتمع إلىٰ عالم وجاهل وغنيّ وفقير: «**وإذا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ باعَ الْفَقيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْياهُ**» أي حين يبخل الأغنياء بالتفضل على الفقراء والمحرومين فإنّ هؤلاء المحرومين يبيعون آخرتهم بدنياهم وبالتالي يثورون ويحطمون جميع القوانين الاجتماعيّة.

ومن جانب ثالث هنالك الصفات الرذيلة بالفعل وبالقوّة في أغلب الأفراد والتي لا يمكن استئصالها إلّا بأداء الزكاة، قال القرآن الكريم: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...**﴾[1].

نعم! هنالك تأثيرات عظيمة لأداء الزكاة في تهذيب النفس وتهذيب صفاته الإنسانيّة.

١. سورة التوبة، الآية ١٠٣.

القسم الثالث

ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّماوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، والأَرَضِينَ المَدْحُوَّةِ، والْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ فَلاَ أَطْوَلَ ولاَ أَعْرَضَ، وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا. ولَوامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُول أَوعَرْض أَوقُوَّة أَوعِزٍّ لاَمْتَنَعْنَ؛ ولكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوأَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وهُوالإِنْسَانُ، (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً).

الشرح والتفسير

أداء الأمانة

طرح الإمامعليه السلام في القسم الثالث من الخطبة ـ بعد بيان أهميّة الصلاة والزكاة ـ مسألة أخرىٰ غاية في الأهميّة هي «أداء الأمانة». والأمانة إن لم تؤدّي فقدت سائر المشاريع الإسلاميّة أثرها ومعطياتها، فقال: «**ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا**».

وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة في المراد (بأداء الأمانة) الوارد في هذه العبارة؛ فقد ضيّقه البعض ليراه يعني الولاية والإمامة أو ما شابه ذلك، والحال أنّ مجيء أداء الأمانة بعد الصلاة والزكاة يفيد أنّ المراد به مفهوم عام وشامل، ذلك لأنّ أداء الأمانة أساس ودعامة جميع الأنشطة الاجتماعيّة والإيجابيّة بحيث لو تسللت الخيانة إلىٰ أداء الأمانة لانعدمت الثقة بين الجميع ولزال التعاون الاجتماعي ولساد سوء الظنّ بين الناس ممّا يؤدّي إلىٰ إرباك المجتمع، ولذلك جاء في الرواية أنّ الإمام الصادقعليه السلام قال: «**إنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وأداءِ الأَمانَةِ إِلَى**

الْبَرِّ والْفاجِرِ»[١].

كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «الأَمانَةُ تَجْلِبُ الْغِنى والْخِيانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ»[٢].

جدير ذكره أنّ للأمانة معنيين؛ معنى خاص يشمل أمانات الناس المالية التي يستودعها بعضهم البعض الآخر وحفظها من أوجب الواجبات، ومعنى عام يشمل جميع المسؤوليات الإلهيّة، وعلى هذا الأساس فإنّ عمرنا وأولادنا وبلدنا ومراكزنا الاجتماعيّة والحكومات الإلهيّة كلّها أمانات أودعت لدينا ولا ينبغي خيانتها.

والمفهوم العام يشمل أمانات الناس الماديّة وكذلك الأمانات الإلهيّة والمعنويّة وحفظها من أركان الدين كما أشار الإمام عليه السلام إليها بعد الصلاة والزكاة، وتفيد العبارات اللاحقة بعدها إلى أنّ الهدف من ذكر الأمانة هنا هو المفهوم العام، ذلك لأنّ الإمام عليه السلام قال عقب هذه العبارة: «إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّماوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ[٣]، والأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ[٤]، والْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلاَ أَطْوَلَ وَلاَ أَعْرَضَ، وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا».

ثم قال عليه السلام: «ولَوِامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُول أَوعَرْض أَوقُوَّة أَوعِزٍّ لاَمْتَنَعْنَ؛ ولكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوأَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وهُوالإِنْسَانُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾».

هذا الكلام إشارة لما ورد في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهولاً﴾.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

٣. «مبنيّة» من مادة «بناء» ولأنّ وجود البناء في تركيب السماء والأرض أمر بديهي فلذلك أشارت هذه المفردة إلى مفهوم أهم وهو الارتفاع والعظمة في البناء.

٤. «مدحوّة» من مادة «دحو» على وزن «محو» أي البسط والمراد من «دحو الأرض» هو أنّه في بادئ الأمر ـ كما تؤكد علوم الأرض ـ كانت الأرض مغطاة من قبل الأمطار والفيضانات، ثم تجمعت هذه المياه في أخاديد الأرض وظهرت اليابسة من تحت الماء فأصبحت الأرض مهيئة لسكن.

تأمّلان

١. نقطة مهمّة

هنالك نقطة مهمّة في هذه الآية الشريفة: وهي: ما المراد بهذه الأمانة الإلهيّة التي بلغت هذا القدر من الثقل بحيث عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال؟

وقد ذهب أغلب المفسرين إلىٰ أنّ المراد بها التكاليف الشرعيّة والأوامر والنواهي والإيمان ومنها ولاية المعصومين عليهم السلام وأنّ عدم تحملها من قِبل السماء والأرض والجبال دليل على عدم استعدادها لقبول هذه المسؤوليّة، وعليه فعرض هذه التكاليف الإلهيّة عليها كان بلسان الحال، رغم ما ذهب إليه البعض من أنّ الله أفاض عليها آنذاك ما يكفيها من العقل والشعور لتخاطب بذلك الخطاب، ولكن على كلّ حال فقد حملها وقبلها الإنسان بفضل ما أودع من استعداد ربّاني شامل.

حقاً أنّ هذا لوسام شرف عظيم للإنسان لأنّ يخاطب بأوامر الله ونواهيه ولذلك فهويحتفل في اليوم الذي يبلغ فيه التكليف.

وعلى هذا الضوء فسر «الظلوم والجهول» بعاقبة العمل، أي أنّه لم يكن ظلوماً في قبول هذه الأمانة بل ظلم نفسه في أداء حقها ولم يلتفت إلىٰ قدر نفسه ومقامه وكان جاهلاً به.

فهذا أوضح تفسير يمكن ذكره للآية الشريفة، لكنه لا ينسجم مع ما ورد في الخطبة التي نحن بصددها من جهتين، الأُولىٰ: إنّ السماوات والأرض والجبال إنّما لم تتحمل هذه الأمانة بسبب ما هي عليه من عقل وفطنة، والثانية: إنّ الإنسان كان أضعف منها وقد ظلم نفسه إثر جهله وحمل تلك الأمانة، ومن هنا فإنّ النهوض بهذه الأمانة والتكليف يعد نقطة ضعف في الإنسان، وعدم قبولها من قبل السماوات والأرض يعد نقطة قوّة لها.

وهذا المعنى وبغض النظر عن عدم انسجامه مع الآية الشريفة، فهو لا يتفق أيضاً مع سائر الآيات القرآنيّة، فالله جعل الإنسان أفضل خلقه فقال: ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ادَمَ...

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١] وقد أمر جميع ملائكته بالسجود له وجعله خليفته في أرضه وقال بحقه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢]. فهل يمكن أن يقال بعد كل هذه الافتخارات إنّ الإنسان أضعف واحط من الجمادات كالأرض والسماء والجبال ؟!

حقّاً إنّ هذه مسألة معقدة ولا يبدو من السهل الجمع بين مضمون هذه الخطبة وما جاء في الآية الشريفة، ولم يتجه شرّاح نهج البلاغة صوب حل هذه المشكلة، والحل الوحيد هو أن نعتبر الآية قضية كليّة ونحمل كلام الإمامعليه السلام على قضية جزئيّة فنقول: إنّ الإمامعليه السلام تطرق إلىٰ فئة من الناس، فئة بحكم الآية الشريفة: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٣] ممن ليس لهم حظ من عقل ومعرفة ويعيشون في دوّامة من الجهل والغرور والغفلة واتباع الهوى الذي تسلل إلىٰ أفكارهم فكان قبول هذه الأمانة سبب بؤسهم وشقائهم بدلاً من أن يكون أساس إعتزازهم وفخرهم؛ ولعلنا نلمس شبيه ذلك في القرآن الكريم بشأن المنافقين ومرضى القلوب: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٤].

ومن هنا يجدر بالباحثين التركيز والتعمق في هذه المسألة.

٢. أفضل علامات الإيمان

إنّ حفظ الأمانة، سواء بالمعنى الخاص الذي يعني حفظ ثروات الآخرين المالية، أو بمعناها العام في حفظ وصون المسؤوليات الإلهيّة والمعنويّة والماديّة

١. سورة الإسراء، الآية ٧٠.
٢. سورة البقرة، الآية ٣٠.
٣. سورة الأعراف، الآية ١٧٩.
٤. سورة التوبة، الآيتان ١٢٤ و ١٢٥.

والفرديّة والاجتماعيّة، لمن المبادئ الأساسيّة لجميع الأنبياء عليهم السلام، والدليل على ذلك الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إِلّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وأداءِ الأَمانَةِ إِلَى الْبَرِّ والْفاجِرِ».

وحفظ هذه الأمانة على درجة من والعظمة بحيث أبت حمله تلك السماوات المرفوعة والجبال الشامخة، وحملها الإنسان أشرف مخلوقات الله بما أفاض الله عليه من استعداد، وقد صانها وحملها الأنبياء والأولياء ومن سار على دربهم ليفوزوا بهذا الشرف، رغم عدم أداء تلك الأمانة من قبل طائفة جاحدة من الظلمة والجهّال، والنقطة المهمّة هي أنّ المصادر الإسلاميّة ذكرت المزيد من الحقوق للمسلمين بالنسبة لبعضهم البعض الآخر؛ إلّا أنّ حفظ الأمانة أهمها جميعاً والتي تعتبر جزءً من حقوق الإنسان. ومن هنا جاء في الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أحد وصاياه كانت بهذا الخصوص: «إِعْلَمْ أَنَّ ضارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وقاتِلِهِ لَوِ إئْتَمَنَنِي واسْتَنْصَحَنِي واسْتَشارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذلِكَ مِنْهُ لأَدَّيْتُ إِلَيْهِ الأَمانَةَ»[1].

وتبدو هذه المسألة على درجة من الأهميّة بحيث اعتبرت من أفضل الدلالات على شخصية الإنسان وإيمانه حتى أنّها لتفوق الصلاة والصوم والحج.

جاء في الحديث النبوي الشريف: «لا تَنْظُرُوا إلى كَثْرَةِ صَلاتِهِمْ وصَوْمِهِمْ وكَثْرَةِ الْحَجِّ والْمَعْرُوفِ وطَنْطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ ولكِنِ انْظُرُوا إلى صِدْقِ الْحَدِيثِ وأداءِ الأَمانَةِ»[2].

والدليل الواضح على صدق هذا الحديث الشريف، التجارب التي عشناها طيلة حياتنا، فما أكثر الأفراد الذين يعيشون حالة من الجدّ والاجتهاد والالتزام بالمسائل العادية، ولكن ما أن ترد بعض المسائل المهمّة سيما الأموال الطائلة حتى تزل أقدامهم وتهتز شخصيتهم.

---

١. الكافي، ج ٥، ص ١٣٣، ح ٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

القسم الرابع

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ ونَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وأَحَاطَ بِهِ عِلْماً. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح والتفسير

عالم الغيب والشهادة

أشار الإمام عليه السلام في الأقسام السابقة من هذه الخطبة إلىٰ ثلاثة مواضيع مهمّة تعدّ من أركان الأوامر الإلهيّة وهي الصلاة والزكاة وأداء الأمانة، ثم تطرق الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلىٰ أمر بمثابة العنصر الإجرائي لهذه الأوامر المهمّة والذي يتمثل بإحاطة الله تعالىٰ العلميّة بالإنسان في أحواله كافّة.

وبعبارة أخرىٰ أنّ الإنسان حين يهم بطاعة هذه الأوامر يشعر بأنّه حاضر على كلّ حال عند الله وأنّ علمه محيط به على غرار العيون التي تبث داخل الطرق والمدن بغية رعاية الناس للقوانين السائدة فقال: «**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ ونَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وأَحَاطَ بِهِ عِلْماً**».

والتعبير بالعباد تعبير واسع يشمل جميع الناس بما فيهم المسلم والكافر والصغير والكبير والعالم والجاهل، وتقديم الليل على النهار لأنّ الليل موضع خفي لأغلب العصاة.

والعبارة: «**لَطُفَ بِهِ خُبْراً**» بالنظر إلىٰ أنّ اللطيف أحد أسماء الله الحسنى ويطلق على من يلم بأظرف الأمور وأدقّها، إشارة إلىٰ عدم غياب أصغر أعمال العباد وأخفاها عن علمه تبارك وتعالى: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[1].

---

١. سورة غافر، الآية ١٩.

وكل هذه الأمور تستند إلىٰ كون علمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء علماً حضورياً فهو حاضر في كلّ مكان والكون برمته حاضر لديه، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عن علمه شيء.

وقد تمسك البعض بمثال فقال: لو كان في يدنا شيء ننظر إليه فهل يخفى علينا شيء منه، وبالطبع فإنّ علم الله لأعمق وأسمى من ذلك بالنسبة لجميع الكائنات.

وقال في مواصلته لكلامه ولإثبات شدّة الرقابة الإلهيّة على الإنسان: «أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ».

ولمفردة الأعضاء (جمع عضو) معنى عام يشمل الأعضاء التي بها يقوم الإنسان بأعماله، مثل الأيدي والأرجل، وكذلك الأعضاء التي يبدو ظاهرياً لا يقوم بها بعمل كالأضلاع والعظام؛ أمّا الجوارح (جمع جارحة) واستناداً إلىٰ مادتها اللغويّة جرح التي تعني الاكتساب فهي تقتصر على الإشارة إلىٰ تلك الأعضاء التي يقوم بواسطتها الإنسان ببعض الأعمال ويحسن بها أو يسيىء بها، وعليه فذكر الجوارح بعد الأعضاء من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

و«ضمائر» جمع «ضمير» بمعنى باطن الإنسان وتشير هنا إلىٰ وجدان الإنسان الذي يمثل القاضي الباطني.

و«**خلوات**»: جمع «خلوة» تعني الموضع الذي لا يتواجد فيه عامة الناس، ولما كانت أغلب الذنوب إنّما ترتكب في الخلوات، فقد ركزت عليها العبارة السابقة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ (خلوات) تعني ما يرتكب من أعمال في الخلوة وستكون من قبيل حذف المضاف، على كلّ حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه العبارات الأربع الأخيرة أن يقول ليس لعلم الله إحاطة بجميع أعمال الإنسان فحسب، بل أعضاء الإنسان وجوارحه ووجدانه شهوده وجنوده وعيونه، وإنّ كلّ بقعة من مكان حتى الخلوات لتشهد على أعمال الإنسان.

❊❊❊

٢٠٠

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فِي مُعَاوِيَة[1]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ سياسة معاوية المؤسسة علىٰ الكذب والخداع والمكر والحيلة، وذكر عليه السلام أنّه أعرف بهذه الفنون من السياسة إلّا أنّ الورع والتقوى وخشية الله لا تدعه أبداً يمارس هذا الأسلوب الرخيص، وصرّح في آخر كلامه بأنّه ممن لا تنطلي عليه هذه السياسة فيستغفل ولا يبدي مقاومة.

---

١. سند الخطبة:

روى المرحوم الكليني هذه الخطبة (بعبارات مختصرة ومشابهة) في الجزء الثاني من أصول الكافي ص ٣٣٦ و٣٣٨ بسندين أحدهما عن الإمام الصادق عليه السلام والآخر عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام. وبالنظر لما ذكره ابن نباتة من أنّ الإمام ألقى هذه الخطبة على منبر الكوفة فإنّها جانب من خطبة طويلة اكتفى المرحوم الشريف الرضي منها بهذا المقدار. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٨٥).

واللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، ولكِنَّهُ يَغْدِرُ ويَفْجُرُ. ولَولاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، ولكِنْ كُلُّ غُدَرَة فُجَرَةٌ، وكُلُّ فُجَرَة كُفَرَةٌ. «ولِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

واللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

الشرح والتفسير

السياسة الآثمة

إنّ بعض السذج والجهّال في عصر أميرالمؤمنين يرون حين مقارنتهم للإمام علي عليه السلام بمعاوية أنّ هذا الأخير كان أعظم سياسة منه، وهو ذات الكلام الذي سمع في القرون اللاحقة من قبل البعض وما زال يكرره اليوم بعض الجاهلين، وعبارات الإمام عليه السلام تعدّ رداً منطقياً يلقم مثل هؤلاء الأفراد حجراً، حيث قال عليه السلام : «واللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى[1] مِنِّي، ولكِنَّهُ يَغْدِرُ ويَفْجُرُ».

و«يَغْدِرُ»: من «غدر» بمعنى الخدعة ونقض العهد و«يَفْجُرُ» من «فجور» بمعنى الإثم والمعصية، والواقع أنّ هذا الفجور نتيجة لذلك الغدر، لأنّ الغدر يمهد السبيل للمعصية.

ثم قال عليه السلام : «ولَولاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نقطة مهمّة وهي أنّ السياسة على نوعين: سياسة طائشة ومقرونة بأنواع المعاصي، وبالتالي فهي سياسة شيطانيّة، وسياسة عن

---

١. «أدهى» من مادة «دهى» على وزن «وحى» بمعنى شدّة الفطنة وتأتي أيضاً بمعنى الكارثة والمصيبة، والمراد في العبارة هو المعنى الأوّل.

تدبير مفعم بالورع والتقوى، وبالتالي فهي سياسة رحمانيّة، وفي الواقع تتفاوت السياستين وتبعاً لذلك تتفاوت نتائجهما.

والسياسة بالمعنى الأوّل لا تعرف من حد خلقي وديني وإنساني ووجداني، وتقضي على كلّ قانون أو مبدأ أو ضابطة تشكل خطراً عليها، على غرار ما نلاحظه اليوم في عالم السياسة الذي يحكم الشرق والغرب.

أمّا الصنف الثاني فتخضع فيه السياسة لأطر معينة حدودها القيم والمثل الدينيّة والإنسانيّة والوجدان والضمير؛ فهي لا تعتمد الظلم والجور والمعصية قط سيما تجاه العزل من الأفراد الأبرياء؛ ولا تسمح بالغدر والخيانة والفجور ونقض العهود والمواثيق، وترفض التسلط والتوسع وبالتالي ترى وجود بعض الخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه إلىٰ أولئك الأفراد الذين انتهجوا الغدر والفجور ليعتمدوهما كوسيلة لسياساتهم فقال: «**ولكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ. (ولِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**».

والعبارة: «**ولِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ...**» حديث معروف عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله روته أغلب المصادر، ومنها: الشوكاني في نيل الأوطار، والبخاري في صحيحه، وقال الشوكاني: متفق عليه[1].

ثم قال عليه السلام في اختتامه لهذا الكلام وحتى لا يتصور أحد أنّ الإمام عليه السلام بما هو عليه من نقاء القلب تنطوي عليه سياسة الغدر والمكر: «**واللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، ولاَ أُسْتَغْمَزُ[2] بِالشَّدِيدَةِ**».

وهذا الكلام في الواقع رد على أولئك الذين يزعمون أنّه لا يمكن مواجهة أولئك الفجرة سوى من قبل أمثالهم وليس أمام الفرد المتدين سوى الوقوع في مخالبهم،

---

١. نيل الأوطار، ج ٨، ص ٧٩؛ وصحيح البخاري، ج ٨، ص ٦٢ (كتاب الحيل).

٢. «استغمز» من مادة «غمز» على وزن «رمز» بمعنى الإضعاف وأيضاً بمعنى الضغط والكلام البذيء والمراد هنا هو المعنى الأوّل.

فمضمون كلام الإمام عليه السلام هو إنّ الإنسان قد لا يكون من أهل الخداع والفجور والخيانة ولكن يعرف طريقة أهل الغدر والخيانة حتى لا يقع في شباكهم ويخدع بالأعيبهم.

تأمّل

السياسة الإنسانيّة والسياسة الشيطانيّة

حقيقة السياسة هي التدبير وإدارة الحكومة ورعاية شؤون الناس، وهو أمر متعارف عليه منذ قديم الزمان في المجتمعات البشريّة، وقد حكمت تلك المجتمعات من قبل بعض الساسة طالحين كانوا أم صالحين.

والسياسة على صنفين: سياسة طائشة وأخرىٰ حكيمة. أمّا السياسة الطائشة فهي تلك السياسة التي لا تؤمن بأي مانع أو رادع من أجل تحقيق أهدافها فتبيح كلّ شيء فهي تقتل المتهم والبريء وتهدم البيوت العامرة والخالية، وتتشبث بكلّ حيلة وكذب وغش، وإذا ما عقدت اتفاقية وتعارضت مستقبلاً مع أهدافها نقضتها، وبالتالي فهي لا ترحم الولد والأب والأم، ومن هنا قيل: إنّ السياسة لا تعرف من معنى للأب والأم.

وقد قرأنا في التاريخ أنّ الخليفة العباسي هارون الرشيد قال لابنه المأمون: «لو نازعتني الملك لأخذت الذي فيه عيناك»، كما استقبل المأمون جسد أخيه الأمين بفرح وسرور، وما أكثر أمثال هذه الحوادث في تاريخ العرب والعجم والشرق والغرب والتي أشار القرآن الكريم إلىٰ نماذجها بشأن فرعون فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

أمّا السياسة الحكيمة والإنسانيّة فهي السياسة التي تعتمد الأسس المشروعة

---

١. سورة القصص، الآية ٤.

بغية الوصول إلىٰ الهدف ولا تنتهك قط حدود الأحكام الشرعيّة والمبادئ الإنسانيّة، وتجري العدل بحقّ العدو والصديق؛ وترعى الأمانة، وتلتزم بالعهود والمواثيق وتنظر بعين الاعتبار إلىٰ الإنسان وكرامته وعزته.

وإنّ أصحاب السياسة الحكيمة والإنسانيّة مهما كانوا قلائل مقارنة بأصحاب السياسة الشيطانيّة، قد يعانون من المشاكل والمعضلات، إلّا أنّهم ظلّوا ناصعي الجبين في التاريخ وأضحت سياستهم قدوة للبشريّة برمتها.

والنموذج البارز للصنف الأوّل من السياسة، معاوية ورهطه في الشام، والنموذج الجلي الواضح للسياسة بصنفها الثاني أميرالمؤمنين علي عليه السلام، وهو ما أذعن له العدو والصديق سوى تلك الثلة المتعصبة.

ابن أبي الحديد واستناداً إلىٰ مبادئ مذهبه قارن بين سياسة أمير المؤمنين عليه السلام في إدارة البلاد والسياسة التي انتهجها عمر، فقال: «زعموا أنّ عمر كان أسوس من أميرالمؤمنين وإن كان هو أعلم منه».

ثم خاض في الرد على هذه النظرية فقال: «إنّ سياسة علي هي سياسة النّبي صلى الله عليه وآله». وروى عن استاذه أبو جعفر النقيب أنّه قال: «كانت سياسة علي عليه السلام هي ذاتها سياسة رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم تطرق إلىٰ شرح كلمات الجاحظ (العالم السني المعتزلي) في مقارنة سياسة علي عليه السلام ومعاوية وإليك خلاصة كلامه:

زعم البعض أنّ معاوية كان أسوس من علي عليه السلام وهذا خطأ كبير، ثم واصل كلامه في إبطال هذا الكلام حيث صرّح بأنّ علياً عليه السلام لم يعمل في الحروب سوى بما وافق القرآن والسنّة، بينما كان معاوية يخالف القرآن.

فكان عليه السلام يوصي الجيش بعدم البدء بالقتال وتعقيب الهاربين والإجهاز على المجروحين (والحال لم يكن معاوية يرعى أيّاً من هذه الوصايا).

ولما فرغ ابن أبي الحديد من نقل هذا الكلام اتّجه صوب بعض الإشكالات التي

أوردها البعض على سياسة علي عليه السلام ومنها:

١. لو كان علي عليه السلام حين بويع له بالخلافة في المدينة أقر معاوية على الشام إلىٰ أن يستقر الأمر له ثم يعزله، وقال في الجواب: إنّ أميرالمؤمنين كان يعلم أن إقراره أقوى لحال معاوية وأكّد في الامتناع من البيعة، فلا يبقى بعد ذلك من عذر لعزله.

٢. إنّه حين ملك شريعة الفرات في صفين هلّا منعها عن معاوية وأهل الشام، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي بعد أن ملكها معاوية فمنعها عنه وعن أهل العراق ؟

وقال في الجواب: إنّه لم يكن يستحل ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعطش؛ فإنّ الله تعالى ما أمر أحداً بذلك.

٣. إنّه عليه السلام أخطأ حين محى اسمه من الخلافة فقوى الشبهة في نفوس أهل الشام.

وقال في الجواب: إنّه عليه السلام احتذى في ذلك لما دعي إليه واقترحه الخصم عليه، فعل رسول الله صلى الله عليه وآله في صلح الحديبية، حين أصر زعماء الشرك على محو اسمه من النبوّة (وحيث لم يرض ذلك أحد) فقد أقدم عليه بنفسه، وأخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك سابقاً.

٣. إنّه عليه السلام كان غير مصيب في ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثرة أعدائه؟

وقال في الجواب: إنّ هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير فليكن قادحاً في سياسة رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يكن يرضى بذلك[1].

ولابن أبي الحديد كلمات أكثر من ذلك حيث أفرد أكثر من ٥٠ صفحة في شرح ذيل هذه الخطبة للبحث المذكور ولا يسعنا ذكرها هنا.

والجدير ذكره ما ذكره في آخر كلّ هذه الأبحاث، حيث قال: فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة: **«إِنَّهُ أَصَحُّ النّاسِ تَدْبيراً وأَحْسَنُهُمْ سِياسَةً وإِنَّمَا الْهَوى والْعَصَبِيَّةُ لا حيلَةَ فيهِما»**.

ﮧ

١. انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٢١٢-٢٦٠.

إلى هنا تمّ وبحمد الله الخطبة ٢٠٠ من خطب أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة ومن الجزء السابع لهذا الكتاب القيم، نشكر الله تعالى على توفيقه ومنّه أن يسّر لنا هذا الطريق، ونسأله أن يظلّلنا بغمام لطفه وكرمه كي نتمّ الأجزاء الآتية من هذا السفر المبارك إن شاءالله تعالى.

وكذلك نحمده أن نال هذا الشرح إعجاب ورضا الطوائف المختلفة من الناس أُنتخب بعنوان أفضل كتاب لسنة ٢٠٠٢ م ونأمل أن يفتح هذا الشرح فصلاً جديداً بين الشروح المطروحة لنهج البلاغة.

ولا يخفى أننا تلقّينا ببالغ الأسى والحزن رحيل وفقدان أحد الإخوة العاملين الأعزّاء معنا، ألا وهو العالم الفاضل والمتتبع المتبحر المغفور له المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادري (قدّس سرّه).

كان المرحوم رجلاً فاضلاً، جاداً، منظماً، مخلصاً، متّقياً، ومحققاً بارعاً، حيث أقدم على تحقق أكثر من عشرين كتاباً من كتب العلماء الكبار، وترك من بعده تراثاً قيماً، نسأل الله تعالى أن يغمده برحمته الواسعة إنّه قريب مجيب.

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»

نهاية الجزء السابع لنفحات الولاية في شرح نهج البلاغة لأميرالمؤمنين عليه السلام

٢٧/ شعبان المعظم / ١٤٢٦ هـ ق، الموافق ٢٠٠٤ م

فهرس

الخطبة ١٨١ .... ٥

نظرة إلىٰ الخطبة ٥

الشرح والتفسير: مصير المشككين الجهّال ٧

الخطبة ١٨٢ .... ١١

نظرة إلىٰ الخطبة ١١

القسم الاوّل ١٣

الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر ١٣

القسم الثاني ١٧

الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله ١٧

القسم الثالث ٢١

الشرح والتفسير: احاطته العلميّة بكلّ شيء ٢١

تأمّل: ما الأنواء؟ ٢٤

القسم الرابع ٢٧

الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته ٢٧

تأمّلان ٣٢

١. سرّ صعوبة معرفة صفات الله ٣٢

٢. العرش والكرسي ٣٣

القسم الخامس ٣٥

الشرح والتفسير: أين الفراعنة والعمالقة؟ ٣٥

تأمّلات ٣٨

١. شوكة سليمان عليه السلام وموته ٣٨
٢. من هم العمالقة؟ ٣٩
٣. فراعنة مصر ٤٠
٤. أصحاب الرسّ ٤٠
القسم السادس ٤٣
الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولي ٤٣
تأمّل: إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام ٤٦
القسم السابع ٤٧
الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم! ٤٧
القسم الثامن ٥١
الشرح والتفسير: النفير العام للجهاد ٥١
تأمّل: صحب الإمام عليه السلام الميامين ٥٣
١. عمّار بن ياسر ٥٣
٢. ابن التيهان ٥٤
٣. ذو الشهادتين ٥٥
٤. قيس بن سعد بن عبادة ٥٥
٥. أبو أيوب الأنصاري ٥٦

الخطبة ١٨٣ .... ٥٧
نظرة إلىٰ الخطبة ٥٧
القسم الأوّل ٥٩
الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم ٥٩
القسم الثاني ٦٣
الشرح والتفسير: الهدى في ظلّ القرآن ٦٣
تأمّلان ٦٧
١. وحدة حكم الله في الأولين والآخرين ٦٧
٢. القرآن ناطق أم صامت؟ ٦٨

القسم الثالث ٧١
الشرح والتفسير: منزلة التقوى ٧١
القسم الرابع ٧٧
الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة ٧٧
القسم الخامس ٨١
الشرح والتفسير: الامتحان الإلهي ٨١
القسم السادس ٨٥
الشرح والتفسير: الانتقال إلىٰ جيران الله ٨٥
تأمّل: طريق السير والسلوك إلىٰ الله ٨٧

80C3

الخطبة ١٨٤ .... ٨٩
نظرة إلىٰ الخطبة ٨٩
الشرح والتفسير: صه يا أحمق ٩١
تأمّل: من هو بُرج بن مُسهِر؟ ٩٢

80C3

الخطبة ١٨٥ .... ٩٣
نظرة إلىٰ الخطبة ٩٣
القسم الاوّل ٩٥
الشرح والتفسير: معرفة الله الحقيقية ٩٥
القسم الثاني ١٠٣
الشرح والتفسير: الأبعاد الوجوديّة للنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ١٠٣
القسم الثالث ١٠٧
الشرح والتفسير: قدرته المطلقة في خلق الكائنات ١٠٧
تأمّل: حياة النمل العجيبة ١١٣
القسم الرابع ١١٧
الشرح والتفسير: نظرة إلىٰ كائنات السموات والأرض ١١٧
تأمّل: قبسات من برهان النظم ١٢١

القسم الخامس ١٢٣
الشرح والتفسير: صنع الجرادة ١٢٣
تأمّل: عجائب الجرادة ١٢٥
القسم السادس ١٢٧
الشرح والتفسير: الله العظيم ١٢٧
تأمّل: دروس عظيمة بعبارات قصيرة ١٣١

الخطبة ١٨٦ .... ١٣٣
نظرة إلىٰ الخطبة ١٣٣
القسم الأوّل ١٣٥
الشرح والتفسير: أضواء مهمّة في صفات الله ١٣٥
تأمّل: كيفية الجمع بين الضدين ١٤٢
القسم الثاني ١٤٥
الشرح والتفسير ١٤٥
القسم الثالث ١٥١
الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة ١٥١
القسم الرابع ١٥٧
الشرح والتفسير: صفات أخرىٰ في الجمال والجلال ١٥٧
القسم الخامس ١٦٣
الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعوضة ١٦٣
تأمّلان ١٦٥
١. المعاد الجسماني واعادة المعدوم ١٦٥
٢. الخلقة العجيبة للبعوض ! ١٦٦
القسم السادس ١٦٩
الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق ١٦٩
تأمّل: هل هناك زمان دون مخلوق ١٧٢
القسم السابع ١٧٥
الشرح والتفسير: دوام الخلقة والفناء ١٧٥

الخطبة ١٨٧ .... ١٧٩
نظرة إلى الخطبة ١٧٩
القسم الأوّل ١٨١
الشرح والتفسير: الحوادث المرعبة ١٨١
تأمّل: الحوادث الأليمة آخر الزمان ١٨٥
القسم الثاني ١٨٧
الشرح والتفسير: وصايا للنجاة من الفتنة ١٨٧
تأمّل: الانسحاب من الفتن ١٨٩

الخطبة ١٨٨ .... ١٩١
نظرة إلى الخطبة ١٩١
القسم الأوّل ١٩٣
الشرح والتفسير: التوصية بالتقوى والحمد ١٩٣
القسم الثاني ١٩٥
الشرح والتفسير: أفضل الوعظ ١٩٥
تأمّل: ذكر الموت ١٩٧
القسم الثالث ١٩٩
الشرح والتفسير: سبيل النجاة ١٩٩

الخطبة ١٨٩ .... ٢٠٣
نظرة إلى الخطبة ٢٠٣
القسم الأوّل ٢٠٥
الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف ٢٠٥
تأمّل: عناصر ثبات الإيمان ٢٠٦
القسم الثاني ٢٠٩
الشرح والتفسير: سلوني قبل أن تفقدوني ٢٠٩
تأمّل: الهجرة في الإسلام ٢١٤

الخطبة ١٩٠ .... ٢١٧
نظرة إلى الخطبة ٢١٧
القسم الأوّل ٢١٩
الشرح والتفسير: نبي الرحمة والجهاد ٢١٩
القسم الثاني ٢٢٣
الشرح والتفسير: الأهوال القادمة ٢٢٣
القسم الثالث ٢٢٧
الشرح والتفسير: أهوال المحشر! ٢٢٧
القسم الرابع ٢٣٣
الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل ٢٣٣
القسم الخامس ٢٣٥
الشرح والتفسير: لكلّ شيء أجل ومدّة ٢٣٥
تأمّل: الثورات المتعجلة ٢٣٦

الخطبة ١٩١ .... ٢٣٩
نظرة إلى الخطبة ٢٣٩
القسم الأوّل ٢٤١
الشرح والتفسير: بديع خلق الله ٢٤١
القسم الثاني ٢٤٧
الشرح والتفسير: التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة ٢٤٧
القسم الثالث ٢٥١
الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى ٢٥١
القسم الرابع ٢٥٧
الشرح والتفسير: عاقبة أصحاب الدنيا ٢٥٧
الخطبة ١٩٢ .... ٢٦٣
نظرة إلى الخطبة ٢٦٣
القسم الأوّل ٢٦٧

الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبية ٢٦٧
القسم الثاني ٢٧١
الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبة إبليس ٢٧١
تأمّلات ٢٧٤
١. حبط الأعمال ٢٧٤
٢. هل إبليس من الملائكة؟ ٢٧٥
٣. كبر إبليس أساس كفره ٢٧٥
٤. وحدة حكم الله في الجميع ٢٧٦
القسم الثالث ٢٧٧
الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان ٢٧٧
القسم الرابع ٢٨٣
الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشيطان أو قابيل ٢٨٣
القسم الخامس ٢٨٩
الشرح والتفسير: اجتناب تبعية المتكبرين ٢٨٩
تأمّل: التكبر والعصبية ٢٩٦
القسم السادس ٢٩٩
الشرح والتفسير: آفة التكبّر ٢٩٩
تأمّل: تصحيح خطأ ٣٠٢
القسم السابع ٣٠٥
الشرح والتفسير: درس وعبرة في قصة موسى عليه‌السلام ٣٠٥
القسم الثامن ٣٠٩
الشرح والتفسير: زهد الأنبياء ٣٠٩
القسم التاسع ٣١٣
الشرح والتفسير: الدروس والعبر في بيت الله ٣١٣
القسم العاشر ٣١٩
الشرح والتفسير: الكعبة المقدّسة ٣١٩
تأمّل: «أفضَلُ الأعْمالِ أحمَزُها»! ٣٢٢

القسم الحادي عشر ٣٢٥
الشرح والتفسير: آفة الكبر والغرور ٣٢٥
تأمّل: فلسفه العبادات ٣٢٩
القسم الثاني عشر ٣٣١
الشرح والتفسير: العصبية الطائشة ٣٣١
القسم الثالث عشر ٣٣٥
الشرح والتفسير: العصبية الممدوحة ٣٣٥
تأمّل: العصبيّة الإيجابيّة والسلبيّة ٣٣٧
القسم الرابع عشر ٣٤١
الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين ٣٤١
القسم الخامس عشر ٣٤٥
الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل ٣٤٥
القسم السادس عشر ٣٤٩
الشرح والتفسير: الوحدة والفرقة، والنصر والهزيمة ٣٤٩
القسم السابع عشر ٣٥٣
الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق ٣٥٣
تأمّل: القطرة والبحر ٣٥٦
القسم الثامن عشر ٣٥٩
الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام ٣٥٩
القسم التاسع عشر ٣٦٣
الشرح والتفسير: اجتناب الفرقة ٣٦٤
القسم العشرون ٣٧١
الشرح والتفسير: تكليفي في قتال المفسدين ٣٧١
تأمّل: من هو ذو الثدية؟ ٣٧٣
القسم الحادي والعشرون ٣٧٧
الشرح والتفسير: التربية في كنف النّبي صلى الله عليه وآله ٣٧٧
تأمّلان ٣٨٣

١. العلاقة الحميمة بين علي عليه السلام والنّبي صلى الله عليه وآله ٣٨٣
٢. غار حراء ٣٨٤
٣. النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة ٣٨٥
القسم الثاني والعشرون ٣٨٧
الشرح والتفسير: معجزة حركة الشجرة ٣٨٨
تأمّلان ٣٩١
١. معجزة الشجرة في الروايات الإسلاميّة ٣٩١
٢. الفارق بين السحر والمعجزة ٣٩٢
القسم الثالث والعشرون ٣٩٥
الشرح والتفسير: أولياء الله ٣٩٥

الخطبة ١٩٣ .... ٣٩٩
نظرة إلىٰ الخطبة ٣٩٩
إجابة عن سؤال ٤٠٠
القسم الأوّل ٤٠٣
الشرح والتفسير: صفات المتّقين ٤٠٣
تأمّل: محاور هذا الجانب من الخطبة ٤١٥
القسم الثاني ٤١٧
الشرح والتفسير: ليل المتّقين ٤١٧
تأمّل ٤٢٠
القسم الثالث ٤٢١
الشرح والتفسير: نهار المتّقين ٤٢١
تأمّل: إشفاق المتّقين من أعمالهم ٤٢٥
القسم الرابع ٤٢٧
شرح وتفسير ٤٢٧
اثنتا عشرة صفة أخرىٰ ٤٢٧
القسم الخامس ٤٣٥

الشرح والتفسير: تسع صفات أخرىٰ ٤٣٥
مصير همام بعد سماع الخطبة ٤٤٥
تأمّل: نظرة أخرىٰ لخطبة همام ٤٤٨

ﮓﮔ

الخطبة ١٩٤ .... ٤٥١
نظرة إلىٰ الخطبة ٤٥١
القسم الأوّل ٤٥٣
الشرح والتفسير: محن الرسالة ٤٥٣
القسم الثاني ٤٥٧
الشرح والتفسير: خطر المنافقين ٤٥٧
القسم الثالث ٤٦٣
الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين ٤٦٣
تأمّل: النفاق والمنافقون طيلة التاريخ ٤٦٥

ﮓﮔ

الخطبة ١٩٥ .... ٤٦٩
نظرة إلىٰ الخطبة ٤٦٩
القسم الأوّل ٤٧١
الشرح والتفسير: البعثة النبوية والظروف الصعبة ٤٧١
القسم الثاني ٤٧٥
الشرح والتفسير: الموائد الإلهيّة المطلقة ٤٧٥
القسم الثالث ٤٨١
الشرح والتفسير: أهوال القيامة ٤٨١

ﮓﮔ

الخطبة ١٩٦ .... ٤٨٧
نظرة إلىٰ الخطبة ٤٨٧
القسم الأوّل ٤٨٩

الشرح والتفسير: أهوال الدنيا ٤٨٩
القسم الثاني ٤٩٣
الشرح والتفسير: اغتنام الفرصة ٤٩٣

الخطبة ١٩٧ .... ٤٩٥
نظرة إلى الخطبة ٤٩٥
القسم الأوّل ٤٩٧
الشرح والتفسير: طاعتي المطلقة ٤٩٧
القسم الثاني ٥٠١
الشرح والتفسير: أولى الناس بالنّبي ﷺ ٥٠١
الحوادث الأليمة إبان وفاة النّبي ﷺ وبعدها ٥٠٥

الخطبة ١٩٨ .... ٥٠٩
نظرة إلى الخطبة ٥٠٩
القسم الأوّل ٥١١
الشرح والتفسير: احاطة الله العلميّة ٥١١
القسم الثاني ٥١٥
الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات ٥١٥
القسم الثالث ٥٢٣
الشرح والتفسير: فضل الإسلام ٥٢٣
القسم الرابع ٥٣١
الشرح والتفسير: ربيع الإسلام ٥٣١
اجابة عن سؤال: ٥٣٣
تأمّل: ربيع النبوّة ٥٣٤
القسم الخامس ٥٣٧
الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم ٥٣٧
تأمّلات ٥٤٦

١. عظمة القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام ٥٤٦
٢. العلماء الأجانب والقرآن ٥٤٨

ﮓﮔ

الخطبة ١٩٩ .... ٥٥١
نظرة إلى الخطبة ٥٥١
القسم الأوّل ٥٥٣
الشرح والتفسير: الأهميّة القصوى للصلاة ٥٥٣
تأمّل: دور الصلاة في تربية الإنسان ٥٥٨
القسم الثاني ٥٦١
الشرح والتفسير: بركات الزكاة ٥٦١
تأمّل: الزكاة؛ ركن مهم في المجتمع الإسلامي ٥٦٣
القسم الثالث ٥٦٥
الشرح والتفسير: أداء الأمانة ٥٦٥
تأمّلان ٥٦٧
١. نقطة مهمّة ٥٦٧
٢. أفضل علامات الإيمان ٥٦٨
القسم الرابع ٥٧١
الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة ٥٧١

ﮓﮔ

الخطبة ٢٠٠ .... ٥٧٣
نظرة إلى الخطبة ٥٧٣
الشرح والتفسير: السياسة الآثمة ٥٧٥
تأمّل: السياسة الإنسانيّة والسياسة الشيطانيّة ٥٧٧
فهرس ٥٨١

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم/ ١١٥٤٠٩
التاريخ/ ٢٠١٦/٧/٢٩

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

00961 3 13 73 73

00961 70 69 29 12

00961 70 70 45 67